مايكل بيجنت
MICHAEL BAIGENT

ريتشارد لي
RICHARD LEIGH



فرسان الهيكل والمحفل الماسوني

(بريطانيا منبت الباطنية الصهيونية العالمية)

أسرار الماسونية



ترجمة وتعليق: محمد الواكد

مراجعة وتدقيق: د. حسن الباش



فرسان الهيكل
و
المحفل الماسوني

نحو فكر حضاري متجدد

دمشق
عاصمة الثقافة العربية 2008

الكتاب: فرسان الهيكل و المحفل الماسوني
(بريطانيا منبت الباطنية الصهيونية العالمية)
أسرار الماسونية
تأليف: مايكل بيجنت ــ ريتشارد لي
ترجمة وتعليق: محمد الواكد
مراجعة وتدقيق: د. حسن الباش

الإصدار الأول 2008 م
أيلول ـ سبتمبر
صفحات للدراسات والنشر
عدد النسخ: 1000
عدد الصفحات: 352
التدقيق اللغوي: مظهر اللحام
الغلاف: م. جمال الأبطح



سورية ــ دمشق ــ ص.ب: 3397
هـاتـف: 095 13 22 11 00963
تلفاكس: 013 33 22 11 00963
www.darsafahat.com
info@darsafahat.com
الإشراف العام: يزن يعقوب
جــوال: 181 418 933 00963
الإخراج الفني: فؤاد يعقوب
جــوال: 764 902 933 00963

مايكل بيجنت
MICHAEL BAIGENT

ريتشارد لي
RICHARD LEIGH

فرسان الهيكل
و
المحفل الماسوني
(بريطانيا منبت الباطنية الصهيونية العالمية)
أسرار الماسونية

ترجمة وتعليق: محمد الواكد

مراجعة وتعليق: د. حسن الباش



العنوان الأصلي للنص

THE TEMPLE
AND THE
LODGe

INSIDe FREEMASONRY

MICHAEL BAIGENT

&

RICHARD LEIGH

وُلـد مايكـل بيجنـت في نيوزيلنـدا عـام 1948م, وحـصل عـلى شـهادة في علـم الـنفس مـن جامعـة كانتربوري، كريستشرش (في نيوزيلندا)، وقد عاش في انجلترا منذ عام 1976م.

درس ريتشارد لِي في جامعة تافتس في بوسـطن، وفي جامعـة شـيكاغو, وفي جامعـة ولايـة نيويـورك (ستوني بروك).

الفهرس

كلمة لا بد منها

ليس مستغرباً إذاً أن تقوم السياسة الأميركية كلية على دعم الصهيونية والكيان الإسرائيلي المغتصب بكل ماتملك من قدرات عسكرية وسياسية واقتصادية.

فهذا الكتاب يوصلنا إلى حقيقة تأسيس الولايات المتحدة، تلك الحقيقة التي تكشف أن الماسونية بدأت من هناك من بريطانيا، ثم جعلت الأرض الجديدة (أمريكا) مستعمرات ماسونية بدقة.

ومن هنا يستطيع أي قارىء لهذا الكتاب أن يكتشف سر التحالف العقدي بين اليهودية والبروتستانتية الأصولية في أمريكا وبعض بلدان أوروبا.

يحاول الكتاب أن يبعد الحديث عن هذا التحالف بين الصهيونية البروتستانتية والصهيونية اليهودية، لكن التاريخ يثبت أن المهاجرين الأوائل إلى أمريكا كانوا في معظمهم من الماسونيين المتحالفين مع اليهودية قبل تبلور الحركة الصهيونية السياسية، لذلك لم يثبت أنه في لحظة من اللحظات أن تخلت الولايات المتحدة عن سياسة الكيان الصهيوني الغاصب في الاغتصاب والتوسع وحرب الإبادة بحق الشعب الفلسطيني والعربي عموماً.

وإذ نسلط الضوء على أكثر من خمسمئة سنة من التطورات الخاصة بفرسان الهيكل والماسونية الأمريكية ذات الجذور البريطانية فإننا نقدم للقارئ العربي هذا الكتاب، لأنه أكثر من تاريخ وأكبر من وثيقة، يدمغ الماسونية بدمغة الحركة الباطنية المدمّرة التي تسعى في النهاية لتحقيق حلمها بهدم المسجد الأقصى وإقامة الهيكل المزعوم على أنقاضه متحالفة مع الاحتلال الصهيوني الماسوني العالمي.

د. حسن الباش

مقدمة المترجم

يتحدث الكتاب عن الماسونية, ويربط نشوءها بفرسان الهيكل، وهذا موجز يذكر الأفكار الأساسية المتعلقة بنظام فرسان الهيكل الذي كان ذِكره يدب الرعب في النفوس في القرون الوسطى.

هذا النظام كان يُسمى قبل أن يجري تأسيسه في عام 1118م نظام فرسان السيد المسيح وهيكل سليمان، الفقراء، مؤسسه هو «هيوغز دو باين»، من نبلاء شمبانيا. هيوغز وثمانية من رفاقه مثلوا أمام ملك القدس «بودوين الأول» الذي قام أخوه الأكبر «غودفروي دو بلويون» بأسر أورشليم قبل تسع عشرة سنة, بودوين استقبلهم بترحيب كبير، وكذلك بَطْرِيَرْك القدس, الهدف المعلن لوجود فرسان الهيكل هو أن يحافظوا بكل ما أوتوا من قوة على سلامة الطرق الرئيسة والفرعية وأمنها, مع «اهتمام خاصّ بحماية الحجاج»، وكان هذا الهدف جديراً جداً بالاهتمام كما يبدو, حتى إن الملك أخلى لهم جناحاً كاملاً في القصر الملكي، ووضعه تحت إمرته، انتقل فرسان الهيكل إلى ذلك المكان الفاخر مع أنهم أقسموا على الفقر, مساكنهم بُنيت على الأسس القديمة لهيكل سليمان، ومن هنا اشتقّ النظام الجديد اسمه.

تسع سنوات لم يضم الفرسان التسعة أي مرشّحين جدد إلى نظامهم, ويُزعم أنهم كانوا يعيشون في فاقة, فاقة شديدة حتى إن أختامهم الرسمية تُظهر فارسين, يركبان على حصان واحد، دلالة على أنهم ليسوا إخوة فقط، بل هم أيضاً على درجة عالية من الفقر, تمنعهم من ركوب مطية كلّ منهم على انفراد, هذا النمط من الأختام يعدّ الأكثر شهرة وتميزاً في شعارات فرسان الهيكل، مع أنهم في الحقيقة لم يكونوا فقراء قط.

في تلك الفترة كان هناك مؤرخ ملكي رسمي, موظف لدى الملك, اسمه «فولك دو شارتر»، فولك لم يذكر أي إشارة, ولو عن بعد إلى فرسان الهيكل، في الحقيقة هناك صمت كبير بشأن نشاطات فرسان الهيكل في أثناء الأيام الأولى من وجودهم, على نحو مؤكد ليس هناك سجل في أي مكان -ولا حتى مؤخراً- عن قيامهم بأي عمل لحماية الحجاج, والمرء لايمكنه إلا أن يتعجب كيف يمكن عدداً قليلاً جداً من الرجال أن يقوموا وحدهم بمهمة عظيمة كهذه, تسعة رجال لحماية الحجاج على كلّ طرق الأرض المقدّسة!

فقط تسعة! وكلّ الحجاج! إن كان هذا هدفهم، فلا بد أن يتوقع أحدنا أنهم سيستقبلون المزيد من المحاربين ويجنّدونهم، مع ذلك هم لم يدخلوا أياً من المرشّحين الجدد إلى النظام مدة تسع سنوات.

مع هذا بدا خلال عقد من الزمن أن شهرة فرسان الهيكل قد توسعت لتصل إلى أوروبا, تكلّمت السلطات الكنسية كثيراً عنهم, ومجّدت التزامهم المسيحي, وأصبح فرسان الهيكل نخبة المسيحيين وأعظمهم مجداً.

عاد معظم الفرسان التسعة إلى أوروبا في عام 1127م, وسط ترحيب عظيم بالانتصار، نظّمه القدّيس بيرنارد, في يناير/كانون الثّاني عام 1128م عُقد مجلس كنسي، وجرى الاعتراف رسمياً بفرسان الهيكل نظاماً دينياً سياسياً، ومُنح هيوغز دو باين منصب السيد الأعظم, هو وأتباعه أصبحوا يُعرفون بـ «الرهبان المحاربين» و«الجنود السريين»، كما جرت تسميتهم «ميليشيا السيد المسيح», القدّيس بيرنارد وضع للفرسان قانوناً عليهم الالتزام والتصرف وفقه, فرسان الهيكل أقسموا على الفاقة، والعفة، والطاعة, ألزموا حلق شعرهم, وحُرّم عليهم حلق لحاهم, حتى يتمكنوا من تمييز أنفسهم. الحمية، واللباس، وسمات أخرى من الحياة اليومية نُظّمت بصرامة وفق التقليد الرهباني والعسكري, كلّ أعضاء النظام ألزموا لبس الرداء الأبيض من معاطف وعباءات، وتطور ذلك بسرعة ليصل إلى الزي الذي اشتهر به فرسان الهيكل, «غير مسموح لأي شخص أن يلبس الرداء الأبيض، أو أن يمتلك عباءات بيضاء، باستثناء فرسان السيد المسيح», هذا ما نصّ عليه قانون النظام الذي أسهب في الأهمية الرمزية لهذه الملابس: «إلى كلّ الفرسان المعروفين نُقدِّم في الشتاء والصيف الملابس البيضاء, إن لم يحصلوا عليها من قبل، إذ إن أولئك الذين اختاروا أن يهجروا الحياة المظلمة يعلمون أنّهم بذلك سيودِعون أنفسهم إلى خالقهم بحياة بيضاء نقية», وكان للنظام أيضاً تسلسل هرمي للمناصب.

كان السلوك في ساحة المعركة صارماً جداً، فإن أُسر مثلاً أحد فرسان الهيكل، لا يُسمح له بأن يطلب الرحمة أو الفدية, وبذلك هم مرغمون على القتال حتى الموت, كذلك لا يُسمح لهم بالتراجع إلا إن كان عدد الأعداء ثلاثة إلى واحد.

أصدر البابا إنوسنت الثّاني في عام 1139م مرسوماً بابوياً ينص على أن فرسان الهيكل لا يدينون بالولاء لأي سلطة دنيوية أو كنسية, عدا البابا نفسه, أي أصبحوا مستقلين كلياً عن كلّ الملوك والأمراء والأساقفة، وعن التدخل من كلتا السلطتين

السياسية والدينية, في الواقع لقد أصبحوا يحكمون أنفسهم بأنفسهم، وأصبحوا إمبراطورية دولية مستقلة ذاتياً.

توافد الشباب من كل أنحاء أوروبا من العوائل النبيلة, لكي ينضمّوا إلى ذلك النظام، ولذلك حصل النظام على تبرّعات ضخمة من مال وسلع وأرض وعقارات من كلّ قطاع مسيحي، ولقبول انضمام العضو عليه أن يتنازل عن كلّ أملاكه, وهكذا توسّع النظام بسرعة استثنائية وعلى نحو كبير, في كل أنحاء أوروبا وفي الأرض المقدّسة ومناطق في الشرق, في الحقيقة بلغت أملاكهم في أوروبا نحو تسعة آلاف قلعة وقصر أو عزبة في القرن الثالث عشر.

تبنّى فرسان الهيكل في عام 1146م شعار الصليب الأحمر المشهور الذي أصبح يُزين عباءاتهم, رافق الفرسان الملك الفرنسي لويس السّابع في الحملة الصليبية الثانية, حيث أسّسوا لأنفسهم سمعة خاصة بالحماسة العسكرية المقترنة بالتهور الجنوني والغطرسة الشديدة أيضاً, على أي حال كانوا القوة القتالية الأكثر انضباطاً في العالم آنذاك, الملك الفرنسي نفسه كتب أنّ الفضل يعود إلى فرسان الهيكل فقط في الحفاظ على الهدوء والإدارة في الحرب الصليبية الثانية, وحالوا دون تحولها إلى كارثة حتمية.

أصبح فرسان الهيكل في أثناء السنوات المئة التالية قوّة ذات تأثير دولي، كانوا على نحو ثابت ذوي مناصب دبلوماسية عالية المستوى بين النبلاء والملوك في كل أنحاء العالم الغربي والأرض المقدّسة.

ولم ينحصر تدخّل نظام فرسان الهيكل السياسي في المسيحية وحدها، فقد عقد ارتباطات وثيقة بجماعة «الحشاشين» أو «القتلة», وهي طائفة مشهورة من القتلة الذين كانوا يصلون إلى مآربهم بعمليات الاغتيال، وكان زعيمهم حسن بن صباح رفيق الشاعر عمر الخيام ونظام المُلك في المدرسة، ولقب نفسه شيخ الجبل أو السيد الأعظم، وهذه الطائفة ظهرت عام 1094م عندما احتل حسن ومن معه قلعة الموت الجبلية على بحر قزوين في إيران, وأسس طائفة الإسماعيليين الشيعية الخاصة به, وأصبحت تُعرف باسم الحشاشين، وكان هدفهم الحصول على السلطة تحت ستار الدين, والطريقة هي الاغتيال إجمالاً لكل معارضيهم، تعاون الحشاشون مع فرسان الهيكل, ويظن أنهم مارسوا بعض النفوذ عليهم بصياغة ــ أو على الأقل اقتراح ــ بعض شعائرهم وعقائدهم السرية, والحديث عن الحشاشين هو قصة أخرى, لا مجال لذكرها الآن.

على كل حال يقال إن فرسان الهيكل عندما كانوا في القدس سرقوا الكنز المقدس، ذلك الكنز الذي لا يُقدر بثمن، والذي كان يضمّ كنوز بني إسرائيل من ذهب ومخطوطات على قدر من الأهمية كما يقال, تحتوي على تسلسل الأنساب الملكية منذ عهد النبي داوود أو قبل, فهي على كل حال سرية ومجهولة, خُبئت تلك الكنوز في مكان, يظن أنه في قرية رين لي شاتو التي في قمة أحد تلال سلسلة جبال بيرينه التي ترسم الحدود بين فرنسا وإسبانيا, تلك القرية كان يقطن فيها راهب, يُدعى سونير, توصّل إلى مخطوطات, قادته إلى كنز دفين حولته من راهب فقير جداً إلى أحد كبار أثرياء زمانه.

هذه القصة أثارت زوبعة أدبية كبيرة في كل أنحاء العالم, وأدت إلى ظهور الكثير من البرامج والأفلام والمؤلفات والكتب, ومنها كتاب «شيفرة دافنشي» الذي اعتمد فيه كتاب «الدم المقدس والكأس المقدسة» الذي يعدّ المرجع الأقدم عن هذا الموضوع[1].

أما الكتاب فهو كفيل بتتمة تلك القصة الشائعة التي ستتحدث عن زمان القضاء على فرسان الهيكل ومكانها وأسبابها، تلك القوة العظمى التي سيطرت مرة على العالم، وكيف انتهى بهم المطاف إلى الهرب آخذين معهم كنوزهم التي ملأت نحو سبع عشرة سفينة كما يقال, والتي لا يعلم أحد مصيرها حتى الآن!, أين اختفى أسطول فرسان الهيكل الشهير؟, وأين اختفى كنزهم؟, هل ساهموا في منفاهم بتأسيس الماسونية؟, وهل وصل كنزهم إلى الماسونية؟.

وأخيراً ما علاقة الماسونية بالاضطرابات التي عمت أوروبا في القرون الماضية كالثورة الفرنسية مثلاً؟, هل للماسونية أي صلة بتأسيس أمريكا؟.

هذا ما سنعرفه في هذه الجولة التي آمل أن تنال إعجابكم, وأن يكون فيها ما هو متعة وخير إن شاء الله.

المترجم

1- المزيد من التفاصيل والاكتشافات الجديدة في كتاب قمت بترجمته لدار صفحات، عنوانه «المكان المقدس» للباحث والعالم هنري لِنكولن، والذي خُصص كاملاً للحديث عن سونير وعن قرية رين لي شاتو وذلك الكنز الغامض...

إيضاحات

المؤلفون والناشرون يودّون أن يشكروا التالية أسماؤهم لتقديمهم الصور: مكتبة بودليان ـ أكسفورد (23)ـ المكتبة البريطانية ـ لندن (24، 36), المحفل الكبير للماسونيين الأحرار والرسميين في بنسلفانيا (34، 35), جاك ماكدونالد من شركة «Visual Impact Portobello» للصور (29، 30، 31), متحف المحفل الكبير المتّحد في انجلترا (32، 33), مجموعة تاريخ الهيكل المحلي (13), كلّ الصور الأخرى من مايكل بيجنت.

اللوحات

17. عمود الصانع ـ مصلى روزلين.

18. أمثلة لـ «الرجل الأخضر» ـ مصلى روزلين.

19. شخصيات ـ مصلى روزلين.

20. السيد المسيح مصمماً معمارياً مقدساً ـ من الإنجيل الأخلاق «Bible moralisée».

21. الخالق مصمماً معمارياً مقدساً ـ إنجيل «Holkham».

22. شاهد قبر ـ في أثليت[1] في فلسطين.

23. كنيسة الهيكل ـ قرب أدنبرة.

24. قبور من القرن السابع عشر، كنيسة الهيكل ـ قرب أدنبرة.

25. سيوف ربما استُعملت في شعائر انتساب البارون فون هوند.

26. سيف ألكساندر دوتشار.

27. حلي نجمية لفرسان الهيكل الماسونيين الانجليز.

28. مئزر كان يستخدمه فرسان الهيكل الماسونيون الانجليز.

29. حزام ماسوني لبسه بنيامين فرانكلين.

30. مئزر ماسوني لبسه جورج واشنطن.

31. مصور مدينة واشنطن عام 1792م.

المصورات والمخطّطات

1) ـ اسكتلندا وإيرلندا في عهد روبرت بروس.

2) ـ علم الأنساب يُظهر الصلة بين روبرت بروس والملوك الأقدم لاسكتلندا.

3) ـ طريق فرسان الهيكل الممكن في اسكتلندا عام 1307 م.

4) ـ الحرب الفرنسية الهندية بين عامي 1754م ــ 60.

5) ـ حرب الاستقلال الأمريكية.

1ــ أثليت هي عثليث، وهي قرية صغيرة قرب مدينة حيفا، وهي من المناطق الكنعانية الأثرية، واسمها كنعاني قديم ــ (المدقق).

تقديم

أصبحت الماسونية في بريطانيا في أثناء السنوات القليلة الماضية موضوعاً مفضّلاً للنقاش ومسألة جدلية مرغوبة في الحقيقة ميدان عروض مضايقة الماسونيين أصبح تسلية دموية تامّة هنا، إلى وصول تلك التسلية إلى مضايقة كهنة في إيرلندا، بغزارة مخفية تقريباً وبصياح الصياد للتحذير من ظهور الثعلب تنقضّ الصحف على كلّ «فضيحة ماسونية جديدة»، وعلى كلّ ادعاء جديد على «الفساد الماسوني»، المجمع الكنسي يتأمّل انسجام الماسونية مع الديانة المسيحية، لكي تنخس المعارضين السياسيين، المجالس المحليّة تقدم الحركات التي ترغم الماسونيين على الإعلان عن أنفسهم.

في الحفلات تظهر الماسونية على نحو مفاجئ وبتكرر متزايد، وربما ما يكشفها فقط هو دوائر المخابرات البريطانية ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية، التلفزيون أيضاً يقدّم مساهمته، فهو يُجري على الأقل حلقة دراسية واحدة في آخر الليل، تتعلق بهذا الموضوع، ويستطيع في الواقع دسّ آلاته التصويرية في عرين الوحش الأعظم، في المحفل الماسوني الكبير، عند الإخفاق في العثور على التنين، يشعر المعلّقون بالغضب على نحو أكثر من الراحة، لأنهم بطريقة ما قد خُدعوا، في هذه الأثناء طبعاً يبقى الناس مفتونين، لا يحتاج المرء إلا إلى أن ينطق كلمة «الماسونية» في حانة أو مطعم أو ردهة فندق أو مكان عامّ آخر لكي ترى الرؤوس تلتفت، والوجوه تنظر بحرص والآذان تهيئ نفسها للتنصت، كلّ «كشف» جديد يجري الإنصات إليه بشوق، بل بغبطة، وعادة يكون ذلك محصوراً في الثرثرة الملكية، أو لدى الشهوانيين.

هذا الكتاب ليس كشفاً، هو لا يكرس نفسه في دور الماسونية أو نشاطها في المجتمع المعاصر حقيقياً كان أم خيالياً، هو لا يحاول تحرّي ادعاءات المؤامرة أو الفساد، وهو طبعاً ليس اعتذاراً للماسونية، نحن أنفسنا لسنا ماسونيين، وليس لنا أي مصلحة شخصية في تبرئة هذه المؤسسة من التهم الموجّهة إليها، توجهنا كان تاريخياً كلياً، سعينا لتعقب الأسبقيات الماسونية، وللتوصل إلى أصولها الحقيقية، ولتخطيط تطورها وتقدمها، ولتقويم تأثيرها في الثقافة البريطانية والأمريكية في أثناء سنوات تشكلها الخاصة الذي توج في أواخر القرن الثامن عشر، حاولنا أيضاً أن نعالج مسألة أن الماسونية التي يُنظر إليها في الوقت الحاضر على نحو غريزي بالشكّ والتهكم والسخرية والتنازل وصلت إلى التوسع الذي حققته، والتي لا تزال تحققه مع مقتها وذمّها.

في كل الأحوال أجبرنا في عملنا حتماً على مواجهة بعض الأسئلة التي تراود الفكر العامّ اليوم، والتي تُصدرها في أغلب الأحيان أجهزة الإعلام, هل الماسونية فاسدة؟، وعلى درجة أكبر من الفساد، هل هي مؤامرة دولية واسعة مكرّسة لنتيجة شنيعة وغامضة وسرية, هذا إن كانت السرية تعني الخبث؟، هل هي قناة لمصلحة وسيط مؤثر في قلب أماكن مثل مدينة لندن[1] والشرطة وفوائده ونفوذه ؟، وربما ما هو أهم من كل شيء، هل هي معادية حقاً للمسيحية؟، أسئلة كهذه ليست وثيقة الصلة مباشرة بالصفحات التالية، لكنّها ذات قلق عامّ معقول, لذلك سيكون من غير الملائم أن نعرض هنا الأجوبة التي ظهرت في أثناء دراساتنا.

قد يحظى المرء بالقليل من الحكمة عندما يصرخ بالفرنسية «Et tu, Brute!»، بدلاً من أن يومئ على نحو حزين قائلاً: «نعم، أظن ذلك»، نظراً إلى الطبيعة البشرية سيكون مفاجئاً إن لم يكن هناك نوع من الفساد في المؤسسات العامّة والخاصّة، وإن لم يكن بعض من هذا الفساد ضمن الماسونية، في كل الأحوال سنناقش أن مثل هذا الفساد يُخبر عن الماسونية ذاتها بما هو أقل مما يخبره عن الطرق التي يجري فيها استغلال الماسونية كغيرها من المؤسسات المشابهة. الطمع، العظمة الذاتية، الانحياز وغير ذلك من هذه الأمراض كانت مستوطنة في المجتمع الإنساني منذ نشوء الحضارة، لقد عملوا خلال كلّ القنوات المتوافرة واستفادوا من قرابة الدمّ والماضي المشترك والروابط التي تشكّلت في المدرسة أو في الجيش أو الاهتمام المتبادل أو الصداقة فقط، وأيضاً بالانتماء العرقي والديني والسياسي.

الماسونية متّهمة، على سبيل المثال، بامتلاكها نظاماً دينياً خاصّاً بها, في الغرب المسيحي وحتى وقت متأخر جداً يمكن الإنسان أن يتوقّع من زملائه النظام الديني نفسه تماماً, وذلك ببساطة استناداً إلى عضويته في «الماسونية» المسيحية, أي استناداً إلى عدم كونه هندوسياً أو مسلماً أو بوذياً أو يهودياً، الماسونية هي إحدى القنوات الكثيرة, حيث الفساد والانحياز يمكن أن يزدهرا، ولكن لو لم تكن الماسونية موجودة, فمع ذلك سيزدهر الفساد والانحياز، الفساد والانحياز يمكن أن يكونا في المدارس، في الوحدات العسكرية، في الشركات، في المنشآت الحكومية، في الأحزاب السياسية، في الطوائف والكنائس، وفي

1ـ مدينة لندن هي القسم الأقدم من العاصمة البريطانية لندن، وهي مركز النشاط المالي والتجاري وبؤرته، عدد السكان: 142. 4 (1991م)، المساحة: 6. 2 كيلومتر مربَع, المترجم.

المنظمات الأخرى التي لا تعد ولا تحصى،لا شيء من هـذا يـستوجب الـشجب جوهريـاً في ذاتـه,لا أحد يفكّر في إدانة كامل الحزب السياسي، أو كامل الكنيـسة، لأن بعـضاً مـن أعـضائها فاسـدون، أو لأنهـا تُظهر تعاطفها مع أعضائها على نحو أكثر من الغرباء, لا أحد يدين العائلة, لأنها تميل إلى محبة الأقارب.

ضمن أيّ فهم أخلاقي للمسألة من الضروري تطبيق فهـم علـم الـنفس الأولّي، وقليـل مـن الأمـور الطبيعية, المؤسسات تكون مستقيمة, أو تستحق اللوم وفقاً لما يُبديه أفرادها فقـط, إن جـرى عـلى نحـو مطلق وجوهري عدّ مؤسسة ما فاسدة، فإن ذلك يكون صحيحاً إن كانت المؤسـسة تجنـي أي فائـدة مـن فساد أعضائها, هذا قد يجري تطبيقه مثلاً على حالات الدكتاتورية العسكرية, أو على استبداد ما أو عـلى حزب معين، ولكن من الصعب تطبيق ذلك على الماسـونية, لا أحـد يقـترح أنّ الماسـونية كـسبت أيّ شيء إطلاقاً من تجاوزات الإخوة ضمنها, على العكس التجاوزات الماسونية الفردية هي أنانيـة وشخـصية كليّـاً، الماسونية كاملة تعاني هذه التجاوزات، كما هو الحال في معاناة المسيحية من تجاوزات أتباعها، لـذا ففـي مسألة الفساد الماسونية ليست مذنبة في ذاتها، بل على العكس هي ضحيّة أخرى للرجال العديمي الـضمير الذين استعدوا لاستغلالها، إضافة إلى استعدادهم لنهايتهم[1] ولا شيء سوى ذلك.

السؤال الأكثر صحة عن التوافق بين الماسونية والمسيحية أو عدمه, هذا السؤال بطبيعته التامة على الأقل يدلّ على محاولة مواجهـة مـا تعنيـه الماسـونية فعـلاً، بـدلاً مـن مواجهـة الطـرق التـي يمكـن فيهـا استغلالها أو انتهاكها.

في كل الأحوال هذا السؤال أيضاً غير منطقي في النهاية, فكما هو مشهور لا تقصد الماسونية أن تكون ديناً، إنها تمسّك ببعض المبادئ أو «الحقائق» لاأكثر، والتي ربما على نحو ما يجري تفسيرها «دينية» أو ربما «روحية»، قد تتضمن نوعاً من علم المنهج، لكنّها لا تتظاهر بتضمنها لعلم اللاهوت، هذه الميزة ستصبح أكثر وضوحاً في الصفحات التالية.

1 ــ يحمّل الكاتب بعض الافراد الماسونيين التجاوزات التي تسيء للماسونية، وهو بـذلك يـبرئ الماسـونية كلهـا، بيـنما هـي أساساً تقوم على مبدأ يهودي فاسد قصده إلغاء الأديان ونشر الإباحية وتهديم الأخلاق، ونظام الماسـونية الـصارم لايـسمح لأحد أن يتجاوز مبادئها وأهدافها، وإذا تجاوز أحد ذلك فنهايته التصفية والقتل، وإذا كان مايعدّه الكاتب تجـاوزاً أخلاقيـاً لدى بعض الأفراد الماسونيين فإنه في الحقيقة ليس تجاوزاً، بل هو من ضمن عملها وسلوكها، (المدقق).

الآن سيكون كافياً إثارة فكرتين، ترتبطان بالكراهية الراهنة للماسونية من الكنيسة الانجليكانية, وسط انشغال الكنيسة الحالي بالماسونية بصفوفها، يجري عموماً إهمال هاتين الفكرتين، فكلتاهما حاسمة[1].

الفكرة الأولى: تعايشت الماسونية والكنيسة الانجليكانية على نحو ملائم منذ بداية القرن السابع عشر, في الحقيقة كان ذلك أكثر من تعايش فقط, لقد عملتا ترادفياً, بعض القساوسة الانجليكانيين الأكثر أهمية في القرون الأربعة الأخيرة ظهروا من المحفل الماسوني, بعض من الماسونيين البلغاء والأكثر تأثيراً ظهروا من المناصب الكنسية, لم يسبق للكنيسة قبل السنوات الأخيرة العشر أو الخمس عشرة أن ندّدت إطلاقاً بالماسونية، أو أدركت إطلاقاً عدم التوافق بين الماسونية ومبادئها اللاهوتية الخاصة, الماسونية لم تتغيّر, الكنيسة تجادل بأنّها لم تتغيّر أيضاً على الأقل في عقائدها الأساسية، إذاً لماذا يجب أن يكون هناك نزاع الآن, إن لم يكن هناك أيّ نزاع في الماضي؟، جواب ذلك السؤال، كما نقترح، يتعلق بالماسونية على نحو أقل من تعلقه بمواقف بعض الكهنة المعاصرين وعقلياتهم.

الفكرة الثانية: وهي تستحق الحسبان، إن لم يكن هناك شيء آخر، هي حاسمة على درجة أكبر، إنّ الزعيم الرسمي للكنيسة الانجليكانية هو الملك البريطاني, منذ أن خلع جيمس الثّاني عام 1688م، فإن مكانة الملك اللاهوتية أو «أوراق الاعتماد» لم يسبق لها أن خضعت للمساءلة، ومع ذلك منذ بداية القرن السابع عشر اشترك الحكم الملكي البريطاني أيضاً في الماسونية على نحو مباشر, على الأقل ستّة ملوك، إضافة إلى الكثير من الأمراء بالدّم, والكثير من زوجات الأمير كنّ ماسونيات, هل يمكن أن يتحقق ذلك إن كان هناك في الواقع نوع من عدم التوافق اللاهوتي بين الماسونية والكنيسة؟ لمجادلة عدم توافق كهذا يعني تفنيد النزاهة الدينية للحكم الملكي في الواقع.

1ـ ليس هناك كراهية بين الماسونية والكنيسة الانجليكانية (البروتستانت)، لأن الأهداف الكبرى للحركتين هي تمجيد اليهود، وإعادة بناء الهيكل ودعم (إسرائيل) بكل القدرات، (المدقق).

المقدمة

في ربيع عام 1978م، بينما كنا نبحث في موضوع فرسان الهيكل لعرض برنامج تلفزيون وثائقي، أصابتنا الدهشة من تاريخ النظام في اسكتلندا، التوثيق المتبقي كان ضئيلاً، ولكن اسكتلندا امتلكت ثروة أعظم كثيراً عن الأسطورة والتقاليد المتعلقة بفرسان الهيكل مما تمتلكه معظم الأماكن الأخرى, كان هناك أيضاً بعض الألغاز الحقيقية جداً , الألغاز غير المفسرة، في غياب السجلات الموثوقة، حاول المؤرخون التقليديون على نحو نادر تفسيرها، إن تمكنا من اختراق هذه الألغاز، وتمكنا من العثور على جوهر الحقيقة التي أدت إلى هذه الأساطير والتقاليد، عند ذلك ستكون النتائج هائلة، ليس فقط فيما يتعلق بتاريخ فرسان الهيكل، بل ما هو أبعد من ذلك كثيراً.

امرأة عرفناها انتقلت مؤخراً لتسكن مع زوجها في أبردين[1], في عودة لزيارة لندن أعادا علينا رواية قصّة كانا قد سمعاها من رجل آخر، رجل كان قد عمل فترة من الوقت في فندق في مركز اجتماعي سياحي صغير، سابقاً كانت بقعة سقاية للفيكتوريين[2] على الشاطئ الغربي لبحيرة «او» في مرتفعات آرغايل, بحيرة «او» بحيرة داخلية كبيرة، تبعد نحو خمسة وعشرين ميلاً عن أوبن, البحيرة ذاتها يبلغ طولها نحو ثمانية وعشرين ميلاً, وذات عرض متفاوت يتراوح بين الميل والنصف ميل في الجزء الأكبر منها, تتضمن تماماً نحو أربع وعشرين من الجزر ذات الأحجام المختلفة، بعضها طبيعي، والآخر صناعي، وكانت سابقاً متصلة بالشاطئ بطرق حجرية وخشبية, وهي الآن مغمورة بالمياه, بحيرة «او» كبحيرة «إنيس» يُفترض أنها تحتوي على وحش، اسمه «بيثاش مور»، وُصف كمخلوق شبيه بثعبان كبير, له رأس حصان واثنتا عشرة ساقاً مكسوة بالحراشف.

على إحدى الجزر طبقاً للقصّة التي سمعتها مخبرتنا كان هناك عدد من قبور فرسان الهيكل، ذلك غير مفهوم ضمن سياق التاريخ المعترف به، لأن فرسان الهيكل لم يُعرف بأنهم كانوا نشطاء في المنطقة المحيطة بآرغايل أو في المرتفعات الغربية, علاوة على ذلك، على الجزيرة نفسها يُفترض أنه كان هناك أنقاض مركز اجتماعي لفرسان

1ـ مدينة وميناء ومركز صناعي في شمال شرق اسكتلندا, تُعرف بمدينة الغرانيت (الصوان), لأن الكثير من أبنيتها مبنية من الغرانيت, المترجم.

2ـ فيكتوري منسوب إلى الملكة فكتوريا الانكليزيّة, المترجم.

الهيكل، وهو مركز اجتماعي لم يرد في أيّ من قوائمنا عن أملاك فرسان الهيكل, كما سمعنا بصيغة الغائب، اسم الجزيرة هو شبيه بـ «درع إنيس»، لكنّنا لم نتمكن من التأكّد من ذلك، فالتهجئة لا تزال ناقصة.

كانت هذه الأجزاء من المعلومات، مع أنّها غير مؤكَّدة ومبهمة على نحو مثير للخيبة مثيرة كـالكثير من الباحثين قبلَنا، من المألوف لنا الروايات غير الواضحة عن فرق من فرسان الهيكل نجت من الاضـطهاد والانحلال الرسمي لنظامهم بين عامي 1307م و1314م. من المألوف لنا تلك القصص التي تتحدث عن هذه الجيوب مـن الفرسـان الـذين هربـوا مـن معـذّبيهم إلى القـارة[1] ضـمن انجلـترا، ووجـدوا مـأوى لهـم في اسكتلندا، وعلى الأقل فترة من الوقت، حافظوا على شيء من أسسهم الأصلية, لكنّنا كنّـا مـدركين أيـضاً أنّ أكثر هذه التقاليد نشأت مع ماسونيي القرن الثامن عشر الذين أرادوا أن يؤسـسوا لأنفـسهم نـسباً يعـود مباشرة إلى فرسان الهيكل قبل أربعة قرون من ذلك، في النتيجة كنا نزّاعين كثـيراً إلى الـشك, عرفنـا أنـه لا وجود لدليل على أيّ بقاء لفرسان الهيكل في اسكتلندا، بل إن الماسونية الحديثـة عمومـاً مالـت إلى رفـض كلّ الادعاءات بأنها ابتكار وأمنيات محضة لا أكثر.

حتى الآن حكاية الجزيرة في البحيرة تواصل مطاردتنا, في كل الأحـوال خطّطنـا لرحلـة استكـشافية إلى اسكتلندا في ذلك الصيف، ولو أنها بعيدة إلى الشرق, ألم يكن مفترضاً بنا أن نقوم بالالتفـاف بـتروٍّ غربـاً، ولـو لتفنيد القصّة التي سمعناها، وطردها على نحو نهائي من عقولنا؟, وفقاً لذلك قرّرنا تمديد رحلتنا بـضعة أيـام والعودة من طريق آرغايل.

عندما انحدرنا إلى بحيرة «او» من الشمال رأينا مباشرة عند ذروتها قلعة كامبل الكلشورني[2] الكبيرة من القرن الخامس عشر مغطاة بالتَّنُّوب[3], مضينا إلى الأسفل في الجانب الشرقي للبحيرة, بعد نحو خمسة عشر ميلاً ظهرت جزيرة عن يميننا، ربما تبعد خمسين ياردة عن الشاطئ, عليها تنتصب أنقاض قلعة من القرن الثالث عشر، قلعة «إنيس كونل» التي جرى احتلالها عام 1308م تقريباً من الحليف والنسيب والصديق

1ـ القارة (the Continent) تُطلق على البر الأوروبي الرئيس, عدا الجزر البريطانية, المترجم.

2ـ نسبة إلى كلشورن في آرغايل في اسكتلندا, المترجم.

3ـ نوع من النباتات الدائمة الخضرة ذات أوراق إبرية الشكل, المترجم.

المقرّب لروبرت ذا بروس[1]، إنه السّير نيل كامبيل، والتي كانت قرناً ونصفاً بعد ذلك الكرسي الأساسي لعشيرة كامبيل, بعد ذلك وعندما جرى بناء القلعة الجديدة في إنفيراري في النهايات العليا لبحيرة فاين تحوّلت قلعة «إنيس كونل» إلى سجن لأعداء عائلة كامبيل، أو كما أصبحت تلك العائلة في ذلك الوقت، إيرلات[2] منطقة آرغايل.

على بُعد ميل جنوب قلعة «إنيس كونل» كان هناك جزيرة أصغر، مرئية فقط من الطريق الذي يمر عبر الأشجار والشجيرات التي تزين الشاطئ, عندما توقّفنا كان في وسعنا أن نرى بقايا بناء من نوع ما، وحجارة بدا أنها قبور, على الجانب المعاكس للطريق كانت قرية بورتِنِشيرش, الجزيرة ذاتها، طبقاً للمصورات التي استعنا بها، كانت على نحو متنوع تُدعى «إنيس سي ريش» أو «إنيس سي راماش», توصلنا مباشرة إلى استنتاج أنّ هذه هي الجزيرة التي كنا نبحث عنها، جزيرة «درع إنيس».

الجزيرة تبعد نحو أربعين ياردة عن الشاطئ الذي كان ينتشر عدد من المراكب على طوله، معظمها في مرحلة العمل وفي استعمال منتظم، رغبة في استئجار أحدها والتجديف وصولاً إلى الجزيرة قمنا بالاستفسار في المتجر العامّ في بورتِنِشيرش، هناك، في كل الأحوال صادفنا تهرّباً يثير الفضول، مع أن المنطقة كانت تشبه صورة بطاقة بريدية جميلة، ومع أن المنطقة تعتمد على الأقل على درجة ما من التجارة السياحية بلا شك، إلا أننا لم نشعر بأي طريقة بالترحيب, كنا نُسأل بحرص: لماذا نريد استئجار مركب؟، أجبنا: لاستكشاف الجزيرة, فأخبرنا بأنه ليس هناك أي مركب للأجرة, الناس لا يستأجرون المراكب, هل يمكننا أن نستأجر شخصاً ما مع مركبه ليوصلنا إلى الجزيرة؟، جرى إخبارنا: لا، حتى ذلك غير ممكن، ومن دون الإدلاء بأي تفسيرات أخرى.

كان هذا محبطاً، ولكنه مقنع أكثر بأن جزيرة «إنيس سي ريش» لا بد أنها تحتوي على شيء مهم، تجوّلنا مشياً على الأقدام على طول الشاطئ, خلال الشريط المائي الفاصل تبدو الجزيرة على نحو ساخر قريبة جداً، إنها على بعد رمية حجر، ولكن مع ذلك من الصعب الوصول إليها, كنا نجادل في إمكانية السباحة إليها والبرودة الممكنة

1ــ روبرت بروس (1274م ــ1329م)، محرر اسكتلندا وملكها (1306م ــ1329م)، اسمه الأصلي «روبرت دي بروس»، ولتمييزه من أبيه وجدّه اللذين كانا يحملان الاسم نفسه، جرت تسميته في أغلب الأحيان «روبرت دي بروس الثّامن», يدعى أيضاً روبرت ذا بروس, المترجم.

2ــ الإيرل لقب انكليزي أدنى من مركيز وأرفع من فيكونت, المترجم.

للماء، عندما صادفنا في شمال القرية تماماً زوجين مسنين مع خيمة منصوبة جانب عربة, وبعد تبادل المجاملات العادية دُعينا لمشاركتهما في كأس من الشاي, وكما علمنا هما أيضاً جاءا من لندن, في كل الأحوال خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة هما يأتيان إلى هذه البقعة في كلّ صيف، يركنان عربتهما ويصطادان في بحيرة «او».

داخل عربتهما كان علينا أن نحصر أنفسنا للعبور إلى نهاية الطاولة الطويلة المقعد, على أحد الجانبين كان هناك طاولة أصغر أو مسطح من نوع ما, ربما يُستخدم لتحضير الطعام, على هذا السطح وُضع كتاب قديم، وكان مفتوحاً على صفحة يبدو أنها تُظهر نقشاً على قبر ماسوني، لاحظنا بعض الرموز الماسونية وجمجمة وعظمتين متصالبتين، بعد ذلك أدركنا أنّ ما رأيناه ربما كان « لوحة اقتفاء ماسونية» من النوع الذي استُعمل في القرن الثامن عشر, في أيّ حال من الأحوال استفسرنا على نحو عرضي تماماً عن انتشار الماسونية في تلك المنطقة، عند ذلك جرى إغلاق الكتاب بسرعة, ولكن على نحو رصين, وجرى تجاهل استفسارنا.

سألنا المضيفين: هل كان يمكنهما إخبارنا بأيّ شيء عن الجزيرة, لم يجيبا بالكثير, نعم كان هناك بعض الآثار, ونعم كان هناك بعض القبور، مع أنها ليست كثيرة وليست قديمة، في الحقيقة الزوجان أخبرانا، أغلب القبور كانت حديثة جداً, لكن الجزيرة، كما قالا، يبدو أنها تتصف بنوع من الأهمية الخاصّة, هما لم يخاطرا بشرح ما قد تكون تلك الأهمية, الأجساد، كانت تُجلب هناك للدفن من مسافات شاسعة أحياناً كما ذكرا, أحياناً تأتي عبر الأطلسي من الولايات المتّحدة.

على الأغلب وعلى نحو كبير إن هذا لا علاقة له بفرسان الهيكل من القرن الثالث أو الرابع عشر, مع ذلك هذا كان مدهشاً, طبعاً قد لا يكون ذلك إلا تقاليد للعوائل المحليّة فقط، والذين كان أحفدتهم وفق بعض الشعائر أو التقاليد الرسمية دُفنوا في التربة المحلية، من الناحية الأخرى من الممكن أن يكون هناك شيء أبعد من تلك المسألة، شيء ربما يخصّ الماسونية، وهو الموضوع الذي بدا أن مناقشته أثارت الاشمئزاز لدى المضيفين، كانا يمتلكان مركباً يخصهما، كانا يستعملانه لصيد السمك, سألنا: هل كان يمكننا أن نستأجره، أو هل كان يمكنهما أن يوصلانا إلى الجزيرة, في بادئ الأمر كانا ممانعين إلى حد ما، مكرّرين زعمهما أنّنا لن نجد ما يثير الاهتمام، ولكن أخيراً، ربما بعد أن أصابته العدوى من فضولنا، قرر الرجل إيصالنا, بينما كانت زوجته تُعدّ قدراً آخر من الشاي.

أثبتت الجزيرة أنها مخيبة للأمل, كانت صغيرة جداً، لا يزيد عبورها على ثلاثين ياردة, كانت تحتوي على بقايا مصلى صغير، ولكن تلك البقايا لم تتضمن ما يزيد على بعض أجزاء حائط ناتئ بضع أقدام فوق التربة, لم يكن هناك طريقة للتحقق، في الحقيقة تلك البقايا المُطَحْلَبة المكسوة بالحجارة كانت مرة مصلى لفرسان الهيكل, وكانت صغيرة جداً جداً لتكون دالة على مركز اجتماعي ماسوني.

أما القبور فمعظمها كانت، كما أُخبرنا، ذات تاريخ حديث تقريباً, أقدمها يعود تاريخه إلى عام 1732م، والأحدث للستّينيات, بعض أسماء العائلات التي ظهرت, جيمسن، ماكلوم، سينكلير, على أحد الحجارة، من آثار الحرب العالمية الأولى، كان هناك مربع وبوصلات ماسونية, من الواضح أن الجزيرة لها أهمية للعوائل المحليّة، والذين بعض منهم انتموا إلى الماسونية ربما مصادفة، لكن ليس هناك أي شيء يمكن أن يُنسب إلى فرسان الهيكل، لا شيء على نحو مؤكد لدعم الرواية التي سمعناها عن مقبرة فرسان الهيكل, إن كان هناك أيّ لغز إطلاقاً متعلقاً بالمكان، بدا أنه كان لغزاً محليّاً وثانوياً.

وبعد شعورنا بالإخفاق والإحباط، قرّرنا العثور على نزل للإقامة والفطور تلك الليلة، وأن نجمع أفكارنا، وإن كان في وسعنا أن ندرس مقدار الانحراف الشديد للمعلومات التي حصلنا عليها, مضينا أسفل الشاطئ الشرقي لبحيرة «او» نحو الطريق المؤدي إلى بحيرة فاين ومن هناك إلى غلاسكو, بهذا الوقت كان الغسق يقترب, توقّفنا في قرية تدعى كيلمارتن وراء النهاية الجنوبية للبحيرة, وسألنا: أين يمكننا العثور على مكان للإقامة, جرى توجيهنا إلى نزل كبير، يبعد بضعة أميال عن البلدة، على مقربة من بعض العلامات السَّلتية[1] القديمة, بعد أن وصلنا إلى هناك عدنا إلى كيلمارتن للحصول على شراب في الحانة.

مع أنها أكبر من بورتنشيرش، تبقى كيلمارتن قرية صغيرة فقط، فيها محطة بنزين وحانة ومطعم, يُوصى به، ونحو أربعة وعشرين بيتاً، كلها مركّزة على جهة واحدة من الطريق, على الجانب الآخر هناك كنيسة كبيرة ذات برج, البناء كاملاً إما بُني وإما أُعيد بناؤه على نطاق واسع في أثناء القرن الماضي.

1ـ الشعوب الهندية الأوروبية القديمة التي، عاشت في وسط أوروبا وغربها في زمان ما قبل الرومان, جرى دفعهم إلى النهايات الغربية للقارة من الرومان وبعض الشعوب الجرمانية، وخصوصاً الآنجلز الذين غزوا انجلترا مع السكسون والجوت في القرن الخامس للميلاد، ومن اسمهم اشتقّت لفظتا «انجلترا» و«الانكليز» والسكسونيين, المترجم.

لم نتوقّع اكتشاف أيّ شيء ذي نتيجة في كيلمارتن, ما قادنا إلى الدخول إلى باحة الكنيسة كان فضولاً لاأكثر، ولكن هناك، ليس على جزيرة في بحيرة، بل في حدائق كنيسة تلك الدائرة[1]، كانت هناك صفوف تلو الأخرى من الحجارة المصنفة المسطحة الخالية من الزينة، والتي أكل عليها الدهر وشرب, كان هناك أكثر من ثمانين منها, بعضها غاص عميقاً في الأرض, حتى إن العشب كان ينمو فوقها, الأخرى كانت لا تزال سليمة, ويجري تمييزها كثيراً بين القبور المشيدة الأحدث والمقابر العائلية, الكثير من الحجارة، وخصوصاً تلك ذات التاريخ اللاحق وذات الحالة الأفضل، كانت مزيّنة بنقوش متقنة, رسوم تزيينية، شعارات العشيرة أو العائلة، خليط من الرموز الماسونية الأخرى كانت مصقولة كاملة، ولكن ما أثار اهتمامنا أن تلك التي لم تكن عليها أي زينة، كان عليها نقش سيف وحيد بسيط وقاتم ومستقيم.

هذه السيوف تفاوتت في الحجم، وأحياناً في التصميم، ولو على نحو بسيط, طبقاً لعادات ذلك الزمان كان سيف الرجل الميت يُبسط على الحجر ويجري تحديد حدوده الخارجية, ومن ثم تُنقش، وبهذه الطريقة سيظهر النقش تماماً أبعاد السلاح الأصلي وشكله ونوعه، هذا هو السيف الشديد المجهول الذي ميّز الحجارة الأقدم، الحجارة التي أصيبت بأسوأ عوامل الحت والتعرية، على الحجارة الأحدث جرت إضافة الأسماء والتواريخ إلى السيف، إضافة إلى رسوم تزيينية وشعارات العشيرة والعائلة والرموز الماسونية, حتى إنه كان هناك بعض القبور للنساء, بدا أنّنا عثرنا على مقبرة فرسان الهيكل التي كنّا نبحث عنها.

الوجود التام للقبور المصنّفة في كيلمارتن بلا شك أدى إلى طرح الأسئلة من الزوّار بغض النظر عنّا, من هم المقاتلون الذين دُفنوا هناك؟, لماذا كان هناك الكثير منها في هذا المكان النائي؟, ما التفسيرات التي قدمتها السلطات المحليّة وسلطات الآثار؟, اللوحة التي في الكنيسة سلّطت فقط القليل من الضوء على المسألة, كلّ ما قيل هو أن أقدم الألواح يعود إلى عام 1300م تقريباً، وآخرها إلى أوائل القرن الثامن عشر, وفقاً لما يجري استنتاجه من اللوحة،أكثر الأعمال هي لمجموعة من النحّاتين، يعملون ضمن بحيرة «او» في أواخر القرن الرابع عشر وحتى أواخر القرن الخامس عشر, أي مجموعة من النحّاتين؟، إن عُرف أنهم كانوا بأي طريقة يشكّلون «مجموعة» رسمية أو منظّمة، كما هو

1ـــ الدائرة إحدى وحدات التقسيم الإقليمي الإداري في انجلترا, المترجم.

واضح من المؤكد أنه من الضروري معرفة المزيد عنهم, أليس غريباً جداً أن يتجمّعوا في «مجموعات»، مالم يجمعهم هدف معيّن أو كونهم تحت حماية معيّنة, حماية بلاط ملكي أو أرستقراطي مثلاً، أو حماية نظام ديني؟, في أيّ حال من الأحوال إن كانت اللوحة مبهمة فيما يتعلق بهوية ناحتي تلك الحجارة، فالأسوأ هو الغموض فيما ما يتعلق بهوية من دُفن تحتها، فاللوحة لم تقل أي شيء عن ذلك.

مهما كانت الانطباعات التي حملتها الكتب والأفلام والتاريخ الرومانسي، كانت السيوف سلعة نادرة وثمينة في أوائل القرن الرابع عشر، لم يكن طبيعياً أن يمتلك كلّ مقاتل واحداً, الكثير كانوا فقراء جداً، وكان لا بدّ من أن يستعملوا الفؤوس أو الرماح, ولم يكن أيضاً في ذلك الوقت صناعات سلاح مزدهرة وكبيرة في اسكتلندا, وخصوصاً في هذا الجزء من اسكتلندا, إذاً لا بد من أن أغلب السيوف التي استُعملت آنذاك في البلد كانت مستوردة، ما جعلها غالية أكثر, نظراً إلى هذه الحقائق لم تكن القبور في كيلمارتن لجنود عاديين، جنود عُدّوا وقود حرب[1] في ذلك الوقت، على العكس الرجال الذين جرى إحياء ذكراهم في تلك الحجارة لا بد من أنهم كانوا يتصفون بأهمية اجتماعية, أفراد أثرياء، طبقة غنية من النبلاء، هذا إن لم يكونوا فرساناً حقيقيين.

لكن هل كان معقولاً أن يُدفن الأثرياء وذوو المناصب الاجتماعية المرموقة على نحو مجهول؟، على نحو أكثر من اليوم كان الأفراد البارزون في القرن الرابع عشر يتباهون كثيراً بعائلتهم ونسبهم وأجدادهم وسلالتهم, وكان هذا واقعاً حقيقياً جداً في اسكتلندا، حيث كانت الانتماءات والعلاقات العشائرية تتميز بأهمية خاصّة, وحيث الهوية وسلالة الدم كانت تحظى بتشديد مفرط أحياناً, هذه الأشياء كان يُشدّد عليها على نحو كبير في أثناء الحياة، أما في أثناء الموت فكان يجري إحياؤها وتخليدها بحسب الأصول.

أخيراً، لماذا كانت القبور الأقدم في كيلمارتن, القبور المجهولة التي كان يُشار إليها فقط بوساطة السيف المستقيم, تفتقر كثيراً إلى أي رمز مسيحي، بل تفتقر إلى أيّ شيء أساسي كالصليب مثلاً؟، في الزمن الذي لم تكن فيه هيمنة الكنيسة على أوروبا الغربية تواجه أي تحد حقيقي، القبور ذات التماثيل فقط كانت لا تحتوي على رموز تزيينية مسيحية, وهذه القبور كانت توضع دائماً في المصليات أو الكنائس, القبور في كيلمارتن، في

1ـ أقل مرتبة بين الجنود، وهم الجنود الذين يمكن الاستغناء عنهم في سبيل الحرب, المترجم.

كل الأحوال، كانت في الخارج، وكانت مجردة من التماثيل، ومع ذلك لا تزال تفتقر إلى الرموز التزيينية الدينية, هل كان مقبض السيف وحده يُقصد به الدلالة على الصليب؟ أم إن هذه القبور كانت لرجال أُدرك على نحو أو آخر أنهم ليسوا مسيحيين على النحو الصحيح؟.

منذ عام 1296م، السّير نيل كامبيل صديق بروس الحليف والنسيب كان «بيلي»[1] كيلمارتن وبحيرة «او»، ولأن كيلمارتن ذاتها كانت أحد مقراته، فمن المعقول افتراض أن تلك القبور الأقدم كانت لرجال السّير نيل، ولكن هذا لا يفيد في توضيح السر المحيط بهم، ولا يفيد أيضاً في توضيح غياب الرمزيّة المسيحية، إلا إن كان الرجال الذين خدموا تحت إمرة السّير نيل ليسوا من مواطني المنطقة المحليين طبعاً، وليسوا مسيحيين تقليديين, ولديهم سبب ما للحفاظ على هويّاتهم سرية، حتى بعد الموت.

في أثناء بحثنا قمنا باستكشاف معظم آثار مراكز فرسان الهيكل الاجتماعية[2] التي كُتب لها النجاة في انجلترا، والكثير من التي في فرنسا، وفي إسبانيا والشرق الأوسط، أصبح مألوفاً لنا، وتقريباً حتى الإشباع، نقوش فرسان الهيكل وشعاراتهم ورموزهم التزيينية المتنوعة, والمكان الذي تكون فيه أحياناً قبورهم, تلك القبور تتميز بالخصائص نفسها التي تتميز بها قبور كيلمارتن, هي دائماً بسيطة وخالية من الزينة، على الأغلب وليس دائماً يُنقش عليها سيف مستقيم بسيط, هي غامضة دائماً, في الحقيقة هذا الغموض هو ما ميز قبور فرسان الهيكل من قبور النبلاء الآخرين ذات النصب التذكارية والنقوش المتقنة والزينة, في النهاية فرسان الهيكل كانوا نظاماً رهبانياً وجماعة من الرهبان المحاربين، والجنود الصوفيين, حتى ولو نظرياً، يُفترض أنهم أفرادٌعلى الأقل تخلوا عن بهارج العالم المادي ومطامحها, عندما ينضم المرء إلى المعبد، عليه التخلي عن هويته عملياً، ويصبح بين صفوف النظام, الصورة العارية غير المزيّنة للسيف المستقيم يفترض أنها شهادة على تقوى الزهد وإنكار الذات التي كان يلتزمها أعضاء النظام.

المؤرخون وخصوصاً الماسونيين منهم سعوا مدة طويلة وعلى نحو حاسم إمّا لإثبات البقاء المزعوم لفرسان الهيكل في اسكتلندا وإما لتفنيده بعد أن جرى قمع النظام رسمياً

1ــ بيلي «Bailie» عضو المجلس الإداري الاسكتلندي العام, لقب فخري, يمنح أحياناً للأعضاء الكبار في المجلس المحليّ في اسكتلندا، سابقاً كان اللقب مخصصاً للقضاة البلديين, المترجم.

2ــ «مركز فرسان الهيكل الاجتماعي», ما هذه المراكز تحديداً؟ فرسان الهيكل حيث كانوا يمتلكون عقارات أو مصالح أو أعمالاً كانوا يبنون تلك المراكز وهي مبنى, أو عدد من المباني, يجتمعون فيها لأغراض ثقافية أو اجتماعية أو عسكرية أو دينية, كانت تضم على الأغلب محافل لتأدية شعائرهم, المترجم.

في الأماكن الأخرى, لكن هؤلاء المؤرخين بحثوا في الوثائق وضمنها من دون جدوى, لاعجب، هم لم يجدوا بطريقة أو بأخرى أي دليل قاطع، لأن أغلب الوثائق ذات العلاقة جرى بتعمد إخفاؤها أو قمعها أو إتلافها أو تزييفها. من الناحية الأخرى، مؤرخو آرغايل الذين كانوا مدركين للقبور في كيلمارتن لم يكن لديهم أي داع للتفكير بأنها تعود إلى فرسان الهيكل، لأن فرسان الهيكل لم يُعرف أنهم كانوا نشطاء أو موجودين في تلك المنطقة، وفقاً لقواعدهم الأوروبية ذات الأهمية كان فرسان الهيكل أكثر قوة ونشاطاً في فرنسا وإسبانيا وألمانيا وإيطاليا وانجلترا, الممتلكات التي حصلوا عليها رسمياً في اسكتلندا، على الأقل طبقاً للسجلات التي جرى الوصول إليها، كانت موجودة بعيداً إلى الشرق، على مقربة من أدنبرة وأبردين، لم يكن هناك أيّ أسس لافتراض وجود مستوطنة للنظام في آرغايل مالم يبحث عنه المرء على نحو محدّد، وهكذا بدا لنا أن القبور في كيلمارتن بقيت سرية وخفية عن الباحثين التاريخيين من كلا المعسكرين, مؤرخي فرسان الهيكل والماسونية من ناحية، والمؤرخين المعاصرين في المنطقة الذين لم يكن لديهم أدنى سبب حتى للتفكير في فرسان الهيكل.

لا حاجة إلى القول إننا كنّا فرحين كثيراً بالاكتشاف الذي حقّقناه, وشعرنا بأنّ اكتشافنا هو على درجة أكبر من الأهمية, لأنه كما يبدو لا يخص فرسان الهيكل فحسب، يبدو أن هناك صلة متينة تربط القبور الأقدم في كيلمارتن (تلك التي افترضنا أنها لفرسان الهيكل) بالقبور الأخرى المزيّنة بشعارات النبالة العائلية، والشعارات العشائرية والرموز الماسونية، القبور الأقدم بدا أنها تتدرّج وصولاً إلى القبور التي تلتها, أو بالأحرى، القبور اللاحقة، نتيجة عملية التمثّل والنمو، بدا أنها تطوّر للقبور التي سبقتها, الرسوم كانت جوهرياً متماثلة، وأصبحت مزيّنة على نحو متقن فقط مع مرور السنين, التزيين اللاحق لم يستبدل بساطة السيف المستقيم به، بل أضاف إليه، كما يبدو أن القبور في كيلمارتن عرضت شهادتها الخاصة الصامتة, ولكن البليغة عن التطور المستمر, لتشهد على قصّة ممتدة أربعة قرون، منذ بداية القرن الرابع عشر وحتى بداية الثامن عشر, في الحانة في ذلك المساء حاولنا فك رموز السجل التاريخي للقبور.

هل تمكنا حقاً من العثور على مستوطنة لاجئين من فرسان الهيكل الذين وجدوا مأوى لهم في ما كان آنذاك بريّة آرغايل ؟, نظراً إلى حلّ نظامهم هل أحضروا أيضاً المزيد من اللاجئين من الخارج؟، مع أنها كانت صعبة الوصول برّاً في أوائل القرن الرابع عشر كانت آرغايل سهلة الوصول بحراً، وكما نعلم أن فرسان الهيكل كانوا يمتلكون أسطولاً

كبيراً لم يتمكن أحد من مضطهديهم في أوروبا من العثور عليه إطلاقاً، هل التلال والوديان المليئة بالغابات الخضراء من حولنا كانت مرة مأوى للمجتمع الكامل للفرسان البيض، كما في قصة مغامرة «القبيلة المفقودة» أو «المدينة المفقودة»، وهل حافظ النظام على وجوده وتقاليده وشعائره في هذا المكان؟, لكن إن أراد الفرسان المحافظة على أنفسهم جيلاً واحداً من الزمن، لا بد من أنهم التزموا العلمنة, أو التزموا إلغاء قسَم العفّة على الأقل، ومن ثم تزوجوا, هل من الممكن أن هذا جزء من العملية التي شهدت عليها القبور, التزاوج التدريجي بين فرسان الهيكل وأعضاء من النظام العشائري؟, وهل من الممكن أنه من ذلك التحالف بين فرسان الهيكل وعشائر آرغايل نشأ أحد الأسباب التي أدت إلى الماسونية اللاحقة؟, في قبور كيلمارتن أليس ممكناً أننا نحصل على الجواب العسير جداً، والذي هو أيضاً أحد الأسئلة المحيرة في التاريخ الأوروبي, أصول وتطور الماسونية ذاتها؟.

نحن لم نورد أيّ اكتشافاتنا في فيلمنا، والذي كان آنذاك مكتوباً جزئياً, علاوة على ذلك توجُّه ذلك الفيلم كان على نحو أولي نحو فرسان الهيكل في الأرض المقدّسة وفي فرنسا, وإن أثبتت نتائجنا في اسكتلندا أنها صحيحة، فكما نشعر، هي تستحق فيلماً خاصاً بها، الآن في كل الأحوال كلّ ما لدينا هو نظرية معقولة، وهي سهلة المنال حالياً نظراً إلى غياب الوثائق، لا مجال لتأكيدها.

في هذه الأثناء بدأت مشاريع أخرى، والتزامات أخرى بالتدخّل، واكتشافاتنا في اسكتلندا تحولت إلى أبعد مكان ممكن خلف الكواليس، في كل الأحوال نحن لم نتغاض عنها، واصلنا ملاحقتنا، واستمرت في السيطرة على مخيلاتنا, في أثناء السنوات التسع اللاحقة تابعنا على نحو متقطع طريقنا لجمع معلومات إضافية.

راجعنا عمل ماريون كامبيل، وهي ربما المؤرخة المحليّة الأبرز في تلك المنطقة، وقمنا بمراسلتها شخصياً, نصحتنا بأنّ نكون حذرين من أيّ استنتاجات غير ناضجة، لكنّها دُهشت بنظريتنا, قالت لنا: إن لم يكن هناك سجلات تشير إلى وجود ممتلكات لفرسان الهيكل في آرغايل، فهذا على الأرجح يشير إلى إخفاء السجلات على نحو أكبر من الإشارة إلى عدم وجود فرسان الهيكل هناك, وقد وجدت أنه من الممكن فعلياً أن وصول فرسان الهيكل إلى المنطقة ربما يوضّح الظهور المفاجئ للسيف المستقيم المجهول وسط الرسوم والشعارات السلتية التقليدية الشهيرة, (رسالة، 1978/11/2م. المؤلف).

راجعنا أيضاً أحد الأعمال المنشورة المتعلقة بالحجارة التي في كيلمارتن بدءاً من بحوث علماء الآثار من القرن التاسع عشر وصولاً إلى المؤلفات الأكثر حداثة, والذي نُشر عام 1977م برعاية اللجنة الملكية للنصب التذكارية القديمة والتاريخية في اسكتلندا, ومما أثار إحباطنا أن أكثر هذه المواد تركّز على نحو أولي على الأمور اللاحقة، أي على الأحجار المزيّنة على نحو متقن, أما الأحجار القديمة التي تحمل نقش السيف الوحيد المستقيم والمجهول فقد أُهملت على نحو كبير، لأنه لا شيء عُرف عنها, ولا أحد كان لديه أيّ شيء إضافي للقول، مع هذا ظهرت بعض الحقائق المهمة. تعلّمنا من ماريون كامبيل أن الحجارة التي في باحة كنيسة كيلمارتن لم يكن موقعها الأصلي هناك على سبيل المثال، بعضها كان داخل الكنيسة, أو بالأحرى داخل كنيسة أقدم كثيراً، الأخرى كانت مبعثرة في كل أنحاء الريف المحيط، ولم يجرِ نقلها إلى هناك إلا مؤخراً، تعلّمنا أيضاً أنّ كيلمارتن لم تكن المقبرة الوحيدة من هذا النوع في تلك المنطقة, في الحقيقة كان هناك ما لا يقل عن ستّ عشرة مقبرة, لكن يبدو أن كيلمارتن كان تركيزها الأكبر على الحجارة القديمة، المؤشرة بالسيف المستقيم المجهول.

ما يمكن استخلاصه هو ثلاثة استنتاجات مؤكدة فقط، الأول هو أن خلفية النقوش بقيت لغزاً ، وخصوصاً النقوش الأقدم، الثاني الذي كلّ شخص يوافق فيه الرأي عملياً أنّ هذه النقوش القديمة يعود تاريخها إلى بداية القرن الرابع عشر, الوقت الذي كان يحكم فيه روبرت ذا بروس اسكتلندا, والوقت الذي جرى فيه إخماد نار فرسان الهيكل في الأماكن الأخرى من أوروبا، الاستنتاج الثالث هو أن تلك القبور ذات السيف المستقيم المجهول جسدت الأسلوب الجديد، والتطور الجديد في المنطقة، والذي ظهر فجأة وعلى نحو لا يمكن توضيحه، مع أن أملاك فرسان الهيكل في الأماكن الأخرى كانت تستعمل ذلك التصميم نفسه قبل ظهوره المفاجئ في آرغايل، لقد رأينا ذلك سابقاً في تاريخ يسبق التاريخ الذي تحمله الحجارة التي في كيلمارتن، وذلك في أماكن قريبة من الوطن على قدر قرب معبد غارواي في هيرفوردشر[1]، والذي هو على نحو غير قابل للجدل يعود إلى فرسان الهيكل[2].

1ـ مقاطعة في غرب انجلترا, المترجم.

2ـ عندما قُمع المعبد ومُنحت أملاكه لفرسان القدّيس يوحنا، كنيسة فرسان الهيكل الدائرية في غارواي كانت قد هُدّمت، بينما قبور النظام كانت قد شُوّهت ودُنّست بتعمد،(نظام القدّيس يوحنا حطّم بالطريقة نفسها الكنيسة الدائرية لفرسان الهيكل في بريستول وبنوا (كما في غارواي) مصلى مستطيلاً تقليدياً)، بلاطة

في كتاب «نقش التماثيل الصخرية في المسيحية اللاتينية»، الذي صدر عام 1976م، آخر أعـمال ف. أ. غرينهِل نشر حصيلة عمر صُرف في تصنيف قبور القـرون الوسـطى وجـدولتها في جميـع أنحـاء أوروبـا، مـن البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط، ومن ريغا[1] إلى قبرص، من بين القبور الـ4460 التي أدرجهـا ووصـفها عُـثر على بعضها من دون نقوش، ولكنّها كانت نادرة جداً، حتى إن شواهد القبـور العـسكرية كانـت أكـثر نـدرة، على سبيل المثال عُثر في انجلترا على أربعة فقط، من دون ذلك الذي في غـارواي، والـذي كـان غـافلاً عنـه، في إيرلندا عُثر على واحد فقط، ومرة أخرى في كل أنحاء اسكتلندا عدا آرغايل لم يعثر إلا عـلى واحـد، في آرغايـل عُثر على ستّين شاهد قبر عسكري مجهول, وهكذا من الواضح أن تركيز وجود الحجارة في كـيلمارتن والمواقـع المجاورة كان فعلاً أمراً فريداً، وتقريباً على القدر نفسه مـن النـدرة كـان الوجـود المكثـف الاسـتثنائي للقبـور الماسونية.

المصدر المهم الآخر للأدلة التي حصلنا عليها كان الجمعية الإسرائيلية للمسح الآثاري، والتي نقّبت القلعة القديمة لفرسان الهيكل في أثليت[2] في الأرض المقدسة[3]، حيفا بُنيت عام 1218م، وهُجرت في النهاية مع كلّ الآثار الأخرى لمملكة صليبيي القدس عام 1291م، عندما نقّبت القلعة أثبتت أنها تحتوي على مقبرة مع أكثر من مئة حجر،طبعاً أكثرها أصيب بعوامل مناخية سيئة جداً، والنقوش الخفيفة كنقوش السيوف المستقيمة التي وجدناها في اسكتلندا لم تنجُ، ولكن القليل جداً من التصاميم المنقوشة على نحو أعمق كانت موجودة، وكانت مثيرة جداً، أحدها كان على شاهِد قبر لقائد بحري من فرسان الهيكل, ربما عميد, وشمل مرساة كبيرة, أحدها مع أنه بال بشدة كبيرة، لا يزال يدل على أنه شاهِد قبر يُظهر المربع والشاقول الماسوني، أحدها يُظن أنه لـ «زعيم ماسونيي فرسان الهيكل», يحتوي على صليب ونقوش زينة، وهي مربع ومدقّة ماسونية, هذه هي أقدم حادثة معروفة عن شواهد القبور التي تحمل شعارات ماسونية، عدا

واحدة، في كل الأحوال تحمل نقش السيف المستقيم المجهول، كان قد نُزعت مـن الأرض وحُوّلـت إلى إطـار نافـذة للبنـاء الـذي استبدل الكنيسة الأصلية، وبهذه الطريقة نجت، وهربت من التخريب الطبيعـي أو البـشري آنـذاك الـذي كـان القـدر الطبيعـي لشواهد قبور فرسان الهيكل, المؤلفان.

1ـ عاصمة لاتفيا في الشرق، على بحر البلطيق, المترجم.

2ـ Atlit;Athlit, أثليت هي عثليث، وهي قرية صغيرة قرب مدينة حيفا، وهي من المناطق الكنعانية الأثرية واسمها كنعاني قديم ـ(المدقق)، وسأقوم بترجمتها في الكتاب «حيفا» لسهولة الفهم, المترجم.

3ـ أفضل قبر محفوظ لفرسان الهيكل معروض اليوم في متحف روكَفيلر (Rockefeller)، في القدس, المؤلفان.

حالتين استثنائيتين، أحد الاستثناءات هو في ريمز[1]، ويعود تاريخه إلى عام 1263م، الآخر أيضاً في فرنسا في التاريخ نفسه تقريباً في المركز الاجتماعي السابق لفرسان الهيكل الذي يُسمى «Bure -les-Templiers» في كوت دور[2]، إذاً كان هناك دليل مقنع لدعم «لغز السجل الزمني التاريخي للشواهد» والذي حاولنا حلّه في كيلمارتن السجل الذي سيشهد على اتصال قديم مهم بين فرسان الهيكل وما تحوَّل وتطوّر لاحقاً إلى الماسونية، إن قمنا بحله على نحو صحيح.

بحماستنا الناتجة من اكتشافنا نسينا هدفنا الأصلي من القدوم إلى آرغايل, رواية مقبرة فرسان الهيكل عن جزيرة في بحيرة «او»، افترضنا أن الرواية كانت محرّفة، وأنها في الواقع تُشير إلى كيلمارتن, ما لم نكن نعرفه في ذلك الوقت هو أنّنا زرنا الجزيرة غير الصحيحة.

في خريف عام1987م عدنا إلى آرغايل وإلى بحيرة «او», في هذه المرة تعلّمنا أنّ الجزيرة التي أدت إلى زيارتنا السابقة لم تكن «إنيس سي ريش» بل «إنيشل», على بضعة أميال شمالاً, في الحقيقة عبرناها في المرة الأولى من دون ملاحظتها أيضاً.

ولكن وإن كانت إنيشل هي الجزيرة «الصحيحة»، فهي لم تثبت أنها أكثر ثمراً من الجزيرة غير الصحيحة التي زرناها منذ تسع سنوات من قبل, مع أنّنا لم نواجه أي صعاب في هذه المناسبة في استئجار مركب, نحن وجدنا آثار كنيسة تعود إلى تلك الفترة نفسها، أوائل القرن الرابع عشر، ولكن البناء على نحو واضح لم يكن لفرسان الهيكل، إن آخر استخدام نظامي للمكان حدث عام 1736م كما علمنا، وفي نهاية القرن أصبح مهجوراً، عندما رأيناها الداخل مغطّى على نحو متشابك بالحشائش والأعشاب الضارة ونباتات القراص نفسها التي كانت تغطي عدداً من الشواهد البالية والمتصدّعة التي كانت تمتد على الأرض، في الخارج كان هناك المزيد من الشواهد، القديمة منها كانت غارقة بشدة, وتنمو عليها الأعشاب، حتى إنه من الصعب رؤيتها, مع أن الأخرى ذات التاريخ اللاحق لا تزال منتصبة، من بين أحدث القبور كان هناك قبر الدوق الحادي عشر لآرغايل الذي مات عام 1973م، وأصدقاء العميد ريجنالد «سي بي إي» و«إم سي» و«بار» من رابطة الشرف الذين ماتوا عام 1982م، الرجل الذي استأجرنا منه المركب ذكر أنّه

1ــ مدينة فرنسية, المترجم.

2ــ Côte d'Or منطقة إدارية فرنسية، والمنطقة الرئيسة لإنتاج النبيذ في بورغونيه شرق فرنسا, المدينة الرئيسة في المنطقة هي ديجون, المترجم.

عبر كثيراً إلى إنيشل واستكشف الجزيرة, أخبرنا عن قطعة حجرية اكتـشفها منـذ فـترة قـصيرة، لم تُـسجّل بعد في اللجنة الملكية، شكّ في أنه من الممكن أن يكون هناك ألواح أخـرى، تقـصّينا باسـتخدام الـسكاكين الصغيرة، وفي الحقيقة وجدنا بعضاً منها، ولكن لم يكن هناك شيء يمكن فهمه منها, إن جرى تنظيف هذا الموقع على نحو صحيح، فهذه القطع ربّما سيكون لها نتيجة هامة، في كل الأحوال استكشافنا الهاوي وربما المهمل لم يكشف لنا أي مقترح عن أيّ شيء يخص فرسان الهيكـل, هـذا كـان مخيّبـاً للآمـال، ولكـن عـلى الأقل عرفنا الحقيقة الآن عن الجزيرة المحيرة حتى ذلك الحين.

في مكان آخر حول بحيرة «او»، لم نجـد أي شيء أهـم مـما وجـدناه في كـيلمارتن, الآثـار التـي مـن الممكن جداً أنها كانت لفرسان الهيكل، والتي يمكننا على نحو معقول أن نجادل في أنهـا تعـود إلى فرسـان الهيكل، ولكن التي لم تكن كذلك على نحو قابل للإثبات، في كـل الأحـوال في تلّـة عنـد المنطقـة الجنوبيـة الشرقية للبحيرة في بقايا كنيسة كيلنير من القرن الثالث عشر وجدنا شيئاً يثـير الفـضول, في العـشب كـان هناك قطع حجرية مشابهة للقطع الحديثة المزيّنة والمزخرفة بإتقان، التي في كيلمارتن, على إحـداها كـان التصميم متوّجاً على نحو واضح بصليب فرسان الهيكل, لكن الـصليب لم يكـن جـزءاً مـن الزينـة الأصـلية المنقوشة بدقة شديدة، كان قد نقش بطريقة غير متقنة على الحجر على نحو يـشبه رسـوم زمـن أحـدث، ربما من القرن السابع عشر أو الثامن عشر. ويكاد هذا يعدّ دليلاً على وجـود فرسـان الهيكـل في المنطقـة، ذلك يُشير في كل الأحوال إلى أن شخصاً ما في الجوار في وقت ما بعد ذلك، كـان لديـه نـوع مـن الاهـتمام بفرسان الهيكل.

تابعنا التقدم نحو المنطقة الجنوبية الغربية إلى قلعة سوين المهيبة التي عـلى بحـيرة تحمـل الاسـم نفسه، في أوائل القرن الرابع عشر كانت بحيرة سوين ميناء استراتيجياً حاسماً على الطريق البحـري الممتـد من ألستر إلى جزيرتي آيسلي وجورا، وقلعتها التي حاصرها بروس وأسرها تقريباً بين عامي 1308م ــ 1309م كانت الموقع الحصين الرئيس للمنطقة، القلعة ذاتها التي يظن أنها القلعة الحجرية الأقـدم عـلى الجزيـرة الاسكتلندية من الواضح أنها كانت حصناً بحرياً، ولها ميناؤها الخاص للسفن، الأحجار الساقطة، وبعـضها مزيّن، أشارت إلى وجود مانع للأمواج، ومن ثم وجود ميناء داخلي ورصـيف للمينـاء، فـإن هـرب فرسـان الهيكل من أوروبا إلى اسكتلندا بحراً عندما جرى قمـع نظـامهم، فـإن هـذا سـيكون عـلى الأغلـب موقـع الإنزال.

بعد القلعة هناك البحر، حيث جزيرة جورا عميقة نحو الغرب، وتلالها مغطاة بالغيوم، هنا على الساحل تنتصب بقايا مصلى كيلموري الصغير من القرن الثالث عشر، حيث كان مسخراً لخدمة الكنيسة البحرية الخاصة التي كانت في غاية الازدهار ذات مرة، داخل المصلى وحوله كان هناك نحو أربعين شاهد قبر يعود إلى الفترة نفسها، وله النوع نفسه الذي عهدناه في كيلمارتن، ولكن كان هناك شيئان آخران يتميزان بأهمية أعظم، يقدمان الدليل الذي ربما كان أقل غزارة مما كنا نرغب، ولكنه دليل يمتلك مقدرة كافية لتأكيد نظريتنا.

كانت كنائس فرسان الهيكل تمتلك على نحو ثابت صليباً يُنقش إما فوق المدخل وإما يُنصب بحُرية في الخارج، سواء البسيط أم المزركش كان الصليب دائماً ذا تصميم مميّز، ذراعين متساويتين، ونهاية كلّ ذراع أوسع من قاعدتها، داخل مصلى كيلموري انتصب تماماً مثل هذا الصليب، ويعود تاريخه إلى ما قبل القرن الرابع عشر، لو كان هذا الصليب في أي مكان آخر في أوروبا، فلا أحد سيتردد في الاعتراف به بأنه يعود إلى فرسان الهيكل، وبأن ينسب المصلى إلى ذلك النظام، علاوة على ذلك داخل الكنيسة هناك شاهد قبر من القرن الرابع عشر منقوش عليه سفينة مبحرة وشخص مسلّح وصليب آخر لفرسان الهيكل، هذا الأخير معمول وفق التصميم الزهري.

ولكن هناك المزيد، على ذلك الشاهد نفسه من القرن الرابع عشر كان الشّيء الذي طمأننا بأنّ عملية فكّ رموز «سجل شواهد القبور» التي نقوم بها ليست عملية يمكن الدفاع عنها فحسب، بل هي على نحو عام دقيقة، فوق رأس الشخص المسلّح وصليب فرسان الهيكل نُقش رمز الكُوْس[1] الماسوني.

من الآن يمكن القول: إن فرسان الهيكل كانوا هناك عند بحيرة سوين، وإن كيلموري على نحو مؤكد تقريباً كانت مصلى لفرسان الهيكل، ليست مبنية من أجل ذلك النظام، بل في كل الأحوال سيطر عليها ذلك النظام، نظراً إلى هذا الدليل ليس ممكناً فحسب، بل من الممكن أن القبور في كيلمارتن وفي الأماكن الأخرى من المنطقة كانت في الحقيقة لفرسان الهيكل.

1ـ الكُوْس: مثلث رسم الزوايا القائمة، المترجم.

الفصل الأول

روبرت بروس

وريث اسكتلندا السَلْتيّة

القسم الأول

بروس وكفاحه من أجل السلطة

أخيراً في 18 مايو/أيار عام 1291م وعلى نحو غير قابل للنقض انهارت عكّا التي كانت المعقل الأخير للصليبيين الغربيين في الأرض المقدّسة، والتي سقطت في أيدي العرب والمملكة اللاتينية لأورشليم، والتي نشأت من الحملة الصليبية الأولى قبل ذلك قرنين تقريباً، وهكذا انتهى الحلم الأوروبي الكبير في تحقيق الشرق الأوسط المسيحي، الأماكن المقدسة والرنّانة والمقدَّسة للكتاب المقدّس، من مصر مروراً بفلسطين، وصولاً إلى لبنان وسوريا أصبحت تحت السيطرة الإسلامية، وعملياً كانت محرّمة على المسيحيين حتى زمن نابليون، أي بعد نحو خمسة قرون.

بخسارة الأرض المقدّسة لم يفقد فرسان الهيكل ساحتهم الأساسية للعمليات العسكرية فحسب، بل مسوغ وجودهم الأساسي أيضاً ، وفق اللغة العسكرية على الأقل لم يعد يمكنهم تسويغ وجودهم، أنظمتهم العسكرية الدينية المماثلة كان لديها قواعد في أماكن أخرى، ولديها حملات صليبية أخرى لتخوضها، فرسان مشفى القدّيس يوحنّا (Hospitaller)[1] أسسوا أنفسهم أولاً في رودس ثمّ في مالطا، وأمضوا القرون الثلاثة التالية في السيطرة على العالم المسيحي التجاري الدائم في البحر الأبيض المتوسط، الفرسان التيوتونيّون (The Teutonic Knights)[2] كانوا قد أسسوا مهنتهم الجديدة في البلطيق، حيث أبادوا هناك القبائل الوثنية، وأسسوا الإمارة المسيحية التي امتدت من بروسيا عبر لاتفيا وليتوانيا وأستونيا وصولاً إلى خليج فنلندا، كان على الأنظمة الإسبانية مثل سانتياغو وكالاترافا والكانتيرا أيضاً أن يطردوا البدو من شبه الجزيرة الأيبيريّة[3]، بينما كان على فرسان المسيح البرتغاليين أن يكرّسوا أنفسهم على نحو متزايد

1ـ هم الفرسان الدينيون الصليبيون لمشفى القديس يوحنّا الذي جرى تأسيسه في أواخر القرن الحادي عشر من الصليبيين الأوروبيين في أورشليم للعناية بالحجّاج المرضى، كانوا يتميزون بقوة وبأس شديدين، سنسميهم «فرسان المشفى» لسهولة التمييز، المترجم.

2ـ أو الفرسان الألمان: النظام الديني والعسكري الألماني الذي أُسّس خيرياً في فلسطين عام 1190م في أثناء الحملة الصليبية الثالثة، لكنه أصبح منظمة عسكرية تعمل في أوروبا الشرقية، في القرن الثالث عشر فتح بروسيا، حيث نشرت الديانة المسيحية خلال قتل الكثير من السكان المحليّين واستعمارها من الألمان، المترجم.

3ـ القوقازية، الإسبانية أو البرتغالية: ويُقصد هنا البدو العرب الذين كانوا في إسبانيا آنذاك، المترجم.

للاستكشاف البحري، فقط فرسان الهيكل الذين كانوا الأكثر قوة وثروة ومكانة بين الأنظمة الأخرى، تُركوا من دون أي مهمة أو مأوى، طموحهم الخاص في تأسيس إمارة لأنفسهم في لانغدوق[1] أُحبط وبقي كالمولود الميت.

العقد والنصف الذي تلا سقوط عكّا كان قد أصبح فترة انحطاط الهيكل، عند ذلك في فجر يوم الجمعة 13 أكتوبر/تشرين الأول عام 1307م أمر فيليب الرّابع ملك فرنسا باعتقال كلّ فرسان الهيكل في مملكته، في أثناء السنوات السبع التالية انتقلت محكمة التفتيش إلى وسط الميدان لإنهاء ما بدأه الملك الفرنسي، سُجن فرسان الهيكل في كل أنحاء أوروبا، وحوكموا واستجوبوا وعُذّبوا وأُعدموا، في عام 1312م حُلَّ نظام الهيكل رسمياً من البابا، في عام 1314م أُحرق السيد الأعظم الأخير للنظام جاك دو مولاي على الخازوق[2]، وزال الهيكل عملياً من الوجود.

تغطّي مهنة روبرت بروس هذه الفترة الحاسمة تماماً، ظهر أول مرة في منصب متميز في عام 1292م، أي بعد عام من سقوط عكّا، عندما أصبح إيرل كاريك، وصلت حياته ذروتها في معركة بانوكبورن (Bannockburn)[3] في عام 1314م، نحو ثلاثة شهور بعد موت جاك دو مولاي، في عام 1306م أي قبل عام من البدء باضطهاد الهيكل كان بروس نفسه قد حُرم كنسياً، وبقي في حالة خلاف مع البابوية اثنتي عشرة سنة أخرى، ولأن البابا توقّف عن الاعتراف به، كان مستحيلاً عند روما أن تتعامل معه أو تفرض رغبتها في مناطق حكمه، في الواقع لم يسرِ مفعول الأوامر البابوية في اسكتلندا، أو على الأقل في تلك الأجزاء من اسكتلندا التي يسيطر عليها بروس، والتي أصبحت «منبوذة اجتماعياً» نتيجة لذلك، وهكذا في تلك الأجزاء من اسكتلندا لم يكنْ المرسوم الذي ألغى الهيكل في كل الأماكن الأخرى من أوروبا قابلاً للتطبيق وفق الرسالة القانونية الصارمة، في النهاية ربما كان فرسان الهيكل الذين كانوا يهربون من الاضطهاد عبر أوروبا، ويتمنّون العثور كمأوى في أي مكان تحت حماية بروس.

سيل من الأساطير والتقاليد القديمة قامت عدة قرون بربط بروس بفرسان الهيكل مع أن التعاون بينهم لم يُحدد على نحو كاف، زوّدت القبور في آرغايل بدليل مقنع لهذه

1ــ مقاطعة سابقة ومنطقة فرنسية تاريخية، المترجم.
2ــ الخازوق هو الوتد الذي يُشدّ إليه المحكوم عليه بالموت حرقاً، المترجم.
3ــ بانوكبورن: بلدة في وسط اسكتلندا، حيث الاسكتلنديون خلف قيادة روبرت ذا بروس هزموا إدوارد الثاني ملك انجلترا عام 1314م، المترجم.

الأساطير والتقاليد تاريخها يعود إلى الفترة المعنية نفسها، وكانت في المنطقة التي ربما كانت الملاذ الطبيعي لفرسان الهيكل الذين كانوا يبحثون عن الأمان، علاوة على ذلك، كلما أمعن المرء النظر إلى بروس ازداد وضوح المصالح المشتركة بينه وبين فرسان الهيكل.

المملكة السَلْتيّة في اسكتلندا

يُعدّ بروس عادة الشخصية الرئيسة للكفاح الاسكتلندي في القرون الوسطى من أجل الاستقلال، لكن بروس كان مصمّماً على شيء أكثر، شيء أكثر راديكالية وطموحاً أكثر من إحباط الهيمنة الانجليزية فحسب، ما كان يريده لا يقل عن إعادة استثنائية للمملكة السَلْتيّة ذات المؤسسات السَلْتيّة على نحو محدّد، هذا قد يتضمّن أيضاً التضحية البشرية الشعائرية.

لم يكن هناك سلطة مركزية في إيرلندا وويلز في القرون الوسطى، حتى في الأماكن التي لم ينشر فيها ملوك انجلترا النورمانديون سيطرتهم، كلا البلدين مزّقته الشجارات المميتة بين مختلف الأمراء أو الزعماء المحليّين وعشائرهم، اسكتلندا كانت «العالم السَلْتيّ الوحيد ذا النظم السياسية الجيدة التشكيل والمستقلة في بداية ذروة العصور الوسطى».

في العصور الرومانية جرت السيطرة على اسكتلندا من البيكتيين (Picts)[1] طبعاً، والتي واصلت تأدية دور بارز في التاريخ الاسكتلندي حتى منتصف القرن التاسع، لكن في أواخر القرن الخامس بدأ المستوطنون السَلْتيّون من إيرلندا، خصوصاً من ألستر (Ulster)[2]، بالاستقرار في غرب البلاد وبتأسيس ما يدعى الآن مملكة دالريدا (Dalriada) التي كان أحد معاقلها القديمة يدعى دوناد، وهي على بُعد ثلاثة أميال من كيلمارتن، مدة 350 سنة كافحت دالريدا في الغرب والبيكتيون في الأماكن الأخرى من أجل السيادة، كلّ منهما حصل على نمو مؤقت تدريجياً، ثمّ فقده ثانية، مع أن الكفاح كان عنيفاً في أغلب الأحيان، إلا أنه لم يكن كذلك دائماً، كان أيضاً ثقافياً ومتعلقاً بالسلالات، وكان هناك تزاوج عالي المستوى بين الشعبين على نحو دوري، في كل الأحوال انتصرت دالريدا فعلياً في عام 843م، البيكتيون لم يُهزموا عسكرياً على نحو كبير جداً عندما جرى ضمّهم، اللغة والثقافة البيكتية اختفت كليّاً، ولو كان ذلك على نحو تدريجي،

1ــ إحدى القبائل البريطانية القديمة، عضو في الشعوب القديمة التي احتلّت الأراضي شمال أنهار «فورث آند كلايد» في اسكتلندا من القرن الأول حتى الرابع، البيكتيون منعوا الرومان من الانتشار في وسط اسكتلندا وشمالها وانضموا إلى الاسكتلنديين لاحقاً لتشكيل المملكة الاسكتلندية المتحدة، المترجم.

2ــ اسم غير رسمي لإيرلندا الشمالية، المترجم.

وأصبحت اسكتلندا بدعم من ملك دالريدا «كينيث ماك ألبين» مملكة سَلْتيّة موحّدة، نحو عام 850م نصّب كينيث في سكون[1] ملكاً لكلّ اسكتلندا، ولا يزال هناك بعض التقلبات والدسائس والنزاعات الداخلية من النوع الذي خلّده شكسبير في رواية مَكْبَث (Macbeth)[2]، ولكن في عهد حكم سليل كينيث ماك ألبين ديفيد الأول ظهرت المملكة الاسكتلندية الإقطاعية أخيراً، وذلك في عام 1124م بعد ربع قرن من تأسيس الصليبيين الغربيين للمملكة اللاتينية في أورشليم.

مع أن النورمانديين خلف قيادة وليام رافوس ابن وليام الفاتح خاطروا في البداية في الذهاب إلى اسكتلندا، إلا أنه لم يكن هناك أي اختراق نورماندي واسع النطاق أو ناجح حتى عهد ديفيد، ديفيد نفسه ابن الملك السَلْتيّ مالكولم الثالث كان سَلْتيّاً تماماً في كل الأحوال، في عهده سُمح لأعداد كبيرة من الفرسان النورمانديين، والفلمنكيين أيضاً بدخول البلاد، وكذلك سُمح للنظام الرهباني بالوجود، وعلى نحو رئيس في رعاية السيستيريين (Cistercians)[3]، مع هذا بقيت اسكتلندا مملكة سَلْتيّة كاملة، وهناك دليل على أن معظم الفكر السَلْتيّ، الوثني والمسيحي كليهما استمرّ هناك بعد فترة طويلة من اختفائه من إيرلندا، من المؤسسات الفريدة التي أسسها ديفيد منصب أصبح بعد ذلك وراثياً، وهو «منصب القهرمان الملكي» للمملكة (Royal Steward)، وأصبح يسمى لاحقاً «ستيوارت» (Stewart)، وهو المنصب الذي يجب اشتقاق سلالة ستيوارت منه، القهرمان كان منصباً وراثياً لمدير العائلة الملكية، أو مستشاراً وراثياً للبلاط، يشبه كثيراً المنصب المُسمى «محافظ القصر» لدى الميروفيين في فرنسا قبل ثلاثة قرون من ذلك، وتماماً كما قام محافظو القصر بخلع الميروفيين في النهاية وتشكيل سلالة الكارولينيين

1ـ قرية في وسط اسكتلندا، قرب نهر تاي، مشهورة بـ «حجر القدر» الذي كان يتوّج عليه الملوك الإسكتلنديون، والذي حُدّد مكانه أصلاً هناك، نقل الحجر إلى دير ويست مينستر في لندن من إدوارد الأول عام 1296م، ثمّ أعيد إلى قلعة أدنبرة عام 1996م، المترجم.

2ـ مَكْبَث (توفي عام 1057م): ملك اسكتلندا (1040م ـ 1057م)، انتزع العرش من ابن عمه دانكان الأول، المترجم.

3ـ ملاحظة هامة: كلمة سيستيري بالانكليزية هي «Cistercian»، وكل القواميس تترجمها على أنها بَنَدَكْتيّ، ولكن في الحقيقة ذلك لا يجوز إذ إن البندكتيين بالانكليزية لهم تسمية ثانية هي «Benedictines»، وبالمناسبة السيستيريون هم نظام رهباني كاثوليكي روماني أسّس في عام 1098م في ستوكس «سيستيريوم باللاتينية» في فرنسا، من مجموعة الرهبان البندكتيين من دير موليسم بزعامة القدّيس روبرت في موليسم، أيضاً سموا الرهبان البيض بسبب الرداء الأبيض أو الرمادي الذي كانوا يلبسونه تحت الوشاح الكتفي الأسود، السيستيريون أرادوا تأسيس جماعة تتبع تفسيراً صارماً للقواعد الرهبانية للقديس بندكت من نورسيا نحو عام 540م، أظن أن القواميس عدّت تسمية البندكتيين بدلاً من السيستيريين انطلاقاً من أن مؤسسي هذا النظام الأخير هم الرهبان البندكتيون، ولكن ماذا لو وردت الكلمتان معاً في سطر واحد؟، المترجم.

(Carolingian)[1]، في اسكتلندا أيضاً قام القهرمانات بخلع سلالة ديفيد مع أن ذلك كان بطريقة أكثر سلمية، القهرمان الأول «والتر فيتز ألان»، كان سليلاً من السَلْتيّين البريتانيّين[2]، وابن «ألان فيتز فلاد»، ألان ربما كان أيضاً سليل أحد الثاينيين[3]، وهو بانكو من لوشيبر الذي وجدت أسطورته طريقها إلى مسرحيّة شكسبير.

بين حاشية الملك ديفيد كان هناك فارس نورماندي، روبرت دو بروس، منحه ديفيد منطقة وادي عنان التي تحرس الطرق إلى اسكتلندا خلال كارلايل، كان أيضاً صديقاً مقرّباً من الملك الانجليزي هنري الأول، وكان يمتلك أراضي شاسعة في يوركشاير، آل روبرت يظن عموماً أنهم جاؤوا من بروس أو برويس، وهي الآن بريكس، جنوب تشيربورغ تماماً، في كل الأحوال في وقت لاحق اقتُرح أنّه كان من أصل فلمنكي، في الحقيقة انحدر من روبرت من بروج (Bruges)[4]، آمر القلعة الغني في تلك المدينة قبل ثلاثة أرباع القرن من ذلك، اختفى روبرت من بروج عام 1053م، السنة التي تزوّجت فيها ماتيلد من فلاندر بوليام دوق نورماندي والذي ربّما رافقها إلى فرنسا، وبعد ذلك ثلاث عشرة سنة رافق زوجها لاحتلال انجلترا.

مع أن روبرت دو بروس من عهد الملك ديفيد كان سليلاً نورماندياً، وربما فلمنكياً، فإن ابن حفيده تزوّج ابنة حفيد ديفيد، ابنة أخت الملكين السَلْتيّين مالكولم الرّابع ووليام الأول، روبرت بروس الذي أصبح بارزاً بعد ذلك في التاريخ الاسكتلندي يمكنه من ثم أن يدّعي انحداره من سلالة العائلة الملكية السَلْتيّة القديمة، ووصوله في النهاية حتى ماك ألبين ملك دالريدا، وعندما تزوّجت ابنة روبرت بروس والتر ذا ستيوارد (والتر القهرمان)، أو والتر ستيوارت، وُلدت السلالة التي عُرفت لاحقاً بعائلة ستيوارت[5].

بقي العنصر السَلْتيّ سائداً في المجتمع الاسكتلندي حتى نهاية القرن الثالث عشر، وهكذا كان النبلاء الأكثر تأثيراً في العالم الثلاثة عشر إيرلاً، أو الإقطاعيين الذين اشتقوا نسبهم وسلطتهم مباشرة من المملكة الأقدم دالريدا، وبين هؤلاء الإيرلات، الأكثر أهمية فيهم كان إيرل فايف[6] الذي مارس الحقّ الوراثي في تنصيب الملك الجديد على العرش

1ـ الكارولينيون وهم طبعاً مختلفون عن الكارولينيين المنسوبين إلى كارولينا الشمالية أو الجنوبية في الولايات المتحدة الأميركية، أحياناً تجري تسميتهم أيضاً الكارلوفينيين، هم السلالة الثانية للملوك الفرانكيين التي حكمت أجزاء من أوروبا الغربية من القرنين السابع حتى العاشر، المترجم.

2ـ البريتانيّ: أحد أبناء مقاطعة بريتاني في شمال غربي فرنسا، المترجم.

3ـ الثاين: سيّد إقطاعيّ اسكتلنديّ، المترجم.

4ـعاصمة مقاطعة فلاندر الغربية، غرب بلجيكا، المترجم.

5ـ للتذكير قام المؤلفان في الفقرات السابقة بشرح مصدر تسمية عائلة ستيوارت، وهي اختصاراً كالتالي: ستيوارت أصلها ستيوارد، وتعني القهرمان الذي يعني حاكم البلاط الملكي أو الأسرة الحاكمة ومديرها، المترجم.

6ـ منطقة في شرق وسط اسكتلندا، المترجم.

في أثناء مراسم التتويج، التتويج ذاته كان يُعقد تقليدياً في قرية سكون التي تبعد ميلين فوق نهر لاي من بيرث[1]، وعرش المملكة بُني حول الحجر المشهور في سكون[2] الذي يُفترض أنه جُلب إلى ذلك الموقع من كينيث ماك ألبين عام 850م، سكون نفسها كانت مكاناً مقدّساً أو نصف مقدّس منذ الفترة قبل السَلْتيّة، أي الفترة البيكتيَّة، موقعه الأساسي كان على «تلّة الإيمان» التي تُدعى الآن «تلّة المُوْط[3]»، في ممارسات شعائرية ربما يعود تاريخها إلى ما قبل التاريخ المسجَّل كان على الملك الجديد أن يجلس في هذا المكان، ويمارس مهمته بملابس فاخرة، بما في ذلك العصا والعباءة، وبهذه الطريقة سيكون الملك متمسّكاً بإحكام بالأرض، وبالشعب الذي يحكمه وبآلهة الأرض ذاتها، وكان ذلك يُصوَّر في أغلب الأحيان بزيّ حيواني، ففي الرواية الإيرلندية عن هذا المنسك كانت تجري التضحية بفرس ويغلى بالماء الذي يستحم فيه الملك المُنصَّب حديثاً، بينما يشرب مرق ذلك الحيوان ويأكل لحمه، بهذه الطريقة، كما يظن، سيضمن خصب الأرض والشعب. في القرن الثاني عشر في أعقاب الحملات الصليبية أنتج هذا المبدأ القديم، مسؤولية الملك عن خصوبة الأرض بعد اندماجه بالخيوط الغزيرة للتقاليد الباطنية اليهودية المسيحية مجموعة من القصائد التي تُعرف الآن برومانسيات الكأس المقدس، وكما سنلاحظ لاحقاً كان لهذا الأمر صلة وثيقة جداً باسكتلندا.

تتويج ألكساندر الثّالث في عام 1249م كان نموذجاً للمناسك السَلْتيّة التي سادت في اسكتلندا بعد فترة طويلة من اختفائها في أماكن أخرى، عندما جلس ألكساندر على العرش في قرية سكون أنشد الشاعر القَبَليّ القديم للمرتفعات الاسكتلندية رسمياً وباللغة الغيليَّة[4] قصائد نسبت سلالة الملك الجديد إلى دالريدا، إلى «الاسكتلندي الأول». وكما يُتوقّع من حاكم سَلْتيّ كان عازف قيثارة يصحب ألكساندر دائماً، وعندما يرغب في السفر كان يسبقه سبع نسوة يُنشدن نسبه وأمجاده، وتلك شعائر شرعية لزعيم سَلْتيّ، تلك كانت في بادئ الأمر ممارسة إطراء وتفاخر، ولكنها بلا شك ما لبثت أن أصبحت في النهاية وعلى نحو سريع ممارسة صاخبة ومملة.

لا عجب من أنه في هذه البيئة مارست الكنيسة قيودها وقبضتها على نحو واهن وضعيف جداً، في أثناء القرن التاسع يبدو أن اسكتلندا كانت على نحو سريع مجهّزة

1ـ مدينة كبيرة في أستراليا الغربية، على نهر سوان، المترجم.
2ـ كما أوردت سابقاً هو حجر القدر الذي يُستخدم في شعائر تنصيب الملوك على العرش، المترجم.
3ـ المُوْط: مجلس شعبيّ انكليزي قديم متميز بسلطات سياسيّة وإدارية وقضائيّة، وكلمة موط تعني على نحو عام «اجتماع»، فهي مشتقة من الكلمة الانكليزية «ميت» (meet)أي (يجتمع أو يقابل...)، إذاً «تلّة المُوْط» تعني «تلّة الاجتماع»، المترجم.
4ـ الغيلية: لغة السلتيين في إيرلندا والمرتفعات الاسكتلندية، المترجم.

لتكون مأوى للجماعات الباقية المنشقّة عن الكنيسة السَلْتيّة في إيرلندا، ومن إحدى هذه الجماعات المنشقّة، جرى تأسيس النظام الرهباني المعروف بـ «سيلي دو» أو «كولديس»، ولكنه كان عاجزاً تماماً عن تدبّر النفوذ الذي حققه عبر البحر الإيرلندي، مع تدفّق السيستيريين في القرن الثاني عشر اختفت الكنيسة الرومانية تقريباً، على سبيل المثال في لوثيان[1] لم تؤسَّس أي أسقفية بعد عام 950م، ولم يؤسَّس أيضاً أيّ مركز اجتماعي ديني في ستراثكلايد[2] بعد ذلك التاريخ.

لكن المملكة السَلْتيّة في اسكتلندا التي حققت تمجيدها بقدوم ألكساندر الثالث كان مقدراً لها أن تموت معه، في مارس/آذار عام 1286م في إحدى الليالي العاصفة، وبينما كان الملك عائداً من اجتماع في أدنبرة، فُصل الملك عن مرافقيه ووُجد في الصباح التالي برقبة مكسورة، مقتله لم يؤد فقط إلى تعجيل الأزمة الداخلية الرئيسة والكفاح المر من أجل العرش، بل كان من شأنه أيضاً أن يمنح انجلترا السبب للتدخّل في الشؤون الاسكتلندية، وعلى مقياس لم يسبق له مثيل حتى ذلك الوقت.

ظهور بروس

مات ألكساندر من دون أبناء، ابنته الوحيدة مارجريت كانت متزوّجة من ملك النرويج، واسكتلندا لم تكن ترغب بحاكم نرويجي، وفقاً لذلك جرى تشكيل حكومة مؤقّتة، تشمل ستّة أشخاص، جرت تسميتهم «حرّاس السلام»، إيرل منطقة فايف أميراً رئيساً، إيرل بوتشان، جيمس ذا ستيوارت (جيمس القهرمان)، جون كومِن، أسقف غلاسكو، وأسقف سانت أندروز[3]، قرّر هذا المجلس، كونه وصياً على العرش، منح التاج لابنة مارجريت ملكة النرويج التي تدعى أيضاً مارجريت، والتي كانت آنذاك رضيعة، فقد جرى الترتيب بأنّ الطفلة بعد نضجها ستتزوّج الأمير إدوارد الذي أصبح لاحقاً إدوارد الثاني ملك انجلترا، ولكن في عام 1290م ماتت مارجريت الشابة في طريق العودة من النرويج، ومسألة التعاقب الاسكتلندي وصلت إلى حالة اضطراب.

1ــ منطقة جنوب شرق اسكتلندا سابقاً، المترجم.

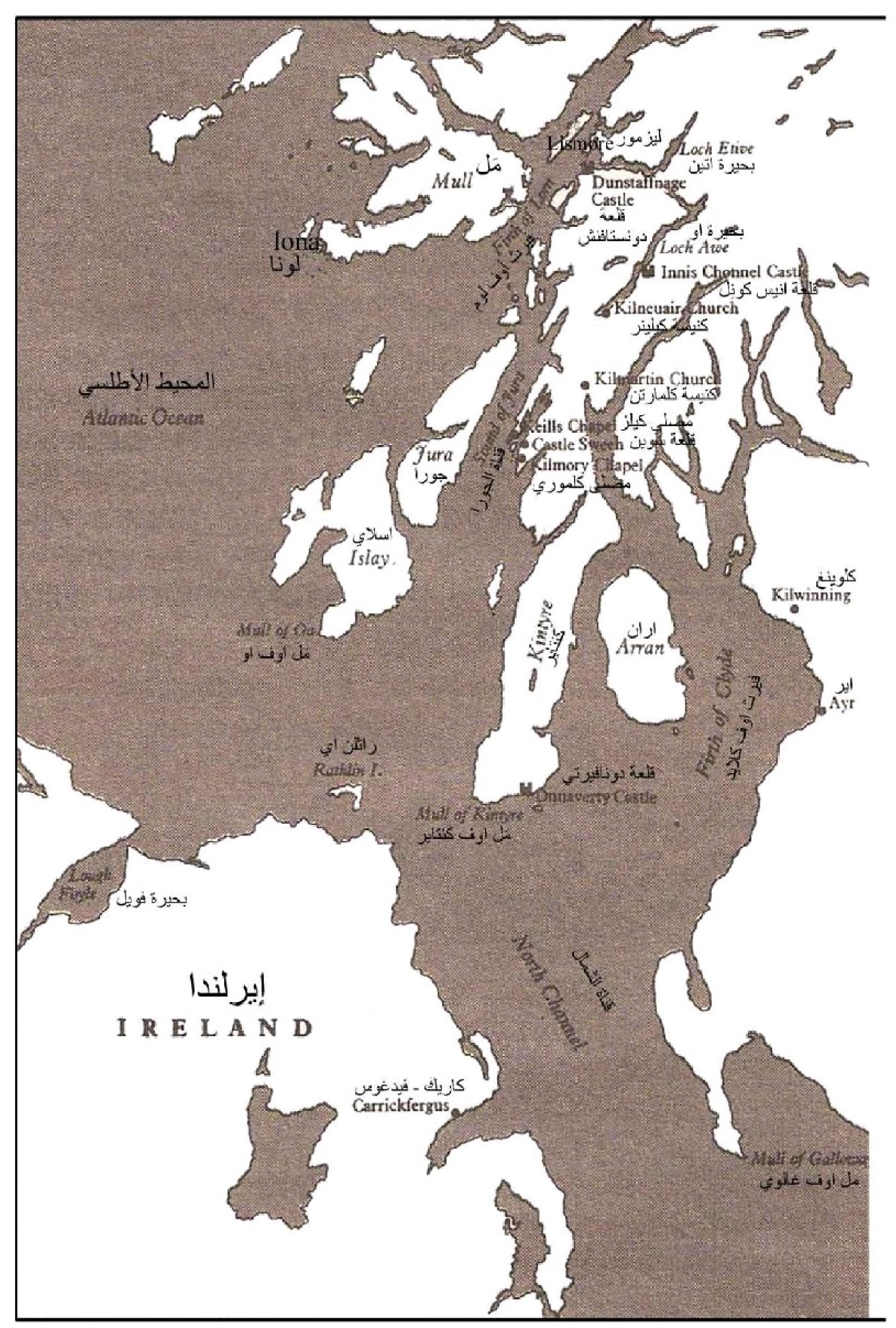
2ــ منطقة جنوب غرب اسكتلندا سابقاً، المترجم.

3ــ سانت أندروز تعني القديس أَنْدَرَاوُسُ، وهو أحد الحواريين الاثني عشر الذين رافقوا السيد المسيح، ولكن لأنه اسم علم فمن الأفضل ذكره كما يُلفظ، أي «سانت أندروز»، سيرد هذا ليدل على مدينة، وأحياناً على جامعة، وأحياناً على اسم محفل ماسوني أمريكي، المترجم.



جنوب ووسط اسكتلندا، شمال إيرلندا في عهد روبرت بروس 1306-1329م

SOUTHERN AND CENTRAL SCOTLAND, NORTHERN IRELAND AT THE TIME OF ROBERT BRUCE 1306–1329



Lismore
ليزمور
Loch Etive
بحيرة اتين
Mull
مَل
Dunstaffnage Castle
Iona
لونا
Loch Awe
Innis Chonnel Castle
Kilneuair Church
Atlantic Ocean
المحيط الأطلسي
Kilmartin Church
Keills Chapel
Castle Sween
Kilmory Chapel
Jura
جورا
Islay
اسلاي
Kilwinning
كلوينغ
Kintyre
Arran
اران
Mull of Oa
مل اوف او
Firth of Clyde
Ayr
اير
Rathlin I.
Dunaverty Castle
قلعة دونافيرتي
Mull of Kintyre
مل اوف كنتاير
Lough Foyle
بحيرة فويل
North Channel
قناة الشمال
إيرلندا
IRELAND
Carrickfergus
كاريك - فيدغوس
مل اوف غالوي

أكثر من اثني عشر مرشَّحاً طالبوا بالعرش، منهم جون باليول جدُّ روبرت بروس المعروف بـ «المنافس».

كان خطر الحرب الأهلية عظيماً جداً، حتى إن أسقف سانت أندروز دعا إدوارد الأول ملك انجلترا للتحكيم، وهكذا حظي الحكم الملكي النورماندي في انجلترا بتفويض للتدخّل في شؤون المملكة السَلْتيّة في اسكتلندا.

لم يهدر إدوارد أي وقت في تحويل هذا التفويض لمصلحته الخاصة، عندما اجتمع مع الاسكتلنديين المطالبين بالعرش في عام 1291م، سارع إلى ادّعاء هيمنته على اسكتلندا، مع الاحتجاجات أُرهب اللوردات الاسكتلنديون وأُخيفوا للاعتراف على نحو جزئي على الأقل بالمكانة الخاصة للملك الانجليزي المُطالب بالهيمنة، بعد أن أجبرهم على هذا الاعتراف أصدر الملك حكمه بمنح الوراثة لجون باليول الذي كان يحظى بحق شرعي، وجرى تتويجه بحسب الأصول في قرية سكون، إدوارد سارع إلى نكث العهد بوعوده باحترام الاستقلال الاسكتلندي، وطلب طاعة مهينة من الرجل الذي منحه العرش، في عام 1294م أدت مطالب الملك الانجليزي إلى تمرّد الاسكتلنديين، وجرى تشكيل تحالف مع فرنسا ومع جون باليول عام 1296م، الذي أنكر ولاءه لعائلة إدوارد، في كل الأحوال في ذلك الحين كان الوقت متأخّراً جداً، كان إدوارد آنذاك قد احتل ونهب بِرِك[1] وتقدّم بجيشه إلى اسكتلندا، هُزم الاسكتلنديون وأُذِلّ باليول علناً، بعد أن استسلم، وأُرسل في النهاية إلى المنفى.

بعد أن أصبحت اسكتلندا تحت سيطرته، بدأ إدوارد بحملة منظّمة لاستئصال كلّ آثار المملكة السَلْتيّة القديمة السياسية والدينية، حظي حجر القدر في قرية سكون أقدم التعويذات السَلْتيّة وأكثرها قداسة بانتباه خاصّ، وجرى بأمر من إدوارد محو النقش الذي عليه، والحجر ذاته أُزيل من سكون وجُلب إلى لندن[2]، الختم الاسكتلندي العظيم حُطّم وجرت مصادرة صناديق السجلات الملكية، في الحقيقة إدوارد عيّن نفسه كالحامي الخاص للدّين، ملكاً من الطراز المسيحي البدائي عندما أعلن حكم روما، لتعزيز هذه

1ــ « «Berwick: بلدة في شمال انجلترا، على نبع نهر التويد، لذلك تُسمى عادة «بِرِك ــ ان ــ تويد»، تركها الاسكتلنديون لانجلترا عام 1482م، المترجم.

2ــ النقش المسجّل باللغة اللاتينية:

(Ni fallat Vatum Scoti hunc quocunque locatum/Invenient lapidem, regnare tenentur ibidem.).

وتعني: (مالم يخطئ الأنبياء، مملكة الاسكتلنديين ستثبت حيثما يجدون هذه الحجارة موضوعة)، المؤلفان.

الصورة كان مربحاً تأكيد السمات الوثنية للمملكة السَلْتيّة القديمة، والتي صُوّرت بأنها ضلالية، هذا إن لم تكن وثنية وشيطانية، بنشر شائعات عن السحر واستحضار الأرواح كان إدوارد قادراً على إظهار المسوغ الأخلاقي واللاهوتي لحملته الصليبية لضمّ اسكتلندا[1].

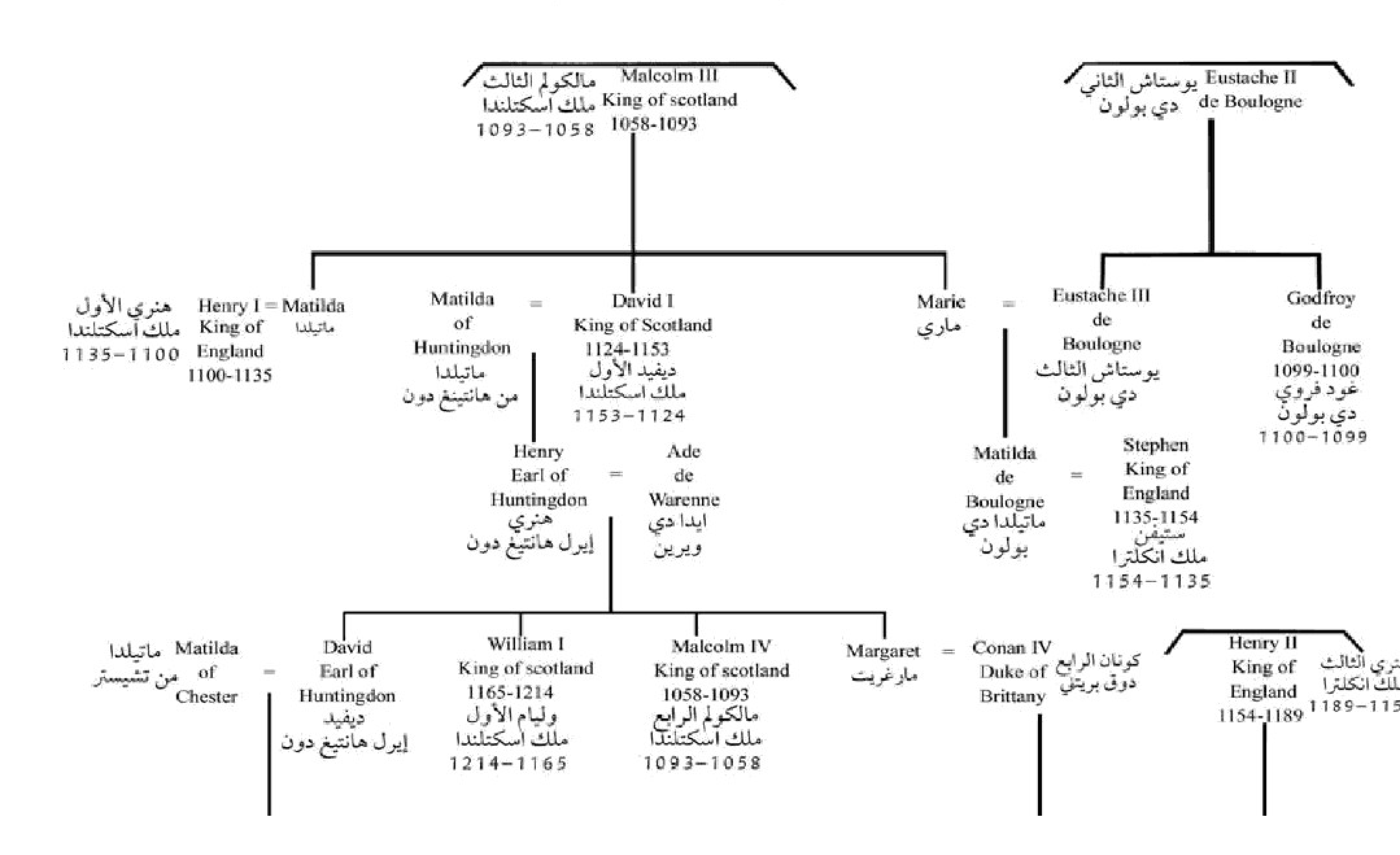
بعد أن قمع كلّ المقاومة في البلاد أودع إدوارد حكمها في أيدي شخص عيّنه هو نفسه، بقيت بلدة وارين على نحو متغطرس متكبّرة على حكمه، وبعد سنة في 1297م أشعل وليام والاس فتيل الثورة العامة باغتيال عمدة لانارك[2]، ثمّ تقدم مع وليام دوغلاس لمهاجمة السلطة القضائية الموالية للانكليز في بلدة سكون، التمرد الذي قام به والاس جرى تنسيقه بنشاط مماثل في أماكن أخرى بقيادة جيمس القهرمان جيمس ذا ستيوارت، وأسقف غلاسكو. نتيجة لمقاومة هذه الخلفية العاصفة ظهر فجأة الشخص المعروف بروبرت بروس لإثارة التمرّد في الجنوب، بروس كان قد جرى تعيينه إيرل بلدة كاريك التي كانت واحدة من أكبر إقطاعية سَلْتيّة في البلاد وأقواها وأعمقها، تشمل أغلب المنطقة الغربية المعروفة بـ «غالوي»، سيطر أتباعه ومُقْطَعوه[3] على مناطق واسعة من الأرض في ألستر، بما فيها جميع أنحاء شمال أنترم التي تُسمى الآن مقاطعة لُندُن دَري[4] وجزيرة راثلين الساحلية، ممتلكات بروس الخاصة عدا كاريك تتضمّن ثلث إقطاعيات هانتينغ دِن وغاريوش ودندي، كان بروس من السلالة الملكية كما رأينا، والد جّده كان قد تزوّج من السلالة المنحدرة من ديفيد الأول.

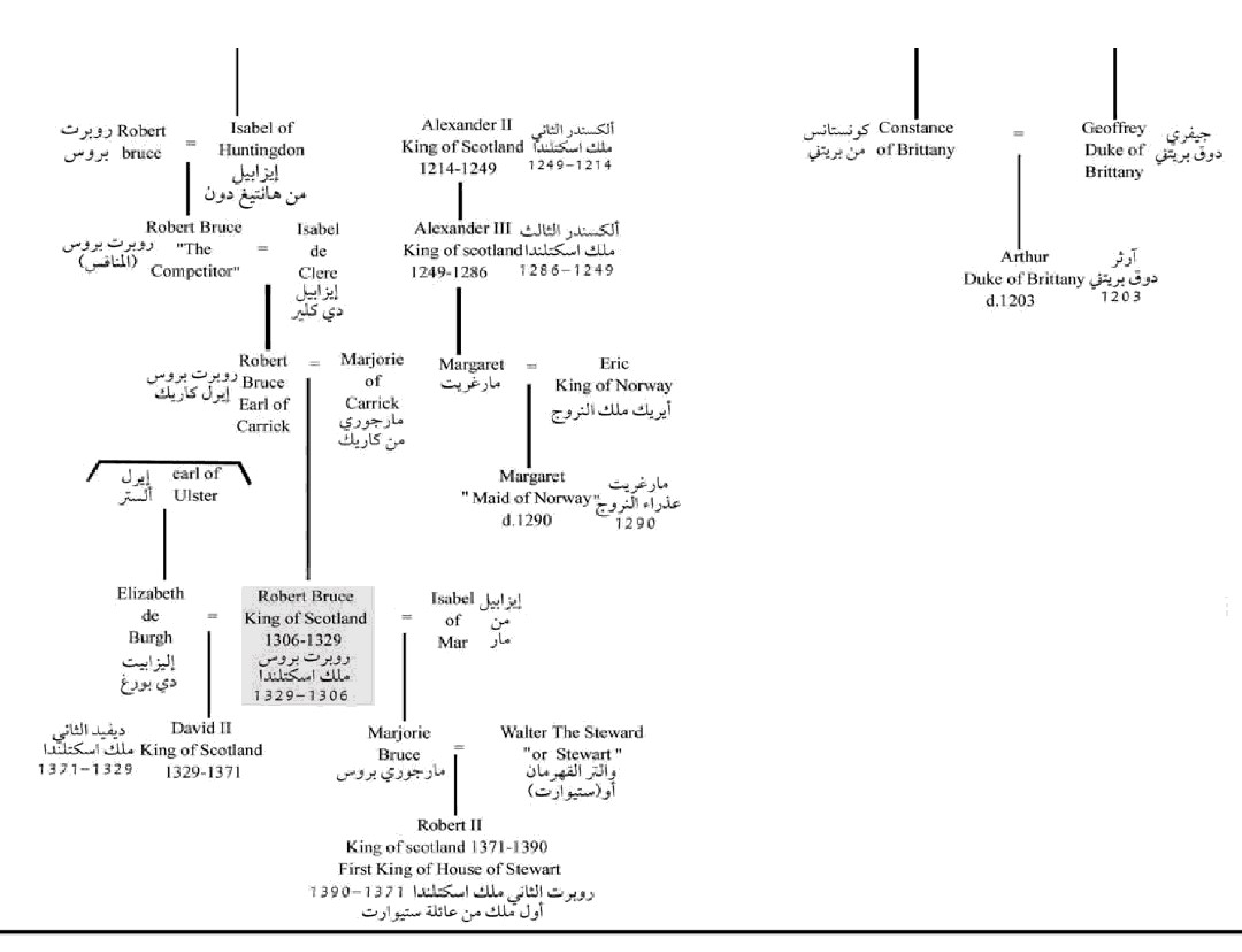
قبيل نهاية عام 1297م استطاع والاس ضمان انتخاب وليام لامبيرتون قاضي قضاة كاتدرائية غلاسكو أسقفاً لبلدة سانت[5] مقر الأسقفية الاسكتلندية الرئيسة، الهدف المرجو آنذاك من استثمار لامبيرتون الذي كان معروفاً بوطنيته الشديدة هو تقوّية القضيّة الاسكتلندية، انطلق مباشرة إلى روما ليحظى بتأكيد انتخابه من البابا ولمناشدة البابوية نيابة عن رفاقه في السلاح، في هذه الأثناء كان والاس قد حصل على لقب الفروسية من إيرل اسكتلندي بارز، ربما بروس نفسه، وفي عام 1298م جرى انتخابه حامياً أوحد للبلاد.

1ــ إدوارد نفسه اتُّهم من الاسكتلنديين باستحضار الأرواح:
البشر قالوا إنّه تبنّى سرّاً الروح التي تجيب عن أيّ سؤال أحبّه، المؤلفان.
2ــ بلدة في وسط اسكتلندا، المترجم.
3ــ المُقْطَع: شخص يُقطعه السيد الإقطاعي أرضاً مقابل تعهده بتقديم المساعدة العسكريّة له، المترجم.
4ــ Londonderry مدينة في شمال غرب إيرلندا الشّمالية، كانت رسمياً تسمى «ديري» إلى أن حُضّنت من الشعب اللندني الانجليزي عام 1613م، المترجم.
5ــ أندروز بلدة ساحلية اسكتلندية على بحر الشمال غرباً، المترجم.

سلسلة الأنساب تُظهر قرابة روبرت بروس بالملوك القدماء لاسكتلندا

GENEALOGY SHOWING RELATIONSHIP OF ROBERT BRUCE TO EARLIER KINGS OF SCOTLAND





روبرت Robert
بروس bruce
Isabel of
Huntingdon
إيزابيل
من هانتيغ دون
Alexander II
King of Scotland
1214-1249
ألكسندر الثاني
ملك اسكتلندا
1249-1214
كونستانس Constance
من بريتني of Brittany
Geoffrey
Duke of
Brittany
جيفري
دوق بريتني
Robert Bruce
"The
Competitor"
روبرت بروس
(المنافس)
Isabel
de
Clere
إيزابيل
دي كلير
Alexander III
King of scotland
1249-1286
ألكسندر الثالث
ملك اسكتلندا
1286-1249
Arthur
Duke of Brittany
d.1203
آرثر
دوق بريتني
1203
Robert
Bruce
Earl of
Carrick
روبرت بروس
إيرل كاريك
Marjorie
of
Carrick
مارجوري
من كاريك
Margaret
مارغريت
Eric
King of Norway
أيريك ملك النروج
إيرل
ألستر
earl of
Ulster
Margaret
" Maid of Norway"
d.1290
مارغريت
عذراء النروج
1290
Elizabeth
de
Burgh
إليزابيت
دي بورغ
Robert Bruce
King of Scotland
1306-1329
روبرت بروس
ملك اسكتلندا
1329-1306
Isabel
of
Mar
إيزابيل
من
مار
ديفيد الثاني
ملك اسكتلندا
1371-1329
David II
King of Scotland
1329-1371
Marjorie
Bruce
مارجوري بروس
Walter The Steward
"or Stewart"
والتر القهرمان
أو(ستيوارت)
Robert II
King of scotland 1371-1390
First King of House of Stewart
روبرت الثاني ملك اسكتلندا 1371-1390
أول ملك من عائلة ستيوارت

في كل الأحوال في ربيع تلك السنة أدت تلك الثورة إلى احتلال انجليزي شامل آخر، في 19 - 20 يوليو/تموز عام 1298م، نصب الجيش الانجليزي المؤلف من 2000 حصانٍ و12,000 من المشاة معسكراً قرب فالكيرك[1] على معبد ليستن الذي يعود إلى فرسان الهيكل، يغطيه مطار أدنبرة حالياً، قوات إدوارد كانت مدعومة بفرقة من فرسان الهيكل، وتتضمّن على نحو كافٍ جداً اثنين من وجهاء النظام المرموقين، هما زعيم النظام في انجلترا وزعيم النظام في اسكتلندا، في هذا الوقت لم يكن الهيكل واقعاً تحت الاضطهاد بعد، ولم يكن هناك سبب معيّن للشعور بالتّهديد، مع ذلك كان وقوفه مع الملك الانجليزي غريباً جداً، غريباً لأنه لم يقم أيّ من المؤرخين بعرض أي تفسير مقنع، فرسان الهيكل كانوا دائماً وعلى نحو صارم محرّم عليهم المشاركة في أي حرب غير دينية، وخصوصاً ضدّ ملك مسيحي، القتال هو المسوغ الوحيد عندهم كان في حرب محددة جداً، وهي الحملة الصليبية التي عُرّفت على نحو كثير الشكوك بأنها عداوة أُطلقت ضدّ الكافرين، الاسكتلنديون من غير الممكن أنهم كانوا كفّاراً، واسكتلندا كانت في الحماية البابوية، في الحقيقة الأسقف لامبيرتون جرى حالاً تأكيد منصبه من البابا بونيفايس الثّامن شخصياً، إنّ التفسير الوحيد لتدخّل فرسان الهيكل هو بروز الوثنية والممارسات السَلْتيّة القديمة بين الاسكتلنديين الثوّار على نحو كافٍ لضمان نوع من «حملة صليبية صغيرة».

على أيّ حال في معركة فالكيرك في 22 يوليو/تموز عام 1298م هُزم الاسكتلنديون شر هزيمة، الخسائر الانجليزية كانت تافهة، في الحقيقة قُتل فقط شخصان رئيسان من الجانب الانجليزي، كانا الشخصين البارزين من نظام الهيكل.

بعد هزيمته في فالكيرك أُجبر والاس على الاستقالة من منصبه حارساً أوحد للبلاد، لكن هذا لم يُنه الثورة، في خريف عام 1298م عيّن الثوّار جون كومِن وروبرت بروس للرئاسة بمنحهما معاً لقب حرّاس البلاد لمواصلة الكفاح، في كل الأحوال حدث خلاف بينهما قريباً، والمشاحنات بينهما لم تؤثر فقط في عملهما المنسّق ضدّ الانجليز، بل أدت أيضاً إلى مقتل بروس، لذلك في عام 1299م، عندما عاد الأسقف لامبيرتون من روما عيّن حارساً ثالثاً للتحكيم بين مواطنيه، في الحقيقة كان لامبيرتون متعاطفاً بقوة مع بروس، وسرعان ما تورّط في مشاحنة خاصة به ضد كومِن، استقال بروس بعد أن سئم وقرف من كلّ هذا النزاع، وترك اسكتلندا مؤقتاً في أيدي كومِن ولامبيرتون، ومضى في دعم منصبه بالوسائل الأخرى، هذا احتاج إلى اثنين من التحالفات السلالية الهامة.

1ـ بلدة في وسط اسكتلندا، المترجم.

في أوائل عام 1290م تزوّج بروس من إيزابيل ابنة إيرل بلدة مار، بينما تزوجت أخته كريستينا من شقيق إيزابيل الذي أصبح إيرلاً، بزواجه من إيزابيل أنجب بروس طفلة اسمها مارجوري التي تزوّجت في عام 1315م من والتر ابن جيمس القهرمان، ولكن في عام 1302م، باشر بروس بعد وفاة إيزابيل بتشكيل تحالف مؤقت مع الانجليز بذريعة رائعة، تزوّج أليزابيث دي بورغ ابنة إيرل ألستر المؤيد الموالي للملك الانجليزي، منذ عهد دالريدا كان هناك ارتباط وثيق ثقافي وسياسي بين ألستر وأرليّة بروس الخاصة لكاريك، هذا قابل للإدراك حتى في الوقت الراهن، وذلك خلال تكرر الأسماء المحلية التي تبدأ بـ «كاريك» في إيرلندا الشّمالية، كان بروس بزواجه من ابنة إيرل ألستر قادراً على إنعاش الولاء القديم بين إقطاعيته الخاصة في اسكتلندا والأراضي الإيرلندية التي امتلكها اللوردات السابقون لكاريك، هو الآن قادر على أن يحشّد دعماً كبيراً وقوة بشرية هائلة عبر البحر الإيرلندي، ومع الحلفاء في ألستر يمكن الاحتفاظ بطريق بحري حاسم مفتوح على نحو مستمر للحصول على التجهيزات والمعدّات العسكرية.

في هذه الأثناء استمرّت الثورة من دونه، في معركة روزلين عام 1303م هزم كومِن فرقة انجليزية صغيرة، على أي حال أثبت هذا أنه نجاح قصير الأجل، ففي عام 1304م قام إدوارد بغزو اسكتلندا مرة ثانية، وأجبر كومِن على الاستسلام والولاء للتاج الانجليزي، في عام 1305م تدهورت قضية الاستقلال الاسكتلندي على نحو أكبر بأسر والاس، وبهمجية متوحشة ومفرطة حتى في العصور الوسطى جرى قتل والاس، ومن دون مبالغة جرى جرّه بالحصان أربعة أميال من ويست مينستر إلى سميثفيلد، وجرى خصيه وتشويهه وتقطيعه وهو حيّ، ثم نُزعت أحشاؤه وضربت عنقه، جسمه قُطّع إلى أربع قطع عُرضت في أماكن مختلفة.

قتل جون كومِن

كان والاس ميتاً، وكومِن في قبضة الانكليز الحازمة، لكن في مارس/آذار عام 1304م توفي والد بروس قبل عام من أسر والاس تاركاً إياه للمطالبة على نحو مباشر بالعرش، بعد ثلاثة أشهر في يونيو/حزيران عقد اتفاقية سرية مع الأسقف لامبيرتون، عقائد هذه الاتفاقية لم تذكر على الإطلاق علناً أو على نحو واضح، ولكن وفقاً لما أورده أحد كتّاب سير بروس، المدعو «جي. دبليو. إس. بارو»: (تلك الاتفاقية تحدثت على نحو غير واضح عن «المنافسين» وعن «الأخطار»)، من المتفق عليه عموماً الآن هو أن الاتفاقية تضمّنت خطط الحصول على اسكتلندا سَلْتيّة مستقلة، وعلى أن بروس يترأسها ملكاً

بدعم من لامبيرتون، في كل الأحوال قبل التمكن من تطبيق هذا المشروع كان من الضروري معالجة مسألة جون كومِن.

عائلة كومِن التي تضمّنت أرليّة بوتشان ومونتيث كانت عائلة عريقة، ويمكنها أن تجاري عائلة بروس في النفوذ والسمعة، جون كومِن نفسه كبير سلالة العائلة القديمة، من بين ألقابه الأخرى التي كان يتصف بها كان لورد لوتشيبر وبادنوش وتيندل، مع أنّه تشاجر ضد بروس ولامبيرتون، إلا أن نزاهته وهو اسكتلندي وطني لم يسبق لها أن فُنّدت. باستسلامه في عام 1304م لإدوارد ملك انجلترا أصبح ضعيفاً ومستهدفاً.

الأحداث اللاحقة أثبتت أنها محيّرة، الكثير منها كان مبهماً حتى في ذلك الوقت، الكثير منها يبدو أنه قُمع بتعمد، ما هو مؤكد أنه في 10 فبراير/شباط عام 1306م قام بروس بقتل خصمه بكلتا يديه في كنيسة الرهبان الرماديين في دومفريس، كومِن طُعن بخنجر أمام المذبح الرئيس وتُرك لينزف حتى الموت على أرض الكنيسة الحجرية، طبقاً لعدّة روايات هو لم يمت مباشرة، وأُنقذ من الرهبان الذين سارعوا إلى إسعاف جروحه، بروس عاد إلى الكنيسة بعد أن سمع بهذا، وجرّه إلى المذبح وذبحه، هناك وعندما حاول عمّ كومِن التدخّل قُتل من نسيب بروس كريستوفر سيتون.

يكتب جون باربور عن الحادثة بعد تسع وستّين سنة، وهو المؤرخ الرئيس الوحيد لتلك الفترة والكاتب الأساسي لسيرة بروس، وكان في كتابته عن هذه المسألة غامضاً على نحو يثير الفضول، لأن باربور معروف عموماً بأنه شامل في تفصيله، فهو يدون الأسماء والتواريخ والإحصائيات بدقة، باربور يصف جريمة القتل تحديداً على نحو مطول بعض الشيء، لكنه عملياً لا يتحدث عن أي شيء يتعلق بسبب تلك الجريمة، يقترح بتردد أن بروس وكومِن شكلا معاً حلفاً ضدّ الانجليز، وكومِن أراد أن ينكث ذلك العهد، يقترح أنّ الرجلين اجتمعا على نحو عرضي في الكنيسة، وأن القتل حصل على نحو ارتجالي، بعد ثورة غضب مفاجئة نتجت من اتّهامات بالخيانة، لكنّه نفسه بعد ذلك يعترف بأنّ هناك تفسيرات أخرى، إلا أنه عمل بحرص ودهاء على عدم روايتها،[1] المؤرخون اللاحقون يعترفون بأنّه بلا شك كان هناك ما هو أبعد من المسألة الظاهرة للعيان، لكن هذه التفسيرات كافية شيئاً ما، هناك سمات لقتل كومِن لا يمكن توضيحها كلياً بخيانة الحلف، أو بالكراهية الطويلة الأمد بينه وبين بروس.

1ـ يقول باربور: ومع ذلك هناك بعض الرجال يقولون: النزاع سلك منحى آخر، لكن مهما كانت الطريقة التي وقع فيها الشجار فهو مات بذلك، أعرف تماماً، المؤلفان.

في المقام الأول هناك دليل مقنع على أن قتل كومِن لم يكن ردة فعل تلقائية ناجمة من الغضب، على العكس يظهر أنه كان عملية قتل حريصة، سبقها الإصرار والترصد، وربما جرى التدرّب عليها أيضاً، يبدو أن كومِن أُغري عمداً للقدوم إلى الكنيسة، علاوة على ذلك كان سيحضر على نحو مؤكد ومعه حاشيته العسكرية الخاصة، عدا عمّه، وقفت جانباً ولم تقم بأدنى حركة.

ومن غير الممكن أيضاً إهمال مكان جريمة القتل، ففي النهاية تُعدّ الكنائس أرضاً مقدّسة، وتمتلك الحق في توفير الملجأ، ومحرّم بصرامة إراقة الدمّ في الكنيسة، وهذه الخطيئة كان يلتزمها باحترام فائق أقوى رجال ذلك العصر، حتى في تلك المناسبات النادرة التي جرى فيها ارتكاب جرائم قتل في الكنائس مثل مقتل توماس بيكيت مثلاً كانت تجري على نحو لا تُراق فيه الدماء عموماً، إن استخدام بروس لأداة قذرة جداً كالخنجر، وقيامه بجر كومِن مرة ثانية إلى المذبح بعد أن جرى إنقاذه من الرهبان ومن دون إبداء أي رحمة أو ندم، كل ذلك يقترح ما هو أكثر من فقدان الصواب فقط، ذلك يقترح تحدّياً واضحاً أيضاً، بل متوهّج، ليس للسلطة الانجليزية التي أقسم كومِن على الولاء لها فقط، بل تحد لروما أيضاً، يبدو أن قتل كومِن يشير إلى إنكار البابوية على نحو أكبر من إنكار إدوارد. ما هو أكثر يحمل طابع القتل الشعائري المعروف، وذلك شبيه بقيام أحد المرشحين للعرش بقتل شعائري للمرشّح الآخر على الأرض المكرّسة، وفق تقليد وثني قديم، لا أحد في ذلك الوقت كان غافلاً عن الرمزيّة القويّة المتأصّلة في جريمة بروس، في الحقيقة هي رمزية قويّة جداً حتى إنها تفوق الجريمة ذاتها.

ردّ البابا كان كما هو متوقع تماماً، بروس طُرد بسرعة، وكان عليه أن يبقى كذلك أكثر من عقد من الزمن، ومع ذلك كان الحدث كافياً جداً، إلا أنه لم يولد أي انطباع لدى رجال الدين الاسكتلنديين، لامبيرتون لم يصدر أي كلمة تنتقد صديقه وحليفه، وكذلك ويشارت أسقف غلاسكو ثاني أهم قسّ في البلاد في ذلك الوقت، والذي حدثت جريمة القتل في أبرشيته، إن لم يكن شيئاً آخر يبدو أن كل الأساقفة أيدوا تصرف بروس، وتوقّعوه سلفاً، وعودة إلى المؤرخ «جي. دبليو. إس. باروو» «لا يبدو من التهور الظن أن ويشارت كان يعرف مقدماً الزمن التقريبي الذي سيُنفَّذ فيه الانقلاب».

مع وفاة كومِن ادّعى بروس مباشرة حقه في العرش، لامبيرتون دعمه، وكذلك ويشارت، في الحقيقة بروس بعد أن أمات منافسه توجه مباشرة إلى غلاسكو، حيث استقبله ويشارت لإجراء مناقشات عالية المستوى، وعندما بدأ بروس بحملة جديدة ضدّ الانجليز، مجدّها كل من لامبيرتون وويشارت، وبتجاهل واضح لروما كونها حملة صليبية حقيقية.

بهذه المباركة الكنسية تقدم بروس للاستيلاء على القلاع المطلة على خور كلايد[1]، وبذلك يحمي طرق الإمدادات إلى ألستر وإلى الجزر الغربية، وكأن الوقت قد حان قام الأسقف ويشارت بإخراج العباءات المخبأة والأردية الكهنوتية للعائلة الملكية القديمة، إضافة إلى الراية التي تحمل شعار البيت الملكي السَلْتيّ القديم، اختفى لامبيرتون الذي يُفترض أنه يُشرف على برِك وعلى المجلس الانجليزي المفوَّض لحكم اسكتلندا، في هذه الأثناء ظهر في سكون بعد ستّة أسابيع من موت كومِن حيث توّج بروس ملكاً رسمياً، وذلك بعد أن أدّى القداس للملك الجديد وبايعه، وتعهّد له بالولاء والإخلاص، المؤرخون يتفقون على أنّه مهما كانت الظروف التي ارتبطت بمقتل كومِن، إلا أن هذه الأحداث لا بد من أنها كانت مرتّبة من قبل.

في الحقيقة كان هناك تتويجان منفصلان جداً، التتويج الأول الذي لم يبق منه إلا بضعة تفاصيل يبدو أنه كان تقليدياً تقريباً وأنه حدث في 25 مارس/آذار عام 1306م، في دير بلدة سكون، لامبيرتون ترأس المراسم، وحضرها ويشارت والأسقف موري الموريني[2] ورئيسا ديري بلدتي سكون وإنشافري وإيرلات بلدات لينيكس ومونتيث وأثول، وربما إيرل بلدة مار أيضاً.

حدث التتويج الثاني بعد يومين، وتضمّن وضع بروس على عرش سكون وفق عادة سَلْتيّة قديمة، تقليدياً كان يجب إيصاله إلى الكرسي الملكي من طرف النبيل الأعظم في البلاد، وهو إيرل بلدة فايف الذي أدى هذا الدور في تتويج الملوك الاسكتلنديين عدة قرون[3]، في ذلك الوقت كان إيرل فايف قد بلغ سن الرشد منذ فترة قصيرة، وكان تماماً تحت سلطة إدوارد ملك انجلترا، في النتيجة جرى إعفاء الولد من مهمته من أخته إيزابيل زوجة إيرل بوتشان الذي هو أحد أبناء عمومة كومِن، أخته توجّهت شمالاً قادمة من أملاكها في انجلترا خصوصاً لأداء تلك المراسم.

في الماضي عكف المؤرخون على عدّ مهمة بروس وحملته من أجل الاستقلال الاسكتلندي سياسية جوهرياً، بدلاً من ثقافية، في النهاية جرى إهمال العنصر السَلْتيّ على نحو كبير، وجرى تصوير بروس بأنه الملك النورماندي النموذجي للعصر، « في الأوقات الأخيرة تقريباً فقط جرى تقدير المساهمة الاسكتلندية «السَلْتيّة» في الكفاح»، الآن أصبح

1ـ لسان بحري من قناة الشمال في جنوب غرب غلاسكو العاصمة الاسكتلندية، المترجم.
2ـ الموريني: نسبة إلى موري (Moray)، وهي بلدة في شمال شرق اسكتلندا، المترجم.
3ـ أي الشخص الذي يحمل لقب إيرل بلدة فايف هو من يتوج الملك الجديد، هذه العادة منذ عدة قرون، المترجم.

واضحاً أنّ مساهمة اسكتلندا السَلْتيّة كانت حاسمة في الحقيقة، حملة بروس كونه زعيماً سَلْتيّاً على نحو محدّد وعازماً على إعادة المملكة السَلْتيّة القديمة لم تكن سياسية فقط، بل كانت ثقافية وعرقية أيضاً، لذلك على سبيل المثال، في عام 1307م، عندما كان إدوارد على فراش الموت نشر رواة بروس حكايات النبوءة المزعومة لمرلين[1]، طبقاً لهذه النبوءة سيتوحد الشعب السَلْتيّ عند وفاة إدوارد، ويحرز الاستقلال، ويؤسس مملكته الخاصة، ويُفترض أنها ستمتد عبر البحر الإيرلندي، وسيعيش بسلام.

هذه النبوءات في كل الأحوال كانت على نحو مؤكد قبل أوانها، فكل من انجلترا وروما سارعتا إلى الرد الشديد على تتويج بروس، لأنه إن كانت انجلترا تنظر إلى إعادة الحكم الملكي السَلْتيّ تهديداً سياسياً، فإن روما تنظر إليه شيئاً مشؤوماً على نحو أكبر، فهو ربما إحياء للعادات الاسكتلندية القديمة، ربما الكنيسة السَلْتيّة الضلالية، أو الأسوأ من ذلك عودة وثنية ما قبل المسيحية، عدم المبالاة العامّة في اسكتلندا بحرمان بروس كنسياً كان نذير خطر، وكذلك كان عدم المبالاة بالاعتراضات البابوية العنيفة الأخرى التي واجهت بروس.

أصعب الاعتراضات على تتويج بروس كان ردّ الفعل الانجليزي، في هذه الأثناء كان دعم بروس كبيراً، إضافة إلى إيرل اسكتلندا الأبرز، تضمّن دعم بروس عائلات مهمة مثل آل فريزر والهايز وآل كامبيل وآل مونتغومري وآل ليندساي وآل سيتون، وهم بعض من الذين سيُذكرون لاحقاً في هذه القصّة، لكن هذا الدعم لا يزال غير كافٍ لإيقاف تقدّم الجيش الانجليزي عندما سيطر على مجريات الأحداث مرة أخرى، في 19 يونيو/حزيران عام 1306م هاجم إدوارد الاسكتلنديين قبل الفجر وأوقع بهم هزيمة نكراء في معركة ميثفن (Methven)، إيرل أثول أُسر وأُعدم، وكذلك سايمون فريزر ونيل بروس وكرستوفر سيتون وأخوه جون، وحتى السيدات اللواتي ارتبطن بقضية بروس لم ينجون من الغضب الانجليزي، إيزابيل كونتيسة بوتشان التي شاركت في التتويج السَلْتيّ لبروس وُضعت في قفص معلق على حائط خارج قلعة بِرِك، وأُبقيت هناك أربع سنوات حتى عام 1310م، شقيقة بروس ماري سُجنت في قفص مماثل في برج قلعة روكسبرغ، ولم يجرِ إخراجها حتى عام 1314م، مارجوري ابنة بروس، وعمرها اثنتا عشر سنة، حُكم عليها أولاً بالسجن في قفص ثالث في برج في لندن، ولكن بسبب غلبة الإحساس أو التأثر جرى إخراجها وإيداعها في دير بدلاً من ذلك. في رأي الكثيرين من المؤرخين « بدت النوعية الجنونية لثأر الملك إدوارد دائماً أكثر إذهالاً في معاقبته للنساء السجينات»، لكن على

1ــ مرلين: ساحر ومستشار أسطوري للملك آرثر، المترجم.

المرء أن يتذكّر المكانة الفريدة التي كانت تتميز بها النساء في المجتمعات السَلْتيّة، فقد كُنَّ الكاهنات والنبيّات والأزهار والأوعية التي تحمل السلالة الملكية وتحافظ عليها، في ظن إدوارد لم تكن النساء في حاشية بروس بلا شك قريبات من النورماندين على قدر ما هُنَّ قريبات من ساحرات مَكْبَث[1].

جيشه دُمِّر، بروس نفسه أُجبر على الهروب، وجد مأوى له أولاً في جبال بيرتشاير، ثمّ في آرغايل، من آرغايل هرب إلى كينتير ومن هناك بحراً إلى جزيرة راثلين عند ساحل ألستر، هنا يُعرف بأنه قضى جزءاً من شتاء عامي 1306م ـ 1307م، ولكن حركاته ونشاطاته الأخرى قبل فبراير/شباط عام 1307م كانت مجهولة، في كل الأحوال من المعقول صحة افتراض أنّه أمضى على الأقل جزءاً من وقته في ألستر، مستفيداً من تحالف ألستر/كاريك القديم، ليقوم بحشد الدعم الإيرلندي، على نحو مؤكد هذا الدعم كان قادماً، لأنه عندما ظهر ثانية كان بصحبة عدد من النبلاء الإيرلنديين وأتباعهم.

عاد بروس إلى كاريك في فبراير/شباط عام 1307م بقوة كبيرة، واستأنف العمليات ضدّ الانجليز، على نقيض النبوءات لم يوقف موت إدوارد في يوليو/تموز العداوات مدة طويلة جداً، في السنوات السبع التالية تماماً في الفترة التي جرت فيها مضايقة فرسان الهيكل في أوروبا وفي انجلترا كانت الحرب في اسكتلندا مستمرّة، ولكن على نحو متقطع، في اجتماع برلمان سانت أندروز عام 1309م عُيّن بروس رسمياً «ملك الاسكتلنديين»، منذ تلك اللحظة فصاعداً كان على نحو فعلي ملكاً على كلّ اسكتلندا ومعترفاً به من شعبه الخاص، ومن رؤساء الدول الآخرين، ومن كلّ شخص عدا البابا الذي حرمه كنسياً والملك الجديد لانجلترا إدوارد الثّاني، هذا الأخير كان كأبيه، من واجبه أن يجلب الاسكتلنديين تحت سيطرته، ويضمّ مملكتهم إلى ممتلكاته الخاصة.

في شتاء عام 1310م ـ 1311م أطلق إدوارد هجوماً جديداً، تعلّم بروس من تجربته في ميثفن أن لا يواجه خصمه في معركة حامية تقليدية، كان خصمه يفوقه عدداً دائماً، على نحو خاص كان يفتقر إلى الفرسان، وهم الجنود الخيالة المسلحّون والمدرّعون بشدّة، والذين يمكنهم في اللحظة الحاسمة أن يشنّوا هجوماً من شأنه أن يخترق حتى أكثر المواقع صلابة، في النتيجة لجأ إلى تقنية الهجوم والهروب، وجرى القيام بذلك بوساطة فرق من الخيالة المدرعة على نحو خفيف، يركبون خيولاً خفيفة وسريعة قادرة على

1ـ ملك اسكتلندا (1040م ـ1057م) توفي عام 1057م، انتزع العرش من ابن عمه دانكان الأول، المترجم.

المناورة، في الحقيقة استخدم التقنية التي استخدمها المسلمون في الأرض المقدّسة، كما اعتمد أيضاً على نحو واسع على النّبّالين الماهرين.

في الوقت نفسه بدأ الاسكتلنديون بعرض مقاومة أصلب كثيراً، وانضباط صارم على نحو أكثر وخبرة عسكرية أكثر تطوراً، علاوة على ذلك في شهر يناير/كانون الثاني عام 1310م كانوا يتلقون شحنات كبيرة من الأسلحة والأجهزة والمعدّات والتجهيزات العسكرية من إيرلندا، كانت حركة المرور هذه كثيفة جداً ما أثار إدوارد على نحو جعله يعلن غاضباً:

الملك يأمر مستشار إيرلندا وأمين الصندوق بالإعلان في كلّ البلدات والموانئ... الحظر تحت أشد العقوبات على صادرات المؤن والخيول والدروع والتجهيزات الأخرى... إلى الاسكتلنديين المتمرّدين، والتي سمع أنها تصل إليهم عبر تجار إيرلندا.

ومع ذلك، كما أشار المؤرخون الحيارى على نحو قابل للتسويغ، لم تكن إيرلندا أكثر قدرة من اسكتلندا على الصناعة العسكرية الواسعة النطاق، أي أسلحة ودروع وُجدت في إيرلندا وصلت إلى هناك من أنحاء أوروبا.

من الممكن طبعاً أن القدرة المتطورة للجيش الاسكتلندي كانت نتيجة طبيعية للنزاع المطوّل، حيث يصبح الرجال تدريجياً محنّكين وأكثر خبرة، لكنّه من الممكن أن فرق القوات الاسكتلندية كانت تُدرّب وتُصقل من فرسان الهيكل اللاجئين أيضاً، والذين كانوا في النهاية الجنود الأكثر انضباطاً واحترافاً في أوروبا في ذلك الوقت، والذين جلبوا معهم ربما من الأرض المقدّسة التقنيات الإسلامية التي كان بروس يتبنّاها آنذاك، أما الأسلحة القادمة من أوروبا والتي وجدت طريقها عبر إيرلندا ومن هناك إلى اسكتلندا، فمن الصعب تخيّل أي قناة لهذا المرور غير نظام الهيكل الذي مواقعه في إيرلندا، عندما هوجمت من السلطات الملكية أثبتت أنها خالية فعلياً من الأسلحة كما سنرى.

بانوكبورن وفرسان الهيكل

معركة بانوكبورن التي كان من شأنها أخيراً أن تقرّر قضية الاستقلال الاسكتلندي لم تكن نتيجة لمناورات استراتيجية ماهرة، بل مسألة طريفة عن شرف القرون الوسطى، قبيل نهاية عام 1313م وجدت حامية انجليزية صغيرة نفسها محاصرة من إدوارد شقيق بروس في قلعة ستيرلنج التي هي البوّابة إلى المرتفعات وآرغايل، طال الحصار، وقبل إدوارد بروس الذي لم يكن راغباً في هدر موارده على الإطالة غير المحددة للحصار بالشروط المقترحة من المدافعين، في منتصف صيف السنة التالية، إن لم يظهر أي جيش انجليزي ضمن ثلاثة أميال

من القلعة فإن الحامية سوف تستسلم، كان نوع التحدي الذي لم يستطع الملك إدوارد العاهل الانجليزي أن ينكره بشرف، وهكذا أصبح روبرت بروس مُلزماً نوع المعركة من أخيه تحديداً، المواجهة وجهاً لوجه التي تجنّبها منذ معركة ميثفن عام 1306م.

هدف الملك الانجليزي المزعوم كان أن يُخفّف عن قلعة ستيرلنج، في كل الأحوال الحجم الكبير جداً لجيشه يشير إلى أنّ أهدافه الحقيقية كانت أكثر طموحاً لإبادة الاسكتلنديين، وهزم بروس نهائياً وفرض الاحتلال العسكري على اسكتلندا، يتكلّم المؤرخون المعاصرون عن الجيش الانجليزي أن عدده بلغ 100,000 رجل، من الواضح أن هذا مبالغة من النوع المثالي في أثناء العصور الوسطى، مع هذا تُظهر سجلات الوحدات العسكرية في ذلك الوقت أنّ إدوارد استدعى 21,640 جندي مشاة، طبعاً لم يصل كلّ هؤلاء في الحقيقة إلى اسكتلندا، نظراً إلى الاستنزاف الحتمي الناتج من الهروب والمرض، ولكن أولئك الذي وصلوا إلى اسكتلندا رافقهم نحو 3000 فارسٍ خيّال، وكلّ منهم جلب معه حاشيته الخاصة المتمرسة، يتفق المؤرخون الحديثون على أن القوات الانجليزية لا بدّ من أنها بلغت على الأقل 20,000، هذا الرقم كان سيمنحهم تفوقاً عددياً يعادل ثلاثة أضعاف - وهو المقدار الذي تكرر في سجلات ذلك الوقت، يظن أن الاسكتلنديين كان عددهم بين 7000 و10,000، وربما مع 500 نبيل خيال أو «فارس» - مسلّحين ومدرّعين على نحو أقلّ كثيراً من نظرائهم الانكليز. لا يزال هناك خلاف على الموقع الدقيق لمعركة بانوكبورن، لكن من المعروف أنها كانت على بُعد نحو ميلين ونصف عن قلعة ستيرلنج، الاشتباك الرئيس حدث في 24 يونيو/حزيران عام 1314م، هذا التاريخ مثير، لأن 24 يونيو/حزيران هو عيد القدّيس يوحنا، وهو ذو أهمية خاصة لفرسان الهيكل.

إنّ التفاصيل الدقيقة التي حدثت في بانوكبورن مبهمة، لم تبق أي رواية لشاهد عيان، وحتى الشهادات المنقولة غير المباشرة إن وُجدت فهي محرفة أو غامضة، معروف عموماً أن مناوشات حدثت في اليوم السابق، ومعروف على نحو عام أن بروس في مبارزة تقليدية قتل الفارس الانجليزي هنري دي بوهن، يُجمع أكثر المؤرخين على أن الجيش الاسكتلندي كان مكوناً كلياً تقريباً من جنود المشاة المسلّحين بالحراب والرماح والفؤوس، هم أيضاً يتفقون على أن الخيالة بين الصفوف الاسكتلندية فقط هم الذين حملوا السيوف، وأن بروس كان لديه بضعة من هؤلاء الرجال، على نحو مؤكد عددهم وتجهيزهم وخيولهم لا تكفي لمجاراة الفرسان الانكليز، ومع ذلك للمفارقة يصرح مؤرخ القرن الرابع عشر جون باربور عن بروس بأنه: «... من السهولة كان يمكنه أن يفتخر

بجيش عظيم كامل من الرجال المدرّعين»، من هذه المعلومات المتبقية عن المعركة، في الحقيقة من ناحية ما تبدو أنها كانت معركة موجّهة إلى النبّالين الانجليز قام بها الجنود الخيالة، والذين كانوا حتى ذلك الحين بين الصفوف الاحتياطية جزءاً من القوات الشخصية الخاصة لبروس، ولكن ما هو أكثر إثارة للدهشة في السجلات التاريخية هو التدخّل الحاسم، عندما كانت كل الوحدات الاسكتلندية منخرطة في المعركة والنتائج متعادلة، لما يعدّه الانجليز «القوة المفعمة بالنشاط» التي انطلقت فجأة من المؤخّرة الاسكتلندية وهي تحمل الرايات المرفرفة.

طبقاً لبعض الروايات شمل هذا الفريق النشيط الخدم والأطفال والمدنيين شبه العسكريين والموظفين الآخرين غير المقاتلين الذين أخطأ الانجليز في عدّهم جنوداً[1]، يُفترض أنهم انتخبوا قائداً من بين صفوفهم، وعملوا رايات من الشراشف، وسلّحوا أنفسهم بالأسلحة المحلية، ودفعوا بأنفسهم إلى المعركة نسقاً متطوعاً، إنها قصّة رومانسية مثيرة تمنح الوطنية الاسكتلندية الكثير من الشرف، ولكنّها لا تبدو حقيقية، لأنه لو كان التدخّل في الحقيقة عفوياً جداً، وارتجالياً جداً، وغير متوقّع جداً، لكان سيُدهش الاسكتلنديين على القدر نفسه الذي أدهش به الانجليز، عدم الاضراب بين صفوف الاسكتلنديين يشير إلى أن التدخّل كان متوقّعاً، ومن غير السهل أيضاً تخيّل أن الفرسان الانجليز المدرّعين بشدّة هربوا قبل أن يشن فريق المشاة هجومهم، حتى وإن أخطأ هؤلاء الفرسان عندما ظنوا أن الفلاحين والمدنيين شبه العسكريين هم جنود محترفون[2]، كلّ الأدلة تشير إلى أنّ التدخّلات الحاسمة جاءت من بعض الخيالة الاحتياطيين، من هم يا ترى أولئك الخيالة المجهولون؟.

الوصول المفاجئ لقوة نشيطة، مهما كانت هويتها، بعد يوم من المعركة ترك كلا الجيشين الانجليزي والاسكتلندي مستنزفاً، وكان من شأنه أن يحسم نتيجة المعركة، الرعب اكتسح صفوف الانكليز، هرب الملك إدوارد ومعه 500 من فرسانه فجأة بين الحقول، وعلى نحو محبط تبعه جنود المشاة الانجليز مباشرة، وتحول الانسحاب بسرعة إلى اندحار شامل، كل الجيش الانجليزي ترك تجهيزاته ومتاعه وماله وشعاره الذهبي والفضّي وأسلحته ودروعه ومعداته، ولكن مع أن بعض السجلات تتحدث عن عمليات

1ـ أي وفق الروايات الانكليزية هرب الجيش الانكليزي بعد هجوم هذا الفريق، لأنه ظن أنهم جنود محترفون، كما سنلاحظ بعد ذلك، المترجم.

2ـ أي من غير المعقول أن يهرب الفرسان المدرعون الانكليز من جنود مشاة، حتى وإن كانوا محترفين، فكيف إن كانوا مزارعين فقط، المترجم.

ذبح مخيفة، إلا أن الخسائر الانجليزية المسجّلة في الحقيقة لا يبدو أنها كانت عظيمة جداً، يذكر أنه جرى قتل إيرل واحد فقط، وثمانية وثلاثين باروناً وفارساً فقط، يبدو أن سبب الانهيار الانجليزي لم يكن شراسة الهجوم الاسكتلندي الذي كان يمكنهم مقاومته، بل كان سببه الخوف ببساطة.

يصعب تصديق أن الفلاحين والمدنيين شبه العسكريين يمكنهم إثارة رعب كهذا، يمكن من الناحية الأخرى إثارة ذلك الرعب على نحو مؤكد من فريق فرسان الهيكل، حتى وإن كان صغيراً، أياً كان أولئك الدخلاء الغامضون، يبدو أنه كان سهلاً تمييزهم مباشرة، والذين ربما كانوا فرسان الهيكل الذين يتميزون بلحاهم وعباءاتهم البيضاء وراياتهم السوداء والبيضاء المعروفة بـ «Beauséant» (بوزينت)، إن جرى في الواقع تمييزهم بهذه الطريقة، وإن انتشر الحديث عن هويتهم بين الصفوف الانجليزية، فالنتيجة ستكون رعباً من النوع ذاته الذي حدث آنذاك.

لكن إن أدى فرسان الهيكل دوراً حاسماً جداً في معركة بانوكبورن، فلماذا لم يكن هناك أي ذكر لهم في السجلات التاريخية؟، في الحقيقة ربما كان هناك عدد من الأسباب لهذا التكتّم، من وجهة النظر الانجليزية، ما حدث كان مخزياً جداً، لأن تجري مناقشته إطلاقاً، والروايات الانجليزية متحفظة على نحو متوقع على تلك المعركة، أما الاسكتلنديون فكانوا مصمّمين على تصوير معركة بانوكبورن نصراً لشعبهم وثقافتهم وقوميتهم الخاصة، وهذا النصر كان يمكن أن يلوّث بمقترحات عن تدخّل خارجي على نحو ما، ثمّ إن بروس كانت لديه أسباب سياسية خاصة جداً لإخفاء وجود فرسان الهيكل اللاجئين في مملكته أيضاً مع أنّه لا يزال مطروداً، وكان في عام 1314م متلهفاً لدعم الكنيسة، ولا يستطيع أن يخاطر بالعزل البابوي أكثر من ذلك، والأكثر من ذلك أنه لم يكن قادراً على المخاطرة بدفع البابا للتوصية بحملة صليبية شاملة ضدّ اسكتلندا، شيء ما من هذا القبيل حدث في لانغدوق تحديداً قبل قرن من ذلك، والنهب الناتج منه والذي دام نحو أربعين سنة لا يزال في ذاكرة الشعب، علاوة على ذلك كان مؤيده الأوروبي الرئيس فيليب الرّابع ملك فرنسا، وهو الرجل ذاته الذي حرّض على اضطهاد فرسان الهيكل أولاً.

بعد المعركة مُنح أحد أتباع بروس الخاصين وهو أنغس أوغ ماكدونالد اهتماماً خاصّاً، الادّعاء التقليدي لآل ماكدونالد بأنهم قاتلوا ميمنة الجيش الملكي، وهو مكان يحظى بالشرف، قيل إنه مُنح من بروس إلى أنغس أوغ اعترافاً بالدور الذي أدّاه ورجاله في نجاح معركة بانوكبورن.

الأرض المحيطة بكيلمارتن وبحيرة «او» وبحيرة «سوين» كان بعضها مقاطعة ملكية بإدارة الوكيل الملكي السّير نيل كامبيل نسيب بروس، البقية كان ملكاً لآل ماكدونالد، وعلى نحو طبيعي سيقاتل أيّ من فرسان الهيكل الذي استقروا في المنطقة خلف قيادة أنغس أوغ الاسمية.

معركة بانوكبورن كانت إحدى المعارك الحاسمة الست أو أكثر في العصور الوسطى، وربما أكبر المعارك التي حدثت على الأرض البريطانية إطلاقاً، وضعت عملياً حدّاً للخطط الانجليزية المتعلقة باسكتلندا والتي بقيت مملكة مستقلة 289 سنة تالية، وفي بداية القرن السابع عشر، عندما توحدت الدولتان تحت ملك واحد، لم يكن ذلك خلال الغزو، بل بالميراث.

في كل الأحوال مع تأثير معركة بانوكبورن لاتزال السنوات الخمس عشرة الباقية من عهد بروس عاصفة لأنه افتقر إلى الورثة الذكور، كانت هناك صعاب معيّنة في تعيين الوريث، في عام 1315م بعد معركة بانوكبورن نحو عشرة شهور استقرت الوراثة أخيراً على أخيه إدوارد، بعد شهر ذهب إدوارد بروس إلى إيرلندا، حيث تُوّج في دوندالك في مايو/أيار من السنة التالية ملكاً لتلك البلاد، وبذلك وفق الحلم السَلْتيّ القديم هو الآن قادر على أن يوحّد إيرلندا واسكتلندا، في أكتوبر/تشرين الأول عام 1318م توفي، ووريث كلا العرشين أصبح شاغراً مرة ثانية، في ديسمبر/كانون الأول جرى الإجماع على أنه بوفاة بروس سيُسلّم العرش الاسكتلندي إلى حفيده روبرت، ابن والتر القهرمان ومارجوري بروس.

في 6 أبريل/نيسان عام 1320م جرى إصدار وثيقة استثنائية تُسمّى وثيقة أربروث، كانت على شكل رسالة موقعة وموثقة من ثمانية إيرلات وواحد وثلاثين من النبلاء الآخرين، بمن فيهم ممثلون من عائلات سيتون وسينكلير وجراهام، أشارت هذه الرسالة إلى التاريخ الأسطوري للاسكتلنديين لأصولهم المزعومة من سيثيا[1] واهتدائهم الديني هناك من القديس أَنْدَرَاوُسُ[2]، وصفت روبرت بروس بأنه مخلصهم، ورحّبوا به كأنه «المكابي الثاني أو يَشُوع الثاني»، وتلك المقارنات التوراتية محببة لدى فرسان الهيكل تقليدياً، في كل الأحوال الأكثر أهميّة هو إعلانها استقلال اسكتلندا، وعلى نحو رائع تطوّر حديث للتعريف بعلاقة الملك بشعبه.

1ـ ما يُعرف الآن بأوكرانيا، المترجم.
2ـ أحد الحواريين الاثني عشر، كان القديس الراعي لروسيا واليونان واسكتلندا، المترجم.

العناية الإلهية المقدسة وحقّ الوراثة وفق قوانين وتقاليد المملكة والموافقة والقبول الشرعي والواجب من كلّ الناس هي ما جعله ملكنا وأميرنا، به نحن ملتزمون، ومصممون على التزام كلّ الأشياء، بالمسألة التي تخص حقّه وبمسألة جدارته، لكونه الشخص الذي أعاد للشعب الأمان دفاعاً عن حرياتهم، ولكن في النهاية، إن كان الأمير سيتخلى عن هذه المبادئ التي اتّبعها بنبالة كبيرة، ووافق على أننا أو مملكتنا يجب أن تكون خاضعة للملك أو الشعب الانجليزي، فإننا سنجهد لعدّه مباشرة عدونا، وأنه مفسد لحقوقه وحقوقنا، وسنعين ملكاً آخر، هو الذي سيدافع عن حرياتنا.

بكلمة أخرى بروس، لم يكن ملكاً بـ«الحقّ المقدّس»، كان ملكاً فقط إلى أن يجري تجريده من مهام منصبه، ضمن سياق ذلك الزمان، كان هذا تعريفاً متقدّماً جداً للملكية[1].

في عام 1322م أطلق إدوارد الثّاني حملته الأخيرة، بل الفاترة ضدّ اسكتلندا، ولكنها أخفقت، وانتقم بروس بالهجوم على يوركشاير، في عام 1323م توصل البلدان إلى ما يُفترض أنه كان هدنة مدتها ثلاث عشرة سنة، ودامت أربع سنوات فقط، في هذه الأثناء كان بروس قد أصبح متورّطاً بشجار جديد ضد البابوية التي كانت آنذاك في مرحلتها الخاصة من الانشقاق الديني والتي تُدعى بـ «أسر أفينيون»[2]، بعضاً من الوقت كان إدوارد ملك انجلترا يتوق إلى تخليص الكنيسة الاسكتلندية من أساقفتها القوميين الأقوياء، أساقفة مثل لامبيرتون من سانت أندروز، ويشارت من غلاسكو، وليام سينكلير من دونكيلد، شقيق السّير هنري سينكلير من روزلين، أحد الموقّعين على وثيقة أربروث، إلى درجة جعلت الملك الانجليزي يزعج الباباوات المتعاقبين كي لا يكرّسوا أيّ أساقفة محليين جدد لتسلّم الكنيسة الاسكتلندية، البابا المقيم في أفيغنيون جون الثّاني والعشرون كان أذناً صاغية، في كل الأحوال نسق بروس مع أساقفته الخاصين لتحدّي رغبات الحبر، وفي عام 1318م حرم كنسياً مرة ثانية، برفقة جيمس دوغلاس وإيرل موري، بعد سنة طلب البابا أن يمثل أمامه كل من أساقفة سانت أندروز ودونكيلد وأبردين وموري ليشرحوا مواقفهم، أهملوا طلبه، وفي يونيو/حزيران عام 1320م حُرموا كنسياً أيضاً،

1ـ لأن الملك الحقيقي هو ملك حصل على منصبه بالوراثة التي تخوله لذلك المنصب، ومن ثم لا أحد قادر على نزعه من منصبه قانوناً، أياً كانت تصرفاته، إذاً هناك إشارة إلى قوة كبيرة تفوق القانون الملكي هي التي أدت إلى كتابة البنود الأخيرة من الرسالة، المترجم.

2ـ يجري كثيراً تسمية تلك الحادثة «الأسر البابلي»: في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، تعبير «الأسر البابلي» يُستخدم دائماً للدلالة على إقامة الباباوات في أفينيون في فرنسا من عام 1309م إلى عام 1377م، المترجم.

على طول هذا الصفّ كان البابا مستمرّاً في رفض الاعتراف ببروس ملكاً، وكان يُشير إليه بوضوح فقط «حاكم مملكة اسكتلندا»، لم يلن البابا جون الثّاني والعشرون حتى عام 1324م، حيث أقرّ أخيراً بأن بروس ملك في نظر الكنيسة.

في عام 1329م توفي بروس، وسيخلفه ابنه ديفيد الثّاني كما هو مرتّب، قبل موته أبدى أمنية بأن يُنزع قلبه، ويوضع في صندوق ويؤخذ إلى القدس، ويدفن في كنيسة الضريح المقدس، لذلك في عام 1330م ذهب السّير جيمس دوغلاس والسّير وليام سينكلير والسّير وليام كيث، وعلى الأقل فارسان آخران إلى الأرض المقدّسة، دوغلاس كان يحمل قلب بروس في صندوق فضّي معلق برقبته، مخطّط رحلتهم أخذهم عبر إسبانيا، حيث تعرفوا على ملك قشتالة وليون ألفونسو الحادي عشر، ورافقوه في حملته ضدّ العرب في غرناطة، في 25 مارس/آذار عام 1330م في معركة «Tebas de Ardales» جرت محاصرة الاسكتلنديين الذين كانوا في الطليعة، طبقاً لسجلات القرن الرابع عشر أزال دوغلاس من رقبته الصندوق الذي يحتوي على قلب بروس وقذفه إلى المجموعة المهاجمة، وصرخ:

القلب الشجاع، أوّل من قاد إلى الأمام على نحو مطلق! كما أنت تمنيت.

وأنا سأتبعك، وإلا سيموت الآخرون!.

يظن المرء أن ما هو مشكوك فيه إن كان دوغلاس في شدة تلك المعركة يمتلك وقتاً أو ميولاً لتنظيم أفكاره لتأليف الشِعر، بعد أن قذف قلب بروس إلى الخصوم، في كل الأحوال، هو وزملاؤه الاسكتلنديون تبعوه مهاجمين خصومهم على نحو متهور، كلّهم ماتوا، باستثناء السّير وليام كيث الذي كُسرت ذراعه قبل المعركة، ومن ثم لم يشترك فيها، قيل إنه استعاد القلب من الحقل سليماً على نحو غريب في صندوقه، وأعاده معه إلى اسكتلندا، دُفن في دير ميلروز تحت النافذة الشرقية لمذبح الكنيسة.

في أوائل القرن التاسع عشر فُتح قبر بروس في دير دنفرملين[1]، طبقاً للتقاليد الشعبية السائدة في عهد السّير والتر سكوت وُجد بروس في القبر، وقد وُضعت عظام ساقه بعناية مباشرة تحت جمجمته، في الحقيقة لم يكن الأمر كذلك، لم يكن هناك ما هو غير عادي فيما يتعلق بالجثّة كما يبدو ، لكن هذه التقاليد هادفة، من الواضح أنّ شخصاً ما كان لديه مصلحة شخصية في ربط بروس بالرمز الماسوني «الجمجمة والعظمتين المتصالبتين».

1ــ دنفرملين بلدة في فايف في اسكتلندا، المترجم.

القسم الثاني

الرهبان العسكريون: فرسان الهيكل

كانت الأساطير والخرافات قد أحاطت بفرسان الهيكل حتى قبل حلّهـم عـلى نحـو مفـرط، وكـذلك الشائعات المظلمة والشكوك والخـوف غـير العقـلاني مـن المجهـول، في القـرون التـي تلـت قمعهـم ازداد الغموض والسر المحيط بهم، واللغز الأصيل أصبح أكثر ارتباطاً على نحو مطلـق بـالحيرة غـير المنطقيـة، في أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كما سنرى، سعت بعض المناسك الماسونية بعناية لتأسـيس نـسب يعود إلى فرسان الهيكل، في الوقت نفسه بدأت منظمات أخرى (فرسان الهيكل الجدد) بـالظهور، وتـدّعي بالطريقة نفسها أن نسبها يعود إلى النظام الأصلي، اليـوم هنـاك مـا لا يقـل عـن خمـس مـنظمات تـزعم انتسابها إلى سلالة أو أخرى منحدرة مباشرة من الرهبان المحاربين البيض مـن العـصور الوسـطى[1]، ومـع التهكم والشكّ في عصرنا الراهن هناك، حتى لدى الغرباء، شيء ما سـاحر، بـل رومنـسي، يتعلـق بـالجنود الصوفيين قبل 700 سنة، برايتهم السوداء والبيضاء وصليبهم الأحمر المفلطح المميّز، لقد اخترقـوا تقاليـدنا، تراثنا الفولكلوري، يجتذبهم الخيال لا صليبيين فقط، لكن كشيء مبهم ومثير للعواطـف والـذكريات عـلى نحو أكبر كثيراً، كفاتنين وأصحاب نفوذ عـالي المـستوى، كحـماة لكنـز هائـل، كـسحرة ومطّلعـين غامـضين، كحماة لمعرفة سرية، الوقت خدمهم في آلام محنهم الأخيرة على نحو أفضل مما كانوا يتوقعونه عـلى نحـو مطلق.

حجب الوقت في كل الأحوال أيضاً هوية البشر وسماتهم خلف الستار الغريب للرومانسية، البشر والطبيعة الحقيقية للمؤسسة التي أسسوها، الأسئلة لا تزال تُطرح عن الطريقة التي كانت فيها حقاً معتقدات فرسان الهيكل ضلالية أو كافرة، الأسئلة لا تزال تُطرح عن مقدار الذنب الذي اقترفوه وفقاً للتهم الموجّهة ضدّهم، الأسئلة لا تزال تُطرح عن النشاطات الداخلية العالية المستوى للنظام، نياتهم السرية الكبيرة، مشروعهم الذي يتحدث عن خلق معبد يوضح سياستهم القائمة على المصالحة بين المسيحية

1ــ هناك منظمات يهودية في الكيان الصهيوني ومنها : حركة أمناء الهيكل، لاتمت بصلة إلى فرسان الهيكل، وهـي مـنظمات تدعو إلى هدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل على أنقاضه، وهي منظمات يهودية متطرفة، (المدقق).

واليهودية والإسلام، الأسئلة لا تزال تُطرح عن التأثيرات التي شكّلت النظام، «عدوى» بدعة الكاثار[1] وتأثير الأشكال الأقدم غير البولسية[2] للفكر المسيحي التي صادفها الفرسان في الأرض المقدّسة، الأسئلة لا تزال تُطرح عما حدث للثروة التي جُمعت ممن يُفترض أنهم «جنود المسيح الفقراء»، الثروة التي سعى الملوك لسلبها والتي اختفت من دون أثر، الأسئلة لا تزال تُطرح عن شعائر فرسان الهيكل و«المعبود» الغامض الذي عبدوه زعماً تحت الاسم الغامض «Baphomet»[3]، والأسئلة لا تزال تُطرح عن المعرفة السرية التي من المفترض، وكما يظن أنها خاصة بالمناصب العليا في النظام على الأقل. ماذا كانت طبيعة هذه المعرفة؟، هل كانت «غامضة» حقاً كما ورد في التهم الموجهة من محكمة التفتيش، وتتضمّن ممارسات سحرية محرّمة، ومناسك بذيئة وكافرة؟، هل كانت سياسية وثقافية، تخصّ على سبيل المثال الأصول المسيحية؟، هل كانت علمية وتقنية، تتعلق بأشياء مثل المخدّرات والسموم والطبّ والهندسة المعمارية وفنّ رسم المصورات والملاحة والطرق التجارية؟، كلما تقرَّب المرء أكثر في دراسة فرسان الهيكل صعب حل هذه الأسئلة، بل توسعت هذه الأسئلة.

إن تاريخ فرسان الهيكل تقريباً معاصر بدقة لتاريخ المملكة السلتية الإقطاعية في اسكتلندا كما لاحظنا، من عهد ديفيد الأول إلى عهد بروس، على السطح يبدو أنه هناك وجوداً لبعض الأمور المشتركة الصغيرة الأخرى بين الحكم الملكي الاسكتلندي والنظام

1ـ طائفة من القرون الوسطى، طائفة أوروبية ضلالية من القرن الثاني عشر ظنت أن الأرض يحكمها الشيطان، وأنّ الخلاص في التنازل عن الحياة المادية وتبني طريقة الحياة الروحية، المترجم.

2ـ بولسية: نسبة إلى بولس مخترع المسيحية الغربية التي نادت بألوهية المسيح، وله رسائل ألحقت بالأناجيل عنوانها أعمال الرسل ورسائلهم، (المدقق).

3ـ بافوميت (Baphomet) كما يقال إنه محرّف عن الاسم العربي «أبو فهمات» (abufihamet) الذي يُلفظ بالإسباني المغاربي كـ «بو فهمات» (bufihimat)، هذا يعني «أبو الفهم» أو «أبو الحكمة،» و«أب» في العربية تُستخدم للدلالة على «مصدر»أيضاً، إن كان هذا في الحقيقة هو أصل بافوميت، فمن المفترض إذاً أنه يدل على مبدأ ما خارق أو مقدّس، لكن الشيء الذي ربّما ميّز البافوميت بقدسيته وبقدراته من عالم ما وراء الطبيعة هو أمر غير واضح، يُقال إنه رأس من نوع ما ووفق التهم التي وجهتها محكمة التفتيش إلى فرسان الهيكل، تلك التهم تقول:
مادة ـ إنهم في كلّ محافظة لديهم أصنام، يعني الرؤوس.
مادة ـ إنهم عشقوا هذه الأصنام.
مادة ـ إنّهم قالوا إنّ الرأس يمكن أن ينقذهم.
مادة ـ إن ذلك الرأس قادر على صنع الأغنياء.
مادة ـ إنّه يجعل الأشجار تزهر.
مادة ـ إنّه يجعل الأرض تنمو.
مادة ـ إنّهم أحاطوا أو مسّوا كلّ رأس من الأصنام الآنفة الذكر بحبال صغيرة، يلبسونها حول أنفسهم بجانب القميص أو اللحم، المترجم.

العسكري الديني الذي أُسّس في الأرض المقدّسة، ومع ذلك هناك عدد من الارتباطات التي حصلت بينها، بعضها فُرض بالجغرافية السياسية لعالم القرون الوسطى، وبعضها بالعوامل الأكثر حيرة والتي ما سبق لها أن دُوّنت على نحو صحيح، في عام 1314م أدت هذه الارتباطات على نحو كبير إلى إعادة وجود الهيكل في بانوكبورن.

نهوض فرسان الهيكل

طبقاً لأكثر المصادر أسس فرسان الهيكل، فرسان هيكل سليمان الفقراء عام 1118م، مع وجود دليل هامّ يقترح أنهم كانوا أصلاً قبل أربع سنوات على الأقل[1]، مسوغ وجودهم المزعوم كان حماية الحجاج في الأرض المقدّسة، في كل الأحوال الدليل يقترح أنّ هذا الهدف المعترف به كان واجهة للتستر على مهمة أخرى، وأن الفرسان انخرطوا في خطة جغرافية سياسية أكثر طموحاً وفخامة، تضمّنت النظام السيستيري والقدّيس بيرنارد[2]، وهيوجز، كونت شمبانيا وأحد أوّل كفلاء ورعاة السيستيريين وفرسان الهيكل معاً، الكونت نفسه أصبح من فرسان الهيكل عام 1124م، والسيد الأعظم الأول للنظام كان أحد أتباعه الخاصين، وهو هيوغز دي باينز، من بين الأعضاء المؤسّسين الآخرين كان عمّ القدّيس بيرنارد، وهو أندريه دي مونتبارد.

حتى عام 1128م - أربع سنوات بعد أن أصبح ديفيد ملك اسكتلندا - قيل إن فرسان الهيكل كانوا فقط تسعة فرسان وحيدين، مع أن السجلات الفعلية تُظهر عدّة مجنّدين إضافيين، إضافة إلى هيوغز الشمباني، من أولئك الفرسان التسعة كان فولك كونت بلدة أنجو، ووالد جافروي بلانتاجينيت وجدّ هنري الثّاني ملك انجلترا. مع هذا يبدو أن الانضمام الأولي للنظام كان صغيراً تقريباً، ثمّ في مجلس تروا (Troyes) الذي أُجري برعاية القدّيس بيرنارد مُنح فرسان الهيكل قانوناً رهبانياً، يكافئ الدستور على سبيل المثال، وبذلك أُعلن تأسيسهم رسمياً، بذلك مثّلوا ظاهرة جديدة «أول مرة في التاريخ المسيحي، الجنود سيعيشون كرهبان».

منذ عام 1128م فصاعداً توسّع النظام بسرعة استثنائية، لم يتلق التدفّق الهائل من المجنّدين، بل التبرّعات الهائلة المالية والعقارية أيضاً، خلال سنة امتلكوا أراضي في

1ـ يظهر أنهم وُجدوا في عام 1114م، وهي السنة التي كتب فيها أسقف تشارترس عن «milice du Christ»، وهو الانضمام الذي احتاج إلى العفة لدى هيوغز كونت شمبانيا، قبل مغادرته للأرض المقدّسة أدرج هيوغز عضواً في النظام في عام 1124م، بعد تأسيسهم الرسمي، المؤلفان.

2ـ (1090م ـ1153م) عالم ديني فرنسي، انضم إلى النظام السيستيري عام 1113م، وأسّس أكثر من 70 ديراً، المترجم.

فرنسا وانجلترا واسكتلندا وإسبانيا والبرتغال، خلال عقد، امتدت أملاكهم إلى إيطاليا، النمسا، ألمانيا، هنغاريا والقسطنطينية، في 1131م أورثهم ملك آراجون ثلث عقاراته، في منتصف القرن الثاني عشر كان المعبد قد بدأ بإعلان نفسه المؤسسة الوحيدة الأكثر ثراء وقوة في المسيحية باستثناء البابوية.

في السنوات التي تلت مباشرة مجلس تروا سافر هيوغز دي باينز وأعضاء مؤسّسون آخرون من النظام على نطاق واسع في أوروبا، يروّجون لكلّ شيء بدءاً من أنفسهم وصولاً إلى مزايا المشاركة في ملكية الإقطاعية في فلسطين، من المعروف أن هيوغز وواحداً من رفاقه على الأقل كانوا في انجلترا واسكتلندا معاً طبقاً للسجل الأنجلوسكسوني، عندما زار هيوغز هنري الأول:

استقبله الملك بشرف كبير، ومنحه الهدايا الثمينة من الذهب والفضة، وبعد ذلك أرسله إلى انجلترا، وهناك استقبله كلّ الرجال النبلاء الذين منحوه الهدايا جميعاً، وكذلك كان الأمر في اسكتلندا أيضاً وقام بدعوة القوم للذهاب إلى القدس، وهناك ذهب معه وبعده الكثير من الناس، وعلى نحو أكثر من أي وقت مضى.

في هذه الزيارة الأولى منح فيليب دي هاركورت النظام مركزه الاجتماعي في شيبلي في إسيكس[1]، مجتمع دوفر لفرسان الهيكل (بقايا كنيسته لا تزال مرئية حتى اليوم) يُظن أن تاريخه يعود إلى الوقت نفسه.

واصل هيوغز دي باينز عمله سيّداً أعظم في تعيين السادة الإقليميين لكلّ من «أقاليم الهيكل»، وهكذا كانت تُدعى المستوطنات العقارية للنظام في كل البلاد، إنّ السيد الأول للنظام في انجلترا الذي يُعرف القليل عنه كان اسمه هيو دي أرجنتين، خَلَفه فارس نورماندي شاب اسمه «أوستو دو سانت عمر» الذي ترأّس حتى فترة 1153م-1154م، وبعد ذلك ترأس النظام ريتشارد دي هايستينجز، بقيادة هذين السيدين بدأ فرسان الهيكل في انجلترا إحدى أكثر مغامراتهم الإبداعية، قاموا بترجمة جزء من العهد القديم إلى لهجتهم، ذلك الجزء من العهد القديم كان «كتاب القضاة»، وأخذ طابع الرواية الرومانسية الفروسية (يَشُوع وفرسانه العنيفون).

العلاقات بين فرسان الهيكل وحُكّام تلك البلاد التي امتلكوا فيها الأراضي كانت متنوعة، في فرنسا مثلاً العلاقة كانت مضطربة دائماً، حتى في أحسن أحوالها، في

1ـ إسيكس منطقة شرقي انجلترا، المترجم.

إسبانيا، من الناحية الأخرى كانت العلاقة جيدة على الدوام، في انجلترا أيضاً كان النظام على الأغلب يتميز بوئام ودّي مع الحكم الملكي، استقبل هنري الفرسان الأوائل بترحاب كما رأينا ، أما ستيفن الذي استولى على السلطة عام 1135م وكان ابن كونت بلوا الذي كان أحد زعماء الحملة الصليبية الأولى، فقد جعله ذلك متعاطفاً جداً مع نشاطات فرسان الهيكل في الأرض المقدّسة، برعايته بدأت شبكة من مراكز فرسان الهيكل الاجتماعية بالانتشار عبر انجلترا، إيرل «داربي» تبرّع بـ «بشمان»، إيرل «وارويك» تبرّع بأرض لإنشاء مركز اجتماعي لفرسان الهيكل في «وارويك» نفسها، روجر دي بولي قدَّم موقع «ويل أوتين» في «لنكولن شاير»، ماتيلدا زوجة ستيفن منحت قطعاً من الأرض في إسيكس وإكسفورد اللتين أصبحتا بعد ذلك على التوالي معبدي كريسنج وكاولي، وهما اثنان من مراكز فرسان الهيكل الاجتماعية الأولى الأكثر أهمية.

في أثناء عهد ستيفن أيضاً بنى فرسان الهيكل موقعهم المركزي الأول في انجلترا، هذا الموقع «المعبد القديم» في هولبورن شمل أبنية لمركز اجتماعي لفرسان الهيكل، وكنيسة، وحديقة، وبستاناً ومقبرة، وكلّها محاطة بخندق، وبعضها يظن أنه حائط، دعائمه الآن في محطة هاي هولبورن تحت الأرض، على أي الأحوال ذلك الموقع لم يدم طويلاً مقعداً للنظام في لندن، في عام 1161م أسّس الفرسان لأنفسهم موقعاً اسمه «المعبد الجديد»، وهو الموقع الذي يحمل اسمهم حتى اليوم، ولا يحتوي فقط على كنيستهم المستديرة الأصلية، بل يحتوي أيضاً على عدد من القبور «Barram Novi Templi» أو «محكمة المعبد»، حيث يلتقي شارع الصحافة[1] بالشاطئ، هناك كانت البوابات المؤدية إلى الدوائر الانتخابية للنظام، في عنفوانه كان «المعبد الجديد» يمتد من أولدويش حتى الشاطئ وحتى منتصف شارع الصحافة، ثم نزولاً إلى التايمز، حيث كان يمتلك رصيف مينائه الخاص، مرة في كل سنة كان يُدعى إلى اجتماع عامّ في هذه المباني، كان يحضره زعيم النظام في انجلترا وكلّ ضبّاط النظام الآخرين في بريطانيا، بمن فيهم رؤساء أديرة اسكتلندا وإيرلندا.

واصل هنري الثّاني العلاقة المتينة بين الحكم الملكي الانجليزي والمعبد، والتي كانت نشيطة على نحو خاص لمحاولة مصالحته مع توماس بيكيت[2]، لكنّ العلاقة أصبحت

1ـ في لندن، المترجم.
2ـ القدّيس توماس بيكيت (1118م ـ1170م)، مستشار انجلترا ورئيس أساقفة كانتربوري الذي أصبح قدّيساً في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، المترجم.

على أقرب حال في عهد ابن هنري ريتشارد قلب الأسد (Richard Coeur de Lion)، في الحقيقة كان ريتشارد على صلة جيدة بالنظام، حتى إنه عدّ في أغلب الأحيان أحد فرسان الهيكل الفخريين، انسجم بانتظام مع الفرسان، وسافر في سفنهم، واستقر في مجتمعاتهم، وبعد أن أثار عداء زملائه الملوك، اضطُر إلى الهرب من الأرض المقدّسة، وقام بذلك متنكّراً من فرسان الهيكل، ولازمته حاشية حقيقية لفرسان الهيكل، تورّط مباشرة في الصفقات بين فرسان الهيكل ونظرائهم المسلمين الحشاشين أو «القتلة»، كما قام أيضاً ببيع قبرص للنظام، والجزيرة أصبحت بعد ذلك موطنهم الرسمي فترة من الوقت.

في الوقت نفسه أصبح المعبد في ذلك الوقت مؤثّراً وقوياً على نحو كاف لنيل الاحترام والولاء من شقيق ريتشارد ومنافسه الرئيس الملك جون، مثل ريتشارد أقام جون بانتظام في المركز الاجتماعي لفرسان الهيكل في لندن، وجعله مكان إقامته نصف فترة السنوات الأربع الأخيرة من حُكمه (1212م-1216م)، زعيم النظام في انجلترا «إيميريك دي سانت مور» كان المستشار المقرب من جون، والسبب الرئيس الذي جعل الملك يوقّع الوثيقة العظمى[1] عام 1215م كان نتيجة إقناع إيميريك له، عندما وقّع جون على الوثيقة كان إيميريك إلى جانبه ووقّع أيضاً، بعد ذلك جرت تسمية إيميريك أحد مطبّقي رغبة جون.

رسمياً، كان يفترض أن يكون مجال نشاط المعبد الأساسي في المملكة اللاتينية في القدس، أوروبا يفترض أنها كانت قاعدة دعم لهم، بكل المصادر البشرية والمعدّات والتجهيزات العسكرية، ولتكون قناة نقلهم إلى الأرض المقدّسة، على نحو مؤكد لم يترك فرسان الهيكل «Outremer»، أي «الأرض البحرية»، هكذا كانوا يشيرون إلى الشرق الأوسط، تبتعد عن تركيزهم، امتدت نشاطاتهم على الأقل من مصر، إن لم يكن من أماكن أبعد في الغرب، على طول الطّريق المؤدية إلى القسطنطينية جرى اتخاذ بضعة قرارات في الإمارات الصليبية، لم يساهم فيها فرسان الهيكل، إضافة إلى القليل من الأحداث هناك، في الوقت نفسه يشير دورهم في توقيع الوثيقة العظمى إلى أنهم كانوا مساهمين بعمق في الشؤون الداخلية لأكثر الممالك الأوروبية على أي حال. في انجلترا تمتّعوا بامتيازات وحقوق خاصة معيّنة، لذلك مثلاً جلس زعيم المعبد في البرلمان كونه البارون الأسمى للمملكة، كان النظام أيضاً، معفياً من الضرائب، وكان فرسان الهيكل يضعون صلبانهم المعدنية الخاصة لتمييز بيوتهم وممتلكاتهم في البلدات والمدن الإنجليزية

1ـ الوثيقة العظمى: وثيقة الحقوق التي أكرَهَ النبلاء الانكليز الملكَ جون على إقرارها في عام 1215م، المترجم.

الكبرى لتجنّب جباة الضرائب، نماذج من هذه الصلبان من شارع فرسان الهيكل في ليدز يمكن رؤيتها اليوم في متحف القدّيس يوحنا الخاص بالنظام والواقع في كلاركنويل، ضمن هذه المستوطنات كان الفرسان يشكلون في ذاتهم القانون، كانوا يمنحون حقّ اللجوء كأيّ كنيسة، كانوا يقيمون محاكمهم الخاصة لمحاكمة الجرائم المحليّة، كانوا يديرون أسواقهم ومعارضهم الخاصة، كانوا معفيين من الضرائب على الطرق والجسور والأنهار.

أملاك فرسان الهيكل في انجلترا كانت شاملة وممتدّة في كل أرجاء البلاد، مع ذلك بعض تلك أملاك النظام السابقة لا يمكن تمييزها اليوم جميعاً بالبادئة «المعبد» بسهولة إطلاقاً، كما نلاحظ في لندن في منطقة «معبد فورتشن» تماماً شمال غولدرز غرين، من المعروف عموماً أنه حيثما تكون هذه البادئة في الجزر البريطانية كان هناك مرّة نوع ما من مؤسسات فرسان الهيكل، لجمع قائمة جازمة عن ممتلكات النظام وهو أمر مستحيل اليوم، ولكن حتى أكثر التقديرات المحافظة تُظهر إلى حدّ أدنى نحو أربع وسبعين ملكية رئيسة، بما في ذلك ثلاثون مركزاً اجتماعياً شاملاً وعلى نحو دقيق مئات الأملاك الأصغر، قرى وبلدات وكنائس ومزارع، أحياناً أنشطة النظام التجارية أيضاً قادتهم لتأسيس بلدات من ملكهم الخاص، بالداك على سبيل المثال، قرب ليتشورث في هيرتفوردشاير أسّسها فرسان الهيكل عام 1148م تقريباً، اشتقّ اسمها من بغداد.

قسم كبير من منطقة بريستول الحديثة كانت مرة ملكية لفرسان الهيكل، في الحقيقة كانت بريستول أحد الموانئ الرئيسة للنظام، والسفن كانت تتاجر بانتظام بين المدينة وقاعدة فرسان الهيكل الأطلسية الرئيسة في «لا روشِل» (La Rochelle)[1] في فرنسا، السجلات الخاصة لهنري الثّالث تستشهد بأسماء اثنتين من سفن فرسان الهيكل «La Tern plere» و«Le Buscard»، إحدى أكثر التجارات ربحاً التي امتاز بها الفرسان كانت تصدير الصوف، وأمور أخرى، كنقل الحجاج مثلاً، جلب عائدات كبيرة جداً للنظام، وكذلك العمل في أراضيهم، في يوركشاير وحدها خلال عام 1308م أنتجت ملكيات المعبد دخلاً يبلغ 1130 جنيهاً استرلينياً[2]، (في ذلك الوقت كان من الممكن بناء قلعة بسيطة بمبلغ 500 جنيه استرليني، فارس ومرافقه يمكن أن يُستخدم عاماً كاملاً فقط بـ55 جنيهاً استرلينياً، والسهّام بـ7 جنيهات، كلفة الحصان تسعة جنيهات، فمن الأرخص ركوب سهّام).

1ــ لا روشل ميناء بحري، منطقة سياحية، وعاصمة إقليم نهر شارانت البحري، غرب فرنسا، على خليج بسكي، المترجم.
2ــ فرسان الهيكل كان لديهم على الأقل أحد عشر مركزاً اجتماعياً في يوركشاير، وضيعتان إقطاعيتان أخريان، كلّ هذه الأملاك كانت تحتوي على الكثير من الحصص الإضافية، معبد نيوسوم على سبيل المثال له أملاك أيضاً تبلغ أربع بلدات وعلى الأقل ستّ كنائس، المؤلفان.

في إيرلندا شبكة ممتلكات فرسان الهيكل كانت واسعة الانتشار، مع أن توثيقها أقل، ما هـو موثّـق جيداً هو على الأقل ستّة مجتمعات، واحد في دبلن، وعلى الأقل ثلاثة على الـساحل الجنـوبي في مقـاطعتي واترفورد وويكسفورد، كما في انجلترا كان هناك الكثير من الضيع الإقطاعيـة والمـزارع والكنـائس والقـلاع، مركز كيلسارين الاجتماعي لفرسان الهيكل في مقاطعة لاوث على سبيل المثال يمتلك اثنتي عـشرة كنيـسة، ويجمع الأعشار[1] من ثماني كنائس أخرى، كان هناك على الأقل قصر واحد في سليجو على الساحل الغربي، «بيت المعبد»، كما سنرى مثلاً مسألة ممتلكات فرسان الهيكل الأخرى في غـرب ايرلنـدا هـي ذات أهميـة حاسمة.

أما اسكتلندا فإن السجلات على نحو خاص متفرقة وعديمة الثقة بـسبب الاضـطرابات التـي عمـت المملكة في نهاية القرن الثالث عشر، ولأنه يبدو أن الكثير منها قد أُخفـي بتعمـد كـان هنـاك عـلى الأقـل قاعدتان رئيستان لفرسان الهيكل، واحدة تدعى «ميري كلتر» وكانت قرب أبردين، الأخرى تدعى «بالانترو دوتش»، باللغة الغالية تعني «مكان المحاربين»، وكانت أكبر حجماً، وتـشكّل قاعـدة النظـام الأساسـية في اسكتلندا، وهي قرب أدنبرة، وتسمى الآن المعبد. إنّ تجمّع ملكيـات فرسـان الهيكـل في اسـكتلندا في كـل الأحوال يستند إلى شهادة أحـد الفرسـان، وليـام دي ميـدِلتون الـذي اسـتجوبته محكمـة التفتـيش، ذكـر موقعين هما «ميري كلتر» و«بالانترو دوتش»، وقال إنه خدم شخصياً فيهما. هذا طبعاً لا يـستثني إمكـان وجود حقيقي لمواقع أخرى لم يخدم فيها، وعلى أيّ حال كـان لديـه كـلّ الأسـباب التـي تمنعـه مـن قـول الحقيقة، في الحقيقة تشير السجلات إلى وجود ممتلكـات لفرسـان الهيكـل في بِـرِك التـي كانـت جـزءاً مـن اسكتلندا آنذاك، وفي ليستن قرب فولكيرك، تماماً عدا آرغايل، هناك دليل على أملاك فرسان الهيكل عـلى أقـل تقدير في عشرة مواقع أخرى في اسكتلندا، لكـن لـيس هنـاك طريقـة لمعرفـة إن كانـت كبـيرة أم صـغيرة، إن كانت مراكز اجتماعية أو ضيعاً إقطاعية أو مزارع فقط.

التأثير المالي لفرسان الهيكل

استناداً إلى أملاكه، وقوته البشرية، ومهاراته الدبلوماسية وخبرته العسكرية تميز المعبد بتأثير سياسي وعسكري هائل، لكنّه لم يكن أقل تأثيراً مالياً، وقام بتغييرات عميقة للمؤسسات الاقتصادية في ذلك العصر، ينسب المؤرخون عموماً تطور المؤسسات الاقتصادية وتحديثها في أوروبا الغربية إلى الدائنين اليهود وإلى المؤسسات والاتحادات التجارية الإيطالية العظيمة، في الحقيقة كان دور الدائنين اليهود بسيطاً مقارنة بدور

1ـ في الديانة المسيحية من الواجب دفع عشر الغلة أو المال، ومن هنا جاءت تسمية العشارين، المترجم.

المعبد في كل الأحوال، وتاريخ المعبد لم يسبق تاريخ المؤسسات التجارية الإيطالية فحسب، بل أسّس الآلية والإجراءات التي تبنتها وقلدتها تلك المؤسسات لاحقاً، في الواقع يمكن أن تُنسب أصول الأعمال المصرفية الحديثة إلى نظام المعبد، أدار فرسان الهيكل في ذروة قوّتهم الكثير من رؤوس الأموال المتداولة في أوروبا الغربية إن لم يكن أكثر، ابتكروا مصطلح وسائل الائتمان، إضافة إلى تخصيص الائتمان للتطوير والتوسّع التجاري، وفي الحقيقة أدوا عملياً كلّ وظائف المصرف التجاري في القرن العشرين.

نظرياً يمنع القانون الكنسي المسيحيين من التعامل بالربا، وجمع الفوائد من القروض، قد يتوقّع المرء أن هذا التحريم لا بد من أنه كان مطبّقاً بصرامة أكبر في مؤسسة، يُزعم أنها دينية كالمعبد، مع هذا كان المعبد يقرض المال، ويجمع الفوائد على نطاق واسع، في إحدى الحالات المثبتة، مقدار الفائدة المتّفق عليها عند الدفع المتأخّر للدين كان 60 بالمئة في السّنة، أي أكثر بـ17% مما كان يُسمح للدائنين اليهود بالمطالبة به، تحريم القانون الكنسي للربا كان يجري تجنّبه بعِلم دلالات الألفاظ لا أكثر وتطويرها وتلطيف معاني الكلمات والمواربة، ذلك تماماً ما يتوقعه المرء من المصطلحات التي استخدمها فرسان الهيكل أنفسهم، لكي يتجنّبوا التحدث على نحو واضح عن «الفائدة»، إذ إن بضعاً من وثائقهم لا تزال موجودة، ولكن الذين يتلقون قروض فرسان الهيكل في تعليمات دفعهم، ليسوا مقيدين بتدوين أيّ من هذه المصطلحات التحفظية (المراوغة)، للاستشهاد بأحد الأمثلة الحقيقية الكثيرة، فإن إدوارد الأول لدى تسديده الديون إلى المعبد يتكلّم عن عنصر رأس المال، وعلى نحو محدّد تماماً عن «الفائدة».

في الحقيقة كان التاج الانجليزي على نحو مزمن مديناً للمعبد، الملك جون كان يستدين باستمرار من النظام، وكذلك هنري الثّالث أيضاً الذي استُنفدت خزانته بين عامي 1260م و1266م نتيجة البعثات العسكرية، حتى إنه رهن جواهر التاج الانجليزي لدى فرسان الهيكل، والملكة إلينور أخذتها شخصياً إلى مركز باريس الاجتماعي لفرسان الهيكل، في السنوات التي سبقت اعتلاء هنري لعرشه أعار فرسان الهيكل أيضاً المال لإدوارد الأول الملك المستقبلي، في أثناء السنة الأولى من عهده، أعاد إدوارد 2000 مارك من الدين الكليّ للنظام الذي بلغ 28. 189 جنيهاً[1].

أحد أهم النشاطات المالية للمعبد هي ترتيب الدفعات عن بُعد من دون التحويل الفعلي للأموال، في عصر كان فيه السفر مضطرباً، والطرق كانت غير محمية وخطر

1ـ المارك يعادل ثُلثي الجنيه، فلو أجرينا حساب المبلغ الذي أعاده إدوارد لوجدنا أنه 1. 333 جنيهاً فقط من أصل 28. 189 جنيهاً، المترجم.

النهب مستمراً، كان الناس يمتنعون على نحو مفهوم عن السفر بمفردهم وبحوزتهم أشياء ثمينة، تحمل أساطير روبن هود شهادة بليغة على التهديد الذي كان يحيط على نحو ثابت بالتجار والأغنياء وحتى النبلاء.

في النهاية ابتكر المعبد رسائل الاعتماد، يمكن الشخص أن يودع مبلغاً معيّناً في معبد لندن مثلاً، ويتسلم نوعاً من الفواتير، يمكن ذلك الشخص أن يسافر بعد ذلك بحرية إلى أجزاء أخرى من بريطانيا، وإلى معظم أنحاء أوروبا، وحتى إلى الأرض المقدّسة، في أثناء السفر يمكن الشخص أن يقدّم الفاتورة ويتسلم النقود، وبأي عملة يرغب، سرقة رسائل اعتماد كهذه إضافة إلى الاحتيال كانت ممنوعة ومستعصية بسبب النظام المتقن للرموز والشيفرات التي كانت خاصة بفرسان الهيكل وحدهم.

إضافة إلى إعارة النقود والتزويد برسائل الاعتماد، قدم فرسان الهيكل خلال شبكة مجتمعاتهم أماكن إيداع آمنة، في فرنسا كان معبد باريس أيضاً الخزانة الملكية الأكثر أهمية، يحتوي على ثروة الدولة إضافة إلى ثروة النظام، وأمين صندوق الفرسان أيضاً كان أمين صندوق الملك نفسه، وهكذا كلّ تمويلات التاج الفرنسي كانت تعتمد على المعبد ومقيدة به، في انجلترا لم يكن تأثير النظام عظيماً جداً كما لاحظنا، في كل الأحوال أُبقيت جواهر التاج في أثناء عهد الملك جون في معبد لندن الذي كان يعدّ في عهد هنري الثاني وجون وهنري الثّالث وإدوارد الأول إحدى الخزانات الملكية الأربع، في انجلترا عمل فرسان الهيكل جباة ضرائب أيضاً، لم يجمعوا الضرائب البابوية والأعشار والتبرّعات فقط، بل جمعوا المصادرات والعائدات الملكية أيضاً، ويبدو أن قدراتهم كانت مفزعة أكبر من دائرة الضرائب في الوقت الراهن، في عام 1294م نظّموا تحويل المال القديم إلى جديد، عملوا باستمرار أوصياء على الأموال أو الملكيات التي كانت توضع في رعايتهم، وسماسرة وجامعي ديون، توسّطوا في النزاعات التي تتضمّن دفعات الفدية والمهور والرواتب التقاعدية والصفقات الكثيرة الأخرى.

في قمة قوّتهم اتّهم فرسان الهيكل بالغرور والتكبّر وانعدام الرحمة والسلوك العصبي والفاسق، «يشرب الخمر كفرسان الهيكل»، هذه العبارة التشبيهية كانت تتردّد كثيراً في انجلترا في القرون الوسطى، ومع قَسَم العفة الذي أقسموا به، يبدو أن الفرسان كانوا يعاشرون البغايا بحماسة عندما يسكرون، ولكن مهما كانت تصرّفاتهم في هذه النواحي، إلا أن سمعتهم بالدقة والأمانة والنزاهة في الشؤون المالية بقيت غير ملوّثة، الشخص قد لا يحبّهم، ولكن الشخص يعرف أنه يمكن الاعتماد عليهم، وكانوا قُساة جداً على أيّ

عضو في نظامهم، لا يثبت أنه يستحق وجوده في ذلك النظام، في إحدى الحالات وجد أن رئيس المعبد في إيرلندا كان مذنباً بالاختلاس، سجن في الخلية التكفيرية لكنيسة فرسان الهيكل في لندن، وهي غرفة صغيرة جداً حتى للاضطجاع فيها، ويمكن رؤيتها حتى اليوم، وجُوّع حتى الموت، قيل إنه بقي ثمانية أسابيع حتى مات.

مثل البنوك السويسرية اليوم احتفظ المعبد فترات طويلة الأمد بأموال الأموات الذين نُزعت منهم الملكية، لا عجب إذا كان الملوك أو القادة الآخرون يحاولون من حين إلى آخر الاستيلاء على هذه المصادر، كما فعل هنري الثّاني مثلاً في إحدى الحالات عندما طلب من فرسان الهيكل المال الذي أودعه عندهم إقطاعي مطرود، جرى إخباره: «إنّ المال الذي عُهد إليهم للرعاية لا يسلّمونه إلى أي رجل من دون ترخيص ذلك الرجل الذي ائتمنهم للاحتفاظ به في المعبد».

إنجاز «الفرسان الفقراء» الذي دام أطول وقت كان اقتصادياً، لم تنجز أي مؤسسة من القرون الوسطى أكثر مما أنجزوه للنهوض بالرأسمالية، لكن الثروة ذاتها التي أداروها على نحو فعال جداً جعلتهم محط إغراء لا يقاوم من الملك الذي كان تهوّره يعادل طمعه.

القسم الثاني

الرهبان العسكريون: فرسان الهيكل

كانت الأساطير والخرافات قد أحاطت بفرسان الهيكل حتى قبل حلّهم على نحو مفرط، وكذلك الشائعات المظلمة والشكوك والخوف غير العقلاني من المجهول، في القرون التي تلت قمعهم ازداد الغموض والسر المحيط بهم، واللغز الأصيل أصبح أكثر ارتباطاً على نحو مطلق بالحيرة غير المنطقية، في أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كما سنرى، سعت بعض المناسك الماسونية بعناية لتأسيس نسب يعود إلى فرسان الهيكل، في الوقت نفسه بدأت منظمات أخرى (فرسان الهيكل الجدد) بالظهور، وتدّعي بالطريقة نفسها أن نسبها يعود إلى النظام الأصلي، اليوم هناك ما لا يقل عن خمس منظمات تزعم انتسابها إلى سلالة أو أخرى منحدرة مباشرة من الرهبان المحاربين البيض من العصور الوسطى[1]، ومع التهكم والشكّ في عصرنا الراهن هناك، حتى لدى الغرباء، شيء ما ساحر، بل رومنسي، يتعلق بالجنود الصوفيين قبل 700 سنة، برايتهم السوداء والبيضاء وصليبهم الأحمر المفلطح المميّز، لقد اخترقوا تقاليدنا، تراثنا الفولكلوري، يجتذبهم الخيال لا صليبيين فقط، لكن كشيء مبهم ومثير للعواطف والذكريات على نحو أكبر كثيراً، كفاتنين وأصحاب نفوذ عالي المستوى، كحماة لكنز هائل، كسحرة ومطّلعين غامضين، كحماة لمعرفة سرية، الوقت خدمهم في آلام محنهم الأخيرة على نحو أفضل مما كانوا يتوقعونه على نحو مطلق.

حجب الوقت في كل الأحوال أيضاً هوية البشر وسماتهم خلف الستار الغريب للرومانسية، البشر والطبيعة الحقيقية للمؤسسة التي أسسوها، الأسئلة لا تزال تُطرح عن الطريقة التي كانت فيها حقاً معتقدات فرسان الهيكل ضلالية أو كافرة، الأسئلة لا تزال تُطرح عن مقدار الذنب الذي اقترفوه وفقاً للتهم الموجّهة ضدّهم، الأسئلة لا تزال تُطرح عن النشاطات الداخلية العالية المستوى للنظام، نياتهم السرية الكبيرة، مشروعهم الذي يتحدث عن خلق معبد يوضح سياستهم القائمة على المصالحة بين المسيحية

1ـ هناك منظمات يهودية في الكيان الصهيوني ومنها : حركة أمناء الهيكل، لاتمت بصلة إلى فرسان الهيكل، وهي منظمات تدعو إلى هدم المسجد الأقصى وإقامة هيكل على أنقاضه، وهي منظمات يهودية متطرفة، (المدقق).

أسّسوا قاعدة مؤقّتة في قبرص، لكنهم أخفوا خططاً أكثر طموحاً، لا عجب في ذلك، كانوا يحلمون بامتلاك دولة أو إمارة خاصة بهم، مشابهة لـ «أوردينز لاند» التي أنشأها قريبهم، نظام الفرسان التيوتونيّين[86] في بروسيا وعلى البلطيق، لكن أوردينز لاند (Ordenslant) كانت على الحافّة المتطرّفة لأوروبا المسيحية، وكانت أبعد كثيراً من وصول البابوية وسلطة أيّ ملك علماني، علاوة على ذلك يمكن أن تسوغ أوردينز لاند بأنها نمط آخر من أنماط الحملة الصليبية، حملة صليبية ضدّ القبائل الوثنية شمال شرق أوروبا، ضدّ البروسيين والبلطيين[87] واللّتْوانيّين[88] الوثنيين، ضدّ مدن شمال غرب روسيا الأرثوذكسية ومن ثم الضلالية مثل سكوف ونوفرود. من الناحية الأخرى أمل فرسان الهيكل الذين مارسوا تأثيرهم الهائل في فرنسا أن يخلقوا أوردينز لاند خاصة بهم في القلب ذاته من المسيحية الأوروبية، في لانغدوق التي كانت عملياً ملحقة بالتاج الفرنسي في أثناء القرن السابق، أما فيليب فإن إمكانية وجود إمارة لفرسان الهيكل على عتبته الجنوبية، وهي الإمارة التي تحيط بالأرض التي يدعي أنها من حقه، ليس من شأنها إلا أن تنمّي الاستياء والخطر.

خطّط فيليب حيلته بدقة شديدة، جمع قائمة من التهم جزئياً من جواسيس الملك الذين اخترقوا النظام، وجزئياً من الاعتراف الطوعي لفارس متمرّد مزعوم، متسلّحاً بهذه الاتهامات كانت لفيليب حرّية التصرف، وعندما وجّه ضربته، كانت قاتلة وسريعة ومفاجئة، في عملية تستحقّ أن تكون مداهمة تقوم بها الشرطة السرية في وقتنا الراهن أصدر الملك الأوامر المختومة إلى قهرماناته وأتباعه في كل أنحاء البلاد، هذه الأوامر كان واجباً فتحها في كل مكان في آن واحد وأن تُطبّق سريعاً، عند فجر يوم الجمعة 13 أكتوبر/تشرين الأول عام 1307 كان يجب أن يقبض على كلّ فرسان الهيكل في فرنسا، ويعتقلوا من رجال الملك، وُضعت مراكزهم الاجتماعية تحت المصادرة الملكية، وكذلك عقاراتهم وممتلكاتهم، ولكن مع تحقيق هدف فيليب في إحراز عنصر المفاجأة إلا أن الجائزة الأكثر فتنة، ثروة النظام الأسطورية، تملصت منه، لم يُعثر عليها قط، وما حصل لـ «الكنز الهائل لفرسان الهيكل» بقي لغزاً.

في الحقيقة ما هو مشكوك فيه ظن فيليب أو المؤرخين اللاحقين أن انقلابه المفاجئ كان غير متوقّع، هناك دليل كبير يقترح أن فرسان الهيكل تلقوا إنذاراً مبكّراً من نوع ما،

86ـ التيوتونيّ واحد التيوتون، وهم شعب جرمانيّ أو سلتيّ قديم، المترجم.
87ـ متعلق ببحر البلطيق أو بدُوَل ليتوانيا ولاتفيا وأستونيا، المترجم.
88ـ أحد أبناء لتوانيا، المترجم.

مثلاً قبل فترة قليلة من عمليات الاعتقال أمر السيد الأعظم جاك دي مولاي، بإحضار الكثير من كتب النظام والقوانين وأحرقها، أحد الفرسان كان قد انسحب من نظام المعبد تقريباً في هذا الوقت نفسه، وقد جرى إخباره من أمين الصندوق بأنه كان «حكيماً جداً»، لأنه انسحب، لأن أزمة كانت وشيكة، مرسوم رسمي وزّع على كلّ المراكز الاجتماعية الفرنسية لفرسان الهيكل شدّد على أنه يجب عدم إفشاء أي معلومات عن المناسك أو شعائر النظام.

في أيّ حال من الأحوال سواء حُذّر فرسان الهيكل مقدماً أم أحسّوا ببساطة ما كان قادماً، جرى اتخاذ بعض الإجراءات الوقائية بكل تأكيد، في المقام الأول هرب الكثير من الفرسان، وأولئك الذين أُسروا يبدو أنهم أذعنوا باستسلام، كأنّهم مأمورون بالقيام بذلك، لأنه ليس هناك أي أدلة فرنسية مسجلة، تقول إن فرسان الهيكل قاوموا مندوبي الملك على نحو فعال، في المقام الثاني هناك إشارات عن هروب منظّم لمجموعة معيّنة من الفرسان، عملياً كانوا جميعاً مرتبطين بأمين صندوق النظام بطريقة ما[1].

نظراً إلى هذه التوضيحات عن الاستعداد ليس مفاجئاً أن كنز المعبد كان واجباً اختفاؤه إضافة إلى كلّ وثائقه وسجلاته تقريباً، تحت استجواب محكمة التفتيش تكلّم أحد الفرسان عن تهريب الكنز من مركز باريس الاجتماعي لفرسان الهيكل قبل فترة قليلة من عمليات التوقيف، أعلن الشاهد نفسه أنّ معلّم النظام[2] في فرنسا أيضاً غادر العاصمة ومعه خمسون حصاناً، وسافر بحراً، ليس هناك إشارة من أين، وثماني عشرة سفينة لم يشاهد أي منها ثانية إطلاقاً[3]، سواء كان ذلك حقيقة أم لا، يبدو أن كلّ أسطول فرسان الهيكل هرب من مخالب الملك، ليس هناك بيان عن مصادرة أيّ من سفن النظام، ليس آنذاك فقط، وإنما على نحو نهائي، على العكس يبدو أن السفن اختفت تماماً مع كل ما يُفترض أنها تحمله.

في فرنسا حوكم فرسان الهيكل المعتقلون، والكثير منهم أُخضعوا للتعذيب الشنيع، الاتهامات نمت على أغرب وجه تماماً، وجرى انتزاع اعترافات غريبة، بدأت الشائعات

1ـ هيوغز دي تشالونز، بيير دي موديس وفالكو دي ميلي، جميعهم كانوا أقرباءه، هيوغز دي تشالونز، ومن الممكن بيير دي موديس، كان عمهما أمين صندوق فرسان الهيكل في باريس هيوغز دي بيرود، المؤلفان.
2ـ معلّم النظام هو أحد فرسان الهيكل بمنصب المعلّم أو رئيس مركز فرسان الهيكل الاجتماعي في منطقة ما، المترجم.
3ـ المؤرخ باربر يقول: إن مُعلّم فرسان الهيكل صرّح بأنّ هيوغز دي تشالونز هرب ومعه كلّ «كنز» هيوغز دي بيرود، المؤلفان.

المتجهمة تنتشر في البلاد، قيل إن فرسان الهيكل يعبدون سلطة شيطانية تُدعى «بافوميت»، في شعائرهم السرية يفترض أنهم يسجدون أمام رأس ذكري ملتح، رأس كان يتكلّم معهم ويمدهم بالمزايا السحرية، يقال إن الشهود غير المخوّلين بحضور هذه المراسم اختفوا، وكان هناك أيضاً تهم أخرى، مبهمة أكثر، فرسان الهيكل اتهموا بالوأد، وتعليم النساء كيف يجهضون، والقبل البذيئة عند تنصيب المرشحين للدخول في الرّهبنة، والشذوذ الجنسي، ولكن هناك تهمة واحدة موجّهة ضدّهم، تبدو الأكثر غرابة واستحالة، جنود المسيح هؤلاء الذين قاتلوا ووهبوا حياتهم في سبيل الديانة المسيحية بالمئات، اتّهموا بأنهم يُنكرون المسيح في شعائرهم، وينكرون ويدوسون ويبصقون على الصليب.

هذا ليس المكان الملائم لاستكشاف صحة تلك التهم أو عدمها، لقد اهتممنا بالأمر بأنفسنا وبالتفصيل في مكان آخر[1]، هناك الكثير من المعلّقين الآخرين على هذا الموضوع، في الحقيقة كُتبت كتب كاملة عن محاكمات فرسان الهيكل ومسألة ذنب ذلك النظام أو براءته، في السياق الحالي يكفي ببساطة الاعتراف بأن فرسان الهيكل «تلوثوا» على نحو مؤكد تقريباً بالزندقة[2] الدينية، هذا إن لم يكن بالهرطقة التامّة، على أي حال أغلب الاتهامات الأخرى ضدّهم ملفقة على نحو كبير، مصطنعة مبالغ فيها على نحو خارج عن الحدود، على سبيل المثال من كلّ الفرسان الذين استجوبوا وأُخضعوا للتعذيب، اثنان فقط اعترفا بالشذوذ الجنسي طبقاً لسجلات محكمة التفتيش، إذا وُجد الشذوذ الجنسي فهو ضمن النظام، فمن غير الممكن أن يجري ذلك على مقياس أعظم من أيّ مركز اجتماعي رجالي مغلق آخر، عسكرياً كان أم رهبانياً.

المحاكمات شرعت خلال ستّة أيام من عمليات الاعتقال الأولية، في بادئ الأمر محاكمات المعبد قام بها ضبّاط الملك الشرعيون، لكن فيليب أيضاً كان يُخضع البابا لسيطرته، وبسرعة أرهب ألعوبته ليسانده بكل هيبة السلطة البابوية وفخامتها، الاضطهاد الذي دشّنه التاج الفرنسي انتشر بسرعة إلى ما هو أبعد كثيراً من فرنسا، وجرى تطبيقه بوساطة محكمة التفتيش، كان له أن يستمرّ سبع سنوات، ما يبدو لنا اليوم أنه جزء صغير وغامض عموماً من تاريخ القرون الوسطى كان القضية المهيمنة الأكثر سيطرة في وقتها، والتي أدت إلى أحداث متفوقة مثيرة في اسكتلندا النائية، والتي حثت على آراء وردود أفعال في العالم المسيحي، والتي أرسلت رعشات ومخاوف في كل

1ــ في كتاب الدم المقدس والكأس المقدسة، المؤلفان.

2ــ الخروج عن الإجماع، المترجم.

أنحاء الثقافة الغربية، ما يجب تذكّره هو أن المعبد، عدا البابوية فقط، كان المؤسسة الأقوى والأكثر أهمية والأكثر رفعة في المستوى، وكما يبدو الأكثر ثباتاً في زمانه، عند هجوم فيليب عليه كان عمره قرنين من الزمن تقريباً، وكان يعدّ أحد الأعمدة المركزية للمسيحية الغربية، بدا المعبد لأغلب معاصريه ثابتاً ومتيناً ودائماً، كما هو حال الكنيسة ذاتها، إن هدم هذا الصرح بسرعة من شأنه أن يهز الدعائم التي استندت إليها فرضيات الزمن ومعتقداته، لذلك على سبيل المثال يُظهر دانتي[1] في «الكوميديا الإلهية» صدمته وعطفه على «العباءات البيضاء المضطَهدة»، في الحقيقة الخرافة التي تدعي أن يوم الجمعة الثالثة عشرة هي يوم سيئ الحظ يُظن أنها ناجمة من أولى هجمات فيليب والتي كانت في يوم الجمعة 13 أكتوبر/تشرين الأول من عام 1307م.

نظام المعبد حُلّ رسمياً بالمرسوم البابوي في 22 مارس/آذار عام 1312م من دون الإعلان على نحو جازم وواضح عن الذنب أو البراءة، في فرنسا في كل الأحوال جرت مضايقة الفرسان عامين آخرين، أخيراً في مارس/آذار عام 1314م أُحرِق السيد الأعظم جاك دي مولاي، وجافروي دي تشارناي، ورئيس مركز فرسان الهيكل الاجتماعي في النورماندي حتى الموت على نار هادئة في جزيرة «آيل دي لو سايت» (Ile de la Cité) على السين[2]، هناك لوحة في الموقع تُحيي ذكرى الحدث.

محكمة التفتيش

إنّ الحماسة التي استباح بها فيليب فرسان الهيكل لا تتسم فقط بالقليل من الارتياب، يمكن أن يستوعب الشخص رغبته في استئصال النظام ضمن أملاكه الخاصة، ولكن أن يذهب إلى هذا الحدّ بالبحث عن كلّ فرسان الهيكل في المملكة المسيحية هو أمر مفرط إلى حدّ ما على نحو مؤكد، هل كان يخاف من ثأر النظام؟، تكاد الحماسة الأخلاقية تكون دافعه، ومن غير الممكن أن يكون الملك الذي دبّر موت بابا واحد على الأقل، وربما آخر متعصب فيما يتعلق بنقاوة الإيمان، أما الولاء للكنيسة فقد أصبحت الكنيسة عملياً مُلكه، فمن غير الواجب عليه الولاء لها، يمكنه أن يُبرز ولاءه الخاص.

في أيّ حال من الأحوال أزعج فيليب زملاءه الملوك بالانضمام إليه في اضطهاده للمعبد، في هذا المسعى لم يكن نجاحه إلا مشروطاً، على سبيل المثال في لورين التي كانت

1ـ دانتي آليغييري (1265م ـ 1321م): كبير شعراء إيطاليا، صاحب ملحمة «الكوميديا الإلهية» (Divina Commedia)، المترجم.
2ـ السين نهر شمال فرنسا، ينبع قرب ديجون، ويمر عبر القنال الانكليزية، طوله 776 كم، المترجم.

جزءاً من ألمانيا في ذلك الوقت كان فرسان الهيكل مدعومين من الدوق الحاكم، بضعة من الفرسان جرى اختبارهم وتبرئتهم سريعاً، وعدد أكبر يبدو أنهم أطاعوا معلّمهم الذي كان يأمرهم كما يظن بحلق لحاهم، وارتداء الزيّ العلماني والانخراط في عامة الناس المحليّين الذين لم يخونوهم على نحو كاف.

صحيح أن فرسان الهيكل في ألمانيا تحدّوا قضاتهم المُدَّعين علناً، وكانوا يمثلون أمام المحكمة بكامل سلاحهم مستعدين على نحو ملحوظ للدفاع عن أنفسهم لكن القضاة كانوا يعلنون مباشرة براءتهم خوفاً، وعندما حُلَّ النظام رسمياً رُحِّب بالكثير من فرسان الهيكل الألمان في نظام القدّيس يوحنا أو نظام الفرسان التيوتونيّين، في إسبانيا أيضاً قاوم فرسان الهيكل مضطهديهم، ووجدوا ملجأ في المنظمات الأخرى، خصوصاً نظام كالاترافا (Calatrava)، وجرى تأسيس نظام جديد اسمه مونتيسا (Montesa) الذي شكّل على نحو أساسي مأوى لفرسان الهيكل الهاربين.

في البرتغال مُحيت أخبار فرسان الهيكل وببساطة قاموا بتعديل اسمهم الذي أصبح فرسان السيد المسيح، نجوا بهذا اللقب جيداً حتى القرن السادس عشر، استكشافاتهم البحرية تركت بصمة دائمة في التاريخ، فاسكو دي غاما كان أحد فرسان السيد المسيح، الأمير هنري الملاح كان سيداً أعظم في النظام، سفن فرسان السيد المسيح أبحرت تحت الراية المرفرفة لصليب فرسان الهيكل الحمراء المألوفة، وتحت الصليب نفسه، عبرت سفن كولومبوس الشراعية الثلاث الأطلسي إلى العالم الجديد، وهو نفسه كان متزوّجاً من ابنة سيد أعظم سابق للنظام، وكان مطلعاً على مخطّطات ومفكرات عمّه.

وإذا وجد فيليب دعماً ضعيفاً لغزو فرسان الهيكل في الأماكن الأخرى من أوروبا، لكن لديه سبباً ليتوقّع التعاون الأعظم من انجلترا، وفوق ذلك فإن إدوارد الثّاني كان صهره، لكن إدوارد كان ممانعاً أولياً، في الحقيقة الملك الانجليزي أوضح الأمر في رسائله بالتصريح بأنه لم يجد أن التهم الموجهة ضدّ فرسان الهيكل لا تُصدّق، بل شكّك أيضاً في نزاهة أولئك الذين أطلقوا تلك التهم، لذلك في 4 ديسمبر/كانون الأول من عام 1307م، أي بعد أقل من شهر ونصف على إطلاق عمليات الاعتقال الأولى، كتب الملك الانكليزي إلى ملوك البرتغال وقشتالة وآراجون وصقلية:

(مبعوث فيليب) تجاسر بالتصريح أمامنا عن بعض الأعمال المنكرة المقيتة والفظيعة التي تبغض الإيمان الكاثوليكي، والتي تجحف بحق الإخوة الآنفي الذكر، ساعياً لإقناعنا بأنّنا يجب أن نسجن كلّ الإخوة.

ويختتم بالطلب من المتسلم:

لا تنصتوا إلى افتراءات الرجال السيئين الذين دوافعهم ليست حماسية في سبيل الاستقامة، بل بروح الطمع والحسد كما نظن.

في كل الأحوال بعد عشرة أيام تسلم إدوارد من البابا بياناً بابوبياً رسمياً يقرّ ويسوغ عمليات الاعتقال على نحو شَرْطي، هذا ألزمه التصرّف، ولكن بإحجام ملحوظ ونقص بارز في الحماسة، في 20 ديسمبر/كانون الأول كتب إلى كلّ عمدات البلدات في انجلترا، يأمرهم بأن عليهم بعد ثلاثة أسابيع أن يأخذوا «اثني عشر رجلاً مؤتمناً» ويعتقلوا كلّ أعضاء المعبد في مناطقهم، وبحضور شاهد موثوق واحد على الأقل كان واجباً عليهم أيضاً أن يقوموا بإحصاء كلّ الأملاك والمباني التي يمتلكها فرسان الهيكل، وفرسان الهيكل أنفسهم كانوا موضوعين تحت الحراسة، ولكن ليس في سجن صعب ورديء.

فرسان الهيكل الانجليز أوقفوا في برج لندن، إضافة إلى قلاع يورك ولينكولن وكانتربوري، العمل ضدّهم كان يسير بطيئاً وعلى نحو مقصود، لذلك على سبيل المثال اعتُقل سيد النظام في انجلترا، وليام دي لا مور، في 9 يناير/كانون الثّاني عام 1308م، ووضع في قلعة كانتربوري مع اثنين من الإخوة الآخرين، إضافة إلى موارد كافية لضمان راحة كبيرة له، إن لم يكن الرفاه، في 27 مايو/أيار أُطلق سراحه، وبعد شهرين مُنح دَخْل ستّة عقارات تابعة لفرسان الهيكل لدعمه، وحتى نوفمبر/تشرين الثّاني، ونتيجة للضغط المجدّد أُعيد اعتقاله وأُخضع لانضباط أشد صلابة، في ذلك الوقت على أي حال أكثر فرسان الهيكل الانجليز كان لديهم فرصة كافية للهروب، أو الاختفاء بين عامة الناس المدنيين، أو العثور كماوى في أنظمة أخرى، أو مغادرة البلاد.

في سبتمبر/أيلول عام 1309م وصل المحقّقون البابويون إلى انجلترا، والكثير من فرسان الهيكل عند اعتقالهم قُدّموا للاستجواب في لندن أو يورك أو لينكولن، في الشهر التالي كتب إدوارد، كأنّه مدفوع بفكرة متأخرة إلى ممثليه في إيرلندا واسكتلندا، يأمر باعتقال كلّ فرسان الهيكل الذين لم يُعتقلوا بعد ووضعهم في قلاع دبلن وأدنبرة، ومن ثم فمن الواضح أن عدداً هائلاً من فرسان الهيكل لا يزالون أحراراً على علم الملك.

بين 20 أكتوبر/تشرين الأول و18 نوفمبر/تشرين الثّاني عام 1309م استجوب نحو سبعة وأربعين من فرسان الهيكل في لندن على أساس قائمة من سبع وثمانين تهمة، لم تُنتزع أي اعترافات عدا معرفة أن ضبّاط النظام مثل الكهنة طالبوا بحقّ منحهم البراءة

من الإثم، وعلى نحو محبط قرر المحقّقون اللجوء إلى التعذيب، كونهم مبعوثين جوّالين من البابا لم يكن لديهم طبعاً أي آلات أو قوى بشرية لإدارة عمليات التعذيب، وكان لا بدّ من أن يقدّموا طلباً رسمياً إلى السلطات العلمانية، عملوا هذا في الأسبوع الثاني من ديسمبر/كانون الأول، إدوارد سمح لهم بـ «تعذيب محدود» فقط، وهذا الأسلوب أخفق في انتزاع الاعترافات أيضاً.

في 14 ديسمبر/كانون الأول عام 1309م، أي أكثر من سنتين على بدء أولى عمليات الاعتقال في فرنسا وبعد سنة من المطالبة بتدابير أكثر صرامة في انجلترا كتب إدوارد ثانية إلى عمدات بلداته، قال إنّه سمع أن فرسان الهيكل لا يزالون «يتجوّلون في المناطق على نحو علماني، أي ارتدّوا عن مذهبهم»، مرة أخرى هو وضبّاطه لم يتابعوا المسألة بأيّ حماسة جامحة بأي حال من الأحوال، في 12 مارس/آذار عام 1310م كتب إلى شريف يورك: «كما يعلم الملك أنّه [أي الشريف] يسمح لفرسان الهيكل بالتجوّل على نحو يتجاهل أمر الملك، ومن ثم عليهم أن يبقوا داخل القلعة»، ومع ذلك في 4 يناير/كانون الثّاني عام 1311م كتب إدوارد مرة أخرى إلى شريف يورك، يصرح بأنّه مع كلّ القرارات السابقة لا يزال يُسمح لفرسان الهيكل بالتجوّل، في هذه الأثناء وبينما كان هذا الاهتمام المنحل يزداد على فرسان الهيكل الذين في الأسر، لم تتخذ أي إجراءات بشأن الكثير من الفرسان في انجلترا الذين نجوا من عمليات التوقيف، الجهود الأكثر حماسة من محكمة التفتيش قادت إلى العثور على تسعة فقط من أولئك الهاربين، اشتكى البابا إلى رئيس أساقفة كانتربوري، وإلى الأساقفة البارزين الآخرين في الأماكن الأخرى، قائلاً إن عدداً من فرسان الهيكل اندمجوا على نحو كامل بعامة الناس المدنيين، حتى إنهم مارسوا الزواج، مع أن الزواج لا يمكنهم أن يقوموا به من دون الحصول على الأقل على بعض التعاون من السلطات الانجليزية.

بهذا الوقت كانت عمليات التعذيب تطبق على أعضاء النظام تحت حراسة، في كل الأحوال في يونيو/حزيران عام 1310م أصدرت محكمة التفتيش وثيقة تُفصّل فيها السبب في قلة نجاحهم، اعترضوا بأنّهم واجهوا صعاب تطبيق عمليات التعذيب على نحو صحيح وعملي، اشتكوا بأنها لم تكن عادة محلية للعدالة الانجليزية، ومع أنّ الملك وافق مكرهاً على ذلك، إلا أن تعاون السجّانين كان فاتراً فقط، جرى وضع عدد من المقترحات لجعل المحاكمات مجدية أكثر، من هذه المقترحات كانت التوصية بأن يجري تحويل فرسان الهيكل المعتقلين إلى فرنسا، حيث سيجري تعذيبهم على نحو صحيح من الرجال الذين يتميزون بالذوق والخبرة في هذه التسالي.

في 6 أغسطس/آب عام 1310م كتب البابا رسالة احتجاج توبّخ الملك الانجليزي لرفضه السماح بالتعذيب المعقول، أخيراً أذعن إدوارد وأمر بأنّ يُسلّم فرسان الهيكل في البرج إلى المحقّقين من أجل ما كان يُسمى بعبارة لطيفة «تطبيق القانون الكنسي»، حتى هذا الإجراء يبدو أنه لم يكن ناجحاً في كل الأحوال، لأن الملك كان لا بد له من أن يكرر مرسومه مرّتين في أكتوبر/تشرين الأول.

أخيراً في يونيو/حزيران عام 1311م أنجزت محكمة التفتيش في انجلترا التقدم المفاجئ الذي كانت تسعى إليه منذ مدّة طويلة، هذا التقدم المفاجئ لم ينتج من زيادة تعذيب فرسان الهيكل في الأسر على نحو هام وكاف، بل من تعذيب أحد فرسان الهيكل الهاربين الذي اعتُقل مؤخراً في سالسبوري (Salisbury)، فارس يُدعى ستيفن دي ستابيلباغ (Stapelbrugge)، أصبح ستيفن أول فرسان الهيكل في انجلترا الذين يعترفون بالممارسات الضلالية ضمن النظام، ذكر في أثناء تعذيبه أنه جرى إطلاعه على صورة السيد المسيح المصلوب، وأُمر بإنكار أن «السيد المسيح كان رباً وبشراً وأن مريم كانت أمّه»، كما قال إنه طُلب منه بعد ذلك البصق على الصليب، اعترف ستيفن بالكثير من التهم الأخرى الموجّهة ضدّ فرسان الهيكل أيضاً، صرّح بأن «أخطاء» النظام نشأت حول منطقة آجين (Agen) في فرنسا.

هذا الزعم الأخير يضيف مقداراً من الصدق إلى شهادة ستيفن، في أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر كانت آجين أحد مستنبتات «الألبيجينيين» (Albigensian) أو «بدعة الكاثار»[1]، واستمر وجود الكاثار في الجوار وقتاً متأخراً حتى عام 1250م على الأقل، هناك أدلة وفيرة على أن فرسان الهيكل أصابتهم العدوى من الفكر الكاثاري، بل إنهم وفروا الملجأ للكاثار الهاربين من محكمة التفتيش[2]، في الحقيقة أحد الأسياد العظام الأكثر أهمية وتأثيراً في نظام فرسان الهيكل، وهو بيرتراند دي بلانتشفورت انحدر من عائلة كاثارية عريقة، علاوة على ذلك آجين تقع في مقاطعة بروفينس العائدة إلى فرسان الهيكل، بين عامي 1248م و1250م كان رونسيلين (Roncelin) دي فوس زعيم النظام في بروفينس ، بعد ذلك بين عامي 1251م و1253م أصبح رونسيلين زعيم النظام في

1ـ طائفة أوروبية ضلالية من القرنين الثاني عشر والثالث عشر، اعتقدت أن الأرض يحكمها الشيطان، كما اعتقدوا أيضاً أنّ الخلاص يأتي من التنازل عن الحياة المادية وتبنّي أسلوب الحياة الروحية، المترجم.

2ـ ديوان أو محكمة التفتيش محكمة كاثوليكية، نشطت في القرنين 15 و16تحديداً، مهمتّها اكتشاف الهرطقة ومعاقبة الهراطقة، وكانت من أكثر السلطات رعباً آنذاك، إذ إنها كانت تمارس كل أنواع التعذيب بما فيها حرق الأحياء الكفرة وفقاً لوجهة نظرهم، كما يظن أنهم السبب بدعم الكنيسة في إبادة معظم التراث الأدبي القديم، وخصوصاً المتعلق بالروحانيات، المترجم.

انجلترا، في عام 1260م كان مرة ثانية سيد النظام في بروفينس، وترأس ذلك المنصب حتى عام 1278م، وهكذا فمن الممكن جداً أن رونسيلين هو من جلب سمات الكاثار الضلالية من تربتها المحلية في فرنسا إلى انجلترا، هذا المقترح تدعمه الشهادة التي أدلى بها جافروي دي غونفيل أمام محكمة التفتيش، والذي كان مُعلّم مجتمعي فرسان الهيكل في أكيتين (Aquitaine)[1] وبواتيه (Poitou)، وفقاً لجافروي زعم أفراد لم تُذكر أسماؤهم أنّ كلّ الأسس والبدع الشريّرة والمنحرفة في المعبد قدّمها أخ معين يُدعى رونسيلين الذي كان أحد زعماء النظام سابقاً، الأخ رونسيلين المعني هو حتماً رونسيلين دي فوس.

ربما على نحو ملائم قليلاً نوعاً ما، تلا اعتراف ستيفن دي ستابيلباغ بسرعة اعترافان آخران أيّداه، من توماس توسي دي ثورولدبي وجون دي ستوك، طبقاً لتوماس الزعيم السابق في انجلترا قال براين دي جاي إنّ «السيد المسيح لم يكن الرب الحقيقي، بل إنسان فقط»[2]، شهادة جون دي ستوك كانت مهمة جداً، لأنه كان سابقاً أمين صندوق المعبد في لندن، وكونه أمين صندوق، فإنه ربما كان الضابط غير العسكري الأعلى رتبة في النظام في انجلترا، ولأن معبد لندن كان الخزينة الملكية أيضاً، فربما كان معروفاً شخصياً لدى كل من إدوارد الأول وإدوارد الثّاني، هو كان الفارس ذا المنصب الأكثر أهمية في انجلترا للحصول على أي اعتراف.

في شهاداته السابقة أنكر جون دي ستوك كلّ الاتهامات، الآن صرح بأنه في زيارة إلى معبد غارواي في هيرفوردشير في كل الأحوال أعلن السيد الأعظم جاك دي مولاي أن السيد المسيح كان «ابن امرأة، ولأنه قال إنّه كان ابن الرب صُلب»، طبقاً لجون دي ستوك أمره السيد الأعظم بإنكار السيد المسيح وفقاً لتلك القاعدة، المحقّقون طلبوا منه أن يذكر ما أُمر أن يؤمن به، شخصاً كان أم شيئاً، قال جون إن السيد الأعظم وجّهه للإيمان بـ «الرب القدير العظيم الذي خلق السماء والأرض، وليس بالصلب»، حتى هذا ليس بمعتقد كاثاري، عند الكاثار الرب الخالق كان شريراً، ذلك المعتقد يمكن أن يفسّر بأنه تقريباً تقليد يهودي أو إسلامي، وعلى نحو مؤكد في أثناء سنوات النشاط في الأرض المقدّسة تشرّب المعبد مقداراً كبيراً من كلا الفكرين اليهودي والإسلامي.

1ــ أكيتين، باللاتينية «أكيتينيا»، وهي اسم تقليدي لجنوب غرب فرنسا، استُعمل أول مرة من القيصر جوليوس في القرن الأول قبل الميلاد، المترجم.

2ــ يلاحظ من هذا الاعتراف بأن المسيح ليس إلهاً، وإنما بشر استناداً إلى مقولات بعض المسيحيين الأوائل في القرن الثالث الميلادي وبداية الرابع أمثال أريوس والشمشاطي اللذين أنكرا ألوهية المسيح في المجمع المسكوني الأول الذي عقد برعاية الإمبراطور قسطنطين عام 321م، (المدقق).

محكمة التفتيش كانت سريعة في استغلال اعترافات ستيفن دي ستابيلباغ، وتوماس دي ثورولدبي وجون دي ستوك، خلال بضعة شهور قدم أغلب فرسان الهيكل في الأسر في انجلترا اعترافات مماثلة جوهرياً، في 3 يوليو/تموز عام 1311م تصالح معظمهم مع الكنيسة، إمّا بالاعتراف بجرائم معيّنة وشجبهم لها، وإما بالاعتراف بالإثم بصيغته العامّة والاتفاق على دفع الكفّارة، في الواقع وصلت القضايا في هذا النطاق إلى نوع من الاعترافات التلقائية لتخفيض الحكم، بل وصلت إلى درجة التسوية من دون محاكمة، مقابل تعاونهم جرت معاملة فرسان الهيكل الانجليز على نحو مخفف، لم يكن هناك عملية حرق جماعية كما كان الحال في فرنسا، بدلاً من ذلك أُودع «النادمون» في أديرة لإعادة تأهيلهم الروحي، جرى تخصيص أموال كافية لمعالجتهم.

في كل الأحوال من الجدير ملاحظة أن أكثر الاعترافات التي جرى الحصول عليها في انجلترا كانت من الفرسان المسنين والواهنين، مع ذلك لم تكن انجلترا خطّاً أمامياً للنشاط العسكري ولا مركزاً سياسياً أو تجارياً رئيساً وفق اهتمام النظام مثل فرنسا، لذلك كانت بمنزلة «بيت للراحة»، المحاربون المعمّرون أو المرضى في الأرض المقدّسة على سبيل المثال سوف «يحالون إلى التقاعد» إلى مجتمعات في انجلترا للحصول على الأجور مقابل أعمال سخيفة فقط[1]، في أثناء محاكمتهم كان عدد منهم شديد الضعف، لأن يهربوا بعيداً جداً عن المكان الذي اعتُقلوا فيه، وأحد الموثّقين العامّين (كُتّاب العدل) الذين دونوا المحاكمات قال إنهم كانوا كبار السن وواهنين جداً، حتى إنّهم كانوا عاجزين عن الوقوف، هؤلاء هم الرجال الذين اعتقلهم ضبّاط إدوارد عندما أذعن الملك أخيراً للضغوط التي فُرضت عليه، في ذلك الوقت كان لفرسان الهيكل الأصغر سناً والأكثر نشاطاً وقت كاف للهروب كما لاحظنا، وأعدادهم تضخمت نتيجة اللاجئين القادمين من كل مكان كما سنلاحظ.

الهروب من الاضطهاد

رجال القرون الوسطى لم يشاركونا شغفنا أو دقّتنا في الإحصائيات، عندما كان مؤرخو ذلك الوقت يتكلّمون عن تقديرات الجيوش التقريبية مثلاً فإنهم في كثير الأحيان كانوا يبالغون في الدعاية، الأرقام التي تدلّ على الآلاف أو حتى عشرات الآلاف يجري الاعتماد عليها دورياً تماماً وعلى نحو لا يُصدق إطلاقاً، على الأغلب بإهمال للدقة والصدق أيضاً.

1 ـ على سبيل المثال كان هناك مستشفى لفرسان الهيكل المسنين والواهنين في مركز اجتماعي اسمه «ديني» في كامبريدج شاير، في عام 1308م اعتُقل عشرة أو أكثر من هؤلاء الأعضاء من فرسان الهيكل هناك، المؤلفان.

في النتيجة ليس هناك مجموعة موثقة أو جازمة للقوّة العددية لفرسان الهيكل في أي مرحلة من مراحل تاريخهم، ومن ثم لم تنتجُ أيّ قائمة كاملة تحصي ممتلكات فرسان الهيكل في بريطانيا أو أي مكان آخر، هذا إن افترضنا أن واحدة كانت على نحو مطلق خارج سجلات النظام الخاصة، كما لاحظنا أن الوثائق والمخطوطات الرسمية في أغلب الأحيان تحذف عدداً من المواقع، المجتمعات، والضيع الإقطاعية، والعقارات، والبيوت، والمزارع، والملكيات الأخرى التي يُعرف من المصادر الأخرى أنها كانت لفرسان الهيكل، هذا ما حصل في أملاك النظام الرئيسة في بريستول وبِرك مثلاً، وهما الموقعان اللذان تضمنا على نحو مؤكد تجهيزات الميناء وأرصفته، وهما لا يظهران في أيّ قائمة رسمية.

طبقاً لروايات القرون الوسطى بلغ عددهم الآلاف في أوروبا في فترة قمع المعبد، بعض التقارير بلغت إحصائياتها حتى العشرين ألفاً، مع هذا من المشكوك فيه أنه ليس أكثر من مقدار صغير منهم كانوا فرساناً خيالة كاملي العتاد، في الوقت نفسه اتبع إجراء تقليدي في العصور الوسطى هو أن كلّ فارس كان مُلحقاً بحاشية، سائس أو تابع، وفي المعركة يكون معه على الأقل ثلاثة مشاة رقباء أو جنود مدججين بالسلاح، والسجلات الفرنسية تشير إلى أنّ هذا القانون كان يسري في المعبد أيضاً، لذلك كانت معظم قوّة النظام تشمل رجالاً مقاتلين ليسوا بفرسان.

لكن المعبد اعتمد أيضاً على موظّفي دعم هائلين بيروقراطيين كما يتوقّع من هذه المنظمة، إداريين، كُتّاب، عدد كبير من القسيسين، الخدم، الرقيق، الصنّاع، الحرفيين، البنّائين، ومن النادر توضيح أعدادهم في السجلات الرسمية الباقية، هناك قطاعات أخرى أيضاً ليس لها توثيق من أي نوع، والتي من المستحيل الحصول حتى على تقديرات أوّلية لها، على سبيل المثال من المعروف أن فرسان الهيكل امتلكوا أسطولاً كبيراً، سفناً تجارية وبحرية أيضاً، لم تعمل في البحر الأبيض المتوسط فقط، بل في الأطلسي أيضاً، روايات القرون الوسطى تشير بعبارات كثيرة إلى ذلك، موانئ فرسان الهيكل، سفن فرسان الهيكل، الموارد البحرية لفرسان الهيكل. بل هناك أيضاً وثائق تحمل تواقيع ضبّاط فرسان الهيكل البحريين وأختامهم، ومع ذلك لم تبق معلومات مفصّلة من أيّ نوع عن نشاط فرسان الهيكل البحري، ليس هناك سجل عن قوّة الأسطول، أو عما حدث له بعد قمع النظام، بالطريقة نفسها تتكلّم رواية من أواخر القرن الثاني عشر في انجلترا عن امرأة جرى استقبالها في المعبد كأخت، ويبدو تماماً وعلى نحو واضح أنه دلالة على نوع من الجناح أو الملحق الأنثوي للنظام، ولكن لم يجرِ العثور على أي إسهاب أو توضيح للمسألة على نحو مطلق، حتى سجلات محكمة التفتيش الرسمية التي تحتوي على معلومات جرى قمعها أو إخفاؤها منذ زمن طويل.

بحث شامل لكل الوثائق الانجليزية ووثائق محكمة التفتيش، ودراسة مفصّلة لأعمال المؤرخين الآخرين يقودانا لأن نستنتج أنه في عام 1307م بلغت قوّة فرسان الهيكل في انجلترا نحو 265 رجلاً، نحو تسعة وعشرين منهم كانوا فرساناً كاملي العتاد، ونحو سبعة وسبعين رقيباً، وواحد وثلاثين من القسيسين، إن جرى حذف القسيسين والداعمين الآخرين يصبح عدد فرسان الهيكل المقاتلين على الأقل اثنين وثلاثين، ومن الممكن 106 تقريباً، عشرة فقط منهم اعتُقل على نحو مؤكد وأُدرج في سجلات محكمة التفتيش، إضافة إلى ثلاثة آخرين من فرسان الهيكل كانوا في الأسر، وربما كانوا من الرجال العسكريين أيضاً، هذا يعني أن ما يقارب ثلاثة وتسعين من فرسان الهيكل العسكريين كانوا أحراراً، وهم الرجال الذين هربوا تماماً من قبضة محكمة التفتيش، ولم يُعثر عليهم قط،[1] ذلك الرقم لا يتضمّن مقاتلي النظام الذين نجوا من الاضطهاد في اسكتلندا وإيرلندا.

سكان أوروبا في العصور الوسطى كانوا جزءاً مما هم اليوم، ومع أن هذه الأعداد تبدو صغيرة بالمعايير الحديثة، إلا أنها ربما كانت ضمن سياق ذلك العصر أعداداً كبيرة تقريباً، علاوة على ذلك يجب أن نتذكّر أنّ فعالية الجيوش في القرون الوسطى لم تكن تُقرّر بالتفوق العددي وربما على درجة أكبر من الأزمنة اللاحقة، بل بالتدريب، في أم

1ـ اختصاراً، ترتيباتنا هي كالتالي: لأن عمليات التوقيف في فرنسا كانت مفاجئة، على خلاف تلك التي حصلت في انجلترا، فإننا نفترض أنّ المقدار التقريبي لفرسان الهيكل المعتقلين من رتب مختلفة يعكس المقدار العام للنظام، من أولئك الذين أدرجوا في التقارير الفرنسية 11 % كانوا فرساناً، 29 % رقباء، و12 % قسيسون، مقدار ثلاثة رقباء لكلّ فارس يعكس بدقّة سمة جيوش القرون الوسطى، في انجلترا طبعاً كان هناك الكثير من الوقت لفرسان الهيكل النشطاء للهروب، ومع أن مقدار القسيسين المعتقلين كان 11 % ومن ثم فهو مشابه لفرنسا، إلا أن عدد الفرسان والرقباء كان أقل كثيراً، في كل الأحوال من الواضح أنّ الكثير منهم هربوا، في انجلترا كان هناك على الأقل أربعة وسبعون ملكية رئيسة ومجتمعات كبيرة للنظام، ومع ذلك جرى إلقاء القبض على أربعة عشر معلّماً فقط، واحد فقط كان فارساً، لم يجرِ الإمساك بأي معلّم لمركز التجنيد الكبير «فاكس فليت» في منطقة هامبر، ولا لقاعدة «ويلوتين» في لنكولن شاير والتي كانت واحدة من أكبر القواعد في انجلترا، ولم يجرِ العثور على أيّ معلّم لمجتمعات «ويثربي» أو «تيمبل برور» أو «فاول بريدج» على سبيل ذكر القليل منها، كلّ هذه القواعد كان يسكنها على الأقل أربعة وعشرون من الإخوة، بل على الأرجح أكثر من ذلك، إن تقديرنا الواضح أن أكثر من ثلاثة وتسعين من فرسان الهيكل النشطاء عسكرياً كانوا طلقاء بعد الشروع بعمليات التوقيف في انجلترا يجب أن يجري عدّه تقديراً معتدلاً.
دليلاً على ذلك يمكننا أن نلاحظ أنّ «مخطوطات ووتر مان» لعام 1338م تُدرج على الأقل خمسة وخمسين وربما ستّين فارساً ورقيباً من نظام القدّيس يوحنا في انجلترا، وعلينا أن نتذكّر أنّ نظام القدّيس يوحنا كان أصغر من نظام المعبد، وليس مؤكداً أن فرسان الهيكل كانوا أقلّ من ذلك، ومن ثم يمكن تجاهل التقديرات الراهنة في الأدب التي تقول إن عدد فرسان الهيكل العسكريين في انجلترا هو تقريباً بين العشرة والعشرين، المؤلفان.

درمان في السودان عام 1898م 33 ألفاً من القوّات البريطانية والمصرية هزمت أكثر من 50 ألفاً من الدراويش[1]، وأوقعوا نحو 15 ألف إصابة، بينما كانت خسائرهم أقل من 500 رجل، في الحادثة التي جرى تمثيلها في فيلم زولو: 139 جندياً بريطانياً في منطقة روركس دريفت[2] في عام 1879م أحاطوا بنحو 4000 زولوي[3]، وأوقعوا 400 ضحية و25 إصابة، في حصار مالطا عام 1565م أقل من ألف من فرسان القدّيس يوحنا، مع القوات الاحتياطية، صدوا قوة تركية تتكون من 30 ألفاً، وأوقعت 20 ألف إصابة، وأيضاً الإحصائيات قد تكون غير متوازنة في أثناء العصور الوسطى، حيث إن الخيول الثقيلة والدروع الثقيلة وصرامة الانضباط والخطط المتطوّرة أثبتت أنها حاسمة كالقوّة النارية التي جاءت بعد ذلك، في الأرض المقدّسة في أثناء الحملات الصليبية قوة اثني عشر فارساً خيالاً مدرّعين وكاملي العتاد يهاجمون بخيول مدرعة، يعملون كدبابات القرن العشرين، فهم قادرون بسهولة على بعثرة قوة من مئتي أو ثلاثمئة مسلم[4]، لذلك فإن حشداً مُهاجِماً من مئة أو أكثر من الفرسان يمكنه أن يسحق ألفين أو ثلاثة من الأعداء.

نستنتج أن نحو ثلاثة وتسعين من فرسان الهيكل المتدرّبين الطلقاء في بريطانيا لم يتفرقوا بانضباطهم المحترف، وبتسليحهم الأحدث، وبخبرتهم العسكرية، ألم يكن يمكنهم بسهولة أن يثبتوا أنهم قوة حاسمة ضدّ الجنود الهواة والفلاحين المجنّدين الذين اشتركوا في أكثر الحملات الأوروبية، حملة كهذه تماماً كانت تحدث آنذاك في اسكتلندا.

1ـ المجموعات الدينية الإسلامية الزاهدة المتعددة، بعضها يُعرف بممارساته الحيوية جداً بالرقص أو الهتاف أو الالتفاف أو الغناء، المترجم.

2ـ في جنوب إفريقيا، المترجم.

3ـ الزُّولوويّ واحد الزُّولو، وهم شعب ناطق بلغة البانتو في ناتال بجنوب إفريقيا، المترجم.

4ـ هذا ما رأيناه في معركة اليرموك عندما قام خالد بن الوليد بخيوله الخفيفة وجنوده المسلمين غير المدرعين وبقوة لا تزيد على 45 ألفاً بدحر نحو 240 ألفاً من تلك الدبابات المزعومة بإذن الله، الغريب هو أن ما يفتخر به المؤلفان كان مهزلة للمسلمين الذين كانوا يسخرون من أولئك الجبناء المتحصنين في دروعهم الثقيلة وعتادهم لدرجة عجزهم عن الحركة بطلاقة، على عكس المسلمين الذين كانوا لا يهابون الموت في سبيل الله ومن ثم لم يكونوا في حاجة إلى حماية أنفسهم بتلك «الدبابات»، وكلنا يعلم القصة التي تتحدث عن امرأة مسلمة قالت لابنها أن يرتدي درعاً تقيه الموت في معركة ضد الكفار، فقال لها ابنها حزيناً: أماه هل تبخلين عليّ بالشهادة، المترجم.

القسم الرابع

اختفاء أسطول فرسان الهيكل

كان إدوارد الثّاني في بادئ الأمر مشمئزاً من القيام بأي تصرّف على نحو مطلق ضدّ فرسان الهيكل الذين ضمن حدود مملكته، ولكن الضغوط الخارجية، الضغوط التي مارسها فيليب ملك فرنسا ومحكمة التفتيش والبابا أرغمته أخيراً على التجاوب، ولكن تجاوبه كان بطيئاً، الإهمال التقريبي في اضطهاد فرسان الهيكل في انجلترا ساد أيضاً في اسكتلندا وإيرلندا.

في إيرلندا امتلك فرسان الهيكل ما لا يقل عن ستّ عشرة ملكية، ست منها على الأقل كانت مجتمعات كاملة، من المعروف أنهم امتلكوا على الأقل أربع قلاع، ولكن من الممكن أنهم امتلكوا سبعاً أخرى أيضاً، وفق تقديراتنا إدارة أملاك كهذه وتحصينها كانت تستوجب وجود ما لا يقل عن تسعين رجلاً، ربما كان منهم نحو ستّة وثلاثين مقاتلاً.

في 3 فبراير/شباط عام 1308م بعد أربعة شهور تقريباً على إطلاق حملة التوقيف الأولى في فرنسا وبعد شهر ونصف على إطلاقها في انجلترا بدأت حملة التوقيف في إيرلندا، كان مجموع المعتقلين نحو ثلاثين من أعضاء النظام، وجرى أخذهم إلى دبلن، ذلك العدد كان ثلث القوّة الإجمالية تقريباً، لا يبدو أنه كان هناك أيّ ممارسات وحشية معيّنة في إيرلندا، على نحو لم يكن هناك أحكام حرق أو إعدام، أُطلق سراح سيد النظام في إيرلندا بكفالة، ويُظن أن أتباعه جرت معاملتهم بتساهل مقارن، ليست هناك أي سجلات عن إرسال فرسان الهيكل الإيرلنديين إلى الأديرة للمعاقبة، وبعد ذلك، أي في عام 1314م كانت القوّة الكاملة للنظام في إيرلندا طليقة فعلياً، هرب بعضهم من عمليات التوقيف الأولية، وبعضهم أُطلق سراحه بعد الاستجواب.

فرسان الهيكل الإيرلندي كان لديهم متسع من الوقت وفرصة كافية لاتخاذ التدابير الملائمة، وذلك نظراً إلى التأخير المطوَّل قبل البدء بالتصرف ضدهم، يبدو أنهم قاموا بذلك على نحو واضح، عندما جرى الاستيلاء على أراضيهم وأملاكهم المخزونة، لم يجرِ العثور عملياً على أي أسلحة، طبقاً لأحد المؤرخين «كان مفاجئاً جداً اكتشاف أن مساكن نظام عسكري كانت تفتقر كثيراً إلى الأسلحة»، في البيت الرئيس الذي يدعى «كلونتارف» جرى العثور على ثلاثة سيوف فقط، في «كيل كلوغان» لم يكن هناك سوى رمحين وخوذة

حديدية وقوس، ومع أنه في تلك البلاد وعلى نحو مؤكد لم يكن هناك نقص في المعدات، لأن إدوارد الثّاني في ذلك الوقت كان يشتكي من تهريب الأسلحة الإيرلندية إلى اسكتلندا، وهكذا يبدو واضحاً أنّ أكثر فرسان الهيكل الإيرلنديين لم يهربوا من عمليات التوقيف فحسب، بل هربوا ومعهم معظم أسلحتهم ومعداتهم.

فرسان الهيكل اللاجئون

في السادس من أكتوبر/تشرين الأول من عام 1309م، أي بعد عامين كاملين على بدء عمليات التوقيف في فرنسا أمر إدوارد ضباطه باعتقال كل فرسان الهيكل الطلقاء في اسكتلندا، وإبقائهم في رعاية آمنة، في الحقيقة لم يُعتقل قط سوى اثنين منهم، مع أن أحدهم كان والتر دي كليفتون وهو سيد النظام في اسكتلندا، ولكن في عام 1309م لم يكن إدوارد في مكانة تؤهله لفرض مرسومه[1] على اسكتلندا، إذ إن أغلب البلاد آنذاك كانت في قبضة بروس، في مارس/آذار من تلك السنة أعلن بروس حاكماً على البلاد «بحق السلالة الشرعية» و«بموافقة الشعب المذكور، جرى اختياره ليكون ملكاً»، في الوقت الذي أصدر فيه إدوارد مرسومه، كان بروس يحارب في آرغايل، في نهاية السنة كان قد امتلك ثلثي اسكتلندا، والحاميات الانجليزية في بيرث ودندي وبانف كانت تموّل بحراً[2].

ونظراً إلى أن بروس كان منشغلاً في حرب عصابات ضدّ إدوارد فمن النادر أنه كان سيحترم مرسوم الملك الانجليزي، ومن النادر أن يحترم قوانين البابا أيضاً بعد أن حرم كنسياً، تلك القوانين الكنسية لم تكن قابلة للتطبيق في اسكتلندا في كل الأحوال كما رأينا، في الظروف الحالية لم يكن تصرف بروس إلا الترحيب بالهاربين المتدفقين الذين كانوا مقاتلين محترفين أيضاً، والذين ربما كانوا مستعدّين جداً للتجاوب بضم أنفسهم إلى قضيته.

ليس هناك سجل عما حدث لفرسان الهيكل الاثنين اللذين اعتُقلا في اسكتلندا، من الممكن أنه أُطلق سراحهما، على أي حال بالاستجواب شهدا على أنّ عدداً من زملائهما، بمن فيهم معلّم «بالانترو دوتش» قد «تخلوا عن عادتهم وهربوا» عبر البحر، من الناحية الأخرى لم يُجر محاكمة فرسان الهيكل في اسكتلندا إلا لامبيرتون أسقف سانت أندروز، لامبيرتون كان يلعب لعبة مزدوجة معقّدة على نحو ماهر كما رأينا، لكن ولاءه الأساسي كان لبروس، كان قادراً على نحو مثالي على أن يعمل ضابط تجنيد عند الشخص الذي اعترف به ملكاً شرعياً لبلاده، في الحقيقة الهاربون من فرسان الهيكل قد هربوا بحراً،

1ـ المتعلق باعتقال فرسان الهيكل وحلّ نظامهم، المترجم.
2ـ لأنه لم يعد يمكن تزويدها براً، إذ إن الطريق البري كان تحت سيطرة بروس، المترجم.

لكنّهم ربما أبحروا سريعاً إلى اسكتلندا وحولها للالتحاق بجيش بروس في آرغايل، وربما لم يكن ضرورياً أن يهربوا بحراً أبداً.

ليس ضرورياً أن فرسان الهيكل في اسكتلندا هم فقط الذين وسّعوا صفوف بروس، فكما رأينا كان هناك عدد كبير من فرسان الهيكل الطلقاء في انجلترا والذين نجوا من عمليات التوقيف، والذين كان لا بدّ لهم من أن يذهبوا إلى مكان ما، ومن المعقول جداً افتراض أنه على الأقل بعض منهم ذهبوا إلى اسكتلندا، ومن المعقول افتراض أن بعضاً من الإخوة الإيرلنديين قاموا بالمثل أيضاً، في الحقيقة أحد فرسان الهيكل الانجليز لدى استجوابه أعلن على نحو صريح أنّ زملاءه هربوا إلى اسكتلندا، السؤال حقاً هو هل وجد فرسان الهيكل الانجليز ملجأ لهم في الشمال، بل كم منهم قام بذلك؟.

مهما كان العدد الذي ربما كان يزيد على ثلاثة وتسعين، فهُم بكلّ الأحوال توحّدوا مع الهاربين من فرنسا ومن الأماكن الأخرى في أوروبا. حصل فرسان الهيكل في فرنسا على إنذار مبكّر كاف للقيام على الأقل باتخاذ بعض التدابير قبل الهجوم عليهم كما رأينا ، لذلك اختفى الكنز في قاعدة باريس، وكذلك اختفى الكثير من وجهاء النظام الكبار في فرنسا الذين يُفترض أنهم أبحروا بعيداً، ومعهم ثماني عشرة سفينة، بقاء السيد الأعظم والمسؤولين الآخرين لا يعني أنّهم لم يكونوا مستعدين أو أنهم فوجئوا، ذلك مقترح فقط على أنّهم كانوا يأملون على نحو كبير تفادي المصير الذي طالهم في النهاية وحتى اللحظة الأخيرة، أي إنهم كانوا يتحلون بكلّ الأمل للدفاع عن النظام ضدّ الاتهامات الموجّهة ضدّه وإعادته إلى المنزلة التي كان يتميز بها سابقاً.

يجب تذكُّر أنّه مع أن هجوم فيليب الأولي ضدّ فرسان الهيكل في فرنسا كان سريعاً ومفاجئاً، إلا أن العملية التي تبعت ذلك كانت طويلة الأمد، كان هناك ما يقارب خمس سنوات من الجدال القانوني والمفاوضات والإثارة والمساومة البارعة والارتباك العامّ قبل أن يُحلّ النظام رسمياً، وسبع سنوات قبل قتل جاك دي مولاي، في أثناء كلّ هذا الوقت بقيت أعداد كبيرة من فرسان الهيكل حرّة، يتجوّلون في كل أنحاء أوروبا، كان لديهم فرصة كبيرة لوضع الخطط وتنفيذها، ولتنسيق جهودهم، وتنظيم طرق الهروب والعثور كماوى.

طبقاً للوثائق الموجودة كان هناك 556 مركزاً اجتماعياً كاملاً لفرسان الهيكل حدّاً أدنى في فرنسا، إضافة إلى عدد لا يحصى من العقارات الأصغر حجماً أيضاً، القوّة العددية للنظام في البلاد كانت على الأقل 3200، ويُقدّر أن 350 منهم كانوا فرساناً و930 رقيباً، أي ما مجموعه 1280 مقاتلاً، في أثناء تطبيق الإجراء القانوني في فرنسا

تكشف سجلات محكمة التفتيش عن اعتقال 620 من فرسان الهيكل، وبتطبيق المقادير المئوية نفسها ذلك يعني أن نحو 250 منهم كانوا من المقاتلين، هذا يعني أن نحو 1030 عضواً من مقاتلي النظام على الأقل ما زالوا طلقاء، وهم فرسان الهيكل الذين لم يعتقلوا ولم يؤسروا ولم يجرِ العثور عليهم إطلاقاً.

طبعاً هناك عدد ملائم منهم بقي في فرنسا، مع أن الرواية شبه مؤكدة، فإن التلال المحيطة بـ «ليون» (Lyons)[1] يزعم أنها أخفت في مكان ما أكثر من 1500 لاجئ من فرسان الهيكل، فرصة حقيقية لكل من المحقّقين والملك الفرنسي، ولكن إن كان الكثير من فرسان الهيكل قد بقوا في فرنسا، فإن عدداً أكبر بلا شك كان سيسعى للعثور كماوى في الخارج، مثلاً بعد فترة قليلة من عمليات التوقيف الأولية حضر إمبرت بلانك زعيم قاعدة أوفيرن إلى انجلترا لنصح الإخوة الانجليز كما يبدو بشأن كيفية التصرّف في أثناء المحاكمة القانونية الوشيكة، في النهاية سُجن إمبرت في انجلترا، ولكن بشروط أكثر راحة من تلك التي لاقاها زملاؤه في فرنسا، في أبريل/نيسان عام 1313م أُرسل من برج لندن إلى رئيس أساقفة كانتربوري (Canterbury)[2] للكفّارة، بعد شهر منحه إدوارد الثّاني راتباً تقاعدياً لمساعدته، لا بدّ من أنه كان هناك الكثير من فرسان الهيكل الذين جاؤوا إلى انجلترا مثل إمبرت، ولكنهم لم يُحجزوا مطلقاً، بعضهم كانوا سيأتون مباشرة عبر القناة، وبعضهم، على نحو أكبر كانوا يدخلون من فلاندر (Flanders)[3] التي بقيت متعاطفة معهم، وحافظت على عبورهم البحري المستمر إلى الجزر البريطانية، لأن انجلترا في أثناء السنوات السبع التالية أصبحت غير ملائمة جداً لتكون مأوى، الهاربون من أوروبا مع إخوتهم الانجليز والإيرلنديين كان لهم أن يهربوا شمالاً، حيث يتوقعون المنعة والحصانة لدى بُعدهم عن قبضة كل من البابوية ومحكمة التفتيش.

أسطول فرسان الهيكل وطُرق هروبه

أيّ نزوح جماعي لفرسان، وخصوصاً إن تضمّن أيضاً كنوز النظام، فإنه على نحو شبه مؤكد تضمّن أسطول فرسان الهيكل، ذلك الأسطول الذي اختفى على نحو غامض جداً، والذي لا يُعرف عنه إلا القليل جداً، في الحقيقة أسطول فرسان الهيكل قد يحمل أجوبة عن الكثير من الأسئلة التي تحيط بالأيام الأخيرة للنظام، قد يشير إلى وجود فرسان الهيكل المتوقع في آرغايل أيضاً، هذه الأرض غير المستكشفة عملياً.

1ـ عاصمة مقاطعة رون، في الوسط الشرقي لفرنسا، المترجم.
2ـ كانتربوري مدينة في كينت في انجلترا، كنيستها هي الكنيسة الأم للكنيسة الانجليزية، المترجم.
3ـ فلاندر: منطقة شمال غرب أوروبا، كانت دولة مستقلة قويّة بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر، كانت تضم ما هي الآن فلاندر في بلجيكا ومقاطعة نورد في فرنسا وجزءاً من إقليم زيلند في هولندا، المترجم.

في منتصف القرن الثالث عشر لم يكن أسطول المعبد قد أصبح ضرورة فقط، بل أصبح ثروة رئيسة لفرسان الهيكل، أو لنظامهم القريب، نظام فرسان القدّيس يوحنا، كان من الأرخص جداً نقل الرجال والخيول والمعدّات والتجهيزات العسكرية إلى الأرض المقدّسة بسفنهم الخاصة بدلاً من استئجار السفن من التجار المحليّين، علاوة على ذلك كان ممكناً استخدام الأسطول لنقل الموظفين والأشياء الأخرى، إضافة إلى الحجاج، وهذا أثبت أنه كان مصدر دخل مربح، في أحد الأوقات كان فرسان الهيكل يحملون 6000 حاجّ سنوياً إلى فلسطين من موانئهم في إسبانيا وفرنسا وإيطاليا، سفنهم كانت مفضّلة عموماً للآخرين، لأنها كانت تسافر برفقة سفن حربية لحمايتها، وفي ذلك الوقت أيضاً كان النظام «مؤتمناً على ألا يبيع مسافريه عبيداً في الموانئ الإسلامية، كما كان يفعل بعض التجار»، وسفن المعبد لأنها كانت معفية من الضرائب، كانت تتاجر أيضاً وعلى نطاق واسع بسلع كالأنسجة والتوابل والصباغ والخزف والزجاج، كما رأينا كان مرخّصاً لفرسان الهيكل تصدير الصوف من صنعهم الخاص.

كانت تجارة فرسان الهيكل نشيطة جداً، حتى إنه في عام 1234م تقريباً أراد أصحاب السفن المدنيون في مرسيليا منع سفن النظام من استخدام مينائهم، منذ ذلك التاريخ فصاعداً جرى تحديد سفينة واحدة فقط لكل من فرسان الهيكل وفرسان المشفى[111]، والتي لا يمكنها القيام سوى برحلتين سنوياً، كان يمكنها حمل القدر نفسه من الشحن الذي كانت تحمله، ولكن لا أكثر من 1500 مسافر على أي حال مثل هذه الإجراءات لم تكبح النشاطات البحرية لكلا النظامين، كلاهما ببساطة أفاد نفسه من الموانئ الأخرى.

إجمالاً سُخّر أسطول فرسان الهيكل للعمليات في البحر الأبيض المتوسط، الحفاظ على تمويل الأرض المقدّسة بالرجال والعتاد، واستيراد السلع من الشرق الأوسط إلى أوروبا، عمل الأسطول في الأطلسي في الوقت نفسه على أي حال، مارس تجارة شاملة مع الجزر البريطانية، ومن الممكن جداً مع المدن البلطيقية ضمن اتفاقية «الاتحاد الجماعي» أو الـ «Hanseatic League»[112]، وهكذا كانت المراكز الاجتماعية لفرسان الهيكل في أوروبا،

111ـ Hospitallers: فرسان المشفى هم الفرسان الدينيون الصليبيون لمشفى القديس يوحنا الذي جرى تأسيسه في أواخر القرن الحادي عشر من الصليبيين الأوروبيين في أورشليم للعناية بالحجّاج المرضى، كانوا يتميزون بقوة وبأس شديدين، المترجم.

112ـ Hanseatic: كلمة ألمانية قديمة من القرن الثاني عشر، وتعني جماعي والمفرد «Hanse» أي جماعة، وهذا «الاتحاد الجماعي» هو شبكة منظمة من البلدات في شمال أوروبا في الفترة التي بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر والتي كانت تحمي بعضها، وتروّج للتجارة بينها، تدعى أيضاً «Hanse» (الجماعة)، المترجم.

وخصوصاً في انجلترا وإيرلندا على الساحل أو على الأنهار الصالحة للملاحة عموماً، الميناء الأطلسي الرئيس لفرسان الهيكل كان في «لا روشِل» الذي كان يتميز أيضاً باتصال بري جيد بموانئ البحر الأبيض المتوسط، على سبيل المثال القماش يمكن أن يُجلب من بريطانيا على سفن فرسان الهيكل إلى «لا روشِل»، وينقل براً إلى ميناء على البحر الأبيض المتوسط مثل كوليور[1]، ثمّ يُحمّل على متن سفن فرسان الهيكل ليُشحن ثانية ويُحمل إلى الأرض المقدّسة، بهذه الطريقة كان ممكناً تفادي المرور الخطر الدائم عبر مضيق جبل طارق الذي كان تحت سيطرة المسلمين.

من غير الممكن أنّ موظفي معبد باريس الذين تملّصوا من قبضة فيليب هربوا برّاً، لأن رجال الملك كانوا يحرسون المنطقة المحيطة بباريس على نحو جيّد جداً، اثنان من فرسان الهيكل الذين حاولوا الهروب شمالاً أُسرا في تشومونت في «مين العليا»، تماماً عندما كانا على وشك مغادرة الأرض الفرنسية، الرحلة البريّة وصولاً إلى الساحل في «لا روشِل» ربما كانت صعبة على نحو ما، إن لم تكن مستحيلة، لكن بينما كان ميناء فرسان الهيكل الأساسي هو «لا روشِل»، يُعرف بأن النظام كان يحتفظ بأسطول من السفن الأصغر على نهر السين، وفي الحقيقة كان هناك عدد من البيوت والمراكز الاجتماعية لفرسان الهيكل ممتدة على طول النهر من باريس حتى الساحل، على الأقل اثنا عشر، بما فيها واحد في «روان» (Rouen)[2] وآخر قرب الموقع الحالي لمنطقة «الهافر» (Le Havre)[3]، علاوة على ذلك كان فرسان الهيكل معفيين من الضرائب، وسفنهم لم تكن تُفتَّش، لذلك في الشهور التي سبقت مباشرة أولى عمليات التوقيف كان سهلاً نقل كل الموظفين والكنوز عبر نهر السين إلى الساحل، وهناك يجري نقل كل من الرجال والمواد المشحونة إلى السفن الكبيرة التي تُبحر من «لا روشِل» أو أيّ ميناء آخر، حتى بعد أن بدأت عمليات التوقيف والاضطهاد، كانت طرق الهروب الرئيسة لفرسان الهيكل الفارين على الأرجح عبر النهر والبحر فضلاً على البر.

ولكن إلى أين يمكن أن يرحل الأسطول البحري لفرسان الهيكل بعد أن غادر الموانئ الساحلية الفرنسية؟، يجب أن نتذكّر أنه لم يبق هناك أي سجلات من أيّ نوع، وهذا ذاته يدل على شيء ما، يشكل إشارة مهمة، لو أن فيليب أمسك أو أسر أو حجز سفن فرسان الهيكل، فلا بد أنه سيكون هناك بعض السجلات عن ذلك، وحتى لو أن التوثيق الرسمي

1ـ في بيرينه التي على الحدود الجنوبية الغربية لفرنسا، المترجم.
2ـ روان: عاصمة إقليم السين البحري، شمال غرب فرنسا، المترجم.
3ـ الهافر: مدينة في إقليم السين البحري، شمال غرب فرنسا، المترجم.

جرت مراقبته أو قمعه، لكانت المعرفة العامّة واسعة الانتشار، القيام بهذه الخطوة لا يمكن أن يبقى طيّ الكتمان.

بالطريقة نفسها في إسبانيا والبرتغال من غير الممكن أن يحدث رسو فرسان الهيكل هناك من دون ملاحظة، على نحو طبيعي سيجري الترحيب بفرسان الهيكل المبحرين من فرنسا من إخوتهم في إسبانيا والبرتغال، كان يمكنهم أن يتوقعوا استقبالاً حميماً في أماكن مثل ميورقة (Majorca)[1]، حيث امتلك النظام بلدة وميناء بولينسا، إضافة إلى أراض أخرى كثيرة، وحيث كان الملك جيم الثّاني صديقاً لهم، لكن الموانئ البحرية لإسبانيا والبرتغال كانت مراكز حضرية وتجارية رئيسة في ذلك الوقت مع حياة عملية مزدهرة وعدد سكاني كبير، وسط الاهتمام الواسع الذي سببته عمليات التوقيف الأولية في فرنسا، فمن غير المعقول أن سفن فرسان الهيكل كانت سترسو في بلدة بالما[2] مثلاً، ومن دون أن يتركوا أي أثر في السجلات التاريخية، وطبعاً لا يمكن فرسان الهيكل ذاتهم تحمّل جذب انتباه كهذا.

في الواقع لم يكن هناك سوى ثلاثة اتجاهات ممكنة لأسطول فرسان الهيكل، المكان الأول، وهو الذي يقترحه أحياناً المؤرخون، ربما كان في مكان ما من العالم الإسلامي، إمّا في البحر الأبيض المتوسط وإما على الساحل الأطلسي لشمال إفريقيا، لكن الظروف تقف ضد هذا، في المقام الأول كان فرسان الهيكل في عام 1307م لا يزالون يتمنّون إثبات براءتهم من التهم الموجّهة ضدّهم، البحث عن لجوء عند «غير النصرانيين» من شأنه أن يعترف بالاتهامات الموجّهة ضد فرسان الهيكل بالبدعة والخيانة، علاوة على ذلك من غير الممكن مرة ثانية أن لا تكون هناك أي سجلات عن أسطول فرسان الهيكل لو وجد ملجأ في حماية الإسلام، لأن ذلك سيكون في النهاية ضربة دعائية رئيسة موفقة وغير متوقعة، في الحقيقة عندما طلبت جيوب صغيرة من فرسان الهيكل في إسبانيا ومصر اللجوء والهداية للدين الإسلامي اسمياً على الأقل استفاد الكتّاب المسلمون على نحو كبير من ذلك، ومن ثم من غير الممكن أنهم بقوا صامتين لو كان لديهم في معسكرهم أسطول كامل من فرسان الهيكل، وربما كنزهم أيضاً.

يُقترح أحياناً أنّ أسطول فرسان الهيكل ربّما بحث عن الأمان في الدول الاسكندنافية كما لاحظنا، اثنان من فرسان الهيكل جرى استجوابهما في اسكتلندا، وادعيا أنّ إخوتهم هربوا بحراً، وهذا قاد بعض المؤرخين إلى افتراض أنهم ذهبوا إلى

1ـ ميورقة أكبر جزر البَليار، وهي منطقة إسبانية مستقلة غربي المتوسط، المترجم.
2ـ بالما (Palma) ميناء جزيرة مَيورقة في جزر البليار الإسبانية، هي عاصمة مدن جزر البليار، المترجم.

الدانمارك أو السويد أو النرويج على الأغلب، هذا التصور لا يمكن إهماله كلياً، بل هو بعيد جداً عن الصحة، سكان الدول الاسكندنافية كان عددهم قليلاً جداً في ذلك الوقت، وربما كان صعباً التهرب من ملاحظتهم في أي منطقة مأهولة بالسكان، فرسان الهيكل لم يكن لديهم هناك أي مراكز اجتماعية ولا قواعد ليعملوا خلالها، ولا روابط تجارية كانت أم سياسية بالشعب، أو حتى الحكومات، وبعد أن جرى حل النظام رسمياً عام 1310م ربما كانوا معرّضين للاعتقال والاضطهاد في الدول الاسكندنافية كما في أي مكان آخر، مرة أخرى أيضاً يتوقع أي شخص أن يكون هناك بعض السجلات عن ذلك، لو أنه حدث فعلاً.

مع هذا البعد النائي للقفر الاسكندنافي الذي لم يكن أسوأ من كون تلك المناطق مستعمرة من الفرسان التيوتونيين في النهاية، ربما وفّر ملجأ من نوع ما لفرسان الهيكل، بل ربّما كان بدا جذّاباً إن لم يكن هناك بديل، ولكن كان هناك بديل، إنها اسكتلندا التي كانت البلاد التي حافظ فرسان الهيكل على علاقات ودّية بها، البلاد التي أقرّت بالملك الذي كان محروماً كنسياً، والأكثر من ذلك فهي البلاد التي تبحث بشغف عن حلفاء، وخصوصاً مقاتلين محنّكين، فإن أراد الفرسان أن يبتكروا أو يدبّروا مأوى مثالياً يملكونه، فلن يستطيعوا أن يجدوا أفضل من اسكتلندا للقيام بذلك.

منع أسطول إدوارد المتمركز على الساحل الشرقي لانجلترا عملياً طرق التجارة الرسمية بين فلاندر والموانئ الاسكتلندية مثل أبردين وانفرنس[1]، من غير المعقول أن تخاطر سفن فرسان الهيكل المتحركة من الشمال من «لا روشِل» أو من منبع نهر السين بعبور القناة وبحر الشمال، ولا كانت قادرة أيضاً على أن تُبحر عبر البحر الإيرلندي الذي أُغلق أيضاً، وعلى نحو فعال بالسفن البحرية الانجليزية التي تمركزت في آير[2]، وفي كاريك فورغيس (Carrickfergus) في خليج بلفاست[3]، لكن طريقاً هاماً واحداً كان مفتوحاً من الساحل الشمالي لإيرلندا، بما فيه منبع نهر فويل في لُندُن دَري إلى ممتلكات بروس في آرغايل وكِنتاير وقناة جورا، صديق بروس وحليفه المقرّب أنجس أوغ ماكدونالد من آسلاي (Islay) يحكم آسلاي وجورا وكولونسي (Colonsay) التي توفر طريقاً مباشراً بين شمال غرب ألستر وجنوب غرب اسكتلندا، هذا هو الطريق الذي كان يمد بروس في وقت ما بالأسلحة والعتاد.

1ـ انفرنس (Inverness) بلدة صناعية وتجارية شمالي اسكتلندا، المترجم.
2ـ آير (Ayr) آير بلدة ساحلية وميناء جنوب غرب غلاسكو، المترجم.
3ـ خليج بلفاست، شمال شرق إيرلندا، على قناة الشمال، المترجم.

لو وجدت فرق فرسان الهيكل الكبيرة من كل أنحاء أوروبا وأجزاء من أسطول فرسان الهيكل نفسه مأوى لهم في اسكتلندا فسيكونون قادرين على فعل ذلك فقط من هذا الطريق، من دونيجال ومن فويل ومن الساحل الشمالي الغربي لألستر إلى خليج جورا وضواحيه، ولكن كيف يمكن أسطول فرسان الهيكل أن يصل إلى هذا الطريق من دون التغلب على صعاب البحر الإيرلندي وعلى خطورة اعتراض السفن الانجليزية؟.

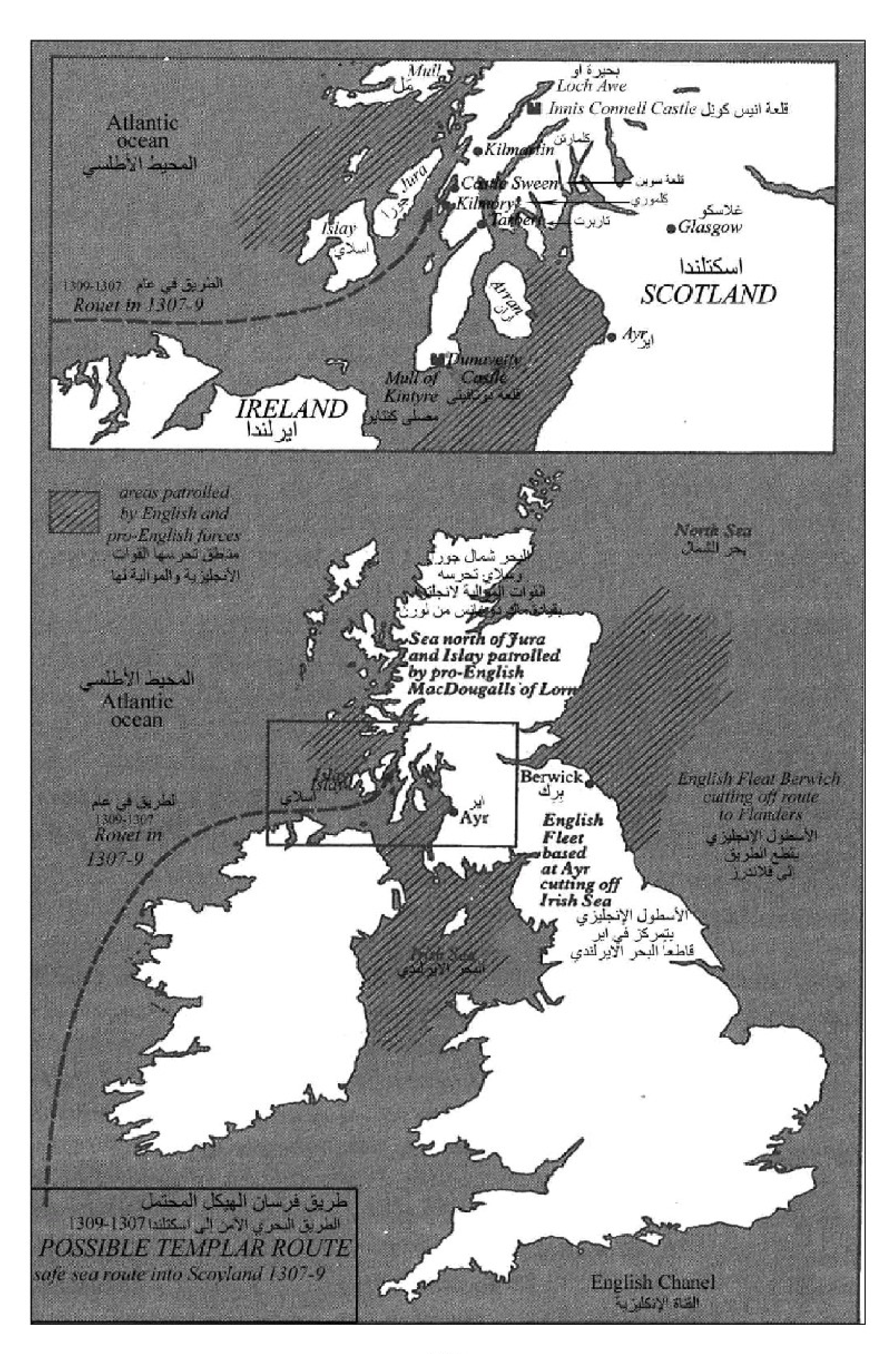
نعزم اليوم على عدّ إيرلندا إحدى الجزر البريطانية التي مركزها الأساسي دبلن، والتي موانئها الرئيسة عدا واحداً أو اثنين في الجنوب تقع على الساحل الشرقي مواجهة للبحر الإيرلندي و«الجزيرة» البريطانية، على نحو مؤكد هذا هو الحال منذ القرن السابع عشر، لكنّه لم يكن كذلك في العصور الوسطى وقبلها، في زمن بروس لم تكن التجارة الإيرلندية الأساسية مع انجلترا، بل مع أوروبا، في المحصلة كانت دبلن وغيرها من الموانئ الشرقية المماثلة تافهة مقارنة بالموانئ الجنوبية الرئيسة في مقاطعات ويكسفورد وواترفورد وكورك، والأكثر أهميّة من ذلك أن منطقة غرب إيرلندا التي يُنظر إليها الآن منطقة داخلية نائية خالية ومجرّدة من السكان كانت تحتوي على الأقل على ميناءين من المستوى الرئيسي الحقيقي، هما ميناء ليمريك، والآخر وهو أكثر أهمية من الكلّ ميناء غالوي، ليمريك وغالوي كانتا مدينتين مزدهرتين في أثناء العصور الوسطى، كانتا تحافظان على تجارة مزدهرة ليس مع فرنسا فحسب، بل مع إسبانيا وشمال إفريقيا أيضاً، في الحقيقة تصوّر بعض المصورات القديمة إيرلندا على أنها على مقربة من إسبانيا على نحو أكبر من قربها من انجلترا، الطرق التجارية كانت تصل إلى غالوي من إسبانيا ومن المراكز الساحلية الفرنسية مثل بوردو (Bordeaux)[1] و«لا روشِل»، كانت نشيطة ومؤسسة جيداً كأي مكان آخر في تلك الفترة، من غالوي كان الطريق يمتد شمالاً مروراً بساحل دونيجال، ويعبر منبع نهر فويل، وما تُدعى اليوم لُندُن دَري وصولاً إلى الساحل الغربي لاسكتلندا، هذا هو الطريق الذي سلكته أي سفن هاربة من سفن فرسان الهيكل على نحو مؤكد، لقد كان طريقاً مألوفاً وسهلاً وآمناً، والأسطول الانجليزي لم يكن لديه وسيلة لقطعه.

كما لاحظنا تحمل مواقع حديثة في الجزر البريطانية بادئة «معبد»، ويعترف المؤرخون بأنها كانت سابقاً ملكاً لفرسان الهيكل، كما لاحظنا أن فرسان الهيكل توجهوا نظراً إلى نشاطهم التجاري البحري الكبير إلى بناء تجهيزاتهم الرئيسة على الساحل أو

1ـ مدينة جنوب غرب فرنسا، على نهر غارون، المترجم.

الأنهار الصالحة للملاحة أيضاً، لذلك كانت قاعدة «ميري كلتر» في اسكتلندا مثلاً على نهر «دي»، وقاعدة «بالانترو دوتش» و«معبد ليستن» يقعان على «فيرث أوف فورث»[1]، في انجلترا كان معبد «ثورنتن» على نهر التاين (Tyne) و«ويستر ديل» على نهر «ايسك» (Esk) و«فاكس فليت» على نهر هامبر، كان هناك موانئ ذات مرافق شاملة في لندن ودوفر وبريستول، السجلات الإيرلندية هي بلا ريب أكثر غموضاً، وعلى نحو مؤكد فُقد الكثير منها أو أُتلف في ثورات القرون اللاحقة، وفي غرب إيرلندا، حيث كان معظم السكان يتحدثون اللغة الغالية حتى القرن العشرين، فلربما لم يدوَّن نوع التوثيق الذي كان في الأماكن الأخرى، تلك السجلات تُظهر نمطاً مشابهاً للنوع الذي يسود في مكان آخر في الجزر البريطانية كما في إيرلندا، والتي تتحدث عن قواعد فرسان الهيكل ومنشآتها المشيدة على السواحل أو على الأنهار الصالحة للملاحة، لكن هذه السجلات تُظهر أن تركيز ممتلكات فرسان الهيكل كان على طول الساحل الشرقي، من ألستر إلى القاعدة الرئيسة «كلونتارف» في دبلن، نزولاً إلى «كيلدوغان» و«تيمبل براين» وصولاً إلى كورك، الاستثناء الرئيس المعروف هو ليمريك، حيث كان النظام يمتلك حصصاً كبيرة أيضاً.

1 ـ لسان بحري إلى الشرق من غلاسكو تماماً، المترجم.



Mull
مل
بحيرة او
Loch Awe
Innis Connell Castle قلعة انيس كونل
Atlantic
ocean
المحيط الأطلسي
Kilmartin
Castle Sween
قلعة سوين
Kilmory
كلموري
Tarbert
تاربرت
Jura
Islay
اسلاي
غلاسكو
Glasgow
اسكتلندا
SCOTLAND
الطريق في عام 1307-1309
Rouet in 1307-9
Arran
Ayr ایر
Dunaverty Castle
قلعة دونافيتي
Mull of Kintyre
محلى كنتاير
IRELAND
ايرلندا
areas patrolled by English and pro-English forces
مناطق تحرسها القوات الأنجليزية والموالية لها
North Sea
بحر الشمال
Sea north of Jura and Islay patrolled by pro-English MacDougalls of Lorn
المحيط الأطلسي
Atlantic
ocean
Berwick
برك
English Fleat Berwich cutting off route to Flanders
الأسطول الإنجليزي يقطع الطريق إلى فلاندرز
الطريق في عام 1307-1309
Rouet in 1307-9
Islay
اسلاي
اير
Ayr
English Fleet based at Ayr cutting off Irish Sea
الأسطول الإنجليزي يتمركز في اير قاطعا البحر الايرلندي
Irish Sea
البحر الايرلندي
طريق فرسان الهيكل المحتمل
الطريق البحري الآمن إلى اسكتلندا 1307-1309
POSSIBLE TEMPLAR ROUTE
safe sea route into Scovland 1307-9
English Chanel
القناة الإنكليزية

ماذا عن الغرب؟، لم يُقَل أي شيء عن ذلك قطّ، لأنه كما يظهر لا أحد يعرف أي شيء عن ذلك، على أي حال نحن اكتشفنا ما لا يقل عن سبعة مواقع إضافية على الساحل الشمالي الغربي لإيرلندا التي لم تُذكر في أي وثيقة، والتي تبدو أنها كانت لفرسان الهيكل وفق أسس كل الأدلة المتوافرة، في دونيجال الحديثة هناك «معبد كرون» قرب جزيرة «ارين» و«معبد كافان» على «شبه جزيرة ميم»، هناك «معبد مويل» قرب «غرين كاسل» على نهر فويل، نحو المناطق الداخلية بعيداً عن خليج دونيجال هناك «معبد هاوس» و«معبد روشين» و«معبد كارن»، وأبعد قليلاً نحو الداخل هناك «معبد دوغلاس»، وربما كان هناك موقع للنظام في «ليفورد» فيما يُعرف اليوم بمقاطعة «تيرون» في الشمال تماماً من «ستراباان»، أي من هذه المواقع لا يبدو أن كانت له أي أهمية دينية محددة، مسيحية كانت أم ما قبل المسيحية، والتي من شأنها أن توضّح معنى البادئة «معبد»، في معظم تلك المواقع هناك بقايا مصليات يعود تاريخها إلى القرون الوسطى، وإن دلت على شيء فهي تدل على أنها كانت سابقاً ملكاً لفرسان الهيكل أيضاً، هي لم تظهر في السجلات، لأنها كانت معزولة تماماً عن المراكز السكنية الرئيسة وبعضها لا يزال، في الحقيقة لم تعلم السلطات الكنسية والعلمانية في ذلك الوقت البابا في أفينون، وفيليب في باريس، وإدوارد في لندن بوجودها أيضاً، وهي أيضاً تتوافق مع النمط التقليدي لأبنية فرسان الهيكل، ربما كانت تعمل معسكرات استراحة قيمة، وربما كانت تحرس طرق التجارة. يبدو من كلّ هذا أن أسطول فرسان الهيكل بعد أن هرب من قبضة الملك الفرنسي شقّ طريقه على الأغلب صعوداً إلى الغرب وحول الساحل الشمالي لإيرلندا، من الممكن جداً أنه أنشأ معسكرات على اليابسة على طول الطريق لالتقاط الأسلحة والعتاد، وربما القليل من الإخوة الآخرين، ما إن وصل الأسطول إلى جوار نهر فويل حتى كان اللاجئون بأمان في الأرض التي يسيطر عليها حلفاء بروس، ومن فويل ومن ساحل غرب ألستر، ربما كان هناك وصول إلى الطريق الرسمي الذي كانت تُهرّب منه الأسلحة إلى آرغايل برعاية أنجس أوغ ماكدونالد وحمايته، لذلك كان أسطول فرسان الهيكل وأسلحتهم ومعدّاتهم وتجهيزاتهم العسكرية ومقاتلوهم، ومن الممكن تماماً كنزهم، سيجدون طريقهم إلى اسكتلندا، مقدمين التعزيزات والموارد الحيوية لقضية بروس.

أساطير نجاة فرسان الهيكل

أحد مؤرخي فرسان الهيكل الذي كتب في منتصف القرن التاسع عشر يقول على نحو أكثر تأكيداً من أن يفسر:

على أي حال كان الكثير من فرسان الهيكل طلقاء، بعد أن تجنبوا الأسر بنجاح بإخفاء كلّ علامات مهنتهم السابقة، وهرب بعضهم متنكّراً إلى البراري والمناطق الجبلية في ويلز واسكتلندا وإيرلندا.

في نهاية القرن يكتب مؤرخ آخر:

فرسان الهيكل ربما وجدوا مأوى في الجيش الصغير للملك المطرود روبرت الذي بلا شك زالت مخاوفه من إهانة الملك الفرنسي، لأنه رغب في تجنيد بضعة رجال مقاتلين أشداء.

وكتب مؤرخ حديث في عام 1972م بدقة أكثر:

كل الإخوة الاسكتلنديين نجوا إلا اثنين، ربّما وجد السياسيون الفطنون مأوى لهم مع فدائيي بروس، على نحو مؤكد لم يصدّق الملك روبرت شرعياً على حلّ المعبد الاسكتلندي.

المؤرخون الماسونيون، والكتّاب ذوو التوجّه الماسوني هم أكثر وضوحاً ودقة في ادعاءاتهم،على هذا النحو:

... يُقال لنا: إنهم بعد أن هجروا المعبد، وحّدوا أنفسهم تحت رايات روبرت بروس، وقاتلوا معه في بانوكبورن، الأسطورة تقول إنه بعد المعركة الحاسمة في بانوكبورن قام بروس بمكافأة الخدمات السامية لفرسان الهيكل بتشكيل كيان جديد لهم.

ومرة ثانية:

في عام 1309م عندما بدأ الاضطهاد جرى عقد محكمة تفتيش في هوليرود، ولم يظهر إلا فارسان فقط، والآخرون انخرطوا شرعياً في القتال، بعد أن انضموا إلى جيش بروس الذي كان يزحف نحو الانجليز.

تصريحات كالتي وردت في التصريحين الأخيرين، والصادرة من مصادر ماسونية ليس معلوماً إن كانت أسطورة أم إنها تعتمد على معلومات مثبتة، في كل الأحوال لا شك في أن الأساطير التي تتحدث عن بقاء فرسان الهيكل في اسكتلندا كثيرة، في الحقيقة هناك على الأقل نمطان مميّزان لتلك الأسطورة.

النمط الأول أو على الأقل النمط الذي ظهر أولاً في التاريخ هو الذي نشره أحد الماسونيين المهمين في القرن الثامن عشر، وهو البارون كارل فون هوند، نشر ذلك بنشاطاته وبالمنسك الماسوني الذي اشتُقّ منه، وهو المنسك المعروف «بالالتزام الصارم» الذي هدف إلى «إعادة» نظام المعبد، طبقاً لمنسك «الالتزام الصارم» هرب بيير دوبمونت الذي كان زعيم مركز أوفيرن (Auvergne) ومعه سبعة فرسان وزعماء آخرون من فرنسا عام 1310م تقريباً إلى إيرلندا أولاً وبعد سنتين إلى اسكتلندا، وعلى نحو أكثر تحديداً، إلى جزيرة «مول»[1]، حيث قيل إنهم مع عدد من فرسان الهيكل الآخرين الذين يُفترض أنهم كانوا

1ـ جزيرة مول (Mull) وهي ضمن مجموعة جزر هبرديز الداخلية، غرب اسكتلندا، المترجم.

لاجئين من انجلترا واسكتلندا انضموا إلى قوات بقيادة زعيم اسمه جورج هاريس الذي كان من قبل ضابطاً من ضباط النظام في كابورن وفي قصر هامبتون[1]، وبرعاية مشتركة من هاريس وبيير دوموونت اتخذ قرار تخليد تلك المنظمة، قائمة الأسياد العظام لفرسان الهيكل التي قدمها البارون فون هوند تُظهر أن بيير دوموونت خَلَف جاك دي مولاي.

في الجزء الثّالث من هذا الكتاب سندرس بالتفصيل دقة هذه المزاعم، إضافة إلى السياق التاريخي المحدد التي ظهرت منه، وفي أي سياق يجب وضعها، سنثبت صدق هوند ودقة المصادر التي ادعى أنه حصل منها على المعلومات، سيكون من الكافي الآن التعليق ببساطة على بعض التفاصيل عن رواية «الالتزام الصارم».

في بعض النواحي على أي حال ليست التفاصيل غير جديرة بالثقة فقط، بل هي خاطئة على نحو واضح، على سبيل المثال يعلن «الالتزام الصارم» أن بيير دوموونت (d'Aumont) كان زعيم «أوفيرن»، في الحقيقة لم يكن زعيم أوفيرن بيير دوموونت على أي حال، بل إمبيرت بلانك الذي هرب إلى انجلترا في عام 1306م واعتُقل كما رأينا، علاوة على ذلك من غير الممكن أن فرسان الهيكل اللاجئين وجدوا ملجأ لهم على جزيرة «مول»، جزيرة «مول» في ذلك الوقت كان يمتلكها ويحتلها ألكساندر ماكدوغال من «لوين» الذي كان أحد حلفاء إدوارد الثّاني ومن أشد أعداء بروس، حتى بعد أن هزمه بروس كان لديه الكثير من الشعب المتعاطف معه في جزيرة «مول» الذين ما كانوا ليكتموا نشاط فرسان الهيكل السري على تلك الجزيرة.

من الناحية الأخرى كان هناك موقعان يمتلكهما حلفاء بروس، حيث يمكن فرسان الهيكل الهاربين أن يجدوا فيهما المأوى، أو محطة آمنة على طريق سفرهم على أي حال، أحدهما كان يوفر مأوى مؤقتاً لبروس نفسه في أثناء مراحل حملاته المعاكسة، ويحتوي على القلعة المحصّنة بقوة التي بقيت موالية له على نحو ثابت، وكلا الموقعين يتوضع استراتيجياً على الطريق البحري الهام بين ألستر وقاعدة إمداد بروس في آرغايل، هذان الموقعان كانا «مَل أوف كِنتاير» و«مَل أوف آو».

لذلك قد تكون رواية «الالتزام الصارم» خاطئة في بعض مفرداتها، ولكن من السّهل معرفة كيفية وقوع سوء فهم كهذا، هوند نفسه سمع روايته من المخبرين الاسكتلنديين، ربما جرى تحريف التفاصيل بعد نحو أربعة قرون ونصف، ومن المؤكد أنه جرى تحريفها

1ـ قصر هامبتون (Hampton Court) قصر ملكي قرب نهر التايمز، جنوب غرب لندن، المترجم.

على نحو أكبر نتيجة النقل والترجمة، إن كان الانجليزي الحديث لا يستطيع أن يفرق بين جزيرة «مول» و«مَل أوف كِنتاير» و«مَل أوف آو»، فلا حرج على سوء فهم أحد النبلاء الألمان من القرن الثامن عشر والذي لا يعرف أي شيء عن الجغرافيا الاسكتلندية، وحتى البيانات المبعثرة التي سمعها لم تكن بلسانه، بل من شخص آخر، لذلك بينما قد تكون رواية «الالتزام الصارم» في الحقيقة مخطئة في مفرداتها، إلا أن فحواها العامّ قد تكون معقولة جداً، أحد التفاصيل الصادقة خصوصاً هو الذي يزعم أن فرسان الهيكل هربوا أولاً إلى إيرلندا، وكما رأينا هذه حقيقة مؤكدة، ولم تكن هناك أي حاجة إلى تضمينها في قصّة ملفقة.

الأسطورة الثانية عن فرسان الهيكل الباقين ظهرت أول مرة في فرنسا نحو عام 1804م، أي أكثر من نصف قرن بعد هوند، تحت النظام النابليوني قدّم شخص يدعى بيرنارد-رايموند فابري-بالبارت وثيقة تشريعية يدعي أنها تعود إلى عام 1324م، أي بعد عشر سنوات من إحراق جاك دي مولاي، إن كانت هذه الوثيقة صادقة، فإن جاك قبل فترة قليلة من موته ترك أوامر بتخليد النظام، ويُفترض أنه رشّح خليفة له لسيادة النظام أحد فرسان الهيكل الذين تُركوا في قبرص، وهو رجل مسيحي وفلسطينيّ المولد، يدعى جون مارك لارمينيوس، وفقاً لما تدعيه ما تسمّى «وثيقة لارمينيوس التشريعية» فإن فابري-بالبارت أسس، أو أعلن منظمة جديدة فروسية وغير ماسونية، تدعى «النظام العسكري القديم المستقل لمعبد القدس»، والتي لا تزال موجودة حتى اليوم، طبقاً للبيانات غير المؤكّدة من أعضائها الحاليين فإن «وثيقة لارمينيوس» مع إعلانها أول مرة عام 1804م إلا أنها كانت موزّعة قبل قرن من ذلك، أي في عام 1705م، ويقال إن تاريخ إعادة تكوين نظام فابري-بالبارت يعود أيضاً إلى ذلك التاريخ.

نحن أنفسنا لا نستطيع تأكيد صدق «وثيقة لارمينيوس» أو دحضها، إن ما يفيدنا فيها أساساً هو البيان الوحيد الذي يحتوي كما يلي: « أنا، أخيراً... سأقول وآمر بأنّ فرسان الهيكل الاسكتلنديين الهاربين من المنظمة سيُدانون بالحِرم[1]»، هذا البيان القاصف مثير للاهتمام، بل هو في الحقيقة استفزازي، وربما كاشف لأمر هام، إن كانت «وثيقة لارمينيوس» أصيلة، ومن القرن الرابع عشر، فإن البيان القاصف يبدو على نحو مؤكد أن فرسان الهيكل الهاربين كانوا في اسكتلندا، هناك مقترح آخر هو أنّ هؤلاء

1 ـ الحِرْم مَنْعُ زعيم نظام ما أحد الأعضاء من شركة الأعضاء الآخرين، كما في الحرمان الكنسي في الديانة المسيحية، المترجم.

الهاربين تبنّوا موقفاً معارضاً للارمينيوس وحاشيته، ويمكن استنتاج أنه سعى للحصول على تبرئة من كلّ التهم وإقامة نوع من المصالحة مع الكنيسة، ولكن إن كان تاريخ «وثيقة لارمينيوس» أحدث من القرن الثامن أو التاسع عشر فإنها تقترح بعض الكراهية العنيفة للمزاعم التي أعلنها هوند وماسونية «الالتزام الصارم» وكما هو مرجح، أو الكراهية لمنظمة معروفة أخرى لفرسان الهيكل في اسكتلندا آنذاك.

أياً كانت صلاحية الأساطير، فإنه كما رأينا ليس هناك أي شك بأن بعض فرسان الهيكل على الأقل شقوا طريقهم إلى اسكتلندا، بينما لم يجرِ الإمساك بالآخرين الذين بقوا في البلاد مطلقاً، إنّ السؤال الوحيد الحقيقي هو كم واحداً منهم بقي طليقاً؟ في النهاية حتى الأعداد الدقيقة لا تهمّ على أي حال، إنّ الفكرة الهامة هي أنّ فرسان الهيكل، سواء كانوا كُثراً أم قِلّة، فقد كانوا مقاتلين مدرّبين أشداء، أفضل مقاتلي زمانهم، سادة الحرب المشهورين، اسكتلندا كانت مملكة تكافح بشدة لنيل استقلالها وللحفاظ على هويتها الوطنية والثقافية، وما كان أشد من ذلك أنها كانت في ظل الحِرْم البابوي، وملكها كان محروماً كنسياً، في هذه الظروف من الواضح أن بروس كان سيرحّب بأي مساعدة ممكنة، ومساعدة كالتي يقدمها فرسان الهيكل لا بد من أنه سيُرحب بها أكثر، وكونهم محاربين محنّكين لابد من أنهم كانوا لا يقدرون بثمن فيما يتعلق بتدريب الجنود الاسكتلنديين، وفي تلقين الانضباط وفي منح المهارة للرجال الذين كانوا محرّضين ضدّ خصم متفوّق عدداً وأفضل عدة وعتاداً، خبرتهم الأوسع في الخطط الاستراتيجية وفي السَّوْقيات[1] لا بد من أنها كانت حاسمة، لن يُعرف إطلاقاً إن كانوا في الحقيقة «القوة الجديدة» التي تدخّلت على نحو حاسم في معركة بانوكبورن، في الحقيقة ليس ضرورياً أن يكونوا هم، لأن ثلّة منهم ربما كانت كافية لقيادة تلك القوة الجديدة، ومع ذلك ستؤدي النتائج نفسها التي حلّت بالجيش الانجليزي آنذاك.

1ــ السَّوْقيات فن نقل الجنود وإيوائهم وتموينهم، المترجم.

القسم الخامس

اسكتلندا السَلْتيّة وأساطير الكأس المقدسة

في السنوات التي بعد معركة بانوكبورن، لو أن مستوطنة فرسان الهيكل في الحقيقة استقرت في آرغايل وتزاوجت مع النظام العشائري، فإن تلك المنطقة كانت ستشكّل بيئة طبيعية لهم، ولكانت المنطقة الأكثر ملاءمة لهم، في بعض النواحي ربّما كانت تجسد تقريباً شيئاً مشابهاً لوطنهم، كان فرسان الهيكل طبعاً «أسطورة زمانهم»، على أي حال كانت في اسكتلندا وخصوصاً في آرغايل أسبقيات أسطورية أخرى، تميّز فيها ذلك النظام في نظر عامة الناس، في الواقع عرضت آرغايل بيئة الأسطورة التي كان يمكن فرسان الهيكل أن يندمجوا فيها بسهولة.

في نهاية القرن الثاني عشر ظهر ما يسمّى رومانسيات الكأس المقدسة أول مرة في أوروبا الغربية، مع بداية القرن الرابع عشر، أي في عهد بروس، أي في زمن حلّ المعبد كانت رومانسيات الكأس المقدسة لا تزال كثيرة الرواج كونها نوعاً من الرواية، وأنتجت مجموعة هائلة من الأدب الملازم، مفهوم الفروسية كان آنذاك يقترب من ذروته كما جرى تقديمه في هذه الأعمال، تطلّع الحكّام المسيحيون بوعي ذاتي إلى النماذج الرفيعة مثل بارسيفال وغاوين ولانسيلوت وغلاهاد، أو على الأقل حاولوا أن يُظهروا أنفسهم أمام شعبهم بصورة مشابهة لهذه الأساطير، وهكذا على سبيل المثال سعى إدوارد لتصوير نفسه آرثر عصره، إلى درجة أنه عقد مبارزات الطاولة المستديرة، لذلك قبل يوم من معركة بانوكبورن، وبينما كان الجيشان يهيئان نفسيهما للمعركة تبارز بروس والفارس الانجليزي هنري دي بوهن المبارزة الشخصية حتى الموت، وهي النوع المشهور جداً في الرومانسيات الفروسية.

مع أن رومانسيات الكأس المقدسة كانت مُدانة من السلطات الكنسية في كل مكان من أوروبا، إلا أنها كانت تتميز بحضور معيّن في اسكتلندا، وما يجب تذكره أن بروس كان يسعى إلى إحياء المملكة السَلْتيّة في اسكتلندا، تلك المملكة التي جرى إحياء تقاليدها في مملكة دالريدا من ديفيد الأول، ورومانسيات الكأس المقدسة تحتوي على عنصر سَلْتيّ مهم، مجموعة من الأساطير والتقاليد السَلْتيّة التي ليست في الأدب اللاحق الصادر من النورمانديين الانكليز أو من أوروبا.

رومانسيات الكأس المقدسة في شكلها المعروف اليوم هي نوع هجين استثنائياً، تظهر عملية معقّدة من الإخصاب المتبادل. كما ناقشنا في كتابنا السابق «الدم المقدس والكأس المقدسة» تحتوي الرومانسيات على مجموعة مهمة من المواد الأدبية اليهودية المسيحية المتخفية أو المتنكّرة على نحو متقن ومثير، لكن هذه المواد توحدت في نمط القصة والأسطورة السَلْتيّة استثنائياً، قبل فترة طويلة من ظهور الكأس المقدسة في الأدب، والتي هي مستوردة على نحو خاص من المسيحية كان هناك قصائد وقصص سَلْتيّة تتحدث عن مسعى فروسي وعن شيء غامض مقدّس يمنح قدرات سحرية، وعن قلعة بعيدة يحكمها ملك مشلول أو عاجز وعن أرض مقفرة عقيمة تعاني النكبة نفسها التي يعانيها حاكمها، لذلك قام بعض العلماء في الفترة الأخيرة بالتمييز بعناية بين رومانسيات «الكأس المقدسة المسيحية» اللاحقة والأكثر شهرة و«الكأس المقدسة الوثنية»، وفي الحقيقة إن الخلط بين «القِدْر العجيب» في الأعمال الأدبية السابقة و«الكأس المقدسة» الأكثر غموضاً الذي ورد في الأعمال الأدبية اللاحقة هو ما أدّى إلى تعريف الكأس المقدسة (Grail) بأنها فنجان أو طاسة أو كأس أو وعاء (بدلاً من «الدم المقدس» الذي هو في الواقع المعنى الحقيقي لهذه التسمية) [1].

بعد ذلك جرت إضافة صبغة يهودية مسيحية على أسس القصص السَلْتيّة القديمة، قصص القِدر والأرض المقفرة وخطر القلعة للتوصل إلى ما هي رومانسيات الكأس المقدسة عليه الآن، وهذه الصبغة اليهودية المسيحية مرتبطة مراراً وتكراراً وكفاية بفرسان الهيكل، لذلك في بارسيفال التي هي ربما أعظم قصة من قصص الكأس المقدسة وأهمها مثلاً يصوّر وولفرام فون اسكِباتش فرسان الهيكل «حُماة الكأس المقدسة» و«عائلة الكأس المقدسة»، يدّعي وولفرام أيضاً أنه سمع قصّة الكأس المقدسة من شخص اسمه «كايوت دي بروفينس» الذي يمكن تحديد هويته بأنه «كيوت دي بروفينس» الذي كان كاتباً وداعية فرسان الهيكل، والأكثر من ذلك هو حقيقة أنّ إحدى رومانسيات الكأس المقدسة التي تُعرف باسم «بِرلِسفوز»، ثاني أهم عمل بعد رومانسية وولفرام فيها تلميحات واضحة عن نظام فرسان الهيكل، ليس فقط في تصويرها لفرسان يرتدون العباءات البيضاء المزركشة بالصلبان الحمر، ويمتلكون سرّاً مقدّساً، بل في فحوى

1ــ في الكثير من المخطوطات السابقة، الكأس المقدَّسة تسمَّى السَّنجرال «Sangraal»، وفي بعض النسخ اللاحقة تُسمَّى السَّنجريل «Sangreal». «Sangraal» أو «Sangreal»، يمكن فصلهما لتكونا «Sang Raal» أو «Sang Real»، أو باستخدام التهجئة الحديثة «Sang Royal» أي «Royal blood» أي «الدم المقدَّس»، ومن هنا يعد الكاتبان أن تعبير «الكأس المقدسة» هو في الحقيقة «الدم المقدس»، (من كتاب الدم المقدس والكأس المقدسة)، المترجم.

الفكر والقيم أيضاً، رومانسية «برْلِسفوز» تزخر بالخبرة الدقيقة والمفصّلة عن الأسلحة والدروع وعن تقنيات القتال وطبيعة الجروح، من الواضح أن هذا العمل ليس لشاعر متجول أو لمؤلف رومانسيات، بل لمقاتل، تأثير فرسان الهيكل كان واسع الانتشار جداً في الرواية، حتى إن المؤلف المجهول يظن على نحو كبير أنه هو نفسه كان من فرسان الهيكل، في هذه الأعمال الأدبية مثل رومانسية بارسيفال للروائي وولفرام ورومانسية «برْلِسفوز» يواجه القارئ نمواً توفيقياً دينياً بين تقليدين متنوّعين، أحدهما التقليد المسيحي اليهودي والآخر التقليد السَلْتيّ، و«المادة اللاصقة»، إن صح التعبير، التي تجمع هذين العنصرين معاً في الإطار المجازي هي فرسان الهيكل، على نحو ضمني تارة أو واضح تارة أخرى.

وفي عهد بروس دُمج التقليد السَلْتيّ وغموض الكأس المقدسة وقيم فرسان الهيكل جميعاً لتشكل مزيجاً واحداً محيّراً في أغلب الأحيان، لذلك نجد أنه في التقليد السَلْتيّ هناك « طائفة الرأس» المشهورة، وهو اعتقاد سَلْتيّ قديم مفاده أن الرأس يحتوي على روح، ولذلك فإن رؤوس الأعداء المهزومين يجب أن يجري قطعها والاحتفاظ بها، في الحقيقة يُعد الرأس المقطوع إحدى علامات الثقافة السَلْتيّة القديمة الآن، ربما يظهر ذلك بوضوح شديد في أسطورة «بران المقدّس» الذي جرى دفن رأسه خارج لندن طبقاً للتقاليد تعويذة وقائية، وجرى توجيهه إلى فرنسا، ذلك الرأس لم يحم المدينة من الهجوم فحسب، بل ضمن خصب الريف المحيط أيضاً، وجنّب انجلترا كلها من الطاعون، أي إن ذلك الرأس أدّى وظائف مدهشة مشابهة لتلك التي أدتها الكأس المقدسة في الرومانسيات اللاحقة، وظهرت لاحقاً بعدة أنواع مثل «الرجل الأخضر» وإله النبات وإله الخصب.

في الوقت نفسه كان فرسان الهيكل يمتلكون «طائفة الرأس» الخاصة بهم، من بين التهم المفضّلة التي وُجهت ضدّهم والتي اعترف بها عدد من الفرسان عبادة رأس مقطوع غامض، ويُعرف أحياناً باسم «بافوميت»، علاوة على ذلك عندما هاجم ضبّاط الملك الفرنسي معبد باريس في 13 أكتوبر/تشرين الأول عام 1307م وجدوا هناك وعاء فضّياً للذخائر المقدسة على شكل رأس، ويحتوي على جمجمة امرأة مكتوب عليها عبارة «Caput LVIIIm» أي «رأس 58 م»،[1] هذا قد يبدو في بادئ الأمر مصادفة مروعة فقط، ولكن في قائمة التهم التي أُعدّت من محكمة التفتيش ضدّ فرسان الهيكل في 12 أغسطس/آب عام 1308م، يظهر التالي:

1ـ التقرير الأصلي لمحكمة التفتيش يذكر أنّ الأسطورة تشير إلى الرأس بأنه أحد الأحد عشر ألف رأس من رؤوس العذارى، وهذا يقترح بقوة بأنّ الحرف «m» كان في الحقيقة إشارة فلكية إلى برج العذراء الذي يبدو مماثلاً جداً، المؤلفان.

مادة ـ كلّ مقاطعة تمتلك أصناماً، أي رؤوساً.

مادة ـ هم عبدوا هذه الأصنام.

مادة ـ هم قالوا إن الرأس يمكن أن ينقذهم.

مادة ـ يمكنه أن يُقدّم الثروات.

مادة ـ هو جعل الأشجار تزهر.

مادة ـ هو جعل الأرض تنمو.

هذه الخواص هي تماماً، وأحياناً حرفياً الخواص نفسها التي نُسبت إلى الكأس المقدسة في الرومانسيات، وهي تحديداً الخواص في التقليد السَلْتيّ التي نُسبت إلى رأس «بران المقدّس» المقطوع، وهكذا من الواضح أن رومانسيات الكأس المقدسة وفرسان الهيكل كليهما، ومع توجهها المسيحي الأساسي، شملت بقايا حاسمة من التقليد السَلْتيّ، هذه البقايا التي تبدو اليوم محيرة ومرعبة أثارت حماسة للتقاليد القديمة مألوفة في المملكة السَلْتيّة التي كان يسعى بروس لإحيائها.

وهكذا ومع أن النماذج السَلْتيّة لرومانسيات الكأس المقدسة لم تعرض الكأس المقدسة ذاتها، على الأقل بالاسم نفسه، إلا أن مكوّنات أخرى من القصّة اللاحقة كانت موجودة بكل تأكيد، الكأس المقدسة ذاتها ظهرت أول مرة في قصيدة قصصية طويلة عنوانها «Le Conte du Graal» للشاعر «كريتيان دي تروا» الذي كتبها في الربع الأخير من القرن الثاني عشر، رومانسية «بارسيفال» للكاتب وولفرام ورومانسية «برِلسفوز» المجهولة يعود تاريخهما إلى ما بعد ربع قرن أو ما شابه، وتعتمدان كمادّة أدبية وعلى مصادر معلومات لم تكن كما يبدو خاصة بالكاتب كريتيان، ولكن مع ذلك تُعدّ قصيدة كريتيان هي التي اشتُقّت منها كل هذه الأعمال وكلّ رومانسيات الكأس المقدسة الأخرى، بطريقة أو بأخرى.

القليل ما هو معروف عن كريتيان، والقليل ما يمكن جمعه عدا ما يجري اقتباسه من أعماله ومن الأدلة النصّية الداخلية، ما يظهر هو قليل جداً، ولكنّه يبدو هاماً على الأقل، لأنّ كريتيان كان يعمل برعاية القصور الأرستقراطية وضماناتها المالية، أي قصري كونت شمبانيه وكونت فلاندر، هذان القصران ارتبطا ببعضهما مباشرة، وارتبطا أيضاً بمواقف دينية تعتمد على الهرطقة التي تتضمن سيلاً من فكر الكاثار الضلالي، كلا القصرين كان أيضاً مرتبطاً بشدة بفرسان الهيكل، في الحقيقة قبل ثلاثة أرباع القرن من

زمن كريتيان كان كونت شمبانيه شخصية أساسية في تأسيس فرسان الهيكل، هيوغز دي باين أول سيد أعظم للمعبد، كان تابعاً مؤتمناً لكونت شمبانيه، ويبدو بثبات أنه كان يتصرّف وفقاً لأوامر الكونت، بعد ذلك ضُمَّ الكونت نفسه إلى النظام بعد أن طلق زوجته، وهكذا بتناقض مثير يصبح تابعاً لتابعه الخاص.

معظم عمل كريتيان المبكّر كان مكرّساً لأعضاء مختلفين من قصر شمبانيه، وخصوصاً الكونتيسة ماري، لكن روايته المتعلقة بقصّة الكأس المقدسة والتي أُعدّت بين عامي 1184م و1190م مكرّسة لفيليب دولسيس الذي كان كونت منطقة فلاندر، يصرّح كريتيان بوضوح بأنّ قصة الكأس المقدسة رواها له في الأصل فيليب الذي أمره بعد ذلك بنسج قصة رومانسية على قدر استطاعته.

من سوء الحظ مات كريتيان قبل أن يتمكن من إنهاء العمل كاملاً، ولكن ما هو موجود في القصيدة يُشير إلى عدة نقاط هامة، على سبيل المثال في رواية كريتيان يُذكر أول مرة أن عاصمة آرثر هي كاميلوت، وكريتيان خصّ بارسيفال مراراً وتكراراً بصيغة تبنّاها بعد ذلك وولفرام وغيره من كتّاب الرومانسيات الآخرين، وفي النهاية تظهر بوضوح في الماسونية اللاحقة «ابن الأرملة»، هذه الصيغة تخفي بين طياتها معنى لا يزال واضحاً في زمن كريتيان، إلا أنه فُقد بعد ذلك.

أكثر ما يهمنا ملاحظته فيما يتعلق بأهدافنا المعيّنة هو أنّ كريتيان في العناصر السَلْتيّة من قصيدته يعتمد على ذخيرة معلومات غير المصادر الانجليزية والويلزية التقليدية، هذا طبعاً لا يعني أنّه يُهمل تلك المصادر، بل على العكس فهو يدين لها بالكثير، يعتمد بشدّة على تاريخ جيفري المونموثي[1] الذي يتحدث فيه عن ملوك بريطانيا، وكتب رواية شبه أسطورية في عام 1138م تقريباً كان من شأنها منح الشهرة العامة لآرثر أول مرة، ويعتمد أيضاً بشدّة على حكايات قديمة مثل بيريدور «Peredur» وقصص أخرى من المابينوجن[2]، لكن هناك سمات أخرى لقصيدة كريتيان لا تدين بأي شيء لهذه المصادر التقليدية، وهي السمات الاسكتلندية على نحو محدّد واستثنائي، في الحقيقة من الواضح أنّ كريتيان كان يمتلك بعض مصادر المعلومات المستقلة المتعلقة باسكتلندا، والخبراء يستنتجون أنّ كريتيان اشتق بعض الميزّات الرئيسة الجغرافية والطوبوغرافية لقصيدته من اسكتلندا.

1ـ أي جيفري من مونموث «Monmouth»، مونموث نسبة إلى منموث شاير وهي بلدة جنوب شرق ويلز، المترجم.
2ـ «Mabinogion» وهي صفة تُطلق على الأساطير الويلزية التي تتحدث عن الأساطير والسحر، وعلى نحو خاص عن الملك آرثر، المترجم.

لذلك نجد مثلاً أن «بارسيفال لو غالويس» بطل رواية كريتيان يُفترض في بادئ الأمر أنه جاء من ويلز، في الحقيقة على أي حال إن لفظ «غاليس» أو «غالويس» كان يُطلق في زمن كريتيان على مواطني غالوي[1] في اسكتلندا، فرسان الكأس المقدسة في قصيدة كريتيان يدافعون عن «les pors de Galvoie»، أي يدافعون عن بوابة « Galvoie» التي كانت الأرض المجاورة لهم، يلتقي علماء رومانسيات الكأس المقدسة على أن «Galvoie» لا بد من أن تكون غالوي (Galloway).

في الرواية التاريخية لجيفري الموموثي هناك إشارات إلى «Castellum Puellarum» التي وردت في بعض رومانسيات الكأس المقدسة اللاحقة، عدا رومانسيات كريتيان، بأنها «القلعة المحفوفة بالمخاطر»، المعلّق والمترجم روبرت البروني كتب عام 1338م: إنّ «Castellum Puellarum» في الواقع هي قلعة «كارلاف روك» (Caerlaverock) الحقيقية في منطقة غالوي، وكما صرّح أحد كتّاب سير كريتيان: «روبرت البروني ربّما يُكرّر أحد التقاليد المعتمدة حقاً، لأنه أمضى شبابه في كامبردج، وكان يعرف الملك المستقبلي روبرت ذا بروس»، على أيّ حال كانت قلعة «كارلاف روك» تبعد نحو عشرة أميال فقط عن قلعة «عنان» وهي مقر عائلة بروس، وهذه العائلة جعلها إدوارد الأول لوردات لمنطقة أنانديل عام 1124م، يقال غالباً إن قلعتي «عنان» و«كارلاف روك» كانتا تحرسان البوابة إلى غالوي، مع أن كريتيان لا يتكلّم على نحو محدّد عن «Castellum Puellarum» أو «قلعة الخطر» إلا أنه يتكلّم عن «Roche de Canguin»، وهي طبقاً لعالم واحد على الأقل مشتقّة من تغيير لفظي لـ «كارلاف روك»، في قصيدة كريتيان وعلى نحو كاف يعدّ هذا الموقع يحرس بوابة «Galvote».

في قصيدة كريتيان يدعى مقر آرثر الثاني بعد كاميلوت «Cardoeil»، حتى عام 1157م كانت عاصمة اسكتلندا تُدعى «كارلايل»، وفي أيام السجل الأنجلوسكسوني أصبحت تُدعى «Cardeol»، وبعد ذلك تطوّرت إلى «Carduil»، يذكر كريتيان أيضاً موقعاً دينياً يُدعى «Mont Dolerous»، هذا الموقع يُظن أنه كان «دير ميلروز» في روكسبرغ شاير، وقد أُسّس عام 1136م، وكان يُعرف في زمن كريتيان بـ « Mons Dolorosus»، ذلك هو المكان الذي دُفن فيه بعد قرنين من الزمن قلب بروس.

من هذه الأدلة والكثير أمثالها من الواضح أن كريتيان الذي ظهرت الكأس المقدسة أول مرة في أعماله الأدبية يُضفي مفهومه المسيحي المحدّد على مجموعة المواد الأدبية

1 ـ غالوي (Galloway) منطقة جنوب غرب اسكتلندا، المترجم.

الغزيرة الأقدم، والتي يشير كثير منها على نحو دقيق جداً إلى اسكتلندا، ولكن لماذا يجب على كاتب رومانسي يعمل برعاية حاكِمي شمبانيه وفلاندر أن يُركّز بوضوح شديد على المواقع الاسكتلندية، بينما الهيكل الأساسي اليهودي المسيحي لقصيدته يعتمد على مصادر مختلفة جداً؟.

كريتيان ادعى أنه استلم الخطوط العامّة لقصّة الكأس المقدسة من فيليب دولسيس الذي كان كونت منطقة فلاندر، والذي أخبره بأن يتصرف بتلك المعلومات على قدر ما يستطيع، واتصالات فيليب باسكتلندا كانت متعددة وحميمة، كونه ملك فلاندر كان لديه علاقات شاملة باسكتلندا ومعرفة كبيرة بالبلاد وشعبها وتقاليدها، في الحقيقة في أيام القرن الثاني عشر جرت صياغة بعض الروابط بين اسكتلندا وفلاندر على نحو متعمّد، في أثناء عهدي ديفيد الأول (1124م ـ 1153م) ومالكولم الرّابع (1153م ـــ 1165م) كانت تسري هناك سياسة منظّمة لتوطين المهاجرين الفلمنكيين في اسكتلندا، جرى توطين القادمين الجدد في مستوطنات منظّمة كبيرة في لانارك شاير العليا وكلايسديل (Clydesdale) العليا وغرب لوثيان وشمال موري. طبقاً لأحد المعلّقين كان «توطين الفلمنكيين محاولة منظّمة لغرس أرستقراطية جديدة في كلايسديل الأعلى وفي موري على حساب الأرستقراطية والكنيسة المحليّة كما يبدو »، ويظن الآن أن عائلة بروس كانت فلمنكية الأصل وليس نورماندية كما رأينا ، وهذا الأصل هو نفسه الذي تنحدر منه بعض العوائل الاسكتلندية البارزة الأخرى مثل باليول، كاميرون، كامبيل، كومن، دوغلاس، جراهام، هاملتن، ليندساي، مونت غومري، سيتون، وستيوارت، جرت الإشارة إلى بعض من هذه العوائل في قصّتنا، تلك العائلات وغيرها ستظهر مرة ثانية وبوضوح أكثر أيضاً.

الهدف من توطين الفلمنكيين في اسكتلندا يبدو أنه كان لتعزيز المراكز الحضرية في البلاد، أصبحت فلاندر منطقة تجارية متمدّنة، تحتوي على مدن تجارية عظيمة مثل بروجس وغينت، تمتدّ على جانبي الطرق التجارية المؤدية إلى نهر الراين ونهر السين والجزر البريطانية، كانت تتضمّن أيضاً في أرضها ميناءي بالون[1] وكاليه[2]، الحكم الملكي الاسكتلندي الذي احتاج إلى تحصيل الدخل من تأجيرات البلدة كان ينظر إلى فلاندر نموذجاً للنمو الحضري، لذلك جرى تشجيع المستوطنين الفلمنكيين على نحو نشيط للمجيء إلى البلاد وتأسيس مراكز حضرية على النمط الفلمنكي، كما رحبوا بهم أيضاً لخبرتهم بالزراعة والنسيج وتجارة الصوف.

1ـ بالون (Boulogne) مدينة وميناء على القنال الانكليزية شمال غرب فرنسا، المترجم.
2ـ كاليه (Calais): ميناء على القنالة الانكليزية شمال غرب فرنسا، المترجم.

الارتباط بين اسكتلندا وفلاندر بدأ في عهدي ديفيد الأول ومالكولم الرّابع، واستمرّ خلال عهد وريث مالكولم وليام «قلب الأسد»، عندما غزا وليام انجلترا عام 1173م كانت تسانده فرقة فلمنكية، فرقة أرسلها إليه فيليب دولسيس، الاسكتلنديون تعلّموا من فلاندر أيضاً الأمور العسكرية، وكذلك أمور التنمية الحضرية، في عام 1302م انتفض مواطنو البلدة الفلمنكية «كورتراي» (Courtrai)، وباستعمال التشكيلة التي تُسمى «schilltrom»، رجال يصطفون على نحو منتظم، ويحملون حراباً طويلة مثبتة على الأرض ومائلة إلى الأمام استطاعوا هزيمة جيش فرنسي كبير وقوي، وأول مرة في أوروبا الغربية حطّمت «كورتراي» القوّة المنيعة التي لم تُهزم حتى ذلك الوقت والمشكلة من الخيالة المدرّعين، بروس تعلّم من خطة هذه المعركة، وهي تماماً الخطة التي طبقها بنجاح في معركة بانوكبورن إلى أن جاءت «القوة الجديدة الغامضة» التي قدمت العون والمساندة.

كان هناك الكثير من التنمية والتأثير المتبادل بين اسكتلندا وفلاندر، ونتيجة لتدفّق المستوطنين الفلمنكيين تبنّت البلدات الاسكتلندية بوضوح بعض الخصائص الفلمنكية المحددة، بينما وجدت عناصر التراث الاسكتلندي السَلْتيّ القديم طريقها إلى فلاندر، حيث ظهرت بوضوح من بين الأشياء الأخرى في رومانسيات الكأس المقدسة، ما إن بدأت رومانسيات الكأس المقدسة، بالظهور نوعاً أدبياً جرى انتقالها إلى اسكتلندا، حيث جرى فيها تمييز وتقدير واضح للعناصر السَلْتيّة الأصلية.

ليس صعباً تخيّل كم كانت اسكتلندا ملائمة لفرسان الهيكل المنفيين، حيث كانت مهيأة لمغامرات فرسان الكأس المقدسة ولفرسان الهيكل الذين تروى عنهم القصص، لقد كانت «مهيأة» لهم إن جاز التعبير، تقديم أنفسهم فرساناً «حقيقيين» للكأس المقدس كان من شأنه أن يساعد بروس في حملاته وأن يُرحّب بهم منقذين فروسيين أيضاً، هل من مكان آخر فيه بيئة مضيافة جداً لأولئك الناجين من الفرسان الذين تمنوا علمنة أنفسهم ودمج أنفسهم في المجتمع والحفاظ على حياتهم في مأمن ومعزل عن مضطهديهم في الأماكن الأخرى؟.

إن كان الوضع في الحقيقة كذلك، فهذا ما يجري اقتراحه على نحو مؤكد في قصيدة من القرن الرابع عشر عنوانها «Morte Arthure» من السطر 3531 حتى 3534: «موردريد جمع جحافل من الأجانب المقرفين، والكثير من المرتزقة والبيكتيين والوثنيين والفرسان المتمرسين من إيرلندا وآرغايل، فرسان كانوا خارجين عن القانون».

الفصل الثاني

اسكتلندا والكنز المُخبَّأ

القسم السادس

تراث فرسان الهيكل في اسكتلندا

إحدى مغالطات الثقافة التقليدية أن تصرّ على تمييز صارم واصطناعي بين «التاريخ» و«الأسطورة»، طبقاً لهذا التمييز، «التاريخ» حقيقة موثّقة وحده، وهو عبارة عن البيانات التي يمكن أن تخضع على الأغلب لفحص علمي، والتي تواجه اختبارات متنوّعة ليجري بعد ذلك إثبات أنّ شيئاً ما «حدث حقيقة»، «التاريخ» وفقاً لهذا المعنى يشمل الأسماء والتواريخ والمعارك والمعاهدات والحركات السياسية والمؤتمرات والثورات والتغيرات الاجتماعية وغيرها من الظواهر الأخرى «القابلة للإدراك موضوعياً»، «الأسطورة» من الناحية الأخرى تُنبذ لأنها غير ذات علاقة أو ثانوية «للتاريخ»، «الأسطورة» مخصصة لعالم الخيال وللشعر والقصة، «الأسطورة» تُعد زينة أو تزييفاً مزوراً للحقيقة، تشويهاً «للتاريخ»، ومن ثم هي شيء موجود بقساوة، وكما يُظن يجب الفصل بين «التاريخ» و«الأسطورة» قبل كشف حقيقة الماضي.

ومع ذلك لم يكن لدى الناس الذين خلقوا أصلاً ما تدعوه الأجيال اللاحقة «الأسطورة» تعبير أو اسم كهذا، ملحمة الأوديسة لهوميروس في زمانها وبعد عدة قرون كُرّست لأحد الرجال بمغامراتها التي ربما كانت خيالية، ولم يجرِ النظر إليها من الناحية التاريخية بصدق يقل عن إلياذة هوميروس التي من المفترض أنها كُرّست لحادثة «حقيقية» هي حصار طروادة، الأحداث التي وردت في العهد القديم، شق البحر الأحمر مثلاً أو منح الله النبي موسى ألواح الشريعة ينظر إليها الكثير من الناس اليوم كأنها كانت «أسطورية»، لكن هناك أيضاً الكثير من الناس حتى اليوم يظنون أن الأحداث نفسها حصلت على نحو حقيقي، في التقاليد السَلْتيّة يظن أن القصص التي تخصّ مثلاً كاتشولين (Cuchulain) و«فرسان» الفرع الأحمر كانت قصصاً دقيقة من الناحية التاريخية قروناً طويلة، وحتى اليوم ليس هناك طريقة لمعرفة إن كانت حقيقية أم لا، سواء هي إضافات جمالية على الأحداث التاريخية فقط، أم هي خيالية تماماً بطريقة أو أخرى، مثال أكثر حداثة هو «الغرب الضاري»[1] في الولايات المتّحدة في القرن التاسع عشر كما جرى تصويره أول مرة في «روايات دايم» ثمّ في هوليود، ما هو معترف به عموماً الآن هي أنها روايات «أسطورية»

1 ـ الغرب الضاريّ غرب الولايات المتحدة الأميركيّة قبل خضوعه لسلطان القانون، المترجم.

مع وجود «جيسي جيمس» والطفل بيلي»[1] و«بيل هيكوك الضاري» و«دوك هوليداي» و«الإخوة إيرب»[2]، النزاع المسلّح الأسطوري الذي حصل في «أوك كورال» هو حدث حقيقي إن لم يُؤخذ على النحو المُفترَض عموماً، حتى فترة متأخرة جداً كانت «الأساطير» المحوكة عن هذه الشخصيات وهذه الحوادث عملياً ملازمة «للتاريخ» على نحو لا يمكن فصله، لذلك في عصر التحريم[3] ظن رجال مثل إليوت نيس من ناحية، وجون ديلينجر[4] و«ليغز داياموند» من ناحية أخرى أنهم سيعيدون تمثيل الدراما الغربية الدقيقة تاريخياً التي تتحدث عن رجال القانون المخلصين وعن المجرمين الخياليين، وفي ذلك العمل أسسوا «تاريخاً» جديداً حيكت عنه «أساطير» جديدة.

طبقا للمدى الذي تُلهب فيه الأحداث التاريخية والشخصيات البارزة مخيلة الناس، وتبقى حيّة في حياتهم الواسعة الخيال، فإنها ستتحول في النهاية إلى أسطورة، ففي حالات مثل الملك آرثر أو روبن هود، لا بد من أن هذه الأساطير تضمّنت عملياً «الحقائق» التاريخية التي كانت موجودة حقاً آنذاك، وفي حالة جان دارك انحسرت «الحقيقة» التاريخية إلى خلفية الرواية مع أنها لم تُحجب كاملة، بينما سيطرت عليه ظاهر القصة المبالغة والإضافات والإبداع المحض، في حالات أكثر حداثة مثل تشي غيفارا أو جون كندي أو مارلين مونرو أو جون لينون أو ألفيس بريسلي يمكن تمييز «الحقيقة» التاريخية

1ـ الطفل بيلي، (1859م -1881م) مجرم أمريكي، ولص شهير وسارق للماشية على الحدود الغربية، ادّعي أنه قتل على الأقل 21 شخصاً، استعمل ألقاباً كثيرة وحقائق حياته ليست معروفة جداً، اسمه الحقيقي هنري مكارثي، أوردت هذا التعليق لشرح معنى الغرب الضاري والفقرة كاملة، المترجم.

2ـ فيلم غربي عنوانه «النزاع المسلّح في أوك كورال» يتحدث عن النزاع بين المارشال الأمريكي «وايات إيرب» ومجرمي «الغرب الضاري»، صدر عام 1957م، وصديق إيرب ونائبه كان اسمه دوك هوليداي، في مدينة تومبستون في أرزونا قامت عصابة من المجرمين بقتل أحد إخوة «إيرب»، ومن أجل الانتقام واجههم في معركة «أوك كورال»، المترجم.

3ـ هو العصر الذي قام به حزب سياسي في الولايات المتحدة أسّس عام 1869م دعا لمنع المشروبات الكحولية، المترجم.

4ـ مجرم أمريكي مشهور، بعد أن سُجن تسع سنوات شكل عصابة في السجن، وقام بعدة جرائم في مدة لا تتجاوز 13 شهراً، ومنها السطو المسلح على أكثر من 12 بنكاً ومداهمة ثلاثة مراكز للشرطة لتخليص عصابات محتجزة، جرى إعلانه آنذاك «عدو الشعب الأول»، أشهر أعماله أنه قام بالهروب من سجن شديد الحراسة باستخدام مسدس وهمي مصنوع من الخشب، وقد نجا من حكم كان ينتظره لقتله أحد ضباط الشرطة، عام 1934م انتقل إلى شيكاغو، وأجبر أحد الجراحين على تغيير ملامح وجهه وبصمات أصابعه، جرى خداعه من امرأة أخبرت الشرطة بأنها سترتدي ثوباً أحمر وستدخل معه إلى أحد المسارح، وبينما هو داخل أطلقت عليه الشرطة النار وقتلته، الفتاة نالت 50 ألف دولار مكافأة، وأصبحت تُعرف «بالفتاة ذات اللون الأحمر»، بعضهم يظن أنه لم يكن ذلك الرجل المقتول، بل كان رجلاً آخر من رافق تلك المرأة، المترجم.

من بين العناصر الأسطورية، ولكن في النهاية لا نستطيع فصلهما، إنها تماماً العناصر الأسطورية التي تجذب اهتمامنا بـ «الحقيقة» التاريخية.

ما يمكن مناقشته، وما جرت مناقشته أنّ كلّ التاريخ المكتوب أو المسجّل هو جوهرياً نوع من أنواع الأسطورة، أيّ رواية تاريخية هي موجّهة نحو حاجات الزمن الذي جرى تأليفها فيه ومواقفه وقيمه، وليس إلى الزمن الذي تُشير إليه، أي رواية تاريخية انتقائية ضرورة تتضمن بعض العناصر وتحذف الأخرى، أيّ رواية تاريخية تؤكّد بعض العوامل وتهمل الأخرى استناداً على انتقائيتها، هي متحيّزة إلى هذا المدى، وعندما تصل إلى مدى الانحياز فإنها بلا شك تطبق التزييف «على الأحداث الحقيقية»، إن لم تستطع أجهزة الإعلام الحديثة الإجماع على تفسير أحداث جرت فقط في الأمس، إذاً فلا شك أن الماضي خاضع لأفق أعظم كثيراً من التفسير.

لأسباب كهذه أصرّ الروائيون في فترة ما بعد الحرب، من كارلوس فوينتِس وغابريل غارسيا ماركيز في أمريكا اللاتينية إلى جراهام سويفت وبطرس أكرويد وديزموند هوغان في انجلترا وإيرلندا على إعادة تقويم ما تعنيه كلمة «التاريخ»، عند هؤلاء الروائيين لا يتضمّن التاريخ «البيانات» الخارجية والقابلة للبرهان فقط، بل يتضمن السياق الفكري الذي يغلّف هذه البيانات أيضاً، ويتضمن التفسير الفكري لهذه البيانات بعد أن تقع في أيدي الأجيال اللاحقة، عند هؤلاء الروائيين «التاريخ» الحقيقي هو الحياة الروحية فقط لشعب وثقافة وحضارة، وهذا لا يتضمّن البيانات الخارجية فقط، بل المبالغات البارعة والإضافات الجمالية والتفسيرات الأسطورية أيضاً. إيفو أندريك الروائي اليوغسلافي الذي ربح جائزة نوبل عام 1961م يصرّ على أن المؤرخ في حاجة إلى معرفة «الحقيقة المستترة خلف الأكاذيب»، يصرح أندريك بأن «الأكاذيب»، أي المبالغة أو الإضافات الجمالية أو التحريف أو حتى الإبداع التامّ عند شعب أو ثقافة ليست بلا مسوغ إطلاقاً، على العكس هي تشهد على دوافع مستترة، رغبات مستترة، نواقص مستترة، أحلام مستترة، والتعويضات[1] المفرطة، وإلى ذلك المدى وفي زيفها الشديد ليست صادقة فقط، بل هي بيانات مدهشة وغنيّة بالمعلومات المفيدة التي تحتوي على أفكار أساسية للفهم أيضاً، وعندما تصل إلى المدى الذي تبلور فيه هوية جماعية أو ذاتية تخلق حقيقة جديدة، أو تخلق الشّيء الذي يتحول إلى حقيقة.

1ـ هنا يُقصد بالتعويض عملية سيكولوجية، يخفي بها المرء عجزاً معيّناً أو شعوراً بالضعف إلخ، وذلك بالتفوّق في حقلٍ معيّن، المترجم.

مثال بسيط ذو صلة وفيه كل الكآبة يجب أن يكفي لتصوير نوع العملية التي يصفها أندريك، العملية التي تتضافر فيها «الحقيقة» مع «الأكاذيب» و«التاريخ» مع «الأسطورة» لخلق حقيقة تاريخية جديدة، في عام 1688م أغلق المواطنون البروتستانتيون في لندُن دَري (Londonderry) باب المدينة نتيجة للرعب الذي لم يكن ضرورياً أصلاً، ومنعوا دخول فرقة من القوّات الكاثوليكية التي بعثها جيمس الثّاني لحماية المكان وتحصينه، هذا العمل الثوري أدى إلى ردّة فعل متوقّعة من الملك، ومن دون أدنى قصد أو نية سوء من كلا الجانبين جرت محاصرة لندُن دَري، في تفتيش التاريخ الأوروبي كان حصار لندُن دَري قضية صغيرة حقيرة، وتافهة مقارنة بالعمليات العسكرية التي اكتسحت القارة خلال عقد أو ما شابهه، كانت غير هامة أيضاً، ولم تحلّ أي مشكلة ولم تقرر أي شيء، فُرضت بلا حاجة إلى التدخل العسكري، ولم تخلق أي ضرورات جديدة عسكرية، ولم تكن مسألة حاسمة وفق أي مفهوم عسكري دقيق، لكنها على مستوى ملموس أقل كانت في الحقيقة مسألة حاسمة، لقد شكّلت وخلقت المواقف والقيم والتوجّهات، وتلك المواقف والقيم والتوجّهات ترجمت نفسها بعد ذلك إلى أحداث[1].

في ردةّ فعل ليس على « ما حدث في الحقيقة» في لندُن دَري، بل كما ظُن أنه حدث، تحجّرت الأنماط الفكرية البروتستانتية والكاثوليكية في إيرلندا، والمجتمعان تصرفا على نحو صارم وفق هذه الأنماط الفكرية، هذه الأعمال كان من شأنها أن تقرّر مجرى الشؤون الإيرلندية في القرن التالي، وفي عام 1798م ثارت الكاثوليكية الإيرلندية، سلوك تلك الثورة ومجراه لم يكن نتيجة أحداث الحصار قبل مئة سنة من ذلك التاريخ، بل نتيجة للأساطير التي أحاطت بتلك الأحداث، وهكذا نجد أن أسطورة ولّدت تاريخاً جديداً، والتاريخ في هذه الحالة هو عام 1798م الذي حصلت فيه الثورة، ولّد أساطير جديدة تخصّه، وهذه الأساطير الجديدة نفسها أحدثت تطوّرات جديدة في «التاريخ» المزعوم، تبنّت أساطير جديدة أيضاً، إنّ ذروة هذه العملية اليوم هي إيرلندا الشّمالية، حيث إنّ الاشتباك الحقيقي ليس اشتباك الأديان بقدر ما هو اشتباك للأساطير المتعارضة، اشتباك للتفسيرات المتعارضة للتاريخ.

معركة بلينِم[2] التي حصلت عام 1704م أي بعد خمس عشرة سنة فقط من حصار لندُن دَري كانت بصدق معركة رئيسة وحاسمة أيضاً، عدّلت ميزان القوى في أوروبا،

1ـ أي تلك الحادثة كانت تافهة من الناحية المادية أو العسكرية، فلا معارك ولا اشتباك، إلا أنها كانت حاسمة من الناحية المعنوية، لأنها ولّدت أحاسيس ومشاعر وقيماً مختلفة، تنامت بعد ذلك لتتحول إلى أحداث مادية، المترجم.

2ـ معركة بلينِم (Blenheim) عام 1704م، حيث الجيش البريطاني بقيادة أول دوق لمارلبورو هزم القوّات الفرنسية والبافارية في حرب الوراثة الإسبانية، بلينِم قرية جنوب غرب ألمانيا، المترجم.

وحوّلت مجرى التاريخ الأوروبي جذرياً، لكن بلينم اليوم تحيا في عقول الناس على نحو أساسي موطن عائلة مرموقة في أكسفورد شاير الذي صادف أيضاً أنها كانت مسقط رأس تشرشل، من الناحية الأخرى حصار لندُن دَري وثورة عام 1798م وكلّ المعالم نصف الأسطورية ونصف التاريخية الأخرى للتاريخ الإيرلندي وصلت إجمالاًإلى العصر الراهن، حيث يجري بانتظام الاحتفال بها وإحياؤها وتشريعها وممارسة شعائرها ثانية، وحيث هي في النهاية لا تزال قادرة على تشكيل المواقف والقيم وتقرير الهوية العشائرية، وتؤثر في المجتمعات، هكذا هي قوّة الأساطير، وهكذا هو تلازم الأسطورة مع ما ندعوه تاريخاً.

التاريخ لا يتضمّن الحقائق والأحداث فقط، بل يشمل أيضاً العلاقات بين الحقائق والأحداث، وتفسير هذه العلاقات في أغلب الأحيان، في أيّ عمل تفسيري كهذا عنصر أسطوري سيؤثر ضرورة، لذلك لا يمكن تمييز الأسطورة من التاريخ، على العكس هي جزء ملازم للتاريخ.

استغلال أسطورة فرسان الهيكل

منذ بداية نشوئهم غمر فرسان الهيكل أنفسهم بالأسطورة، واستفادوا من الأسطورة واستغلّوها، الغموض واللغز المطلق الذي يحيط بأصولهم مكّنهم من إحاطة أنفسهم بغموض فعّال على السواء، هذا الغموض أصبح أشد نتيجة الرعاية الموالية، ليس فقط من نبلاء بارزين، بل من روائيين أيضاً مثل وولفرام فون اسكباتش وشخصيات لامعة في الكنيسة كالقدّيس بيرنارد، كان سهلاً على نحو كاف على فرسان الهيكل أن يصبحوا «أسطورة زمانهم» في نظر شعوبهم المعاصرة، وقد امتنعوا عن إعاقة العملية التي جعلتهم كذلك، بل على العكس هم شجّعوها في أغلب الأحيان وعلى نحو نشيط، في النصوص التوراتية استشهدوا بيَشُوع والمكابيين على نحو ثابت، وارتقوا بأنفسهم ليصبحوا آلهة الجيش في زمانهم، الجيش الذي أسقط أسوار أريحا[1]، الجيش الذي هزم روما تقريباً قبل سنوات فقط من العصر المسيحي، شجّعوا الصورة الشعبية لأنفسهم، كأنهم بطريقة ما كانوا مرتبطين برومانسيات الكأس المقدسة، فهم كانوا «حماة شيء غامض يُعرف بالكأس المقدّسة».

وسط الغموض الذي أحاط بنظام المعبد ظهر الكثير من الصور والمحاكاة، جيش يشوع والمكابيين وفرسان الكأس المقدسة دُمجوا في سلف آخر تاريخي وأسطوري أيضاً،

1ـ أريحا (Jericho)، هي كما نعلم بلدة في الضفة الغربية في فلسطين، إلا أنها تُعد أقدم بلدة في العالم، وفيها آثار يعود تاريخها إلى 8000 سنة قبل الميلاد، وطبقاً للتوراة دمّرها يَشُوع بعد أن أعاد الإسرائيليين من الأسر في مصر، المترجم.

نبلاء مثل شارلمان وآرثر وفرسان المائدة المستديرة، وخصوصاً في الجزر البريطانية هناك الفرع الأحمر الألستري[1]، وكذلك لم تكن المهارة العسكرية العالية المزيّة الوحيدة التي منحهم إياها الغموض المحيط بالمعبد، فرسان الهيكل في رومانسية «بِرْلِسفوز» لا يظهرون جنوداً فحسب، لكن مطّلعون على أسرار باطنية كبيرة أيضاً، هذا دلالي لأن فرسان الهيكل كانوا متلهّفين جداً إلى تعزيز النظرة الشعبية إليهم كمجوس وكسحرة أو مشعوذين ومستحضري أرواح وكخيميائيين ومعلمي أسرار غامضة كبيرة، وفي الحقيقة هذه الصورة تماماً هي التي انقلبت ضدهم، وزوّدت أعداءهم بأسباب دمارهم، مع ذلك وحتى بعد حلّ نظام المعبد بقيت عملية صنع الأساطير نشيطة وملازمة للحقيقة التاريخية، هل أطلق جاك دي مولاي السيد الأعظم الأخير لنظام الهيكل وبينما كان يُحرق حياً لعنة على البابا وعلى الملك الفرنسي يطلب فيها أن ينضم كلاهما إليه للحضور أمام اللــه في غضون عام؟، سواء كان ذلك صحيحاً أم لا، كلاهما مات في غضون سنة، وعلى نحو واضح ضمن ظروف غامضة، من السهل على نحو كاف اليوم إسناد سبب وفاتهم إلى الفرسان اللاجئين أو المتعاطفين الذين اعتمدوا على خبرة نظام الهيكل في السموم، لكن فكر القرون الوسطى كان سعيداً جداً برؤية أن سبب ذلك كان قوّة غامضة، بدأ الحُكم الملكي الفرنسي يعد نفسه ملعوناً نتيجة لعنة جاك دي مولاي التي تعلقت فوقه كسيف دامقليس[2]، وتلك اللعنة بقيت مرتبطة بالعرش الفرنسي بغض النظر عن تغيرات السلالة الحاكمة، وهكذا في عام 1793م عندما جرى إعدام لويس السّادس عشر بالمقصلة ارتبط حدث تاريخي آخر بالأسطورة والخرافات، يُزعم أن ماسونياً فرنسياً صعد على منصة الإعدام، وغمس يديه بدم الملك، ورفعها عالياً أمام الحشد المحيط وبكى قائلاً: «جاك دي مولاي، ها قد انتُقم لك!».

لذلك أحاط فرسان الهيكل أنفسهم بالأساطير والخرافات في أثناء وجودهم، وفي أثناء فنائهم ولّدوا أساطير وخرافات جديدة، جرى تحويلها من أشخاص آخرين إلى «حقائق تاريخية»، كما سنرى أحد تلك التحولات المؤثرة كانت الماسونية، ولكن كان هناك مظاهر أخرى ومبكّرة للظاهرة، المظاهر التي اعتمدت عليها الماسونية نفسها وتجذّرت فيها، في الحقيقة ما إن جرى القضاء على نظام المعبد حتى ظهر ثانية على نحو شبيه بالعنقاء من بين ألسنة النيران التي أحرقته ليستأنف مظهراً أسطورياً جديداً.

1ـ نسبة إلى ألستر التي كانت الاسم السابق لإيرلندا الشمالية، المترجم.

2ـ دامقليس خادم يوناني سراقصي من القرن الرابع قبل الميلاد، دايونيسيوس من سراقص أرهقه تملّقه الحسود، فأجلسه تحت سيف معلّق بشعرة؟، وبذلك تجسيد لأخطار الأقوياء على الضعفاء، المترجم.

خلال ربع قرن من القضاء على المعبد بدأ سيل من أنظمة فرسان الهيكل الجديدة بالظهور، واستمرّ الأمر كذلك عدة قرون لاحقاً، وهكذا على سبيل المثال في عام 1348م أسس إدوارد الثالث ملك انجلترا نظام غارتر[1]، يضم ستّة وعشرين فارساً مقسّمين في مجموعتين، كل منهما من ثلاثة عشر، غارتر طبعاً مستمرّ حتى الوقت الراهن وهو نظام الفروسية[2] الأول في العالم. في فرنسا في عام 1352م أسس الملك جين الثاني[3] منظمة مماثلة تقريباً تُدعى «نظام النجم»، على أي حال كان وجودها أقصر أجلاً من منظمة غارتر، وجرت إبادة كل أعضائها في عام 1356م في معركة بواتيه (Poitiers)، في عام 1430م أسس فيليب دوق بيرغوندي نظاماً يُدعى «نظام الصوف الذهبي» (Golden Fleece)، في عام 1469م أسس لويس الحادي عشر ملك فرنسا نظام القديس ميشيل، عضويته تضمّنت أشخاصاً مثل كلود دي غايز وتشارلز (كونيتابل) دي بوربن وفرانسوا دي لورين وفيدريكو دي غونزاغا ولويس دي نيفرز، إضافة إلى قادة وضبّاط منظمة سنتطرق إليها قريباً على نحو واضح في قصّتنا، وهي منظمة «الحرس الاسكتلندي».

هذه المنظمات كانت طبعاً أصغر عدداً من نظام فرسان الهيكل، وذات شأن أقل أهمية، هي لم تمارس أيّ تأثير تاريخي بارز، ولم تكن تمتلك أرضاً ولا مراكز اجتماعية ولا عقارات من أيّ نوع ولا دخل، كانت تفتقر إلى الحكم الذاتي لكونها مرتبطة بشخص أو بآخر، حاكم أو ملك، مع أنها مكونة أولاً من المقاتلين، إلا أنها لم تشكل جيشاً على وجه التحديد، مثلاً هم لم يمارسوا أي تدريبات عسكرية، لم يكونوا منظّمين في أي تسلسل هرمي عسكري، لم يعملوا كوحدات أو تشكيلات عسكرية متميّزة، لا في ساحة المعركة ولا بعيداً عنها، في النهاية كانوا يهتمون بالسمعة بدلاً من القوّة الحقيقية، كانوا أدوات لنقل فكر الرعاية الملكية، كانوا ملكاً لحاشية الملك، وعلى نحو سريع أصبحت تجهيزاتهم العسكرية وألقابهم قريبة مجازياً لمنظمات كجيش الخلاص مثلاً، لكن في استهلالهم ومناسكهم وشعائرهم وغموضهم كانوا يسعون إلى تقليد شخصية نظام الهيكل وانتحالها، لأنهم كانوا يعدونه نموذجاً يُحتذى به.

هذا التراث المعيّن للمعبد كان أكثر بروزاً من أي شيء آخر، ولكن كان هناك التراث الآخر الذي لم يغير شكل الكاثوليكية الأوروبية فقط، بل عكسه عبر البحر بعيداً غرباً كبُعد

1ـ (Garter) وسام ربطة الساق البريطاني، المترجم.

2ـ ليس الفروسية بمعناها الحالي أي ركوب الخيل، بل الفروسية وفقاً للقرون الوسطى، المترجم.

3ـ جون الثاني (ملك فرنسا)، بالفرنسية يُدعى جين الثاني ويلقب بـ «الجيد»، ملك فرنسا بين عامي (1350م-1364م) وابن الملك فيليب السادس، أسر جون عام 1356م من إدوارد الملقب «الأمير الأسود» في معركة بواتيه، وسُجن في انجلترا، المترجم.

أمريكا، بعيداً شرقاً كبُعد اليابان. في عام 1540م أعاد جندي سابق يُدعى إجناتيوس لويولا إحياء النموذج المثالي الأصلي لفرسان الهيكل الذي هو المحاربون الرهبان (جند السيد المسيح) أهانه تقدّم البروتستانتية، وأسس لنفسه نظاماً عسكرياً كهذا، على خلاف فرسان الهيكل على أي حال النظام العسكري الذي أسسه لويولا لا يحارب بالسيف مع استعداده المثالي لجعل الآخرين يستخدمونه نيابة عنه، بل بالكلمة.

هكذا كان نشوء المنظمة التي أطلق عليها لويولا اسم «جماعة السيد المسيح»، حتى البابا لم يعجبه التعبير «جماعة» ذو المضمون العسكري الواضح، وأصرّ على أن يجري تغييره إلى «جمعية»، في بنيتهم ومنظمتهم العسكرية، في «أقاليمهم» الواسعة الانتشار، في انضباطهم الصارم صاغ اليسوعيون أنفسهم على نمط فرسان الهيكل وباعتراف لويولا نفسه، في الحقيقة عملوا غالباً مستشارين عسكريين وخبراء بالتجهيزات العسكرية والعتاد، إضافة إلى عملهم دبلوماسيين وسفراء على مستوى عال، كفرسان الهيكل كان اليسوعيون تابعين فقط للكنيسة اسمياً، ولكن كفرسان الهيكل أصبحوا على الأغلب يشكلون قانوناً في ذاتهم، في عام 1773م في ظروف تُذكّر بالقضاء على نظام المعبد قبل461 سنة من ذلك قام البابا كليمنت الرّابع عشر بقمع اليسوعيين لأسباب وأسس سرّية وغامضة، لكنهم طبعاً بعد ذلك بُعثوا من جديد في عام 1814م، لكن حتى في الوقت الراهن كان اليسوعيون من نواح عديدة مؤسسة مستقلة ذاتياً على خلاف دائم ضد البابوية التي يُفترض أنهم يدينون لها بالولاء.

المنظمات الفروسية واليسوعيون كانوا بطرق مختلفة ورثة نظام المعبد الذي في النهاية نسي أصله أو أنكره بتعمد، على أي حال بقي في اسكتلندا تراث لفرسان الهيكل مباشرة وأكثر وضوحاً مُعترفاً به في ذاته كما ينبغي، ويتصل بقنوات أصول وسلالات عائلية أكثر صلابة ومتانة، في المقام الأول التواطؤ والتمويه والصفقات ضمنت سلامة ممتلكات نظام الهيكل في اسكتلندا، وعلى الأقل فترة من الوقت احتفظت بها وحدات مستقلة يديرها فرسان الهيكل أنفسهم «فقط»، وبعد ذلك أحد فروعهم، ممتلكات فرسان الهيكل في اسكتلندا لم تكن مقطعة الأوصال ومقسمة كما في الأماكن الأخرى، على العكس كانت في ظل الرعاية، كأنّها بانتظار إعادتها إلى مالكيها الأصليين.

في ذلك الوقت ظهرت في اسكتلندا أيضاً شبكة من العوائل المترابطة التي كان من شأنها أن تزود التمويل والحماية، حتى إن تقاليد فرسان الهيكل الأصيلة استمرت في اسكتلندا، استمرت برعاية من هذه العوائل ورعاية التنظيم العسكري الذي تبنّوه والذي يُدعى «الحرس الاسكتلندي» الذي ربما يُعد المنظمة الأكثر أصالة لفرسان الهيكل الجدد،

علاوة على ذلك خلال «الحرس الاسكتلندي» والعوائل التي جندت أبناءها في نظام «الحرس الاسكتلندي» جرى استيراد قدرات وطاقات جديدة إلى اسكتلندا من أنحاء أوروبا، هذه الطاقات التي جرى التعبير عنها أصلاً خلال طيف المعارف «الباطنية»، وخلال فن بناء الحجارة والهندسة المعمارية أيضاً اندمجت في بقيّة تقاليد فرسان الهيكل ونفخت فيها حياة جديدة، وهكذا من محارق النظام الديني العسكري القديم ستنطلق شرارة من التقاليد إلى المنظمة التي تبلورت لتشكل الماسونية الحديثة.

أراضي فرسان الهيكل

في عام 1312م بعد شهر من الحلّ البابوي الرسمي للمعبد مُنحت كل الأراضي والمراكز الاجتماعية والتجهيزات الأخرى التي امتلكها النظام لحلفائهم السابقين ومنافسيهم، فرسان مشفى القدّيس يوحنا، في الأرض المقدّسة كان فرسان المشفى فاسدين تماماً كفرسان الهيكل، يميلون تماماً إلى خرق النظام ودس المؤامرات والنزاع الطائفي والسعي خلف مصالحهم الخاصة على حساب رفاهية المملكة الصليبية. كفرسان الهيكل وكالفرسان التيوتونيين في منتصف القرن الثالث عشر ساهم فرسان المشفى في الأعمال المصرفية والتجارة أيضاً وفي طيف واسع من النشاطات الأخرى التي امتدت إلى ما هو أبعد كثيراً من وظيفتهم الأصلية رهباناً محاربين، على أي حال في أوروبا وخصوصاً فيما يتعلق بعلاقاتهم بالبابوية حافظ فرسان المشفى على صفحة نظيفة على نحو يثير الشك، بقوا صامدين أمام أيّ «عدوى» من البدع، وأمام أيّ تجاوز كان من شأنه أن يجعلهم خاضعين للاضطهاد، كما لم يشكّلوا أي تهديد لأيّ ملك أوروبي.

بلا شك كان فرسان المشفى متغطرسين ومستبدين كفرسان الهيكل والفرسان التيوتونيين، لكن عملهم في المشفى وولاءهم الثابت لروما كان أكبر من أن يجري الاعتراض على تصرفاتهم السلبية التي قاموا بها، في النتيجة كانوا يتميزون باحترام كلا الطرفين البابوي والشعبي على النحو الذي لم تتمكن منه المنظمات المنافسة لهم، في الحقيقة في سنوات ما قبل عام 1307م كان هناك حديث عن «تنقية» فرسان الهيكل، وذلك بدمجهم في فرسان المشفى لتشكيل نظام واحد موحّد، بين عامي 1307م و1314م وبينما كانت محاكمات فرسان الهيكل لا تزال مستمرّة تلقّى الفرسان التيوتونيونّ اتهامات مماثلة، وخوفاً من محاكمات مماثلة نقلوا مقرهم من فينيسيا إلى مارينبرغ[1]، في ما هي بولندا الآن، وهي المكان البعيد جداً عن قبضة كلتا السلطتين البابوية والعلمانية، فرسان المشفى استمروا جيداً مستفيدين من سوء حظ كلا منافسيهم.

1ـ مارينبرغ (Marienburg): في مالبورك الحديثة في بولندا، تتميز المنطقة بقلعة مارينبرغ التي كانت مصنوعة فقط من القرميد، وتحتل 20 هكتاراً من الأرض، وكانت مقر قيادة الفرسان التيوتونيين في القرون الوسطى ومن أكبر القلاع التي بُنيت في تلك الفترة، المترجم.

مع هذا لم يكن استملاك فرسان المشفى لأملاك فرسان الهيكل بالبساطة المتوقّعة، في بعض الحالات مثلاً مضى نحو ثلاثين سنة قبل أن يحصلوا على الملكية التي مُنحت لهم في الحقيقة، وفي ذلك الوقت طبعاً تحولت الممتلكات المعنية عموماً إلى خراب، وأصبحت عديمة القيمة وغير مؤثرة من دون إنفاق رأس مال كبير عليها، في مناسبتين واحدة عام 1324م والثانية عام 1334م لجأ رؤساء نظام القدّيس يوحنا إلى البرلمان الانجليزي لتأكيد حقّهم في الحصول على أراضي فرسان الهيكل، مع ذلك لم يحصلوا على ملكية «معبد لندن» حتى عام 1340م، وفي الكثير من المناسبات الأخرى أيضاً وجد فرسان المشفى أنفسهم في نزاع ضد الأسياد العلمانيين، وهم الرجال الذين رأوا أنه فضلاً على تقديم بعض الممتلكات لنظام القدّيس يوحنا لهم الحق في استرداد تلك الممتلكات، لأن أجدادهم منحوها لفرسان الهيكل قبل قرن أو قرنين من ذلك، في حالات كثيرة، إن لم يكن هؤلاء الزعماء العلمانيون يتميزون بقوة كافية لربح القضية، فعلى الأقل كانوا قادرين على إطالة مدتها بالقضاء.

هكذا كان الوضع في انجلترا، في اسكتلندا كانت الأمور مربكة على نحو أكبر، وفي أغلب الأحيان جرى أيضاً إخفاؤها بتعمد، ربما الإشارة الأقوى عن التطوّرات في اسكتلندا لم تكمن فيما قيل، بل فيما لم يُقل، لذلك بعد ستّة شهور من معركة بانوكبورن أصدر بروس مرسوماً إلى فرسان المشفى يُثبت كامل أملاكهم في المملكة، لم يكن هناك أي إشارة عن أيّ أراضٍ أو أملاك لفرسان الهيكل، مع أنّ هذه الأراضي والأملاك كان يجب تسليمها لفرسان المشفى عامين قبلّ ذلك، كان فرسان المشفى ببساطة متمسكين ومشددين كما حصلوا عليه من الأملاك، ولكن ما يُثير الانتباه أن أحداً لم يحاول المطالبة بحقه في الحصول على أملاك فرسان الهيكل في اسكتلندا، لا فرسان المشفى ولا حتى الملك أو الأسياد العلمانيون، في الحقيقة، ليس هناك سجل عن أي شخص حصل على أحد ممتلكات فرسان الهيكل، أو حتى السعي للحصول عليها عدا واحداً، في فترة حياة بروس ربما لم يجرِ العثور على ممتلكات كهذه، فالصمت المحيط بها كان على أشده.

في عام 1338م، أي بعد تسع سنوات من وفاة بروس، طلب السيد الأعظم لنظام فرسان المشفى قائمة كاملة لممتلكات نظام المعبد التي اكتسبها نظامه في كل أنحاء العالم، كلّ زعيم إقليمي أو وطني من زعماء النظام أُمر بتقديم جرد لممتلكات فرسان الهيكل ضمن نطاق سلطته، في أثناء القرن الأخير جرى العثور على وثيقة تستشهد باستجابة زعيم النظام في انجلترا، تلك الوثيقة وُجدت في مكتبة نظام القدّيس يوحنا في فاليتا[1]، بعد سرد العدد الهائل لأملاك فرسان الهيكل التي اكتسبها فرسان المشفى في انجلترا، تقول المخطوطة:

1ـ عاصمة جزيرة مالطا وميناؤها، المترجم.

عن الأراضي والأبنية والكنائس وكلّ الأملاك الأخرى التي كانت لفرسان الهيكل في اسكتلندا كانت الإجابة بلا أدنى قيمة، كلّها تحطّم واحترق وتحوّل إلى رماد نتيجة الحروب المستديمة التي استمرّت سنوات كثيرة.

بعد ذلك وحتى عام 1338م لم يكن فرسان المشفى بعد أن وضعوا أيديهم على ممتلكات فرسان الهيكل في اسكتلندا، من الناحية الأخرى كانت مخالفات من نوع ما تحدث على نحو واضح، لأنه حتى وإن لم تُذكر ممتلكات فرسان الهيكل في أيّ صفقات لفرسان المشفى أو للتاج الاسكتلندي أو للنبلاء العلمانيين، إلا أن بعضاً منها مع ذلك جرى بيعه، ومن دون إيراده في أيّ سجلات رسمية، وهكذا على سبيل المثال قبل عام 1329م يُذكر أن ضابطاً في نظام القدّيس يوحنا يُدعى رودلف ليندساي قد تخلّص من أراضي فرسان الهيكل في «معبد ليستن»، مع ذلك لم تُذكر هذه الصفقة في أيّ وثائق أو سجلات من سجلات النظام، إذاً وفق أي سلطة كان الضابط ليندساي يتصرّف؟ لمن كان يعمل وكيلاً؟.

صفقة ليندساي هي واحدة فقط من الصفقات التي أحاطت بمسألة فرسان الهيكل في اسكتلندا في أثناء الفترة المعنية بغموض كامل لدى المؤرخين اللاحقين، نتيجة لذلك لا يمكن الحصول على أي صورة واضحة من أيّ نوع:

... من المجهول كمية ممتلكات فرسان الهيكل التي جرى تسليمها لفرسان المشفى، يبدو أنها كانت عملية مجزّأة تدريجية، وهناك أدلة على أنه تماماً حتى القرن الرابع عشر كان فرسان المشفى لا يزالون يعانون الحصول على ممتلكات فرسان الهيكل السابقة.

الكاتب نفسه يستنتج: «ليس هناك فترة في تاريخ المنظمات العسكرية في اسكتلندا أكثر غموضاً من القرن الرابع عشر».

مع الغموض يظهر نمط مؤكَّد، بعد عام 1338م بدأ فرسان المشفى باكتساب حصص فرسان الهيكل في اسكتلندا، ولو أن ذلك حصل بطريقة مريبة بلا شك، على أي حال قبل عام 1338م لم يجرِ نقل أي من ممتلكات فرسان الهيكل، مع ذلك لم يجرِ العثور على أي سجل يذكر ما حلّ بها عدا المثال المذكور سابقاً، الأكثر من ذلك بقيت أراضي فرسان الهيكل عندما حصل عليها فرسان المشفى منفصلة في النهاية، لم تُدمج وتُوحَّد في ممتلكات فرسان المشفى الأخرى، وتُدار وفقاً لذلك على العكس، كانت تتميز بمنزلة خاصّة، وكانت تُدار كوحدات مستقلة ذاتياً، في الحقيقة لم يجرِ معاملتها على أنها مِلك حقيقي لنظام القدّيس يوحنا، بل كانت ببساطة تحت سيطرة الوكلاء أو المديرين

رعاية، وحتى وقت متأخر حتى نهاية القرن السادس عشر أدرج فرسان المشفى ما لا يقل عن 519 موقعاً في اسكتلندا على أنها «Terrae Templariae»، أي جزء من ميراث فرسان الهيكل المستقل ذاتياً والمُدار على نحو منفصل![1].

في الحقيقة تضمّن ترتيب أرض فرسان الهيكل في اسكتلندا شيئاً ما مدهشاً حقاً، الشّيء الذي أهمله المؤرخون كليّاً تقريباً، والذي مكّن المعبد من دعم فترة ما بعد وفاته، إذا جاز التعبير، دعماً ما على الأقل. أكثر من قرنين في اسكتلندا من بداية القرن الرابع عشر حتى منتصف القرن السادس عشر يبدو أن فرسان الهيكل دُمجوا في الحقيقة في فرسان المشفى، لذلك في أثناء هذه الفترة هناك إشارات متكرّرة إلى نظام واحد مشترك، «نظام فرسان القدّيس يوحنا والمعبد».[2]

إنها حالة غريبة وتطرح بعض الأسئلة المثيرة، هل توقع فرسان المشفى إحياء المعبد في وقت ما من المستقبل، وتعهّدوا برعاية ممتلكات فرسان الهيكل؟ ربما باتفاقية سرية ما، أو هل من الممكن أن يكون نظام القدّيس يوحنا في اسكتلندا قد ضمن في صفوفه عدداً من فرسان الهيكل الهاربين بما يكفي لإدارة أراضيهم الخاصة؟.

كلتا الإجابتين ممكنة، هما ليستا متعارضتين، مهما كانت حقيقة المسألة فمن الواضح أنّ أراضي فرسان الهيكل تميزت بمنزلة فريدة لم يجرِ ذكرها رسمياً في السجل التاريخي، وقد استمرت في الحفاظ على تلك المكانة، في عام 1346م ترأس سيد فرسان المشفى ألكساندر دي سيتون الجلسة القانونية المنتظمة في المركز الاجتماعي السابق لفرسان

1ـ المؤرخ ميدمنت في كتابه «ملخّص المواثيق والصحف الأخرى» يُدرج ثلاثة ممتلكات بارونية كانت سابقاً لفرسان الهيكل و514 ملكية أخرى.
مدة قرنين من الزمن ميراث فرسان الهيكل المستقل ذاتياً «Terrae Templariae» جرى الحفاظ عليه وإدارته من نظام القدّيس يوحنا، أو النظام المشترك لنظامي القدّيس يوحنا والمعبد، جرى تأجير الممتلكات، وجرى تعيين مسؤول مراقب وجامع للإيجارات، هذا المسؤول عادة كان يُدعى «مستشار المعبد»، يبدو أن كلّ منطقة في اسكتلندا كانت تمتلك مستشارها الخاص الذي كان يرسل التقارير إلى زعيم نظام القدّيس يوحنا في تورفيشن، (تورفيشن (Torphichen): بلدة في الغرب تماماً من أدنبرة في اسكتلندا، المترجم)، لذلك جرى تعيين شخص اسمه ألكساندر سبينز «مستشار المعبد» في بلدة فايف عام 1490م، أفراد آخرون جرى تعيينهم «مستشارين لأراضي المعبد» في لينيكس وأنجس وغوري وبيرويك واير، المؤلفان.
2ـ راجع مثلاً في كتاب ميدمنت بعنوان «Templaria» الفقرة التي تتحدث عن «الوثيقة التشريعية التي منحها جيمس الرّابع ملك اسكتلندا»، إنّ العبارات التي وردت

«Fratibus Hospitalis Hierosolimitani, Militibus Templi Solomonis... ».

بفضول، في هذه الوثيقة التشريعية التي يعود تاريخها إلى عام 1488م يعيد جيمس الرّابع تأكيد كلّ الحقوق والامتيازات القديمة ليس فقط لنظام القدّيس يوحنا، بل لفرسان الهيكل أيضاً، هذا يجب أن يكون دليلاً على أن فرسان الهيكل كانوا يتميزون ببعض الوجود القانوني حتى فترة متأخرة من القرن الخامس عشر، المؤلفان.

الهيكل في «بالانترو دوتش»، في هذا الوقت وصل الموقع أخيراً إلى أيدي فرسان المشفى، مع هذا كان لا يزال يُدار مستقلاً، وكان يتميز بمكانة ذاتية كونه جزءاً من ميراث فرسان الهيكل، بقي اثنان من المواثيق التي شهدها ألكساندر دي سيتون يشيران إلى أنّ فرسان الهيكل حتى فترة أربع وثلاثين سنة من إخماد نظامهم كانت محاكماتهم لا تزال تُعقد.

«محاكم المعبد» من النوع نفسه والاسم نفسه كانت استمرّت قرنين من الزمن، مرة أخرى تواجهنا أدلة على أن نظام القدّيس يوحنا كان مع السلطة الممنوحة له للسيطرة على ممتلكات فرسان الهيكل في اسكتلندا ولأسباب غامضة عاجزاً على نحو واضح عن السيطرة عليها قانونياً، مرة أخرى يواجهنا مقترح حضور خفي لفرسان الهيكل وراء الكواليس، ينتظرون فرصة لإعادة تأكيد أنفسهم واسترداد تراثهم القانوني، ويبدو أن كلّ اسكتلندا، الحكم الملكي ومُلاك الأراضي الأغنياء، ونظام القدّيس يوحنا نفسه تآمرت سرياً.

الفارس المحيّر ديفيد سيتون

في أوائل القرن التاسع عشر اكتشف محام بارز وعالم بالأنساب والآثار يدعى جيمس ميدمنت سجلاً لإرث فرسان الهيكل المستقل ذاتياً «Terrae Templariae» ضمن نظام القدّيس يوحنا بين عامي 1581م و1596م، هذا السجل هو مخطوطة أو لفيفة تحتوي على سندات ملكية للأرض، إضافة إلى المركزين الاجتماعيين الشهيرين في «بالانترو دوتش» و«ميري كلتر»، أدرجت هذه الوثيقة ثلاثة مواقع أخرى في أولدستن وديني وثانكرتون[1]، تُدرج أيضاً أكثر من 500 من ممتلكات فرسان الهيكل الأخرى، من المزارع الصغيرة والحقول والمطاحن والمزارع الكبيرة، وصولاً إلى القلاع وأربعة أقسام إدارية كاملة، وبعد أن دُهش ميدمنت باكتشافه، شرع بإجراء بحث آخر، وتوجد قائمته النهائية الآن في المكتبة الوطنية الاسكتلندية وقد جرى نسخها إلى مخطوطة، وتُدرج تحديداً قوائم وأسماء ما لا يقل عن 579 من ممتلكات فرسان الهيكل!.

ماذا حدث لهذه الأرض؟، كيف جرى التخلّص منها، ولماذا جرى على الأغلب إخفاء السجلات التي تخصّها من السجل التاريخي؟، يمكن على الأقل الحصول على بعض أجوبة هذه الأسئلة في العائلة التي كانت من بين أكثر العائلات أهمية وتأثيراً في اسكتلندا في عهد بروس، تلك كانت عائلة سيتون.

1ــ في كتاب ميدمنت «ملخّص المواثيق» الأراضي البارونية الستّ التي أُدرجت تحت سيطرة نظام القدّيس يوحنا كانت تورفيشن، ثانكرتون، ديني، أولدلستين، بالينترادو (بالانترو دوتش) وماري كلتر، الأولى تورفيشن كانت المركز الاجتماعي الوحيد لنظام القدّيس يوحنا في آسكتلندا قبل القضاء على نظام فرسان الهيكل، بينما الثلاث الأخيرة عُرف بأنها كانت تحت سيطرة فرسان الهيكل، لذلك من المعقول افتراض أن الاثنتين الباقيتين كانتا أيضا جزءاً من الإرث المستقل لفرسان الهيكل في اسكتلندا، المؤلفان.

كما رأينا كان السّير كريستوفر سيتون متزوّجاً من شقيقة بروس، كان حاضراً في أثناء قيام بروس بقتل جون كومن، وهو نفسه قتل عمّ كومن عندما حاول الأخير التدخّل، كان حاضراً أيضاً عند تتويج بروس في بلدة «سكون» عام 1306م، بعد ذلك في معركة ميثفن جرى أسره وإعدامه بأمر إدوارد، حدث مصير مماثل لأخيه السّير جون سيتون، في الحقيقة كلاهما مات جنباً إلى جنب مع شقيق بروس المدعو نيل، في عام 1320م وقّع ألكساندر ابن كريستوفر سيتون ومعه ممثلون من العوائل الاسكتلندية السامية الأخرى كعائلة سينكلير «وثيقة أربروث».

أربعمئة سنة أخرى حافظ آل سيتون على مكانة بارزة في الشؤون والنشاطات القومية الاسكتلندية، لذلك ليس مفاجئاً ولا مجدياً حتى أن يقوم شخص آخر من آل سيتون اسمه جورج بالتعهّد في 1896م بتأسيس سجل شامل لأجداده، في هذا المؤلَّف التذكاري الذي يتحدث عن تاريخ آل سيتون يُدرج المؤلف الكثير من أسلافه الذين كانوا يحملون ألقاباً، تتراوح بين البسيطة والشهيرة. يدرج أيضاً الكثير من آل سيتون الآخرين الذين لا يُظن أنهم يرتقون إلى المستوى القياسي للسلالات النبيلة، بعضهم صنّاع ومواطنون متواضعون، بين هذه الغابة المتشابكة من أشجار النسب هناك إدخال مبهم ومعني على نحو خاص:

عام 1560م تقريباً عندما حُرم فرسان الهيكل من منافع إرثهم نتيجة المصلحة الشخصية للسّير جيمس سانديلاندز سيدهم الأعظم، انقلبوا جميعاً مع ديفيد سيتون سيدهم الأعظم في اسكتلندا (ابن أخ اللّورد سيتون؟) على رئيسهم، هذه العملية تُلمّح إليها قصيدة هجائية فضولية من تلك الفترة:

الكنيسة الاسكتلندية المقدسة ولصوصها — Haly kirk and her theeves

بئس الخائن آنذاك، — Fye upon the traitor then,

الذي أوصلنا إلى حالة مزرية، — Quhas has brocht us to sic pass,

الخائن الجشع والمحتال! — Greedie als the knave Judas!

بئس الفلاح الذي باع — Fye upon the churle quhat solde

الأرض المقدسة بذهب كثير، — Haly erthe for heavie golde;

لكن المعبد سقط، — Bot the tempel felt na loss,

ديفيد سيتون حمل الصليب. — Quhan David Setoune bare the crosse .

مات ديفيد سيتون في الخارج عام 1581م، وقيل إنه دُفن في كنيسة «الدير الاسكتلندي» في ريتسبن (Ratisbon)، الآن ريجنزبرغ قرب نورمبرغ.

إنه جزء مثير، يلمّح بوضوح إلى المعبد، بل يصبح أكثر إثارة استناداً إلى تاريخه، بعد قرنين ونصف من قمع نظام فرسان الهيكل رسمياً تقترح القصيدة أنهم كانوا لا يزالون يعملون على نحو كامل في اسكتلندا، ويمرّون بأزمة جديدة، ولكن من كان تحديداً ديفيد سيتون؟، ومن كان السّير جيمس سانديلاندز؟.

الأخير من السهل تتبّعه على نحو كاف على الأقل، جيمس سانديلاندز أول بارون لـ «تورفيشن» وُلد عام 1510م تقريباً، وهو الابن الثاني لعائلة أرستقراطية من ملاك الأراضي الأصليين في ميدلوثيان[1]، والد سانديلاندز كان صديق جون نوكس الذي استقرّ بعد عودته إلى اسكتلندا من جنيف عام 1555م في أرض تملكها العائلة في كالدر (Calder)، مع علاقة أبيه بمصلح بروتستانتي انضم جيمس سانديلاندز الشاب إلى نظام القدّيس يوحنا قبل فترة قليلة من عام 1537م، في عام 1540م طلب من جيمس الخامس عبوراً آمناً للسفر إلى مالطا، ليحصل هناك من السيد الأعظم على تأكيد رسمي في حقه في خلافة زعامة المركز الاجتماعي في تورفيشن لدى موت حامل المنصب آنذاك والتر ليندساي، حقّ سانديلاندز في خلافة ليندساي أُكّد بحسب الأصول من السيد الأعظم لفرسان المشفى جوان دوميديس في عام 1541م، بعد عودته إلى الوطن من مالطا توقف ذلك الشابّ الطموح في روما ليصدّق من البابا على منصبه الذي وُعد به حديثاً.

بعد خمس سنوات، أي في عام 1546م مات والتر ليندساي، وفي عام 1547م اعترف زعيم النظام في مالطا رسمياً بسانديلاندز زعيماً لمركز تورفيشن، في البرلمان الاسكتلندي أصبح معروفاً بـ «لورد نظام القدّيس جون»، وأصبح عضواً في مجلس شورى الملك، في عام 1557م عاد إلى مالطا وتورط في نزاع طويل، وبالأحرى سخيف بوضوح ضد أحد أقربائه المزعومين الذي كان أيضاً عضواً في النظام في مسألة تتعلق باستحقاق حصول ذلك القريب على لقب النبالة، وما سبب الخزي للاثنين، توّجت المسألة بشجار عامّ، وسُجن ذلك القريب المزعوم[2]، في عام 1558م عاد سانديلاندز إلى اسكتلندا مع أبيه ودعم الإصلاح وعارض الملكة الوصية ماري دي غايز، الأخت الكبرى لفرانسوا دوق غايز، ولتشارلز الكاردينال في لورين والتي كانت قد تزوّجت جيمس الخامس في عام 1538م.

1ـ منطقة جنوب شرق اسكتلندا، المترجم.

2ـ القريب جون جيمس سانديلاندز، وجد نفسه في النهاية في مشكلة جدّية، في عام 1564م عندما كان محروماً من رداء الراهب وطُرد من النظام، هو ورفيقان له سرقوا وصهروا كأس القربان والمذْخَر وصورة المسيح المصلوب وقطعاً أخرى من الكنيسة، اعترفوا بسبب التعذيب كما يبدو أعدموا في السنة نفسها، المؤلفان.

لا بدّ من أنه بدا محيراً في بادئ الأمر كيف دعم سانديلاندز الإصلاح البروتستانتي ضدّ حاكم كاثوليكي مخلص ولماذا بينما لا يزال عضواً ذا مقام جيد في نظام عسكري كاثوليكي، مع ذلك دبّر التأقلم مع كلا الولاءين المتعارضين، ودوافعه الخفية كان من شأنها أن تصبح سريعاً شائنة وبوضوح، في عام 1960م جرى إلغاء سلطة البابا في البلاد بقانون من البرلمان الاسكتلندي، وأُبطلت حقوق نظام القدّيس يوحنا على تورفيشن وعلى فرسان المشفى خَدَم سليمان (مليشيا هيكل سليمان)، لذلك كان سانديلاندز وهو رئيس دير للرهبان في نظام القدّيس يوحنا مُلزماً تسليم الممتلكات التي أدارها لدى النظام إلى التاج، هو لم يُعارض بدلاً من ذلك، في عام 1564م قدّم نفسه إلى الملكة الجديدة ماري ملكة الاسكتلنديين المالك الحالي لسيادة مركز «تورفيشن» وزعامته [كما ورد في النص الأصلي] الاجتماعي الذي لم يكن قطّ خاضعاً لأيّ جماعة من الرهبان أو الكنيسة من أي نوع، عدا فرسان القدس وهيكل سليمان فقط.

في دفعة واحدة تبلغ 10 آلاف كراون[1]، مضى سانديلاندز في التفاوض ليحصل لنفسه على استئجار دائم لعقار ضمن الممتلكات التي كان يديرها لفرسان المشفى سابقاً إضافة إلى الإيجار السنوي، جزءاً من الصفقة حصل أيضاً على اللقب الوراثي «بارون تورفيشن».

بالروح التجارية التي قد يحسده عليها أيّ شاب محترف في العصر الراهن خدع سانديلاندز بذلك فرسان المشفى عملياً، على نحو غير شرعي تخلص من أراضيهم لما فيه مصلحته الخاصة، وربح على نحو رائع جداً من تلك الصفقة، من المؤكد تقريباً أن القصيدة التي جرى اقتباسها أعلاه تشير إلى هذه القضية أو إلى سمة ما منها، لأن الممتلكات التي حلّ سانديلاندز مشكلاتها لم تكن من أملاك فرسان المشفى فقط، بل كانت جزءاً من ميراث فرسان الهيكل أيضاً.

في عام 1567م حضر سانديلاندز تتويج جيمس السادس الذي أصبح بعد ذلك جيمس الأول ملك انجلترا، توفي عام 1579م، كان وريثه حفيد أخيه الذي ولد عام 1574م، وكان اسمه جيمس سانديلاندز أيضاً الذي أصبح البارون الثاني لـ «تورفيشن»، لكن الشابّ وجد نفسه بسرعة تحت ضغوط مالية، ومضى في تصفية الأراضي التي ورثها، في عام 1604م انتقلت تلك الأراضي إلى يدي شخص، يدعى روبرت وليامسون الذي باعهم بعد إحدى عشرة سنة لتوماس لورد بيننغ (Binning) الذي صار بعد ذلك إيرل هادينغتون

1ـ الكراون قطعة نقدية فضية بريطانية، تساوي خمسة شلنات، المترجم.

(Haddington)، بعد ذلك انتقلت خلال عدد من الأيدي حتى بداية القرن التاسع عشر، حيث وصلت تلك الأراضي المتبقية إلى يدي جيمس ميدمنت الذي اشتراها.

إن كان سهلاً تتبع سيرة السّير جيمس سانديلاندز وتوثيقها، فإن سيرة ديفيد سيتون هي أكثر مراوغة وتملصاً إجمالاً، ليس هناك مساءلة كبيرة عن هويته الدقيقة فقط، بل هناك بعض الأسئلة، سواء أكان موجوداً حقاً أم لا[1]، الدليل الوحيد على وجوده هو جزء القصيدة المقتَبس سابقاً، والذي حثّ جورج سيتون على عدّه هامشاً مُحيّراً في علم أنساب العائلة عام 1896م، ومع ذلك اهتم العلماء بالقصيدة على نحو جدي كفاية لقبولها شهادة على الشّيء الذي تآمر على إخفائه كل من التاريخ والقوى البشرية كما سيظهر.

كما رأينا كانت عائلة سيتون من بين العائلات الأبرز والأكثر تأثيراً في التاريخ الاسكتلندي، وقد استمرت كذلك ثلاثة قرون أخرى. ما هو غير واضح هو المكان الدقيق الذي يتلاءم فيه ديفيد سيتون الغامض مع شجرة هذه العائلة، اختصاصي بعلم الأنساب يقترح في عام 1896م على نحو معقول وكاف أنّه كان حفيد جورج اللّورد السادس لعائلة سيتون والذي حصل على اللقب عام 1513م وتوفي عام 1549م.

كان سانديلاندز معادياً لماري دي غايز ولزواجها من جيمس الخامس كما لاحظنا، عارض التحالف السلالي الذي يربط آل ستيوارت بعائلة لورين الأوروبية وبفرعها الأصغر عائلة غايز، جورج سيتون كان في المعسكر المقابل، في عام 1527م تزوّج أليزابيث هاي ورُزق بطفلين منها، أكبرهما هو الذي ورث اللقب وأصبح اللّورد السابع لسيتون، وكان صديقاً مقرّباً من ماري ملكة الاسكتلنديين، لكن في عام 1539م تزوّج جورج سيتون مرة ثانية، عروسه الجديدة كانت ماري دو بليسيس، وهي أحد أعضاء الحاشية وقد جاءت إلى اسكتلندا مع ماري دي غايز، ولذلك فإن زواج سيتون منها جعله يرتبط على نحو حميم بالبلاط الملكي، أنجب من ماري دو بليسيس سيتون ثلاثة أطفال هم روبرت وجيمس وماري، ماري سيتون أصبحت وصيفة الشرف لماري ملكة الاسكتلنديين، وقد

1ـ كون وماكاي وماكوري الذين وثّقوا كلّ عضو اسكتلندي معروف في نظام القدّيس يوحنا لا يذكرون ديفيد سيتون، وليس هناك أيضاً أيّ سجل لوجوده في سجلات موناستري من راتسبِن (يرى دلورث، الاسكتلنديون في فرانكونيا)، السجلات المالطية التي نشرها جي. ميزي تخفق في ذكر اسمه أيضاً.
على أي حال يبدو أن الإجماع يقول إن فائدة القصيدة هي إثارة الشك، لا أحد يقترح أنّ القصيدة مزيفة أو خيالية، والدكتور ماكوري في مراسلته إيّانا في 14 فبراير/شباط عام 1988م قال إنّه في وقت ما فُتن بالقصيدة وبذكرها لديفيد سيتون، ختم قوله بمقترح أنّه قد يكون هناك بعض الحقيقة في القصّة، لكنّه لم يكن قادراً على معرفة ما هو أبعد من ذلك، كما رحّب بالمعلومات الإضافية، المؤلفان.

ورد اسمها في الأغاني الشعبية والأساطير واحدة من «الثلاث اللواتي يحملن اسم ماري» واللواتي رافقن الملكة إلى فرنسا لتتزوج من الدوفين[1] الذي أصبح لاحقاً فرانسوا الثّاني في عام 1558م، على أي حال يُعرف القليل عن روبرت وجيمس سيتون، ناهيك بأن الأخير توفي نحو عام 1562م والأول عاش بعد ذلك عاماً، كلاهما كُتب له أن يُنجب الأطفال، والاختصاصيون بعلم الأنساب استنتجوا أنّ ديفيد سيتون لا بدّ من أنه كان ابن أحدهم، بذلك سيكون حفيد اللّورد السادس لسيتون وابن أخ اللورد السابع.

إن كان ديفيد سيتون محيّراً وغامضاً جداً، فمن أين حصل مؤرخ العائلة الذي كتب عام 1896م على المعلومات الضئيلة جداً التي دوّنها؟، في بادئ الأمر عرفنا مصدراً مطبوعاً قديماً واحداً فقط، من مؤرخ القرن التاسع عشر ويتورث بورتر الذي تمكن من الوصول إلى سجلات فرسان المشفى في فاليتا، ما يمنحه بورتر في كتابته عام 1858م هو «أن ديفيد سيتون كان آخر رئيس لدير الرهبان في اسكتلندا كما يُقال، وإنه تقاعد مع الجزء الأعظم من إخوته الاسكتلنديين تقريباً في فترة ما بين عامي 1572م-1573م»، يضيف أنّ سيتون مات عام 1591م، أي بعد عشر سنوات من التاريخ الذي قدمه اختصاصي علم الأنساب في عام 1896م، وإنه دُفن في كنيسة البنيديكتيّين الاسكتلنديين في راتسبون، يستشهد بورتر أيضاً بقصيدة الكنيسة الاسكتلندية المقدسة ولصوصها مع تغيير في السطر قبل الأخير، هذا السطر في نسخة عام 1896م يقول:

«Bot the Tempel felt na loss»، أي (لكن المعبد خسر)، بينما بورتر يقتبسه كالتالي:

«But the Order felt na losse»، أي (لكن النظام خسر).

من الواضح في ذلك أنه حتى أواخر القرن التاسع عشر القضية كانت لا تزال حسّاسة، كلمة «المعبد» صريحة جداً، بينما كلمة «النظام» يمكن أن تدلّ بسهولة على فرسان المشفى على أي حال، كما تدل على فرسان الهيكل، وفي السياق يبدو أن ذلك ما حصل، هل عبث اختصاصي علم الأنساب عام 1896م بالنصّ على نحو متعمّد؟، إذا كان الأمر كذلك، فلماذا؟ إن حصل أيّ عبث فيبدو على الأرجح أنه حصل في النسخة السابقة، لا شيء يمكن كسبه من تغيير كلمة «النظام» إلى «معبد»، لكن تغيير كلمة «معبد» إلى «نظام» كان من شأنه أن يُبرّئ فرسان القدّيس يوحنا من الشكّ في أنهم يوفرون المأوى لفرسان الهيكل بينهم.

1ـ الدوفين الابن البكر لملك فرنسي، المترجم.

القضية كانت ستبقى غير مؤكدة لو أن نسخة أقدم من القصيدة لم تُكشف، وتُطبع عام 1843م أي خمس عشرة سنة قبل اقتباس ويتورث بورتر منها، لا تعتمد على السجلات في فاليتا، بل على مصادر اسكتلندية، سيكون هناك مناسبة للتحدث عن هذه المصادر لاحقاً، يكفي الآن ملاحظة أنّ نصّ القصيدة هذا والذي يعود إلى عام 1843م أقدم ما هو معروف عنها، يورد تماماً السطر الذي اقتبسه اختصاصي علم أنساب عائلة سيتون في عام 1896م: « لكن المعبد خسر»[1].

1ـ جرت عمليات بحث في سجلات المكتبة الوطنية في اسكتلندا، مكتبة جامعة أبردين، مكتبة جامعة سانت أندروز، مكتبة جامعة أدنبرة، وقسم مخطوطات المكتبة البريطانية، كلها لم تحتو حتى الآن على نسخة من هذه القصيدة، المؤلفان.

القسم السابع

الحرس الاسكتلندي

أياً كان ديفيد سيتون، وأياً كان ما حصل لـ «فرسان الهيكل» الذين يُزعم أنهم هربوا معه، كان هناك في ذلك الوقت مستودع آخر للنبلاء الاسكتلنديين، يظن أنه كان تراثاً لفرسان الهيكل، هذا المستودع قد يتخطى أيضاً الغموض والحيرة التي يتميز بها سيتون، لكن سواء كان كذلك أم لا فهو على الأقل لا يزال يحتفظ ببعض تقاليد فرسان الهيكل، ولو على نحو غير مباشر، ويوصلهم إلى تلك التطوّرات اللاحقة كالماسونية، ومع أنه اسكتلندي تماماً إلا أن هذا المستودع كان مقرّه في فرنسا، لقد كان كذلك لتمهيد طريق المأوى الذي وجده آخر آل ستيوارت في فرنسا، ولنوع الماسونية الجيمسية التي التحمت بهم، وعلى نحو محدّد الماسونية ذات توجّه فرسان الهيكل.

في السنوات التي تلت معركة بانوكبورن مباشرة عام 1314م توحدت صفوف اسكتلندا وفرنسا في معاداتهما لانجلترا، وتطوّرت بينهما الارتباطات العسكرية على نحو أكبر كثيراً، في عام 1326م وقّع بروس وتشارلز الرّابع ملك فرنسا معاهدة رئيسة، تجدّد «التحالف القديم»، هذا التحالف عززته حرب مئة العام، في هذه اللحظات المحبطة من حظه العاثر خطط الدوفين الذي أصبح لاحقاً تشارلز السّابع للهروب إلى اسكتلندا، وعلى نحو مؤكد كان سيفعل ذلك لو لم تظهر جين دارك لتغير مجرى الأحداث، الجُند الاسكتلنديون أدّوا دوراً رئيساً في كلّ حملات جين، بما فيها النهوض المشهور في حصار أورليان[1]، وفي الحقيقة أسقف أورليان نفسه في ذلك الوقت كان اسكتلندياً، واسمه جون كِرك ميشيل، في الحقيقة «الراية العظيمة» التي كانت تحملها جين، الراية البيضاء المشهورة التي كان يحتشد حولها جيشها، كانت من رسم أحد الاسكتلنديين، ومن بين قادتها في أورليان كان السّير جون ستيوارت وأخوان من آل دوغلاس.

إثر سلسلة الانتصارات المثيرة التي حققتها جين أصبحت فرنسا مع انتصارها مستنزفة، وفي حالة من الفوضى الداخلية، النظام المحلي أصبح مهدداً على نحو أكبر من فرق المرتزقة المسرّحين والجنود المدربين الذين ليس لديهم حرب ليخوضوها، الكثير من

1ـ Orleans، مدينة شمال وسط فرنسا، المترجم.

هؤلاء المحاربين الذين كانوا يفتقرون إلى أيّ مصدر آخر من الرزق تحولوا إلى قطّاع طرق، وقاموا بنهب الأرياف مهددين بعرقلة النظام الاجتماعي المؤسّس حديثاً الذي ما زال غير راسخ، في النتيجة مضى الدوفين السابق الذي أصبح الآن تشارلز السّابع في تأسيس جيش نظامي، في هذا الوقت كان فرسان المشفى قد حولوا مواردهم إلى العمليات التجارية البحرية في المتوسط، وأصبح جيش تشارلز بذلك الجيش النظامي الأول في أوروبا منذ زمن فرسان الهيكل، وأول جيش منذ إمبراطورية روما يرتبط بحالة معيّنة، أو بدقّة أكثر يرتبط بعرش معيّن.

الجيش الفرنسي الجديد الذي أسسه تشارلز السّابع عام 1445م تضمّن خمس عشرة «سرية نظامية»، كل منها يتكون من 600 رجل، أي ما مجموعه 9000 جندي، بين هؤلاء هناك السرية الاسكتلندية التي كان اسمها «سرية الدرك النظامية» (Compagnie des Gendarmes Ecossois)، والتي كانت تتميز بأكثر المناصب أهمية، السرية الاسكتلندية كانت مشهورة بأنها نخبة الجيش بلا منازع، احتلت على نحو واضح تصنيفاً ممتازاً من كلّ الوحدات والتشكيلات العسكرية الأخرى، وكانت تسير أولاً في كلّ الاستعراضات، قائد السرية الاسكتلندية مُنح رتبة «السيد الأول لمعسكر سلاح الفرسان الفرنسي» أيضاً، هذا اللقب المضني لم يكن لقباً فخرياً فقط، بل منحه سلطة وتأثيراً هائلين في ميدان المعركة وفي البلاط وفي السياسات الداخلية.

لكن حتى قبل تأسيس الجيش النظامي والسرية الاسكتلندية كان قد أُسس تنظيم عسكري أكثر خصوصية وأكثر استثناءً مؤلف من نخبة من الاسكتلنديين، في

معركة فيرنيول الدامية عام 1424م أبلت الفرق الاسكتلندية بلاءً حسناً بتقديم شجاعة وتضحية مميزتين، في الحقيقة لقد أُبيدوا عملياً مع قائدهم جون ستيوارت إيرل بوتشان، والنبلاء الآخرون كانوا مثل ألكساندر ليندساي والسّير وليام سيتون وموري إيرل دوغلاس والإيرل مور الذي كان إيرل دوغلاس أيضاً، بعد عام وفي اعتراف لهذا العمل جرت ترقية وحدة خاصّة من الاسكتلنديين للعمل حرساً شخصياً نظامياً للملك الفرنسي، في بادئ الأمر كانت تشمل ثلاثة عشر محارباً وعشرين نبّالاً، أي ما مجموعه ثلاثة وثلاثون، جزء من هذا التنظيم كان ملازماً للملك حتى النوم في غرفة نومه.

الوحدة الخاصّة قسّمت إلى مجموعتين ثانويتين:

«Garde du Roi» و«Garde du Corps du Roi»، «حرس الملك» و«الحرس الشخصي للملك»، على نحو جماعي كانوا ببساطة يُعرفون بالحرس الاسكتلندي، في عام 1445م عندما جرت زيادة الجيش النظامي جرت زيادة عدد الرجال في الحرس الاسكتلندي على نحو متعادل كفاية ليبلغ أضعاف الثلاثة عشر، في عام 1474م جرى تثبيت العدد على نحو حاسم، سبعة وسبعون إضافة إلى قائدهم شكلوا حرساً للملك، وخمسة وعشرون إضافة إلى قائدهم شكلوا الحرس الشخصي للملك[1]، بتناسق مدهش كان ضبّاط الحرس الاسكتلندي وقادته أيضاً أعضاء في نظام القدّيس مايكل أيضاً، والذي جرى بعد ذلك تأسيس فرع منه في اسكتلندا.

في الواقع الحرس الاسكتلندي كان مؤسسة جديدة من فرسان الهيكل، وكان كذلك على نحو أكبر من غيره من الأنظمة الفروسية الأخرى مثل نظام غارتر ونظام النجم ونظام الصوف الذهبي، مثل فرسان الهيكل كان لدى نظام الحرس سبب في وجوده الذي كان سبباً دبلوماسياً وسياسياً وعسكرياً على نحو أساسي، مثل فرسان الهيكل قدّم نظام الحرس التدريب العسكري والتسلسل العسكري، إضافة إلى فرصة المشاركة في المعارك لكسب المكافآت والخبرة، مثل فرسان الهيكل عمل نظام الحرس وحدة عسكرية متميّزة، كالكتيبة الخاصة في عصرنا الراهن، ومع أنهم لم يمتلكوا أي أراضٍ، ولم ينافسوا فرسان الهيكل في العدد، كان عدد الحرس الاسكتلندي كافياً لأداء دور حاسم في المعركة التي كانت تسود في أوروبا في ذلك الوقت، اختلفوا على نحو أولي عن فرسان الهيكل بغياب أيّ توجيه ديني واضح، وبأن ولاءهم ليس للبابا، بل للتاج الفرنسي، لكن ولاء فرسان الهيكل الديني الخاص كان دائماً للبدع وطاعتهم للبابا لم تكن إلا اسمية، وولاء الحرس الاسكتلندي للتاج الفرنسي كان أقل حرارة مما كان يبدو عليه أيضاً كما سنرى، مثل فرسان الهيكل كان نظام الحرس يتّبعون سياستهم الخاصة وخططهم الخاصة من أجل مصالح مختلفة جداً.

في الجزء الأكبر من الفترة الزمنية التي بلغت قرناً ونصفاً تميز الحرس الاسكتلندي بمكانة فريدة في الشؤون الفرنسية، لم يعملوا في حقل المعارك فقط، بل في المجال السياسي أيضاً، عملوا في الحاشية الملكية ومستشارين في الشؤون الداخلية ومبعوثين وسفراء في العلاقات الدولية، شغل قادة الحرس عادة وظائف مضاعفة، فقد عملوا

1ـ تصنيف الثلاثة عشر كان هاماً في الكثير من المنظمات الفروسية والدينية، ربما فرسان غارتر هم الأكثر شهرة من الأنظمة السابقة، في الحرس الاسكتلندي الرجال الخمسة والعشرون مع القائد يعطون مجموعتين من ثلاثة عشر، السبعة والسبعون جندياً من الحرس مع قائدهم يشكّلون ست مجموعات، كل منها من ثلاثة عشر، كان هناك قائد عامّ للحرس يجعل مجموع الفرقة 105، هذا الترتيب يستمر حتى الرقم 1568، حيث تبدأ بعض الاختلافات الصغيرة بالظهور ثانية، المؤلفان.

مسؤولين عن غرفة نوم الملك، وفي أغلب الأحيان شغلوا عدة مناصب أخرى فخرية وعملية أيضاً، لا عجب من أنهم كانوا يتقاضون أعلى الرواتب في زمانهم، في عام 1461م كان قائد في الحرس يستلم نحو 167 «livres tournois»[1] بالشهر، أي أكثر من 2000 بالسنة[2]، هذا كان يعادل تقريباً نصف دخل أحد النبلاء، لذلك يمكن ضبّاط الحرس أن يعيشوا حياة، تنعم باليسر والشهرة البالغة.

وكما كان يجري تجنيد فرسان الهيكل من الأرستقراطيين في ذلك الزمان، كذلك الحرس الاسكتلندي كان ضبّاطهم وقادتهم من أكثر العوائل شهرة وجلالاً في اسكتلندا والذين برزت أسماؤهم طوال تاريخ البلاد، وما زالت رنّانة حتى اليوم، آل كوكبورن، كانينغهام، هاملتن، هاي، مونتغومري، سيتون، سينكلير، وستيوارد، أو ستيوارت، بين عامي 1531م و1542م كان هناك ثلاثة من آل ستيوارت في الحرس، أحدهم كان قائد الوحدة، بين عامي 1551م و1553م كان هناك ما لا يقل عن خمسة من أعضاء عائلة «مونت غومري» (حرفياً) في الحرس، أحدهم كان قائداً وأربعة كانوا من عائلة سينكلير في عام 1587م، أي في عهد ديفيد سيتون الغامض، كان هناك أربعة آخرون من آل سيتون وثلاثة من هاملتن واثنان من دوغلاس وسينكلير، من الواضح أنّ الحرس الاسكتلندي أدّى وظيفة خاصّة، ليس للعرش الفرنسي فقط، بل للعوائل التي قدّمت جنودها أيضاً، في الواقع شكّل التنظيم ممراً لأداء الشعائر وساحة لتدريب النبلاء الاسكتلنديين الشباب، مركبة خاصّة حيث يطّلعون فيها على المهارات العسكرية والسياسة وشؤون البلاط والأساليب والأعراف الأجنبية، ويطلعون على نوع ما من المناسك الشعائرية أيضاً كما يبدو، في مقابلة شخصية تحدث إلينا أحد أفراد عائلة مونتغومري المعاصرين مفتخراً بأنه وأقرباءه ما زالوا ينتسبون إلى أسلافهم من الحرس الاسكتلندي، أعلمنا أنه كان في العائلة نوع من تنظيم خاصّ أيضاً ، تنظيم نصف فروسي ونصف ماسوني ومؤهّل لدخول كل الذكور من سلالة آل مونتغومري، كما قال إن هذا النظام الذي يعود تاريخه كما يبدو إلى فترة الحرس الاسكتلندي كان يُدعى نظام المعبد.

نظرياً كان الحرس الاسكتلندي يدينون بولائهم للعرش الفرنسي كما رأينا، أو على نحو أكثر تحديداً، إلى سلالة «فالوا» (Valois) التي كانت في ذلك الوقت تحتل العرش الفرنسي، لكن شرعية «فالوا» واجهت آنذاك تحدياً شديداً من عدد من المصالح القويّة

1ـ ليفر، عملة فرنسية قديمة تعادل جنيهاً من الفضة، المترجم.
2ـ التكلفة السنوية للتاج الفرنسي لكل نظام الحرس كانت 25. 691 ليفراً، وهي تكلفة باهظة، المؤلفان.

الأخرى أيضاً، أهمها كان آل لورين وفرعه الشاب آل غايز، في الحقيقة يدور معظم التاريخ الفرنسي في أثناء القرن السادس عشر عن عداء دموي بين هذه السلالات المتنافسة، عائلتا غايز ولورين صمّمتا على خلع «فالوا» من الحُكم بلا رحمة بالوسائل السياسية إن أمكن، وبالقتل إن كان ضرورياً وعلى توليهما العرش، في عام 1610م كان ما لا يقل عن خمسة ملوك فرنسيين قد لقوا حتفهم إمّا بوسائل عنيفة وإما بالتسمّم المشبوه، وعائلتا غايز ولورين ذاتهما كانتا تستنزفان بعمليات الاغتيال.

الحرس الاسكتلندي أدى دوراً غامضاً في هذا النزاع المميت، في الحقيقة كانوا يتخذون موقفاً مريباً، ولاؤهم الاسمي كان لعائلة «فالوا»، من ناحية لأنهم كانوا يشكّلون الحرس الشخصي ونواة الجيش، من الناحية الأخرى ربما من المستحيل أنه لم يكن لهم بعض الروابط بعائلتي غايز ولورين، في عام 1538م تزوّجت ماري دي غايز من جيمس الخامس ملك اسكتلندا ما شكل رابطة سلالية حاسمة بين عائلتيهما كما لاحظنا، عندها اعتلت ابنة ماري التي كان اسمها ماري ملكة اسكتلندا أيضاً العرش، بذلك كان العرش الاسكتلندي نصف ستيوارت ونصف غايز-لورين، وهذا كان شيئاً من غير الممكن أن لا يبالي به أرستقراطيو الحرس الاسكتلندي، في عام 1547م زاد هنري الثّاني ملك فرنسا الذي كان من عائلة فالوا منزلتهم وامتيازاتهم، مع هذا كانوا نشيطين في أغلب الأحيان على أي حال، وليس دائماً سرّاً لمصلحة منافسي هنري من غايز-لورين، في عام 1548م على سبيل المثال كان عمر ماري ستيوارت الشابة ستّ سنوات آنذاك، أُحضرت إلى فرنسا بمرافقة الحرس الاسكتلندي، بعد عشر سنوات تزعّمت كتيبة من الحرس جيش فرانسوا الذي كان دوق غايز عندما قام بعمل جعله بطلاً وطنياً، وهو أنه استعاد ميناء كاليه المتنازع عليه مدة طويلة من أيدي الانجليز.

بين العوائل الاسكتلندية التي ساهمت في الحرس كانت عائلة مونت غومري كما رأينا، في عام 1549م كان هناك خمسة معاً من آل مونت غومري يخدمون في الوحدة، بين عامي 1543م و1561م، أي عشرين سنة تقريباً كانت قيادة الحرس أولاً بيد جيمس دي مونتغومري، ثمّ غابريل، ثمّ جيمس ثانية، في يونيو/حزيران عام 1559م حصل أحد الأحداث الأكثر شهرة وإثارة في القرن السادس عشر، حيث سجّل غابريل دي مونتغومري وللحرس مكاناً دائماً له ولعائلته في صفحات التاريخ، وبمعرفة سابقة أم لا، وجّه ضربة رئيسة لعائلتي غايز ولورين.

جزءاً من الاحتفالات المرافقة لزواج اثنتين من بناته قرر هنري الثّاني ملك فرنسا إجراء بطولة احتفالية للمبارزة بالسيوف، وحضرها النبلاء من جميع أنحاء أوروبا، الملك

ذاته كان مشهوراً بحبّه الشخصي للمبارزة، وكان متلهّفاً لمشاركة شخصية في الحدث، عامة الناس والوجهاء المتجمهرين راقبوه يدخل الميدان، بارز أولاً دوق سافوي (Savoie)، ثمّ فرانسوا دوق غايز، المعركة الثالثة لا بدّ من أنها بدت للمشاهدين آمنة على نحو خاص، لقد أغرت الملك ليتنافس مع صديقه القديم وخادمه المخلص زعماً أنه غابريل دي مونتغومري قائد الحرس الاسكتلندي، ولأنه لم يسقط أحد منهما عن فرسه في الاشتباك الأول للرماح، عدّ هنري أن ذلك لم يكن كافياً، مع احتجاجات حاشيته طلب هنري جولة ثانية، ومونتغومري قَبِل، هاجم الرجلان بعضهما ثانية، وفي هذا الوقت تحطمت الرماح كما هو مفترض، لكن مونتغومري أهمل رمي الرمح المكسور الذي ضرب خوذة الملك، وحطم مقدمتها، فدخلت قطعة خشبية من الرمح في رأسه فوق عينه اليمنى.

طبعاً أصاب الذعر الجميع، جرى ضرب أعناق نحو ستة من المجرمين مباشرة، وأصيبوا بجروح مماثلة عجّل الأطباء في فحصها في محاولة لإيجاد أفضل طريقة للمعالجة، هذه الجهود أثبتت أنها عقيمة، وهنري توفي بعد أحد عشر يوماً من المعاناة، الكثير من الناس كانوا مرتابين، لكن عمل مونتغومري لم يُعدّ سوى حادث، ولم يُلق عليه اللوم رسمياً بقتل الملك، على أي حال دفعته البراعة للتقاعد من رئاسته للحرس الاسكتلندي، وعاد إلى عقاراته في النورماندي، لاحقاً تحوّل إلى البروتستانتية في انجلترا، عندما عاد إلى فرنسا كان أحد الزعماء العسكريين للطائفة البروتستانتية في أثناء حروب الدين، أُخذ سجيناً، وأُعدم في باريس عام 1574م.

موت هنري الثّاني جذب الانتباه والتعليق أكثر مما يستحق، وعلى نحو أساسي لأنه جرى التنبؤ به، جرى توقّعه مرّتين، وفي الحقيقة جرى التوقع قبل سبع سنوات من لوكا غوريكو المنجّم الرفيع المستوى[1]، وقبل أربع سنوات من ذلك من ناستراداموس الذي نشر في عام 1555م أوّل مجموعته النبوئية المشهورة وعنوانها «القرون» والتي احتوت على الرباعية[2] الغامضة، ولكن الإيحائية:

Le lyon ieune le vieux surmontera;

En champ bellique par singulier duelle;

Darn cayge d'or les yeux luy crevera,

Deux classes une puis mourir mort cruelle .

1ــ في 5 فبراير/شباط عام 1556م وصلت برقية من روما، تحتوي على طالع الملك، أعدها لوكا غوريكو، والتي ظهرت سابقاً في كتابه الذي نشره عام 1552م، لكنها لم تُؤخذ بجدية حتى حصول الحادث، المؤلفان.

2ــ ناستراداموس كانت كتاباته على شكل قصائد نبوئية، وكل قصيدة كانت من أربعة أبيات، ما جعل اسمها «الرباعيات»، يُعد أشهر المتنبئين الغربيين من القرون الوسطى، المترجم.

الأسد الصغير سيتغلّب على الأكبر منه سناً،

في ساحة القتال في قتال فردي،

ستُثقب عيناه في القفص الذهبي (الخوذة)،

جرحان في مكان واحد، وبعدها يموت ميتة قاسية[165].

هذه السطور كانت تخطر في الكثير من عقول الناس، وخيّمت على كامل البطولة، بدا موت هنري في الميدان برهاناً يثبت قدرة ناسترادامس على «التنبؤ بالمستقبل»، وجعله كالمتنبئ الأبرز في أوروبا، ليس فقط في زمانه، بل في نظر الأجيال القادمة أيضاً، مع ذلك، نحن أنفسنا شككنا إضافة إلى عدد من المعلّقين الآخرين مؤخراً بأنّ موت الملك الفرنسي على يدي غابريل دي مونتغومري لم يكن حادثاً إطلاقاً، بل جزء من خطة مدبّرة متقنة، على ضوء هذا الدليل المتوافر حالياً لا تبدو «نبوءة» ناسترادامس «نبوءة» أبداً، بل نوع من الخطة التي يجب تنفيذها، ربما أمر أو إشارة مشفّرة إلى من أو ممّن؟ إلى فرع أو من فرع غايز-لورين الذي يبدو الآن أن ناسترادامس كان يعمل لمصلحته كونه وكيلاً سرياً، وإذا كان الأمر كذلك فربما كان غابريل دي مونتغومري شريكه، أو على أي حال الأداة التي اختارها فرع غايز-لورين لتنفيذ ما عزموا عليه الذي لا يمكن أحداً أن يعده جرماً.

على نحو مؤكد لم يكن موت هنري ملائماً على نحو أكثر لمصالح غايز-لورين، على أي حال ومع الجهود المتواصلة والمتنامية لتحويل ذلك إلى حدث هام إلا أنهم أخفقوا عملياً في الاستفادة منه كما هو مطلوب، خلال العقد التالي سادت فرنسا فوضى شبه تامّة، لأن الفئات المتحاربة، فالوا وغايز-لورين كانت تتآمر وتناور للحصول على العرش، في عام 1563م جرى اغتيال فرانسوا دوق غايز، أصبح الحرس الاسكتلندي على نحو متزايد علنياً في دعمه لمصالح ستيوارت التي تطابقت مع مصالح غايز-لورين، ومن ثم تحمّلوا سوء الظنّ المتنامي من حكم فالوا الملكي إلى أن قام ابن هنري الثّاني (هنري الثّالث) يمنعهم من التدخل في الشؤون السياسية، مع أنّهم أعادوا تشكيل أنفسهم في النهاية إلا أنهم لم يكونوا قادرين إطلاقاً على إنجاز أيّ شيء يجعلهم يقتربون من منزلتهم السابقة.

في اسكتلندا وفي فرنسا كلّ المصائب جاءت مجتمعة، في عام 1587م جرى إعدام ماري ملكة الاسكتلنديين من قريبتها أليزابيث الأولى، في عام 1588م سنة الأسطول

165ـ في عام 1555م نشر ناسترادامس أول ثلاثة مؤلفات من «القرون»، وجزءاً من الرابع، الرباعية المقتبسة التي تشير إلى موت هنري ومرضه هي 1: 35. المؤلفان.

الإسباني أمر هنري الثّالث باغتيال ابن فرانسوا دي غايز دوق غايز الجديد مع أخيه كاردينال غايز، وقد جرى ذلك في «بلوا»[166]، بعد سنة جرى اغتيال هنري من أتباع غايز-لورين الحاقدين، فقط في حكم هنري الرّابع الذي كان ملكاً مقبولاً من كلّ الفئات جرت إعادة مظهر النظام إلى فرنسا.

على أي حال في ذلك الوقت فقدت عائلتا غايز ولورين جيلين من أجيالهما الشابة الحيوية والمؤثرة، ولكن العديمة الرحمة، سلالة فالوا تلقت ما هو أسوأ من ذلك، لقد أُخمدت كاملة، ولم يكن لها قط أن تحتلّ العرش الفرنسي ثانية، فرنسا كان يحكمها أسرة البوربونيين قرنين بعد ذلك.

أما الحرس الاسكتلندي فقد خُفّض عددهم كثيراً حتى عندما أعاد تكوين نفسه، وفي عام 1610م فقدوا عملياً كلّ امتيازاتهم، وأصبحوا ببساطة فوجاً آخر في الجيش الفرنسي، في أثناء القرن السابع عشر- كان ثلثا أفرادهم فرنسيين، وليسوا اسكتلنديين، مع هذا كان أثر سمعتهم السابقة لا يزال متعلّقاً بهم، في عام 1612م كان يقودهم دوق يورك الذي أصبح بعد ذلك تشارلز الأول ملك انجلترا، ما هو مثير للانتباه أن مخطوطات الحرس عام 1624م تُظهر ثلاثة من عائلة سيتون، أحدهم يُدعى ديفيد، في عام 1679م كان قد أصبح برتبة قائد لواء، الحرس أنفسهم كانت آخر خدماتهم عام 1747م في أثناء حرب الوراثة النمساوية في معركة لوفِلد (Lauffeld).

الحرس الاسكتلندي مع أنه أُنقص على نحو محزن نتيجة الأحداث فقد كان يشكّل ما يشبه نظاماً جيداً لفرسان الهيكل كما رأينا، عمل أيضاً حماة لأسرار حاسمة، النبلاء الموجودون في نظام الحرس الاسكتلندي كانوا ورثة لتقاليد فرسان الهيكل الأصلية، كانوا الوسائل التي أُعيدت فيها هذه التقاليد إلى فرنسا، وزُرعت هناك لتُثمر بعد نحو قرنين، في الوقت نفسه جعلهم ارتباطهم بعائلتي غايز ولورين في فرنسا يطّلعون على مجموعة أخرى من التقاليد «الباطنية»، بعضهم من هذه المجموعة وجد طريقه إلى اسكتلندا بزواج ماري دي غايز من جيمس الخامس، لكن بعضاً منهم عاد أيضاً من العوائل التي شكّلت الحرس الاسكتلندي، المزيج الناتج كان من شأنه أن يزوّد بالنواة الحقيقية للنظام اللاحق، وهم الماسونيون[167].

166ـ مدينة وسط فرنسا، المترجم.
167ـ أو البناؤون الأحرار، المترجم.

القسم الثامن

روزلين

نحو ثلاثة أميال جنوب أدنبرة هناك قرية روزلين، تشمل شارعاً وحيداً، فيه رتل من المتاجر والمنازل، وفي النهاية هناك حانتان، تبدأ القرية عند حافة واد ضيق مشجّر شديد الانحدار، هو وادي نهر ايسك الشمالي (The North Esk)، على بعد سبعة أميال قرب ملتقى نهر ايسك الشمالي مع الجنوبي هناك المقر السابق لفرسان الهيكل الذي يحمل اسم «بالانترو دوتش»، والآن يُسمّى «المعبد» ببساطة.

وادي نهر ايسك الشمالي غامض، مكان مخيف كما يبدو، وفي صخرة كبيرة مغطاة بالأشنة نُقش رأس وثني غريب يحدّق في عابري السبيل، نزولاً مع مجرى النهر وفي كهف وراء الشلال هناك ما يبدو أنه رأس ضخم آخر ذو عينين مجوّفتين، ربما رسمته عوامل الجو، ربما منتج طبيعي من تلك العوامل، الطريق الذي يقود خلال الوادي تعترضه أبنية حجرية كثيرة مهدّمة، ويمرّ نحو نهاية جرف شاهق، فيه نافذة مكسوّة بالحجارة، وراء هذه النافذة منطقة مكتظة بالأنفاق الحقيقية، تكفي لإخفاء عدد كبير من الرجال، ويسهل الوصول إليها فقط بوساطة مدخل سري، مدخل يجب النزول إليه في أسفل بئر، طبقاً للأسطورة وجد بروس مأوى له هنا في أثناء إحدى الأزمات العديدة التي أحدقت بحملاته.

على حافة الوادي الضيق تماماً جثم على نحو مخيف صرح غريب، إنه مصلى روزلين، في الوهلة الأولى يبدو كأنه كاتدرائية مصغرة، ليس لأنّه صغير جداً، بل لأنه مزين على نحو مفرط ويزيد على الحد بالنقوش القوطية والزخرفة المعقّدة، تبدو بطريقة ما كأنها جزء مبتور من شيء أعظم، كجزء مأخوذ من شارتْر (Chartres)[1] ومغروس على قمة تلّة اسكتلندية، تعطي انطباعاً أنها جزء لم يكتمل من عمل فاخر ورائع، كأنّ البناة توقفوا فجأة بعد أن سخروا في ذلك المبنى أكثر مهاراتهم روعة وأغلى موادهم ثمناً.

وذلك ما حصل فعلاً، لقد استنفدوا كل المال، كانت النية أصلاً أن يكون مصلى روزلين شيئاً أعظم كثيراً، أن يكون «مصلى العذراء» ضمن كنيسة جامعة واسعة، أو ضمن

1ــ شارتْر مدينة تبعد 80 كلم جنوب غرب باريس، وتشتهر بكاتدرائيتها القوطية الكبيرة، المترجم.

كاتدرائية بالحجم التام وفق المقياس الفرنسي، بغياب الموارد لم يجر إكمال المشروع قطّ، من الحائط الغربي الحالي، تبرز في الأمام كتل هائلة من الحجارة بانتظار القطع الأخرى التي لم تصل قطّ.

داخل المصلى هناك انتشار محموم بالحجارة، خليط صاخب ومعقد من التماثيل المنقوشة والصور الهندسية مكدسة فوق بعضها، ويكمل بعضها بعضاً، ويتداخل أحدها في الآخر، هناك الكثير من المواضيع التي تحملها تلك الأعمال والتي تُشير إلى أنها ماسونية الأصل، أحدهم سيجد فيما يبدو كأنه قائمة من الأمور «السرية» المرعبة.

مصلى روزلين هو بؤرة للأسرار والأساطير كما يتوقع المرء في هذا المكان، أكثرها شهرة هو العمود الفريد في الجهة الشرقية من المبنى، والذي يُسمى الآن «عمود الصانع»[1]، رواية طُبعت عام 1774م تقول:

أحد التقاليد التي سادت في عائلة روزلين من الأب حتى الابن هو أن نموذجاً من هذا العمود الجميل أُرسل من روما، أو من مكان أجنبي ما، وعندما ألقى البنّاء البارع (master-mason) نظرة عليه، لم يوافق إطلاقاً على أن يصنع عموداً مثله إلى أن يذهب إلى روما أو إلى ذلك المكان الأجنبي لأخذ معاينة دقيقة للعمود الذي أُخذ منه النموذج، وفي غيابه، وأياً كانت المناسبة أنهى الصانع العمود كما هو الآن، وعندما عاد رب العمل ورأى أن العمود قد أصبح جاهزاً على نحو رائع جداً، استعلم عمّن صنعه، ولأن صدره ضاق بالحسد قتل الصانع.

فوق الباب الغربي للمصلى هناك رأس منقوش لشابّ على صدغه الأيمن جرح بليغ، قيل إنه كان رأس الصانع المقتول، وفي الجهة المقابلة هناك رأس رجل ملتح، هو السيد الذي قتله، إلى يمينه هناك رأس آخر لامرأة تدعى «الأمّ المرمّلة»، وهكذا من الواضح أنّ الشاب غير المسمّى والمبكّر في النضج، وباستعمال العبارة المألوفة لدى كلّ الماسونيين - كان «ابن الأرملة»، كما لاحظنا هي العبارة ذاتها التي كانت تُستعمل للإشارة إلى بيرسيفال أو بارسيفال في رومانسيات الكأس المقدس.

الإشارات الضمنية والرمزية الماسونية في المصلى من النادر عدّها عرضية، لأن مصلى روزلين بُني من العائلة التي أصبحت مرتبطة بالماسونية اللاحقة، وربما على نحو أكبر من أي عائلة أخرى في بريطانيا، إنها عائلة «سانت كلير»، أو كما يُعرفون الآن بعائلة «سينكلير».

1ـ the Apprentice Pillar: الصانع يُقصد به الغلام الذي يعمل عند رب العمل ليتعلم مهنة ما، المترجم.

ساهمت عائلات نبيلة مثل عائلة هاملتن، مونت غومري، سيتون، ستيوارت بأجيال متعاقبة من أبنائهم في خدمة الحرس الاسكتلندي كما رأينا، وكذلك عائلة سينكلير أيضاً، في أواخر القرن الخامس عشر خدم ثلاثة من آل سينكلير في الحرس في آن واحد، في منتصف القرن السادس عشر، فترة غابريل دي مونتغومري لم يكن هناك أقل من أربعة من آل سينكلير في الوحدة، عددهم الكامل بين عام 1473م وعام 1587م الذي ماتت فيه ماري ستيوارت تشهد مخطوطات الحرس الاسكتلندي على تسجيل عشرة من أفراد العائلة من اسكتلندا. وطبعاً كان هناك الفرع الفرنسي من العائلة أيضاً، عائلة «سانت-كلير-سور-ايبت» النورماندية التي كانت نشيطة جداً في السياسة الفرنسية آنذاك.

بينما كان بعض أفراد عائلة سينكلير يمارسون مهناً عسكرية ودبلوماسية في أوروبا، كان آخرون على السواء يعملون في الوطن، كما كانوا يعملون منذ عهد بروس في الحقيقة، في السنوات الأولى من القرن الرابع عشر كان وليام سينكلير أسقف دونكيلد، وليام سينكلير كان أحد القسيسين الخمسة الاسكتلنديين البارزين الذين التفوا حول بروس وقضيته وهم ويشارت الغلاسكوي، لامبيرتون من سانت أندروز، مارك من ايلز، ديفيد من موري.

ابن أخ الأسقف كان اسمه وليام أيضاً، وكان أحد أصدقاء بروس وخدمه الأقرب، لدى موت بروس عام 1329م حمل السّير وليام سينكلير ومعه السّير جيمس دوغلاس قلب بروس ليأخذاه إلى الأرض المقدّسة، لكنهما ماتا في إسبانيا[1].

في أواخر القرن الرابع، أي قبل مئة سنة من كولومبوس كان فرد آخر من عائلة سينكلير قد بدأ مغامرة أكثر جرأة، نحو عام 1395م حاول السّير هنري سينكلير إيرل أوركني، أو «أميرها» كما يُدعى أحياناً، مع مستكشف فينيسي يُدعى أنطونيو زينو عبور الأطلسي، على نحو ما وصل إلى غرينلَند (Greenland)[2]، حيث ادعى شقيق زينو الذي كان مستكشفاً أيضاً أنه اكتشفت ديراً في عام 1391م، الدراسات الأخيرة تقترح أنّه ربما وصل إلى ما جرت تسميته بعد ذلك «العالم الجديد»، طبقاً لبعض الروايات هناك بعض

1ـ بروس أوصى بدفن قلبه بعد موته في الأرض المقدسة كما رأينا سابقاً ، ولذلك شرع السّير وليام سينكلير ومعه السّير جيمس دوغلاس الذي علّق القلب بصندوق في عنقه ومعهما آخرون بتلك الرحلة، ولكنهم ماتوا في معركة مع العرب في إسبانيا في أثناء تلك الرحلة، عاد منهم واحد فقط لم يكن قد شارك في المعركة، لأن ذراعه كانت مكسورة، المترجم.

2ـ أكبر جزر العالم، بين المحيط الأطلسي والمحيط المتجمد الشمالي، وهي جزء مستقل حكومياً عن الدانمارك، المترجم.

الأدلة المثيرة تشير إلى أنّه كان ينوي الوصول إلى المكسيك[1]، إن كان هذا صحيحاً، فذلك يوضّح لماذا عام 1520م ميّزه الأزْتَكِيّون[2] عندما وصل كورتيز[3] بأنه يتمثل بالإله «كيتزال كُوَات» (Quetzalcoatl)[4]، ليس ذلك فحسب، بل يتمثل أيضاً برجل أبيض أزرق العينين وأشقر الشعر، يُزعم أنه سبقه إلى هناك مدة طويلة في الماضي.

حفيد «الأمير» هنري السّير وليام سينكلير كان عمله البحري نشيطاً أيضاً، زوج ابنة أخت السّير جيمس دوغلاس ونسيب السّير جيمس نفسه كان قد عُيّن الأميرال الأكبر في اسكتلندا عام 1436م، وبعد ذلك أصبح قاضي القضاة أيضاً، وبسمعته الأعظم التي كان من شأنها أن تعمّق صِلاته بالتقاليد الباطنية الماسونية وغيرها توسع في مجال الهندسة المعمارية، وبرعاية السّير وليام في عام 1446م جرى وضع دعائم الكنيسة الكبيرة في روزلين وأُسسها، في عام 1450م جرى تكريس المبنى رسمياً للقدّيس متّى وبدأ العمل الملائم، وبينما استمر العمل أصبح وليام آخر من آل سينكلير، ربما هو ابن أخ بنّاء مصلى روزلين العضو الأول من عائلته الذي ينضم إلى الحرس الاسكتلندي، وحصل على الشهرة فيها.

بناء مصلى روزلين استغرق أربعين سنة، أُكمل أخيراً عام 1480م من ابن السّير وليام المدعو أوليفير سينكلير الذي كان الصديق المقرّب من اللّورد جورج سيتون الذي أقسم بالولاء لأوليفير سينكلير مدى الحياة في ذلك الوقت، أوليفير سينكلير لم يستمرّ في بناء ما تبقّى من الكنيسة، ربما لأنه في تلك الأثناء قد حوّل كل طاقات آل سينكلير إلى مكان آخر كما يبدو ، حفيد السّير وليام يُدعى أوليفير أيضاً، ضابطاً عسكرياً ومستشاراً مقرّباً من جيمس الخامس ومديراً لعائلته الملكية، في عام 1542م قاد الجيش الاسكتلندي في «سولواي موس»[5]، حيث جرى أسره، ونتيجة لوعوده بدعم ومساعدة القضية الانكليزية

1ـ صيّاد سمك (مُخبر سينكلير) صرّح بأنّه قبل نحو ستّ وعشرين سنة تحطّم قاربه على جزيرة في «العالم الجديد»، وفي فترة السنوات العديدة التي أمضاها في الأسر أخذ إلى الجنوب حيث شاهد حضارة عظيمة: «... ازدادت حضارتهم على نحو أكبر في المنطقة الجنوبية الغربية، حيث كان المناخ أكثر اعتدالاً، وكان عندهم المدن والمعابد لأصنامهم، حيث كانوا يضحّون فيها بالرجال ويأكلونهم بعد ذلك، في تلك الأجزاء كانوا يتميزون بخبرة في الذهب والفضة»، سينكلير صمم على أن يأخذ معه هذا الصيّاد في الرحلة البحرية الأطلسية التي خطط لها، وللأسف مات صيّاد السمك مباشرة قبل مغادرته، المؤلفان.

2ـ الأزْتَكِيّ أحد أفراد شعب متمدّن حكم المكسيك قبل أن يفتحها الإسبان عام 1519م، المترجم.

3ـ هيرناندو كورتيز (1485مـ 1547م) مستكشف إسباني غزا المكسيك عام 1519م، المترجم.

4ـ إله الأزْتَكِيّين والحاكم الأسطوري للمكسيك، يُجسَّد بالثعبان عند الأزْتَكِيّين كان يجسد إله الشمس وإله الموت والحياة وأيضاً، المترجم.

5ـ معركة حصلت في شمال انجلترا، المترجم.

جرى إطلاق سراحه، ولكن لم يتمسّك بقَسَمه كما يبدو ، في عام 1545م أُمر بالعودة إلى السجن في انجلترا، وعند ذلك اختفى نهائياً من التاريخ، ومن المفترض أنه اختفى في المناطق الداخلية الاسكتلندية أو ربما في الخارج.

هنري سينكلير شقيق أوليفير كان أسقف «روس»، في عام 1541م جرى تعيينه رئيس الرهبان في دير «كِلوويننغ»، وهو اللقب الذي ظهر على نحو حاسم في الماسونية لاحقاً، في عام 1561م عُيّن في مجلس شورى الملكة ماري ملكة الاسكتلنديين، لا عجب من أنه حافظ على صلات عميقة بفرعي غايز-لورين في فرنسا، وقد أمضى معظم وقته في باريس، أخوه وأخو أوليفير الأصغر (اسمه جون) أصبحا أيضاً أساقفة، جون كان مستشاراً لماري ملكة الاسكتلنديين أيضاً، وفي عام 1565م أدّى مراسم زواجها من هنري ستيوارت اللورد دارنلي في هوليرود.

وهكذا كانت عائلة سينكلير في صميم الشؤون الاسكتلندية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، كان شأنهم كشأن عوائل أخرى، مثل عائلتي سيتون ومونت غومري، كانوا قريبين من حكم ستيوارت الملكي، وقدموا موظفين للحرس الاسكتلندي وحافظوا على صلات عميقة بفئات آل غايز ولورين في فرنسا، في الواقع صلاتهم بفئتي غايز ولورين ربما كانت أقرب كثيراً وفق الفرع الفرنسي للعائلة، في الوقت نفسه، وحتى على نحو أكثر من العوائل الاسكتلندية الأخرى كان آل سينكلير قد أصبحوا مرتبطين بالماسونية اللاحقة التي عدّت أنهم تسبها.

وُضعت دعائم مصلى روزلين عام 1446م كما لاحظنا، والعمل الفعلي جرى الشروع به بعد أربع سنوات، هذه من بين الحقائق القليلة الجازمة والمؤكّدة، المعلومات مع أنها غير قابلة للتصديق ومع ذلك غير قابلة للتفنيد على نحو مؤكد والتي تتعلق بكلّ شيء آخر تقريباً حصلنا عليها وندين بها للتقاليد اللاحقة التي جاءت بعد تلك الفترة، أي قد تكون في بعض الحالات بعد قرن ونصف، وفي حالات أخرى ثلاثة قرون أو أكثر.

طبقاً لهذه التقاليد استورد السّير وليام سينكلير الحجّارين وغيرهم من الصنّاع من أوروبا في التحضير لبناء مصلاه، بلدة روزلين نفسها ربما بُنيت لإسكان القادمين الجُدد وإيوائهم ، التقاليد تقول أيضاً:

إنه في عام 1441م جرى تعيين جيمس الثّاني ملك اسكتلندا راعياً لعائلة سانت كلير وحامياً «للبنّائين» (Masons) الاسكتلنديين، وذلك المنصب كان وراثياً، وإنه بعد موته نحو

عام 1480م عقد حفدته اجتماعاً سنوياً في كِلوينـنـغ (Kilwinning)، الترشيح لحمل المنصب المهني بقي امتيازاً حصرياً يتميز به فقط ملوك اسكتلندا، وإنّ ذلك الامتياز جرى إهماله وتجاهله من جيمس السادس عندما أصبح ملك انجلترا.

من المهم ملاحظة أن «البِناء» (Masonry) في هذا السياق لا يدلّ على «الماسونية» (Freemasonry) كما نعرفها اليوم، على العكس تشير إلى نقابة أو نقابات العمّال والبناة المحترفين العاملين بالحجارة، كما سنرى، لم يكن هؤلاء الرجال سوى صنّاع بسطاء تماماً، وعمّال يدويين أميّين غير دارسين، وكذلك لم يكونوا الفلاسفة الباطنيين الذين كانوا يجتمعون في فترات الاستراحة التي تتخلل مشاريع البناء لإجراء لقاءات واجتماعات سرية، أو يمارسون الشعائر السرية مستخدمين كلمات مشفرة ومصافحة يدوية معينة، أو يناقشون ألغاز الكون، في التعبير الذي ظهر لاحقاً، كان هؤلاء الرجال ممارسين لمهنة «البناء الهامة»، أي التطبيق العملي للرياضيات والهندسة على فنّ الهندسة المعمارية.

لذلك إن تعيين السّير وليام سينكلير في عام 1441م يشهد ببساطة على تدخّله في فنّ البناء، وربما في المبادئ الرياضية والهندسية التي ارتبطت بالهندسة المعمارية، لكن هذا ذاته يُعدّ أمراً غير عادي، على نحو طبيعي سيقوم الحاكم أو الملك أو المجلس البلدي أو غيرهم من الرعاة بتكليف فريق كامل من المصمّمين والبنائين الذين تعهّدوا بإجراء العمل كاملاً بأنفسهم، رئيس هذا الفريق الذي يُدعى «سيد العمل» يعتمد في خطته على هندسة معيّنة، وكلّ عمليات البناء اللاحقة يجب أن تتناسق مع ذلك النمط الأساسي، «السيد» سيعمل على تجهيز القوالب الخشبية الملائمة لتصميمه، والحجّارون يمضون في العمل وفق تلك القوالب.

على أي حال في روزلين يبدو أن السّير وليام سينكلير قد صمّم مصلاه الخاص، وعمل هو نفسه «سيد العمل»، في أوائل القرن الثامن عشر استطاع ابن زوجة لاحقة لسينكلير التوصل إلى كلّ وثائق العائلة وسجلاتها قبل حرقها بالنار عام 1722م، يكتب:

... خطر على بال السّير وليام سينكلير أن يبني بيتاً لخدمة الآلهة، وفقاً لأكثر الأعمال فضولاً، والذي يجب أن يصل إلى أعلى درجات المجد والعظمة، ووجّه إلى جلب العمّال المهرة من المناطق الأخرى ومن الممالك الأجنبية، وعند نهايته سيكون العمل من أكثر الأعمال ندرة، أولاً وجّه برسم النماذج الأولية على ألواح من إيستلند، وجعل النجارين ينحتونها وفقاً للنموذج الأولي، وبعد ذلك أعطاها للبنائين أنماطاً، والبناؤون بعد ذلك سيصنعون مثلها من الحجارة.

وهكذا يبدو أن السّير وليام كان إلى حدّ كبير واسع الاطّلاع وخبيراً تقنياً أكثر من كونه النبيل المثـالي لزمانه، وتعيينه «راعياً وحامياً» للبنائين الاسكتلنديين يبدو أنه أكثر من منصب فخري فقط، وهكـذا مُـنح ذلك المنصب من الملك كما تشهد المواثيق اللاحقة، ولكنّه منح أيضاً، أو على أي حال، جرت الموافقة عليه من البنّائين أنفسهم، وكما يورد أحد المواثيق: «مالكو روزلين كانوا مرة رعاتنا وحماتنـا نحـن وامتيازاتنـا»، ورسالة يعود تاريخها إلى أواخر القرن السابع عشر تقول:

مالكو روزلين كانوا مصمّمين عظماء ورعاة البناء عدة أجيال، هم ملتزمون سـماع «كلمـة البنّـائين» التي هي إشارة سرية يتعرف فيها البناؤون السريون البارزون على بعضهم خلالها في كـل أنحـاء العـالم...[1].

في عام 1475م بينما كان مصلى روزلين لا يزال قيد الإنشاء مُنح حجّـارو أدنـبرة وثيقـة تقـبلهم أعـضاء نقابيين، وجرى وضع أنظمة تجارية، هذه الصفقة الاعتيادية من القرون الوسطى والتي أخـذت اسـمها مـن المكان الذي عُقدت فيه أصبحت معروفة لاحقاً بـ «القبول النقابي في مصلى مريم كـما يبـدو »، لكـن مـع أن ذلك العمل ربما كان اعتيادياً إلا أنه أصبح يتصف بأهميـة كبـيرة للماسـونية اللاحقـة، عنـدما ظهـرت هـذه الماسونية في اسكتلندا كانت في البداية تركّز على محفل يُعرف بـ «المحفـل ذي الـرقم واحـد» (Lodge No. 1)، ويُشار إليه باسم «مصلى مريم» أيضاً (Mary's Chapel).

تبع ذلك الكثير من مواثيق القبول النقابي، ولكن الوثيقة التالية ذات العلاقة لم تظهر إلا بعد أكثر مـن قرن، في عام 1583م وليام سكو الذي كان مستشار جيمس السادس، لاحقاً جيمس الأول ملك انجلـترا، اسـتلم من الملك منصب «سيد العمل» و«القيّم العام على البنائين»، نـسخة مـن تـشريعاته يعـود تاريخهـا إلى عـام 1598م ومكتوبة بكلتا يديه لا تزال اليوم في الكتاب الأقـدم عـن مـذكّرات «مـصلى مـاري المحفـل ذي الـرقم واحد» في أدنبرة، تعيين سكو في ذلك المنصب طبعـاً لا يـدل عـلى أيّ تحـد أو اغتـصاب لمكانـة آل سـينكلير، كانت تلك مسألة داخلية بين البنائين أنفسهم، وأصبحت واحدة من مبادئهم المقبولـة، مـن الناحيـة الأخـرى تعيين سكو كان مسألة خارجيـة تمامـاً، فـذلك يجعلـه، وهـو مـسؤول في الجهـاز الإداري الملـكي، إلى حـدّ مـا كالسكرتير الدائم في وقتنا الراهن، في الواقع عمل نوعاً مـن الـصلة بـين التـاج والبنـائين أو مفتـشاً يحقـق في الشكاوى ضد موظفي الدولة.

1ــ هذه الرسالة من مصدرها لا تحتوي على أي تاريخ، ولكن ريلاند في أحد كتبه يناقش أن تاريخهـا يعـود إلى عـام 1678م، المؤلفان.

مدّة خدمة سْكو انتهت عام 1602م، قبل ذلك التاريخ أو بعده قليلاً جرى إصدار وثيقة هامة أخرى، وهي المعروفة بـ «وثيقة سانت كلير»، النصّ يندب قائلاً: «... حرفتنا المرحّب بها أصبحت معدومة من أي رعاية أو حماية أو مراقبة، والتي جرى تلويثها بالكثير من النقائص والأمور الفاسدة الزائفة»، من هذا يبدو أنّ عائلة سينكلير، مهما كانت منزلتهم الوراثية، كانوا متساهلين أو مهملين أو أسوأ من ذلك، ومع ذلك تمضي الوثيقة في إعادة تأكيد الولاء القديم بالاعتراف بأن وليام سينكلير وورثته هم مراقبو الحرفة ورعاتها وقضاتها وأعضاؤها، التواقيع التي ختمت هذا البيان جاءت من محافل كانت أصلاً في أدنبرة ودنفرملين وسانت أندروز وهادينغتون.

في عام 1630م جرى مرة ثانية إصدار «وثيقة سانت كلير»، كرّرت عقائد الوثيقة السابقة وتوسّعت فيها، تشهد التوقيعات الملحقة على محافل جديدة في دندي وغلاسكو واير وستيرلنج، لذلك هناك إشارات واضحة إلى نشر متزايد للمحافل، وفي الوقت نفسه عملية زيادة المركزية، وطبعاً هناك شيء هامّ أيضاً في إعادة التأكيد على الصلة الطويلة الأمد بين صناعة البناء وعائلة سينكلير، أياً كان الإهمال الأخير الذي حصل سابقاً، لا يسع المرء إلا أن يستنتج من هذا أن صلة العائلة بهذه الصناعة اشتُقّت إمّا مما كان آنذاك معلومات عامة وإما من تقاليد مرسخة بإحكام شديد ومتأصلة جداً فيها على نحو لا يمكن تغييره، يمكن المرء أن يستنتج أيضاً أنّ كلاً من صناعة البناء وعائلة سينكلير في بداية القرن السابع عشر كانتا راغبتين بإعلان انتسابهما إلى بعضهما، صناعة البناء في ذلك الوقت كانت تتميز بسمعة هامة مقدّر لها أن تنمو، إذ إن أي مراقب لتلك الفترة يمكنه أن يتكهّن بذلك، والارتباط بهذه الصناعة سيمنح سمعة لا مثيل لها لأسباب ستتوضح قريباً، ومع ذلك لا أحد، ولا حتى العوائل الاسكتلندية البارزة الأخرى، تجرّأ إطلاقاً على تحدّي وصاية سينكلير أو محاولة الحصول على الوصاية لأنفسهم، آل سيتون وهاملتن، ومونت غومري وغيرهم من هذه العوائل، بمن فيهم آل ستيوارت، كانوا جميعاً مرتبطين بعمق بالماسونية الناشئة آنذاك، في الحقيقة طبقاً لمخطوطة تعود إلى عام 1658م شخص يُدعى جون مايلن، سيد المحفل في سكون، وفي رغبة خالصة من فخامته، أدخل جيمس السادس «بنّاء حراً وزميلاً للحرفة»، على أي حال استمر قبول أن تكون أكثر المواقع أهمية لعائلة سينكلير.

روزلين والغجر

آل سينكلير لم يكونوا رعاة وحماة لصناعة البناء وفق الوراثة فقط، بل كانوا أيضاً في أثناء القرن السادس عشر قد أسّسوا أنفسهم رعاة وحماة للغجر الذين «تميزوا بتأييد آل روزلين وحمايتهم إلى وقت متأخر حتى الربع الأول من القرن السابع عشر»، القانون

المناهض للغجر في اسكتلندا كان دائما قاسياً، وفي أثناء الإصلاح وصل إلى درجة أكبر، في عام 1574م أمر البرلمان الاسكتلندي بأنْ يجري اعتقال كلّ الغجر وجلدهم ووسمهم على الخدّ أو الأذن، أو أن تُقطع أذنهم اليمنى، وأمور أخرى أشد قسوة هي القانون الذي قدّم عام 1616م، عند نهاية القرن السابع عشر جرى إبعاد الغجر على نحو جماعي إلى فرجينيا وباربيدوس[1] وجامايكا.

على أي حال في عام 1559م كان السّير وليام سينكلير رئيس القضاء العام في اسكتلندا تحت حكم الملكة ماري، مع أن جهوده لا يبدو أنها كانت ناجحة على نحو متميز، إلا أنه عارض آنذاك الإجراءات التي طُبّقت ضدّ الغجر، مستفيداً من منصبه القضائي قيل إنه تدخّل في إحدى اللحظات الحرجة وأنقذ واحداً من الغجر من حبل المشنقة، منذ ذلك الحين أصبح الغجر زوّاراً سنويين لعقارات سينكلير التي رحبت بهم ووفّرت لهم المأوى، في شهري أيار وحزيران من كل عام كانوا يتجمّعون في الحقول تحت قلعة روزلين، حيث كانوا يؤدّون مسرحيّاتهم، حتى إنه يقال: إن السّير وليام سينكلير وفّر لهم برجين من القلعة، ليقيموا فيهما في أثناء وجودهم في الجوار، هذه الأبراج أصبحت تُعرف بـ «روبن هود» و«ليتل جون»[2]. هذه التسميات هامّة، لأن روبن هود وليتل جون كانت مسرحية شهر أيار المفضلة التي كان يؤديها الغجر الانجليز والاسكتلنديون في ذلك الوقت، وكما حصل للغجر جرى منع تلك المسرحية رسمياً، حيث أمر البرلمان الاسكتلندي في 20 يونيو/حزيران من عام 1555م بأنه «يمنع كل شخص من أن يؤدي دور روبن هود أو ليتل جون أو كاهن الجهالة أو ملكة أيار».

الغجر منذ مدة طويلة كانوا طبعاً مصدر ثقة فيما يتعلق بـ «الاستبصار»، في بداية القرن السابع عشر تقريباً أصبحت هذه القدرة تُنسب على نحو متزايد إلى الماسونيين أيضاً، إحدى الإشارات الأقدم والأكثر شهرة في الماسونية، كما نعرفها اليوم تظهر في قصيدة عام 1638م من هنري آدمسون من بيرث تُدعى «Muses Threnodie» (مأساة موسى)، تحتوي هذه القصيدة على الأبيات التالية التي يجري اقتباسها غالباً:

لأننا إخوة في الصليب الوردي،

نمتلك كلمة الماسونيين والاستبصار،

أشياء ستحدث يمكننا أن نتنبأ بها تماماً...

1ـ إحدى جزر الهند الغربية شمال شرق أمريكا الجنوبية، استقر فيها البريطانيون في القرن السابع عشر، وكانت دولة مستقلة ضمن دول الكومنولث البريطانية منذ عام 1966م، المترجم.

2ـ ليتل جون هو أحد أفراد جماعة روبن هود، كان طويل الجسم قوي البنية، المترجم.

هذا على نحو هو المقترح المعروف الأول الدال على أن الماسونيين وُهبوا «قدرات غامضة»، إنّ القدرات المذكورة هي غجرية تماماً، والقاسم المشترك بين الغجر والماسونية كان السّير وليام سينكلير.

على أي حال الأكثر أهميّة في نمو الماسونية وتطويرها هو حقيقة أنّ الغجر كانوا يأتون إلى روزلين لأداء المسرحيّات، في الحقيقة أحد المصادر البارزة في هذا الموضوع صرّح بأنّ الفرق التي كانت تأتي في شهري أيار وحزيران من كل عام إلى روزلين لم تكن قطّ من الغجر، بل في الواقع كانوا «جماعة من الممثلين الجوالين»، سواء كانوا غجراً أم لا تبقى الحقيقة قائمة بأنّهم أدّوا بانتظام في بيت رئيس بلاط اسكتلندا مسرحيّة كان يمنعها القانون.

لماذا كان يجب منعها؟، طبعاً هذا الموضوع مُنع جزئياً، لأنه في ذاته كان تصديقاً على «مجرم» أسطوري، ومن ثم يُنظر إلى المسرحية كأنها عمل «هدّام»، وجزئياً مُنعت، لأن المتطهرين الكالفينيين[1] الصارمين الذين كانوا منتشرين آنذاك في اسكتلندا من جون نوكس[2] عدّت المسرح على نحو عام «غير أخلاقية»، كما فعل متطهّرو كرومويل في انجلترا بعد قرن، لكن السبب الأساسي يصبح واضحاً من أسلوب كلمات المرسوم الذي منع المسرحيّة، «يمنع على كل شخص أن يؤدي دور روبن هود أو ليتل جون أو كاهن الجهالة أو ملكة أيار»، «كاهن الجهالة» على نحو طبيعي هو كاهن الأسطورة المدعو «فراير توك»، «ملكة أيار» هي الشخصية الذائعة الصيت باسم «ميد ماريون»[3]، لكن كلتا هاتين الشخصيتين كانت في الأصل مختلفة جداً عن الأساطير والتقاليد التي صُنعت منهما لاحقاً، في الحقيقة كان روبن هود طوال العصور الوسطى في انجلترا واسكتلندا «خارجاً على القانون» وثانوياً في قصّة لاحقة، على نحو بارز جداً كان نوعاً من «الجن» مشتقاً في الأساس من إله الخصب أو إله النباتات السلتي والسكسوني القديم الذي يُدعى «الرجل الأخضر»، بينما في التراث الشعبي أصبح روبن هود قابلاً للتبديل بشخصيات مثل «روبن الأخضر»، «روبن من الغابة الخضراء»، «روبن الصديق الجيد»،

1ـ الكالفينيّ أحد أتباع مذهب جون كالفين اللاهوتي الفرنسي البروتستانتي (1509م ـ 1564م) القائل إن قَدَر الإنسان مرسومٌ قبل ولادته، والذي يؤكّد أنّ الخلاص يأتي من الإيمان بالله، ويؤكد أنّ الله اختار أولئك الذين سيؤمنون والذين سيحصلون على الخلاص أيضاً، المترجم.

2ـ جون نوكس (1513م ـ1572م) مصلح ديني اسكتلندي، كان قسيساً عند إدوارد السادس ملك انجلترا، ساعد على تأسيس الكنيسة الاسكتلندية المَشْيَخيّة (1560م)، وعارض الحكم الكاثوليكي الروماني للملكة ماري ملكة الاسكتلنديين، المترجم.

3ـ في أسطورة روبن هود هي شابة مفعمة بالحيوية، كان يحبها روبن هود، المترجم.

أو «عفريت» مسرحية شكسبير التي عنوانها «حلم ليلة في منتصف الصيف» المسؤول عن الانقلاب الصيفي والخصب والجنس والأعراس.

أسطورة روبن هود في الواقع قدمت مظهراً مفيداً، حيث جرت إعادة شعائر خصب الوثنية القديمة إلى صميم بريطانيا المسيحية بالاسم، في كلّ عيد أول نوار[1] سيكون هناك مهرجان وثني الأصل بلا خجل، الشعائر ستشرّع عن «قطب أيار» الذي هو الرمز التقليدي للآلهة القديمة المسؤولة عن الجنس والخصب، في يوم منتصف الصيف كلّ عذراء قرية تصبح مجازاً «ملكة أيار»، الكثير منهن سيجري إيصالهن إلى «الغابة الخضراء»، حيث يخضعن للتلقين الجنسي على أيدي الشباب الذين يؤدون دور روبن هود أو «روبن الزميل الجيد»، بينما فراير توك «كاهن الجهالة» يبارك الأزواج المتزاوجة في محاكاة ساخرة للأعراس الرسمية، استناداً إلى انتحال الأدوار هذا سوف تتلاشى عملياً الحدود الفاصلة بين التمثيلية المسرحية وشعائر الخصب، عيد أول نوار سيكون في الحقيقة يوماً للشعائر العربيدة[2]، بعد تسعة أشهر يجري في كل أنحاء الجزر البريطانية إنتاج محصولها السنوي من الأطفال، الكثير من العائلات كعائلة روبنسن وروبيرتسون نشأت أولاً من بين «أبناء روبن» هؤلاء.

إذاً مسرحيّة روبن هود وليتل جون التي أُقرّت في كلّ أيار وحزيران في روزلين، سواء من الغجر أم من فرقة من الممثلين الجوالين التي تضمّنت «كاهن الجهالة» وملكة أيار الشبيهة بآلهة الجمال ضمن بيئة ذلك الوقت لم تكن مسرحية تقليدية، كما ننظر إليها اليوم، على العكس ربما كانت منسك الخصب الوثني أو تمثيلاً مسرحياً لمنسك الخصب الوثني الذي تعدّه المسيحية بكل أنواعها، سواء كالفينية أم كاثوليكية رومانية عملاً مخزياً وآثماً، لكن هذا ما كان يعنيه عادة أو يدلّ عليه «المسرح» لعامة أهل الريف آنذاك، لذلك ليس غريباً أن المشرّعين البيوريتانيين[3] المتجهّمين الواثقين من أنفسهم في القرن السادس عشر في اسكتلندا وفي القرن السابع عشر في انجلترا كان عليهم أن يغضبوا من نفاق هذا «المسرح».

ما هو هامّ هو أنّ عائلة سينكلير لم تُقرّ هذه الممارسات فحسب، بل رحّبت بها وحمتها، وروزلين لم تكن تهيئ البيئة المثالية لهم فقط، بل كانت بكل النيات والأهداف

1 ـ عيد العمال، أي الأول من أيار، المترجم.
2 ـ الشعائر العربيدة: شعائر سرية كانت تقام في أعياد آلهة الإغريق والرومان، وتتميّز بالغناء النّشوان والرقص العربيد، المترجم.
3 ـ البيوريتاني، التطهّري عضو في جماعة بروتستانتية في انجلترا ونيو انجلاند (في القرنين 16 و17) طالبت بتبسيط شعائر العبادة وبالتمسك الصارم بالدين والأخلاق الفاضلة، المترجم.

مصممة خصيصاً لهم، إنّ الموضوع المهيمن في المصلى الذي يستتر تماماً خلف غطاء مسيحي متقن هو وثني وسلتي بلا خجل، الشخصية التي تظهر على الأكثر هي «الرجل الأخضر»، رأس بشري تخرج أغصان الكرمة من فمه ومن أذنيه أحياناً، ثمّ تنتشر على نحو متشابك وكثيف على الجدران، في الحقيقة «الرجل الأخضر» موجود في كل مكان في مصلى روزلين، يلوح دائماً من بين المحلاقات[1] المعرّشة التي أحدثها بنفسه، ولأن رأسه لا يمتلك قطّ جسماً متصلاً به إذاً هو كالرؤوس التي اتّهم فرسان الهيكل بعبادتها، أو كالرؤوس المقطوعة في التقاليد السلتية القديمة، والتي كانت في كلتا الحالتين تُعد تعويذات للخصب، لذلك يستند مصلى روزلين إلى مملكة فرسان الهيكل والمملكة السلتية القديمة في اسكتلندا كلتيهما وسعى بروس لإعادتها.

في مصلى روزلين تلاقت عدة عناصر حاسمة، وفي بعض الحالات التقاليد القديمة الباقية والمتجذّرة مع التطورات الراهنة من مصادر مختلفة جداً، وأحياناً مع التطورات الإبداعية المبكّرة النشوء، مثلاً لا بد من أنه كان هناك تفاعل مثمر بين الثلاثة، عائلة سينكلير، والحجّارين «المهرة» الذين بنوا في رعايتهم، والغجر أو الممثلين الجوالين الذين أدّوا مسرحياتهم في حمايتهم، دمج عناصر كهذه كان خطوة حاسمة في الاتحاد النهائي للماسونية، لكن العناصر الأخرى، التراث الفروسي القديم لفرسان الهيكل مثلاً كانت ستُدمج أيضاً، وبعض العناصر الجديدة ذات الأهمية القصوى كانت ستُضاف.

وقد جرى تجسيد فكرة «المسرح» بأعمال مثل روبن هود وليتل جون لعامة الريفيين كما رأينا، على أي حال في المراكز الحضرية من بريطانيا كان هناك نوع آخر من المسرح، أكثر ألفة لنا اليوم، ويرحّب به بسهولة ليحظى بمكانة شرعية في التقاليد الثقافية، تلك ما تسمى التمثيلية الأعاجيبية[2]، والتي بدأت أول مرة في القرن الثاني عشر، وجرى إكمال تطويرها في أثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر، التمثيلية الأعاجيبية التي اشتقّت في الأساس من مصادر جمهورية وشعائرية كانت دمجاً بين الدراما والمهرجان المسرحي، أكثر التمثيليات الأعاجيبية كانت ضمن مسلسلات أو مجموعات[3]، بقي منها اليوم أربع، تلك التي تُنسب إلى كل من يورك، تشيستر، ويكيفيلد، والأخيرة تُنسب أحياناً إلى كوفنتري، هذه المسرحيات بعد أن انتقلت من أجواء الكنيسة لتخرج إلى السوق تسعى

1ـ المحلاق جزء لولبيّ رفيع من النبتة المعرّشة يساعدها على التعلق بسنادها، المترجم.
2ـ التمثيلية الأعاجيبية مسرحية تمثل مشاهد من حياة قديس ذي معجزات، المترجم.
3ـ المجموعة يُقصد بها مجموعة من القصائد أو المسرحيات أو القصص أو الأغاني تعالج موضوعاً واحداً، المترجم.

في أيام العيد إلى حث عامة الناس في البلدة على إعادة تكوين مادّة الكتاب المقدس وتشريعها، أحداث من الكتاب المقدّس مثل قتل هابيل وسفينة نوح والميلاد والصلب أيضاً يجري بسهولة تصويرها على نحو مبسّط ومثير ومستوعب، الرب والسيد المسيح يظهران في أغلب الأحيان كلاهما «على المسرح»، الشرّ عموماً يكون على شكل شيطان أخرق أو مهرّج تقريباً، سيجري تأنيبه كما ينبغي، أحياناً يجري رفع قضايا موضوعية، ويجري هجاء بعض الشكاوى المعاصرة، الممثلون يصعدون على عربات كبيرة، كما في عربات الكرنفال، توضع في أماكن مختلفة حول البلدة، والمشاهدون ينتقلون من مكان إلى آخر، كأنهم ينظرون إلى مراحل الصلب[1] في الكنيسة، الممثلون هم أعضاء في نقابات مختلفة، الدباغين، الطيّانين، بنّائي السفن، مجلّدي الكتب، صائغي الذهب، البزّازين[2]، الجزّارين، سائسي الخيل، وكلّ نقابة ستكون مسؤولة عن تصوير حادثة معيّنة من الكتاب المقدس.

في مقالة مهمة نُشرت عام 1974م أوضح القسّ نفيل باركر كراير كيف كانت التمثيليات الأعاجيبية مصدراً رئيساً لشعائر ظهرت لاحقاً في الماسونية، مقدماً مادّة لم تكن مصنّفة وذات بنية وشكل مثير على نحو مؤكد، مشاركة نقابات الحجّارين «المهرة» كانت نشيطة جداً في التمثيليات الأعاجيبية، ولأن معظم عملهم شمل بناء الكنائس والأديرة والبيوت الدينية الأخرى، لذلك كانوا يتميزون بعلاقة وثيقة واستثنائية بالكنيسة الرسمية، هذا جعلهم أكثر ألفة من النقابات الأخرى بالتقنيات الشعائرية المتعلقة بالتمثيل، إضافة إلى ألفتهم مع بعض مكونات مادّة الكتاب المقدس، ولأن حركة الإصلاح بترت برنامج البناء الديني كان لدى نقابات الحجّارين فرصة أكبر لتطوير مهاراتهم في الدراما الشعائرية، وتدريجياً استنبطوا مناسكهم الخاصة التي أصبحت أكثر انفصالاً على نحو مطلق عن الحرام الكاثوليكي.

كلّ نقابة بلدية كانت تقليدياً مسؤولة عن تمثل مسرحي لشخصيات معيّنة من الأحداث التي في مادة الكتاب المقدس كما لاحظنا، في بعض الحالات مهمة تعيين الموضوع المحدد في نقابة معيّنة كانت أحياناً فوضوية، ربما كان صعباً مثلاً العثور على شيء في الكتاب المقدّس له صلة كافية بصانعي القفازات مثلاً أو كما يجري تسميتهم «غونترز»، من الناحية الأخرى كان هناك قصص من الكتاب المقدس تتميز بصلة فريدة بالحجّارين، علاوة على ذلك كان قربهم من المؤسسة الإكليروسية سيمكّنهم من اختيار

1ـ مراحل الصلب: سلسلة من 14 صورة إلخ، وبخاصة في كنيسة تمثل مراحل صلب المسيح، المترجم.
2ـ البزّاز: تاجر الأقمشة وبخاصة الحريرية، المترجم.

القصص التي كانوا يتمنون أداءها وفي النهاية احتكارها، يقترح القسّ كراير أن شيئاً من هـذا القبيـل قـد حصل فعلاً، النقابات الماسونية تدريجياً ادعت حقها الحصري في التمثيل المسرحي للمادّة المعينـة الوثيقـة الصلة بمهنتهم الخاصة والتخصّصية على درجة عالية، كبناء هيكل سليمان مثلاً، وهكذا الدراما الأسطورية المركزية للماسونية اللاحقة «قتل حيرام أبي» مُثِّلت أول مرة من الحجّارين في تمثيلية أعاجيبية[1].

1ـ يبدو ممكناً أنّ تمثيل قتل يوحنا المعمدان كان عاملاً مساهماً في الدراما النهائية التي تتضمّن «حيرام أبي»، المؤلفان.

القسم التاسع

الماسونية: هندسة المقدّسين

الماسونية نفسها غير متأكدة من أصولها على نحو كبير، في القرون الأربعة أو ما شابه وجودها الرسمي سعت إلى تأسيس نسب لها أحياناً بشغف كبير، الكتّاب البناؤون الماسونيون أصدروا الكثير من الكتب عن جهودهم لتدوين تاريخ حرفتهم، بعض هذه الجهود لم يكن مزوّراً فحسب، بل كان هزلياً جداً أحياناً في أفكاره المبالغة والساذجة والحالمة أحياناً، جهود أخرى لم تكن معقولة فحسب، بل فتحت أبواباً جديدة هامة للبحث التاريخي، على أي حال أكثر هذه الأبحاث توّجت في النهاية بالحيرة والغموض، وكثيراً ما أثارت المزيد من الأسئلة بدلاً من الإجابة عنها، إحدى المشكلات هي أن الماسونيين أنفسهم سعوا على نحو كبير جداً للتفرد بتراث متماسك، والتفرد بشبكة من التقاليد غير القابلة للتعديل، والتي امتدت من عصور ما قبل المسيحية وحتى يومنا هذا، في الواقع فإن الماسونية تقريباً مثل كرة الصوف التي تداعبها الهرة الصغيرة، تشتمل على الكثير من الخيوط التي يجب أن تحلّ قبل التمكن من معرفة أصولها المختلفة.

الأسطورة الماسونية تجادل بأنّ الماسونية على الأقل في انجلترا تنحدر من الملك السكسوني أثلستِن (Athelstan)، يقال إن ابن أثلستِن انضمّ إلى الأخوة الماسونية التي كانت سابقاً، وأصبح هو نفسه بنّاء متحمساً، ولمنزلته حصل على «وثيقة الحرية» ليصبح أخاً في العضوية، نتيجة لهذا التقدير الملكي يُزعم أن اجتماعاً سرياً ماسونياً عُقد في يورك، وجرت صياغة التعليمات التي شكّلت القاعدة للماسونية الانجليزية.

تحرّى المؤرخون الماسونيون اللاحقون هذه الرواية على نحو كامل، الإجماع كان ضئيلاً جداً أو لا وجود لأدلة لدعمه، ولكن حتى وإن كان حقيقياً، فلا يزال هناك الكثير من الأسئلة التي لم تجد جواباً عنها، ما أساس صحة الزعم الماسوني أنه جرت رعايتهم من أثلستِن وابنه؟، أين تعلّموا حرفتهم؟، ما الذي كان يميزها بشدة؟، ما السبب الذي جعل العرش يأمر بالحماية التي زعمت تلك الحرفة أنها حصلت عليها؟.

بعض الكتّاب الماسونيين أرادوا الإجابة عن هذه الأسئلة بإشهاد من جرت تسميتهم «ماسونيي الكوماسين» (Comacine Masons)، في أثناء الأيام الأخيرة للإمبراطورية

الرومانية كان هناك كليّة للمصممين مطّلعة كما جرت تسميته لاحقاً «الألغاز الماسونية» طبقاً لهؤلاء الكتّاب، عندما سقطت روما يقال إن الكليّة التي كان مركزها في بحيرة كومو[1] كُتب لها النجاة، وإنها على نحو هادئ حافظت على تعاليمها عبر الأجيال المتعاقبة، يقال إن البارعين فيها في فترة العصور المظلمة شقوا طريقهم إلى مناصب مختلفة في أنحاء أوروبا بما فيه قصر أثلستِن[2].

لا يمكن إثبات أي من هاتين الروايتين إجمالاً، برنامج بناء من نوع ما يظهر أنه جرت ممارسته في أثناء عهد أثلستِن، وذلك ما تشهد عليه يورك[3]، ربما ذلك البرنامج كان الأكثر طموحاً من نوعه في أوروبا في ذلك الوقت، وربّما تضمّن خبرة تقنية أو تكنولوجية جديدة، أو جرى اكتشافها حديثاً، علاوة على ذلك جرى العثور على أناجيل قديمة يعود تاريخها إلى انجلترا السكسونية، وتصوّر الرب يؤدي الوظيفة الماسونية[4] على نحو متميز كونه مصمماً، وفي الحقيقة هناك بعض الأدلة على أن كليّة معمارية من نوع ما كانت على جزيرة في بحيرة كومو في أثناء الأيام الأخيرة من الامبراطورية الرومانية، من الممكن جداً أن بعض تعليمات هذه الكليّة استمرت، وانتشرت لاحقاً في أوروبا الغربية.

لكن أثلستِن وابنه، وماسونيي الكوماسين لم يساعدوا في تفسير إحدى أكثر السمات البارزة للماسونية اللاحقة، الحقيقة هي أنها تحتوي على خيوط أساسية من التقاليد اليهودية التي جرت تنقيتها خلال الإسلام، مجموعة الأساطير المحورية للماسونية بما فيها طبعاً بناء هيكل سليمان مشتقّة في النهاية من كتب العهد القديم القانونية والمزوّرة، وكذلك من التعليقات اليهودية والإسلامية عليها، أهم هذه الأساطير هي «قتل حيرام أَبي»، وهذا يستحق أن نمعن النظر فيه ببعض التفاصيل.

إنّ قصّة حيرام متجذّرة في بيئة العهد القديم، تظهر في كتابين، تاريخ الملوك الأول وأخبار الأيام الثّاني، طبقاً للملوك الأول (5: 1-6):

1ــ في إقليم كومو شمال إيطاليا، المترجم.

2ــ (Athelstan) الملك أثلستِن (895مــ939م) حفيد ألفريد العظيم، وكان الملك الأول الذي يحصل على لقب «ملك كلّ بريطانيا» (926م)، هزم التحالف الاسكتلندي الويلزي الفايكنغي في معركة «برينان بوره» (Brunanburh) عام (937م)، المترجم.

3ــ يورك (York)، مدينة في يوركشاير شمال انجلترا، في الأصل هي مستوطنة سلتية، وأصبحت تحت الحكم الروماني مركزاً إقليمياً هاماً، المترجم.

4ــ أي البناء، المترجم.

1ـ وَأَرْسَلَ حِيرَامُ مَلِكُ صُورَ وَفْداً إِلَى سُلَيْمَانَ بَعْدَ أَنْ سَمِعَ أَنَّهُ اعْتَلَى الْعَرْشَ خَلَفاً لأَبِيهِ، وَكَانَ حِيرَامُ صَدِيقاً مُحِبّاً لِدَاوُدَ. 2ـ فَكَتَبَ سُلَيْمَانُ رِسَالَةً إِلَى حِيرَامَ قَائِلاً: 3ـ «أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ أَبِي دَاوُدَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتاً لاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِهِ مِنْ جَرَّاءِ الْحُرُوبِ الَّتِي خَاضَهَا، حَتَّى أَظْفَرَهُ الرَّبُّ بِأَعْدَائِهِ وَأَخْضَعَهُمْ لَهُ. 4ـ أَمَّا الآنَ وَقَدْ أَرَاحَنِي الرَّبُّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَلَيْسَ مِنْ ثَائِرٍ أَوْ حَادِثَةِ شَرٍّ. 5ـ وَهَا أَنَا قَدْ نَوَيْتُ أَنْ أَبْنِيَ بَيْتاً لاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِي، كَمَا قَالَ الرَّبُّ لِدَاوُدَ أَبِي: إِنَّ ابْنَكَ الَّذِي يَخْلُفُكَ عَلَى عَرْشِكَ هُوَ يَبْنِي بَيْتاً لاسْمِي الْعَظِيمِ.

6ـ فَأَرْجُو أَنْ تَأْمُرَ رِجَالَكَ أَنْ يَقْطَعُوا لِي أَرْزاً مِنْ لُبْنَانَ، وَسَيَعْمَلُ رِجَالِي جَنْباً إِلَى جَنْبٍ مَعَ رِجَالِكَ، وَأَقُومُ أَنَا بِدَفْعِ أُجْرَةِ رِجَالِكَ بِمُوْجِبِ مَا تَرَاهُ، لأَنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ قَوْمِي مَنْ يَمْهَرُ فِي قَطْعِ الأَخْشَابِ مِثْلَ الصِّيدُونِيِّينَ»[1].

بعد ذلك يأتي وصف تفصيلي لبناء المعبد من كل من بناة سليمان وبناة حيرام، قيل إن جمع القوة البشرية من أجل المشروع كان بقيادة شخص يُدعى أدُونيرام، ولو جرت التهجئة على نحو مختلف يبدو أن الاسم يدل على حيرام نفسه، بعد إنهاء الهيكل، الملك الإسرائيلي يرغب بتزيينه بعمودين برونزيين عظيمين، وغيرهما من الزخارف الأخرى وفقاً لذلك في الملوك الأول (7: 13-15):

13ـ وَاسْتَدْعَى الْمَلِكُ سُلَيْمَانُ رَجُلاً مِنْ صُورَ يُدْعَى حِيرَامَ. 14ـ كَانَ ابْناً لأَرْمَلَةٍ مِنْ سِبْطِ نَفْتَالِي، أَمَّا أَبُوهُ الْمُتَوَفَّى فَكَانَ مِنْ صُورَ يَعْمَلُ نَحَّاساً، وَقَدْ بَرَعَ حِيرَامُ فِي مِهْنَتِهِ وَأَتْقَنَهَا، فَانْخَرَطَ فِي خِدْمَةِ سُلَيْمَانَ وَأَنْجَزَ الأَعْمَالَ الَّتِي عَهِدَ بِهَا إِلَيْهِ. 15ـ وَسَبَكَ حِيرَامُ عَمُودَيْنِ مِنْ نُحَاسٍ، طُولُ الْعَمُودِ الْوَاحِدِ ثَمَانِي عَشْرَةَ ذِرَاعاً (نَحْوُ تِسْعَةِ أَمْتَارٍ) وَمُحِيطُهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ ذِرَاعاً (نَحْوُ سِتَّةِ أَمْتَارٍ)، وَكَانَا أَجْوَفَيْنِ، سُمْكُ كُلٍّ مِنْهُمَا نَحْوَ أَرْبَعِ أَصَابِعَ.

في أخبار الأيام الثاني (2: 3-14) هناك رواية مختلفة قليلاً:

وَوَجَّهَ سُلَيْمَانُ رِسَالَةً إِلَى حُورَامَ مَلِكِ صُورَ قَائِلاً: «... فَهَا أَنَا قَدْ عَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى تَشْيِيدِ هَيْكَلٍ لاسْمِ الرَّبِّ إِلَهِي لأُخَصِّصَهُ لَهُ،... فَالآنَ أَرْسِلْ لِي رَجُلاً حَاذِقاً فِي فُنُونِ صَنَاعَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ، وَفِي صَنَاعَةِ الْقُمَاشِ الأَزْرَقِ وَالْبَنَفْسَجِيِّ وَالأَحْمَرِ، وَمَاهِراً فِي حِرْفَةِ النَّقْشِ، لِيَعْمَلَ مَعَ الصُّنَّاعِ الْمَهَرَةِ الْمُتَوَافِرِينَ لَدَيَّ فِي يَهُوذَا وَفِي أُورُشَلِيمَ مِمَّنِ اخْتَارَهُمْ أَبِي دَاوُدُ. وَزَوِّدْنِي بِخَشَبِ أَرْزٍ وَسَرْوٍ وَصَنْدَلٍ مِنْ لُبْنَانَ، لأَنَّنِي

1ـ كلّ الاقتباسات التوراتية تأتي من «توراة أورشليم»، حرّرها البابا رولند دي فوكس، الطبعة الانجليزية حرّرها ألكساندر جونز (لندن، 1966م)، المؤلفان.

أعْرِفُ أَنَّ رِجَالَكَ مَاهِرُونَ فِي قَطْعِ خَشَبِ لُبْنَانَ، فَيَتَعَاوَنَ رِجَالِي مَعَ رِجَالِكَ. وَلْيُجَهِّزُوا لِي خَشَباً وَفِيراً، لأَنَّ الْهَيْكَلَ الَّذِي عَزَمْتُ عَلَى بِنَائِهِ هُوَ هَيْكَلٌ عَظِيمٌ وَمُدْهِشٌ،... فَأَجَابَهُ حُورَامُ مَلِكُ صُورَ فِي رِسَالَةٍ قَائِلاً: «... وَهَا أَنَا أُرْسِلُ الآنَ رَجُلاً حَاذِقاً خَبِيراً هُوَ حُورَامُ أَبِي، ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ سِبْطِ دَانَ، مُتَزَوِّجَةٍ مِنْ رَجُلٍ صُورِيٍّ، بَارِعٍ فِي صَنَاعَةِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالنُّحَاسِ وَالْحَدِيدِ وَالْحِجَارَةِ وَالْخَشَبِ وَالْقُمَاشِ الأَزْرَقِ وَالْبَنَفْسَجِيِّ وَالْكَتَّانِ وَالأَحْمَرِ وَسَائِرِ فُنُونِ النَّقْشِ، وَتَنْفِيذِ مَا يُعْهَدُ بِهِ إِلَيْهِ مِنْ رُسُومَاتٍ،... ».

العهد القديم سطحي على نحو كاف في حديثه عن بنّاء المعبد البارع، لكن الماسونية معتمدين على مصادر أخرى ابتكرت بعضها، تتوسّع في التفاصيل الضئيلة وتطوّرها إلى ما يُشكل علم لاهوت تامّاً ومكتفياً ذاتياً ضمن الإطار الديني التقليدي المنظّم، القصّة عندما تظهر في شكلها النهائي تحتوي على اختلافات صغيرة في مفرداتها، اختلافات كالتي في الأناجيل، لكن فحواها العامّ تبقى ثابتة من محفل إلى محفل، ومن منسك إلى منسك ومن جيل لجيل.

إنّ زعيم الأسطورة يُعرف عادة باسم «حيرام أَبِي» وربما بدقّة أكثر «أَدُونِيرَام»، «أَدُونِيرَام» (Adoniram)، يبدو أنها مشتقة من «أَدُونِي» (Adonai)، وهي الكلمة العبرية الدالة على «لورد»، تقريباً الطريقة نفسها التي يجري فيها اشتقاق (Kaiser) و«سيزر» (Czar) من «قيصر» (Caesar)، لذلك فالبنّاء البارع كان «اللّورد حيرام» مع أنه جرى اقتراح أنّ «حيرام» لم يكن إطلاقاً اسم علم بل لقب أيضاً، وربما يدلّ على الملك أو على شخص ما ارتبط بالعائلة الملكية، «أَبِي» اشتقاق من كلمة «الأب»، لذلك «حيرام أَبِي» قد تكون الملك نفسه، الأب الرمزي لشعبه، أو قد يكون والد الملك، الملك السابق أو الملك «المتقاعد» الذي ربّما تنازل عن العرش بعد عدد من السنوات المشروطة، في كل الأحوال الفكرة الأساسية هي أنّه مرتبط بالأسرة الملكية لمدينة صور الفينيقية من حيث الدم كما يبدو، ومن الواضح أن الرجل «الحاذق» كان مطّلعاً على أسرار الهندسة المعمارية، أسرار الأرقام والأشكال والمقاييس وتطبيقاتها العملية في الهندسة، ويؤكّد بحث آثاري حديث أنّ هيكل سليمان يحمل تشابهاً واضحاً مع المعابد الحقيقية التي بناها الفينيقيون كما هو موصوف في العهد القديم، بل من الممكن أن نتقدم خطوة إلى الأمام أيضاً، المعابد الصُّورية شُيّدت للإلهة الفينيقية الأم «Astarte» عَشْتَرُوت التي أُضيفت إلى التقاليد المسيحية على أنها الشيطان الذكر عَشْتَرُوت «Ashtaroth» بعد أن جرى إخضاعها لعملية تغيير جنسي قويّ من آباء الكنيسة الأوائل، في صور القديمة كانت عَشْتَرُوت تُعرف بألقاب مثل «ملكة السماوات» و«نجم البحر» أو «ستيلا مانز» (Stella Mans)، وهي صيغ

جرى اختطافها أيضاً من الديانة المسيحية ومنحها للعذراء، عَشْتَروت تقليدياً كانت تُعبد «في الأماكن العالية»، قمم التلال والجبال، وجبل حرمون مثلاً مكتظ بأضرحتها، وأياً كان ولاء سليمان للرب الإسرائيلي، إلا أنه كان أحد عابديها، لذلك في الملوك الأول (3: 3)[1]:

وَأَحَبَّ سُلَيْمَانُ الرَّبَّ وَسَارَ فِي فَرَائِضِ دَاوُدَ أَبِيهِ، إِلاَّ أَنَّهُ وَاظَبَ عَلَى تَقْدِيمِ ذَبَائِحَ وَإِيقَادِ بَخُورٍ عَلَى الْمُرْتَفَعاتِ. [2]

الملوك الأول (11: 4-5) وواضح على نحو أكبر:

فَاسْتَطَعْنَ فِي زَمَنِ شَيْخُوخَتِهِ أَنْ يُغْوِينَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ مُسْتَقِيماً مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ. وَمَا لَبِثَ أَنْ عَبَدَ عَشْتَارُوثَ آلِهَةَ الصِّيدُونِيِّينَ، وَمَلْكُومَ إِلَهَ الْعَمُّونِيِّينَ الْبَغِيضَ... [3]

في الحقيقة «أنشودة سليمان» الشهيرة هي نفسها ترتيلة موجهة إلى عَشْتَروت، ودعاء لها:

تَعَالَيْ مَعِي مِنْ لُبْنَانَ يَاعَرُوسِي. تَعَالَيْ مَعِي مِنْ لُبْنَانَ! انْظُرِي مِنْ قِمَّةِ جَبَلِ أَمَانَةَ، مِنْ رَأْسِ سَنِيرَ وَحَرْمُونَ، فِي عَرِينِ الأُسُودِ، مِنْ جِبَالِ النُّمُورِ. قَدْ سَلَبْتِ قَلْبِي، يَاأُخْتِي يَاعَرُوسِي! قَدْ سَلَبْتِ قَلْبِي بِنَظْرَةِ عَيْنَيْكِ وَقِلاَدَةِ عُنُقِكِ. مَا أَعْذَبَ حُبَّكِ يَاأُخْتِي يَاعَرُوسِي! لَكَمْ حُبُّكِ أَلَذُّ مِنَ الْخَمْرِ، وَأَرِيجُ أَطْيَابِكِ أَزْكَى مِنْ كُلِّ الْعُطُورِ. شَفَتَاكِ تَقْطُرَانِ شَهْداً أَيَّتُهَا الْعَرُوسُ، وَتَحْتَ لِسَانِكِ عَسَلٌ وَلَبَنٌ، وَرَائِحَةُ ثِيَابِكِ كَشَذَى لُبْنَانَ. أَنْتِ جَنَّةٌ مُغْلَقَةٌ يَاأُخْتِي الْعَرُوسَ. أَنْتِ عَيْنٌ مُقْفَلَةٌ وَيَنْبُوعٌ مَخْتُومٌ! أَغْرَاسُكِ فِرْدَوْسُ رُمَّانٍ مَعَ خِيرَةِ

1ـ سليمان ليس أحد عابدي عشتروت، إنما أرادت التوراة تشويه شخصيته، فقالت إنه عبد آلهة زوجاته الألف، (وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا).

2ـ في هذا النص العربي وردت كلمة «الرَّبّ» التي هي في الأصل اللاتيني «Yahweh» أو «Jehovah» أو «YHWH»، ولكن الترجمة الحقيقية هي «يَهْوَهْ» الذي هو ربّ العبرانيّين، أي المعنى صحيح، ولكن الترجمة الحرفية خاطئة، فلو سُئل بعضنا عما تعنيه كلمة «يهوه» فإنه لن يعرف، مع أن أحد أخطر المنظمات الدينية حالياً هي منظمة «شهود يهوه» التي تحاول اكتساح العالم بديانتها الجديدة التي هي خليط بين العهدين القديم والجديد لاكتساب أكبر قدر ممكن من الأتباع، والتي ترصد ميزانية هائلة لهذا الهدف بما فيها عشرات المحطات الفضائية التي تُظهر صانعي المعجزات المزيفين، وهم يعالجون المرضى والمعوقين، وتضم الكثير من مشاهير العالم بلا تفصيل، المترجم.
أيضاً هنا نص توراتي ليس من ورائه إلا تشويه سليمان أما لماذا ؟ فلأن أمه لم تكن من بني إسرائيل بل هي المدعوة (بتشبع)، وهي حثية كانت أرملة لـ (أوريا) الحثي القائد الذي كان يقاتل في صفوف داوود ثم قتل في إحدى المعارك فتزوج داوود من أرملته وأنجبت سليمان، (المدقق).

3ـ كل ماتحدثت به التوراة عن سليمان ليس إلا تلفيقاً أرادوا من ورائه تشويه شخصيته، (المدقق).

الأَثْمَارِ وَالحِنَّاءِ وَالنَّارْدِينِ. نَارْدِينٌ وَزَعْفَرَانٌ، قَصَبُ الذَّرِيرَةِ وَقِرْفَةٍ مَعَ كُلِّ أَصْنَافِ اللُّبَانِ وَالْمُرِّ وَالْعُودِ مَعَ أَفْخَرِ الْعُطُورِ. أَنْتِ يَنْبُوعُ جَنَّاتٍ وَبِئْرُ مِيَاهٍ حَيَّةٍ وَجَدَاوِلُ دَافِقَةٌ مِنْ لُبْنَانَ[1].

وكلها تُثير أسئلة عن هيكل سليمان الذي بناه بنّاء فينيقي بارع، هل كان مكرّساً لإله إسرائيل، أم كان مكرّساً لعَشْتَروت في الحقيقة؟.

في كل الأحوال أحضر سليمان حيرام الحاذق في الهندسة المعمارية من صور، ليقود عملية بناء المعبد، لذلك في آخر المطاف نجد أن «هيكل سليمان» تحديداً هو «هيكل حيرام»[2]، في الواقع القوة البشرية الهائلة التي اشتركت في مشروع طموح جداً كهذا لا بدّ من أنها تضمّنت أساساً إن لم يكن على نحو خاص عمل العبيد، على أي حال في الشعائر والتقاليد الماسونية هناك على الأقل تصوير لبعض البُناة الأحرار، أو الماسونيين، ومن المفترض أنهم المحترفون الذين جاؤوا من صور ويحصلون على أجورهم، هم منظّمون في ثلاث مراتب أو درجات، الصنّاع والزملاء والسادة، ولأنهم كثيرو العدد، ربما لا يستطيع حيرام معرفتهم كلّهم شخصياً، في النتيجة كلّ مرتبة أو درجة تمتلك كلمتها الخاصة التي تميزها، الصنّاع يحصلون على كلمة «بوز» (Boaz) بعد أحد العمودين أو الدعاميتين النحاسيتين الهائلتين اللتين تدعمان سقيفة الهيكل، الزملاء كلمتهم «جاتشن» (Jachin) بعد العمود أو الدعامة الثانية، السادة يحصلون على الأقل أولياً على اسم «يهوه» (Jehovah)، كلّ هذه الكلمات الثلاث مصحوبة أيضاً بـ «إشارة» معيّنة أو حركة بالأيدي، و«قبضة» معيّنة في أثناء المصافحة، ومن ثم عندما توزّع الأجور يقدّم كلّ عامل نفسه لحيرام، يقول الكلمة وينفذ الإشارة والقبضة التي تخص مرتبته ويستلم الأجر الملائم.

في أحد الأيام وبينما كان حيرام يصلّي في فناء صرحه المُكمل تقريباً، تحرّش به ثلاثة أوغاد، زملاء طبقاً لبعض الروايات، وصنّاع طبقاً لروايات أخرى، كانوا يرغبون في الحصول على أسرار درجة متفوّقة غير مستحقة لهم بعد، حيرام بعد أن دخل من الباب الغربي سدّ الأوغاد عليه طريق الخروج وطلبوا منه الكلمة السرية والإشارة ومسكة اليد التي تخص الزعماء، وعندما رفض البوح بالمعلومات التي يرغبون بها قاموا بمهاجمته.

1ـ في الحقيقة ما ورد في النص الانكليزي الأصلي هو أول سطرين فقط، ولكن لتشاركوني الدهشة رغبت باقتباس الأبيات جميعها، وهي من كتاب نشيد الأناشيد (4: 8ـ15)، ولكن هل يُعقل هذا الافتراء المذكور في العهد القديم على نبي من أنبياء الله؟، المترجم.

2ـ في الحقيقة ليس هناك هيكل بناه سليمان، إنما تصور عزرا كاتب التوراة في القرن السادس ق. م هذا المعبد وتخيله ماشاهده في بابل، والمعبد المتخيل ليس فينيقي الطابع كما يقول الكاتب، بل هو بابلي الطابع بحسب تصور عزرا، (المدقق).

الروايات تتفاوت بشأن نوع الهجوم (الضربة)، وموقع الباب الذي حصل فيه ذلك الهجـوم، إضـافة إلى نوع الأداة ونوع الجرح الحاصل، لأهـدافنا مـن الكـافي أنّ نتطـرق لـثلاث ضربـات، ضُرب عـلى رأسـه بمطرقة أو فأس، ضرب بالشاقول الأفقي[1] على أحد صدغيه، وضُرب بالفادن[2] على الصدغ الآخر.

مـن الناحيـة التاريخيـة تتفـاوت أيـضاً الروايـات عـن تسلـسل هـذه الإصـابات، أي نـوع الهجـوم الافتتاحي والهجـوم الـذي أدى إلى الـضربة القاضـية، أصـيب بـالجرح الأول إمّـا في البـاب الـشمالي وأمـا الجنوبي، حيرام بعد أن تدفق منه الدم الذي ترك أشكالاً متميّزة على الأرض، أخذ يترنح من مخـرج لآخـر، وتلقى ضربة إضافية في كلّ مرة، كلّ الروايات تقول إنه مات عند الباب الـشرقي، هـذا المكـان في المحفـل الحديث هو حيث يقف السيد ليرأس القداس، وطبعاً هو المكان حيث يوضع دائماً مذبح الكنيسة.

خوفاً مما صنعت أيديهم سارع الأوغاد الثلاثة إلى إخفاء جسد السيد، طبقاً لأكـثر الروايـات جـرى إخفاؤه في مكان قرب سفح الجبل، حيث دفن تحت أرض مشاع، غصن من الأقاقيـا[3]،النبتـة المقدّسـة في الماسونية، جرى اقتلاعه من مجموعة أغصان مجاورة وغُرس في القبر، لكي لا تبدو التربـة قـد لمـسها أحـد، ولكن بعد سبعة أيام وعندما شرع تسعة من السادة التابعين لحيرام بالبحث عنـه، قـام أحـدهم بتـسلّق سفح الجبل مستخدماً يديه فأمسك بغصن الأقاقيا، لكنه انقلع وبقـي عالقـاً بيـده، وهـذا طبعـاً أدى إلى اكتشاف جسد الرجل المقتول، وبعد أن أدركوا ما حدث، وخوفاً من أنّ يكـون حـيرام قـد بـاح بكلمـة سر الأسياد قبل موته، صمّم أولئك السادة التـسعة عـلى تغييرهـا، اتفقـوا عـلى أن الكلمـة الجديـدة سـتكون الكلمة التي يصادف أن ينطق بها أحدهم بينما ينبشون الجثّة، ولأن يد حيرام كانت مشبوكة من الأصابع والرسغ فعندما حاولوا سحبها انسلخ الجلد المتفسخ كالقفـاز، فـصاح أحـد الـسادة: «Macbenae!» (أو بمـا يرادف هذه الكلمة)، والتي وفقاً للغة غير محدّدة يُقال إنها تعني «اللحم ينسلخ عن العظم» أو «الجثّـة متفسخة» أو ببساطة «موت أحد البنّائين»، هذه الكلمة أصبحت الكلمة الجديدة التي تميز الأسياد، بعـد ذلك جرى اكتشاف الأوغاد الثلاثة ومعاقبتهم، جسد حيرام نُبش مـن سـفح الجبـل، وأُعيـد دفنـه بمراسـم عظيمة في فناء المعبد، وارتدى كلّ السادة مآزر وقفازات من الجلد الأبيض لإظهار أن لا أحد مـنهم لطّـخ يديه بدمّ الرجل الميت.

1ــ ميزان البنّائين، المترجم.
2ـ أداة مؤلفة من خيط في طرفه قطعة رصاص يُسْبَر بها غور المياه أو تمتحن استقامة الجدار، المترجم.
3ــ أقاقيا أو أكاسيا (acacia) شجرة الصمغ العربي التي كان يُستخدم صمغها مادة لاصقة أو للحلويات أو للدواء، المترجم.

خلال السنوات الـ250 الماضية روايات بديلة للقصّة تفاوتت بعض الشيء في تسلسل الأحداث أو في بعض من التفاصيل المعيّنة كما قلنا، هناك اختلافات في تصرّف سليمان المزعوم أيضاً في كل أنحاء القضية، أحياناً يجري التأكيد بشدّة على دوره، وأحياناً يقلّل من أهميته، لكن كلّ روايات هذه الأسطورة تتركز على الخلاصة التي وردت سابقاً، ما يكمن خلف كواليس القصة هو سؤال آخر، سؤال يتخطى حدود هذا الكتاب، وينتمي على نحو أكثر ملاءمة إلى دراسات علم الأجناس البشرية، علم الأساطير المقارن، وأصل الأديان، انتشرت التعليقات في أعقاب العمل الرائد للسّير جيمس فريزر الذي حمل عنوان «الغصن الذهبي» (The Golden Bough). ناقش بعض العلماء إضافة إلى بعض الكتّاب الماسونيين أنّ كلّ قصّة حيرام كانت كالكثير من القصص الأخرى في الأساطير القديمة، ومن ثم في التوراة أيضاً تشويهاً متعمّداً وستاراً يسعى إلى إخفاء إحدى أكثر الشعائر القديمة والواسعة الانتشار، ألا وهي «التضحية البشرية»، على نحو مؤكد لم يكن مجهولاً في الشرق الأوسط في الأوقات التوراتية أن يجري تكريس بناء ما بجثّة مقدّسة، جثة طفل أو عذراء أو ملك أو شخصية بارزة أخرى من السلالة الملكية، أو كاهن أو كاهنة أو بنّاء، القبر والضريح كانا متشابهين في أغلب الأحيان، في العهود التالية الضحيّة ستكون ميتة سابقاً أو سيُستبدل بها حيوان، ولكن في البداية كان الإنسان يُقتل بتعمد في أغلب الأحيان، ويكون ضحيّة شعائرية ليجري تقديس مكان ما بدمه أو بدمها، إنّ قصّة إبراهيم وإسحاق هي إحدى الإشارات العديدة إلى أن الإسرائيليين القدماء كانوا يشتركون بهذه الممارسات، وفي الحقيقة استمرّت بقايا هذا المنسك تماماً حتى الأوقات المسيحية، حيث تُقام الكنائس كثيراً في مواقع دفن القديسين، أو يجري دفن القديسين في الكنائس ليجري تكريسها، هذا إن لم يجرِ في الحقيقة قتلهم لذلك الغرض، يصوّر بطرس أكرويد في روايته «Hawksmoor» (سبخة الصقور) التي نُشرت عام 1984م سلسلة كنائس لندن في أوائل القرن الثامن عشر التي بُنيت على مواقع حصلت فيها تضحيات بشرية، ما عدّه بعض القرّاء والمراجعين خيال قصّة مرعبة فقط يستند في الحقيقة إلى مبدأ تقليدي منذ زمن طويل، في الزمن الذي كان يكتب فيه أكرويد كان الماسونيون على نحو مؤكد تقريباً على علم بهذا المبدأ، حتى وإن لم يطبّقوه فعلياً.

في كل الأحوال، ومهما كانت الآثار الرجعية التي أُخفيت ضمنها، فإن صميم قصّة حيرام ليس تلفيقاً عصرياً، بل قصة من العصر القديم العظيم جداً، هناك القليل جداً في العهد القديم مما هو صحيح كما لاحظنا، ولكن هناك إسهاب واختلافات بين أقدم الأساطير التلمودية وكتب التوراة اليهودية المزورة، لماذا أصبحت القصة مهمة جداً لاحقاً،

أي لماذا يجب منح حيرام أبعاداً شخصية حقيقية للسيد المسيح، هي طبعاً مسألة أخرى، لكن بالعصور الوسطى أصبح المصمم أو البناء في هيكل سليمان مميزين في نقابات الحجّارين «المهرة»، في عام 1410م هناك مخطوطة ارتبطت بأحد أمثال هذه النقابات تلمح إلى «ابن ملك صور»، وتربطه بعِلم قديم، يُقال إنه نجا من الفيضان وأُرسل إلى فيثاغورس وهرميز[1]، ومخطوطة ثانية وفي الحقيقة لاحقة يعود تاريخها إلى عام 1583م، تستشهد بحيرام، وتصفه بكلا أمرين بأنه «ابن ملك صور» وأنه «سيد»[2]، هذه السجلات المدونة تشهد كما كان بلا شك واسع الانتشار وأكثر قِدماً، هذا العُرف قد يفسّر التشابهات بين ابن ملك صور وأثلستِن، كلاهما من الأمراء الملكيين، وكلاهما يشتهر بأنه مصمم وبأنه أحد البناة البارعين ورعاة البنّائين.

ليس واضحاً تماماً متى أصبحت قصّة حيرام محورية أول مرة في الماسونية، على أي حال من المؤكد تقريباً أنها تشترك إلى حد ما ببدايات المنظمة، بالرجوع إلى السّير وليام سينكلير صاحب مصلى روزلين وإلى رأس «الصانع المقتول» فمن الممكن رؤية أن جرحه مماثل لجرح حيرام المزعوم، بينما رأس المرأة في المصلى يُعرف بأنه لـ «الأمّ المترمّلة»، لذلك هناك مواضيع من قصّة حيرام لها أسبقية قديمة الأزل إلى الماسونية الحديثة.

طبقا لكتّاب ماسونيين لاحقين ارتبطت الجمجمة والعظمتان المتصالبتان منذ مدة طويلة بفرسان الهيكل وبالسيد المقتول، وكم بقي ذلك مجهولاً في الواقع، في أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر استُعملت الجمجمة والعظمتان المتصالبتان أداة للدلالة على قبر حيرام، وبالتوسع أصبحت تدل على أيّ قبر لسيد ماسوني، تقول الأسطورة إنه لدى نبش قبر بروس وُجدت جثته مدفونة حيث جرى وضع عظمتي ساقيه تحت جمجمته متصالبتين كما رأينا، الجمجمة والعظمتان المتصالبتان كانت جزءاً هاماً من الشعارات الدالة على الدرجة الماسونية التي تُعرف بـ «فرسان الهيكل» أيضاً، وتظهر بوضوح بين القبور في كيلمارتِن وفي الأماكن الأخرى من اسكتلندا مع الشعارات الأخرى المختصة بالماسونية.

1ـ هرميز كما هو شائع هو رسول الآلهة عند الإغريق، وإله الطرق والتجارة والاختراع والفصاحة والمكر واللصوصية، أما هرميز الثلاثي العَظمة وهو هرميز الذي يقصده هذا الكتاب فهو الإله المصري ثوث «Thoth»، وقد أطلق عليه هذه التسمية الأفلاطونيون الجدد، لأنهم كانوا يعدّونه معلّماً لثلاثة: الدين والسحر والخيمياء، وثلاثي العظمة جاءت من الكلمة اليونانية «Trismegistus»، المترجم.

2ـ يُقصد بـ «سيد» أي أحد أسياد البنّائين أي الماسونيين، بينما يُعلق المؤلفان على هذه الفقرة بالتالي: «مخطوطة المحفل الأعظم ذات الرقم واحد» أُعيد نشرها في عمل لسادلر عنوانه «حقائق وقصص ماسونية»، في المخطوطة ورد أن المصمم كان ابن حيرام ملك صور، ويمنح اسم «Aynone» الذي يُعدّ أنه خطأ في ترجمة «Adonai» العبرية، ويشير إلى أن ذلك الاسم يدل على «Adoniram» (أدُونيرام) الذي يجري خلطه غالباً «بحيرام أبي»، المترجم.

في الماسونية اليوم يُمثّل موت حيرام ثانية بشعائر من كلّ طامح يرغب بالحصول على المنصب الذي يُدعى «الدرجة الثالثة»، وهي «درجة السيد الماسوني»، لكن هناك الآن إضافة واحد حاسمة، فالسيد يقوم من الموت، أي «اجتياز الدرجة الثالثة» يعني الموت على نحو شعائري، ومن ثم الحياة مجدداً، الشخص يمثل دور حيرام، أي يصبح الشخص كـ «السيد»[1]، ويواجه الموت الذي واجهه، وبعد ذلك ووفقاً لسياق الكلام «ينهض» الشخص كـ «سيد ماسوني»، هناك محاكاة مثيرة لهذا المنسك مع الحادثة التي تخصّ النبي إِيلِيَّا في الملوك الأول (17: 17-24). في زيارة إلى صيدا قرب باب المدينة وجد النبي إِيلِيَّا أرملة تجمع الحطب لإشعال النار، وأخذته إلى منزلها، وفي أثناء زيارته لها مرض ابنها «ابن الأرملة» ومات، «تَمَدَّدَ إِيلِيَّا عَلَى جُثَّةِ الْوَلَدِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ وَابْتَهَلَ إِلَى الرَّبِّ: «يَارَبُّ إِلَهِي، أَرْجِعْ نَفْسَ هَذَا الْوَلَدِ إِلَيْهِ». فَاسْتَجَابَ الرَّبُّ دُعَاءَ إِيلِيَّا، وَرَجَعَتْ نَفْسُ الْوَلَدِ إِلَيْهِ فَعَاشَ».

هناك هامش مثير لقصّة حيرام، وبقي حتى القرن الثامن عشر سرياً على نحو صارم، ويبدو أنه كان جزءاً من العلم الغامض الذي عُهد به فقط إلى الإخوة المطلعين على الأسرار، على أي حال نحو عام 1737م انتشر في فرنسا ذعر كبير من الماسونية وسريتها، واستمرّ حتى الوقت الحاضر، عقب ذلك قامت الشرطة بعمليات هجوم ومداهمة، يبدو أن بعض الأفراد تغلغلوا في المحافل، لكي يخبروا عن النشاطات التي تحصل هناك، القليل من الماسونيين ارتدوا أو سرّبوا المعلومات، في النتيجة بدأ ظهور السلسلة الأولى المستمرة من «الفضائح» التي أثبتت على نحو بارز أنها تافهة تدريجياً، مع هذا نقلوا أسطورة حيرام بطريقة أو بأخرى إلى العامّة، وأعلموا بها غير الماسونيين، وجرّدوها من معظم غموضها المدهش.

عام 1851م نشر الشاعر الفرنسي جيرارد دي نيرفال بعد أن عاد من الجولة من المنطقة التي دعاها بالشرق الأوسط الغريب مذكرات مثيرة تتألف من 700 صفحة عنوانها «رحلة إلى الشرق» (Voyage en Orient)، في هذا المؤلَّف لا يعيد نيرفال رواية تجاربه الخاصة فحسب، كتب بعضها على نحو نصف قصصي، بل تضمّن محاضرة مصوَّرة عن الرحلة، وتعليقات على العادات والأعراف، والأساطير التي صادفها والقصص الشعبية والروايات التي سمعها، من بين تلك الروايات هناك الرواية الأكثر إثارة للذكريات والأكمل والأكثر تفصيلاً عن قصّة حيرام التي لم يصدر مثلها إطلاقاً، لا قديماً ولا حديثاً، نيرفال لا يسرد القصة الأساسية فحسب، كما لُخصت سابقاً، بل يبوح أيضاً وأول مرة في التاريخ بسيل من التقاليد الباطنية المخيفة الموجودة بالماسونية والمرتبطة بخلفية حيرام ونسبه.

1ـ حيرام، المترجم.

ما هو مثير جداً أن نيرفال لم يذكر الماسونية إطلاقاً، مدعياً أنّ قصته هي من نوع القصّة الشعبية الإقليمية التي لم تُعرف في الغرب من قبل، ويدّعي أنه سمعها بعد أن قصها شفهياً راو فارسي في مقهى في القسطنطينية.

لدى كاتب آخر هذه البساطة الظاهرة قد تكون معقولة، ولن يكون هناك سبب معيّن للشكّ في مزاعمه، لكن نيرفال كان جزءاً من الدائرة الأدبية التي تضمّنت تشارلز نودير وتشارلز بودلاير وثيوفيل غاوتير والشاب فيكتور هيوغو، جميعهم كانوا مشبعين بالسرية والباطنية، ليس واضحاً إن كان نيرفال نفسه ماسونياً، ربما لم يكن كذلك، ربما يكون له ولاء آخر في ذلك العالم السري المظلم للطوائف الغامضة والجمعيات السرية، لكن ليس هناك أي شك بأنه كان يعرف ما كان يفعله، أي إنّه كان يعرف أن قصته، حتى وإن سمع رواية منها في مقهى القسطنطينية، لم تكن قصّة شعبية مثيرة شرق أوسطية، بل كانت الأسطورة المحورية للماسونية الأوروبية، السبب الذي جعل نيرفال يختار البوح بها وبذلك الأسلوب لا يزال لغزاً، كالألغاز المتأصلة في السياسة المعقّدة التي يتبعها فرنسيو منتصف القرن التاسع عشر والتي تُدعى «الإحياء الغامض»، لكن روايته المثيرة للعواطف والمحزنة والغريبة والتي تعيد سرد أسطورة حيرام هي أكثر رواية تفصيلاً وكمالاً لدينا على نحو مطلق.

المصمم كالمجوسي

أسطورة حيرام تمثّل خيطاً من التقاليد اليهودية في الماسونية، على أي حال في عدد من رواياتها بما فيها رواية جيرارد دي نيرفال تدمج أيضاً العناصر والتأثيرات الإسلامية، وكما رأينا ادعى نيرفال أنه حصل على روايته من مصادر إسلامية، إذاً كيف وصلت إلى صميم المسيحية في القرون الوسطى بأوروبا؟، ولماذا كانت هامة جداً عند بناة الصروح الدينية المسيحية؟، دعونا نبدأ بدراسة السؤال الثاني.

حرّمت اليهودية صناعة التماثيل المنحوتة، الإسلام ورث ذلك التحريم[1] وحافظ عليه في اليهودية والإسلام، تطوّر التراث الثقافي أنشأ العداء للفنّ التشكيلي، أي إلى أي

1ـ كلمة «ورث» بحاجة إلى بعض التعليق، حيث يعتقد بعض الباحثين الغربيين أن الإسلام استقى مصادره من اليهودية، حتى إن العالم في مقارنة الأديان اليهودي الانجليزي (جايجر) ألف كتاباً عام 1902م، عنوانه (ماذا استفاد محمد من التوراة)، ثم ألف كتاباً أخر، عنوانه (القرآن نسخة مهذبة من التوراة) وعلى القارىء العربي أن يحذر من هذه الكلمات «ورث» وغيرها، لأن الغربيين يقصدون بها غير مانقصد، واليهودية بحسب نص التوراة جسدت الإله والملائكة، فالله يمشي أمام بني إسرائيل كعمود سحاب في النهار وكعمود نار في الليل، ثم نحت اليهود أشكالاً وثنية للملائكة المسّماة (الكروبيم) ووضعت بحسب قول التوراة في المعبد، (المدقق).

تصوير للأشكال الطبيعية، وبما في ذلك طبعاً تصوير الإنسان أو تجسيده، نوع الزُخرُف المرتبط بالكاتدرائيات المسيحية لن يجري العثور عليه في المسجد أو الكنيْس.

جزئياً جرى اقتباس هذا التحريم من حقيقة أنّ أيّ محاولة لتصوير العالم الطبيعي، بما في ذلك الشكل الإنساني، هي كفر تحديداً، فذلك محاولة من الإنسان للتنافس مع اللـه الخالق، بل اغتصاب مكانة اللـه وتجريدها من صفته خالقاً، اللـه وحده الذي يمتلك حق خلق الأشكال من العدم، يخلق الحياة من الصلصال، أن يقوم الإنسان بخلق نسخة طبق الأصل عن هذه الأشكال، ونسخة طبق الأصل عن الحياة، باستخدام الخشب أو الحجارة أو الطلاء أو أيّ مادة أخرى كان خطيئة في حق التفرّد الإلهي بهذا العمل، فذلك يُعدّ في الضرورة محاكاة ساخرة لذلك التفرّد أو تحريفاً له.

لكن كان هناك أيضاً تفسير لاهوتي أعمق وراء هذه العقيدة التي تبدو حرفية أكثر من الضروري، التسويغ هو أن هناك تداخلاً أو ربما تأثّراً بالفكر الفيثاغوري القديم، اللـه هو الواحد الأحد في اليهودية والإسلام معاً، اللـه كلّ شيء، من الناحية الأخرى أشكال العالم المحسوس وافرة ومتعددة ومتنوّعة ومختلفة أنماط كهذه لا تشهد على الوحدة الإلهية، بل على تجزؤ العالم الدنيوي، أن جرى إدراك اللـه مطلقاً خلال الخلق، فذلك لا يجري خلال تعدّد الأشكال، بل خلال المبادئ التوحيدية التي تتخلل تلك الأشكال وتشكل أساساً لها، أي يجب إدراك اللـه خلال مبدأي الشكل والعدد، يُحدد على نحو أساسي بدرجات الزاوية، يظهر مجد اللـه خلال الشكل والعدد، وليس خلال تجسيد الأشكال المتنوّعة، ويجب إسكان الوجود المقدس في صروح تستند إلى الشكل والعدد لا الزخرف التجسيدي[1].

وتكوين الشكل والعدد هو الهندسة طبعاً، وخلال الهندسة والتكرار المنتظم للأنماط الهندسية يجري تحقيق تكوين الشكل والعدد، لذلك خلال دراسة الهندسة يبدو أن بعض القوانين المطلقة أصبحت واضحة، القوانين التي شهدت على النظام السري، التخطيط السري، الالتحام السري، هذه الخطة الرئيسة كما يبدو معصومة وراسخة وكليّة الوجود، واستناداً إلى تلك النوعيات ذاتها يمكن تفسيرها بسهولة على نحو كاف بأنها شيء ذو أصل قدسي، توضيح مرئي للقوّة القدسية والرغبة القدسية ومهارة الحرفة القدسية، وهكذا تصبح الهندسة في اليهودية والإسلام معاً ذات أبعاد مقدّسة، ويجري توظيفها واستثمارها علماً يتسم بالغموض الفائق والباطني.

1ــ استقت المسيحية التجسيد من مصادر وثنية هندية ويونانية، وقد ناسب التجسيد الذوق الوثني الروماني عندما أقر قسطنطين عام 321م بتثليث الإله ورسمه ونحت تماثيل تشير إليه، (المدقق).

نحو نهاية القرن الأول قبل الميلاد أعلن المصمم الروماني فيتروفيوس (Vitruvius) ما كُتب له أن يصبح بعض أهم الأسس المنطقية للبناة اللاحقين، ومثال أوصى بأن يكون البناة منظّمين ضمن مجتمعات ذات مصالح مشتركة أو ضمن الكوليجيوم[1]، أصرّ على «أن تتجه المذابح نحو الشرق»، كما هو الحال طبعاً في الكنائس المسيحية، وما هو أكثر أهميّة برهن على أن المصمم هو أكثر من تقني فقط، المصمم كما قال: «يجب أن يكون... رساماً ماهراً وعالم رياضيات وملماً بالدراسات التاريخية وطالباً مجتهداً في الفلسفة ومحاطاً علماً بالموسيقى، وملماً بالتنجيم»، المصمم عند فيتروفيوس هو في الواقع مجوسي من نوع ما، وملمّ بقدر من المعرفة البشرية ومطلع على قوانين الخلق السرّية، أسمى هذه القوانين هو الهندسة التي أُلزم المصمم أن يعتمد عليها لبناء المعابد «بمساعدة النسبة والتناظر... ».

إذاً في هذا المجال أيضاً الإسلام واليهودية يتلاقيان بالفكر الكلاسيكي، أليس فن العمارة هو التطبيق والتحقيق الأسمى للهندسة، التطبيق والتحقيق الذي وصل إلى ما هو أبعد حتى من الرسم، والذي منح الهندسة الأبعاد الثلاثة؟، أما أصبحت الهندسة في الواقع مجسّدة في فن العمارة ؟.

لذلك جرت عبادة الله وتمثيل وجوده في أبنية مستندة إلى الهندسة فقط وخالية من الزخارف التي تصرف الانتباه أو تحرف العقل، لذلك الكنيس والمسجد كلاهما لا يستند إلى الزخارف، بل إلى المبادئ الهندسية والعلاقات الرياضية المجرّدة، والتزيين الوحيد الذي سُمح بإدخاله كان من النوع الهندسي المجرّد، ومثال لذلك المتاهة والزخرفة العربية ورقعة الشطرنج والأقواس والأعمدة أو الدعائم وغيرها من تلك التجسيدات «النقية» مثل التناظر والانتظام والتوازن والنسبة.

في أثناء حركة الإصلاح جرى تحريم الفنّ التشكيلي من بعض الأنماط الأكثر صرامة من المذهب البروتستانتي، وكان ذلك خصوصاً في اسكتلندا، لكن المسيحية في القرون الوسطى تحت هيمنة الكنيسة الكاثوليكية لم تكن تتميز بهذا التحريم أو الحظر، مع هذا سيطرت المسيحية على نحو سريع على مبادئ الهندسة المقدّسة، ووظفتها لزيادة محاولتها لتجسيد القداسة وإجلالها، منذ فترة الكاتدرائيات القوطية[2] فصاعداً تماشت

1ـ الكوليجيوم (collegium ؛collegia) مجلسٌ يتميز كل عضو من أعضائه بسلطة مساوية تقريباً لسلطة الأعضاء الآخرين، المترجم.

2ـ القوطيّون الغربيّون هم شعب ألماني قديم غزا الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع بعد الميلاد، استقروا في المناطق التي تضم الآن إسبانيا والبرتغال وفرنسا، المترجم.

الهندسة المقدّسة في فن العمارة وفي الزينة المعمارية مع الفنّ التشكيلي مكوّناً تكاملياً للكنائس المسيحية.

في الحقيقة كانت الهندسة العامل الوحيد الأكثر أهمية في الكاتدرائية القوطية، كان بناء أيّ من هذه الصروح يجري تحت إشراف ما جرت تسميته «معلّماً أو سيد العمل» (Master of the Work) كما لاحظنا في مبنى مصلى روزلين، كلّ من هؤلاء الأسياد سيبتكر هندسته الفريدة الخاصة، وكلّ ما سيتبع من بناء كان لا بدّ من أن يجري تنسيقه وفقاً لتلك الهندسة التي وضعها سيد العمل، دراسة لكاتدرائية شارتْر (Chartres)[1] كشفت توظيف أكثر من تسعة معلّمين مستقلين في أثناء عملية بنائها.

أكثر المعلّمين كانوا جوهرياً حرفيين ورسامين مهرة، ومهاراتهم كانت تقنية على نحو كلي، على أي حال كان بعضهم متعلمين جداً في ما هو أفضل من ذلك، كما يُظن اثنان من أصل تسعة في شارتْر، عملهم يعكس سمة ميتافيزيقية[2] أو روحية أو باللغة الماسونية سمة «تأمّلية»، تشهد على درجة عالية من التعلّم والتطوّر، تشهد على الرجال الذين كانوا مفكّرين وفلاسفة، إضافة إلى كونهم بنائين، إحدى المخطوطات منذ عام 1410م تتحدث عن «علم» جرى إنعاش أسراره بعد الفيضان من فيثاغورس وهرميز[3] كما لاحظنا، من إشارات من هذا النوع نجد بصدق أن هناك بعض المعلّمين على الأقل ممن توصلوا إلى الفكر الأفلاطوني المحدث والفكر الهرميزي قبل مدة طويلة من رواج هذا النوع من الفكر في أوروبا الغربية في أثناء عصر النهضة، ولكن قبل عصر النهضة كان هذا الفكر يوصف بأنه هرطقة، ويُستمد من المصادر غير المسيحية، وكان يمكن أن يكون خطيراً جداً على أتباعه الذين أُرغموا على السرية أيضاً، في النتيجة التقاليد «الباطنية» للمعلّمين «المطّلعين على الأمور السرية» كان من شأنها أن تظهر ضمن نقابات «الحجّارين المهرة»، إذاً هنا كانت بذور ما جرت تسميتها لاحقاً الماسونية «التأملية».

ضمن هذه التقاليد «الباطنية» للمعلّمين «المطّلعين على الأمور السرية» أصبحت الهندسة المقدّسة تتميز بأهمية عظمى، تجلّ للقداسة كما رأينا، كانت الكاتدرائية لهؤلاء الأسياد أو المعلمين أكثر من «بيت الله» فقط، كانت أقرب إلى كونها آلة موسيقية، آلة ضُبطت أنغامها إلى درجة روحية معيّنة وسامية كالقيثارة، إذا جرى العزف على الآلة

1ـ شارتْر مدينة تبعد 80 كلم جنوب غرب باريس، وتشتهر بكاتدرائيتها القوطية الكبيرة، المترجم.
2ـ ما ورائيّ، غيبيّ، فَوْطبيعيّ، فوق الطبيعة أو خارقٌ لها، المترجم.
3ـ الثلاثي العَظَمة وهو الإله المصري ثوث، المترجم.

على نحو صحيح، فإن الرب نفسه سيعود صداه خلالها، وسيجري الشعور بوجوده من كلّ الزوار، ولكن كيف يمكن الشخص أن يعزف النغم على نحو صحيح؟، كيف حدّد الرب متطلباته التصميمية وأين؟، الهندسة المقدّسة زوّدت بالمبادئ العامّة والقوانين الأساسية، ولكن يُظن أن هناك أحد النصوص في العهد القديم وجّه خلاله الرب عباده وأمرهم تماماً، وعلى نحو محدّد كيف يرسمون مخطّطاته الخاصة، هذا النص كان بناء هيكل سليمان، ولذلك بناء المعبد كان يحظى بأهمية قصوى لحجّاري العصور الوسطى، هنا علّم الرب في الواقع التطبيق العملي للهندسة المقدّسة خلال الهندسة المعمارية، ولذلك جرى عدّ حيرام الصوري الذي كان التلميذ الرئيس للرب القدوة والنموذج الذي يجب على كلّ بنّاء بارع حقيقي أن يطمح إلى أن يكون مثله.

المعرفة الخفيّة

لهذا حصلت قصّة حيرام على الأهمية التي حصلت عليها، يبقى هناك سؤال، هو كيف وصلت تلك القصة وزخارفها المختلفة إلى قلب أوروبا المسيحية، وكيف وصلت الهندسة المقدّسة كلها المكونة من الفكر الفيثاغوري والفيتروفياني والإسلامي واليهودي والأفلاطوني المحدث والهرميزي إلى الغرب؟، لكي تجري الإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن ينظر المرء إلى الفترات التاريخية التي كانت فيها تلك المنشآت التعليمية أكثر تأثيراً واستيعاباً، الفترات التي كانت فيها المسيحية منفتحة جداً على «سيل» التأثيرات، وتشربته بنوع من أنواع التنافذ أو التناضح[1]، وأحياناً تشربته بتعمد.

أول هذه الفترات كانت في القرنين السابع والثامن، عندما كان الإسلام مدفوعاً بسمة القوة الجهادية للدين الجديد، فاكتسح الشرق الأوسط وعبر سواحل شمال إفريقيا ومضائق جبل طارق، وغطت جيوشه شبه الجزيرة الأيبيرية[2] متقدّماً نحو فرنسا، الحكم الإسلامي اللاحق في إسبانيا وصل مجده في القرن العاشر، أي تزامناً مع عهد أثلستن في انجلترا، مع أنه ليس هناك توثيق للمسألة، إلا أنه من الممكن جداً أن بعض مبادئ الهندسة المقدّسة والهندسة المعمارية ارتشحت من إسبانيا وفرنسا نحو الشمال، جيوش الإسلام ربما أوقفها تشارلز مارتيل في معركة بواتيه عام 732م، ولكن الأفكار هي دائماً أكثر صعوبة، لأن تصدّها الجيوش.

1ـ التناضح، التنافذ، الأزموزية تبادلٌ يحصل بين سوائلَ مختلفةِ الكثافة ومفصولةٍ عن بعضها بغشاءٍ عضويّ، حتى يتجانس التركيب، المترجم.

2ـ القوقازية، إسبانيا أو البرتغال، المترجم.

في عام 1469م تزوّج فيردناند الأرغوني من ابنـة عمـه إيزابيـل القـشتالية، مـن هـذا الاتحـاد ولـدت إسبانيا الحديثة، بحماسة رسولية بدأ فيردناند وإيزابيل برنامج «التنقية»، حيث يجـب تطهـير ممتلكـاتهم المتّحدة على نحو منظّم من كلّ العناصر «الأجنبية»، أي اليهودية والإسلامية، الفترة التي تلـت ذلـك هـي عصر محاكم التفتيش الإسبانية وحرق المهرطقين، كما قال كـارلوس فـوينتس إن إسـبانيا في هـذه المرحلـة تخلصت من الفجور العربي والفطنة اليهودية، وأصبحت مطهَّرة، لكن في أثناء فترة سبعة القرون ونـصف بين معركة بواتيه وعهد فيردناند وإيزابيل كانت إسبانيا مستودعاً حقيقياً للفكـر «البـاطني»، في الحقيقـة كان «الباطني» الرئيسي الأول في العرف الغربي الميورقي[1] رايموند لول، أو لولي الذي أدت أعماله إلى تأثير هائل في التطوّرات الأوروبية لاحقاً، لكن ناهيك بـ(لـول) كـان معروفـاً أن الأشـخاص الـذين يـسعون إلى «المعرفة الباطنية أو السرية» كان لا بدّ لهم من أن يحجّوا قانونياً إلى إسـبانيا، في رومانـسية «بارسـيفال» يدّعي وولفرام فون اسكِباتش أن قصّته اشتُقّت في النهايـة مـن مـصادر إسـبانية، نيكـولاس فلاميـل أكـثر الخيميائيين شهرة بين الغربيين الأوائل، قيل إنه تعلّم أسرار التحويل من كتاب حصل عليه في إسبانيا.

لذلك كانت إسبانيا سبعة قرون ونصفاً مصدر الوحي «الباطني»، من إسبانيا اسـتمر تـسرب تلك العلوم إلى بقيّة أنحاء أوروبا، أحياناً على نحو تدريجي وأحياناً أخـرى مثـل سـيل عـارم، لكـن التأثير الإسباني مع أهميته جرى التفوق عليه بسرعة نتيجة الاتصالات الأخرى الأكثر إثارة وأهمية، والتي حصلت بين المسيحية والمعتقدات المنافسة لهـا، أوّلهـا كـان طبعـاً الحمـلات الـصليبية التـي أصبح خلالها عشرات آلاف الأوروبيين في الأرض المقدّسة مـشبعين بالمـذاهب نفـسها التـي زحفـوا من أجل استئصالها، في أثناء الحملات الصليبية أصبح القصر الصِقلّيّ للإمبراطور فريـدريك الثـاني[2] من «هونستافِن»[3] داراً حقيقية لتبـادل التيـارات الفكريـة اليهوديـة والإسـلامية، فرسـان الهيكـل كانوا حاضناً رئيساً آخر، وربما الحاضن الرئيس لهذه التيارات، مع أن فرسان الهيكـل يُطلـق علـيهم «فرسان السيد المسيح» أيضاً إلا أنهم عملياً حافظوا على علاقات ودّيـة بكلتـا الـديانتين الإسـلامية

1ـ نسبة إلى ميورقة أكبر جزر البَليار، وهي منطقة جزر إسبانية مستقلة غربي المتوسط، المترجم.

2ـ فريدريك الثّاني (صقلية) (1272م ـ 1337م)، ملك صقلية (1296م ـ 1337م) هو من أسّس سلالة مستقلة على الجزيرة، الابـن الثالث للملك بيدرو الثّالث ملك أرغون (1239م ـ 1285م)، أصبح فريدريك وصياً على صقلية ومالكاً لأرغون عام 1291م، بعـد أربع سنوات وعندما استسلمت الجزيرة للبابوية تمرّد الصقليون واختاروا فريدريك زعيماً لهم، ومن ثم جرى تتويجه ملكـاً عام 1296م، المترجم.

3ـ (Hohenstauffen) بلدة ألمانية، المترجم.

واليهودية، بل يُقال إنهم ساندوا خططاً طموحة لإجراء المصالحة بين المسيحية والمعتقدات المنافسة لها.

فرسان الهيكل مارسوا البناء على نطاق واسع مستخدمين فرقهم الخاصة من البنّائين، أي الماسونيين، فبنوا قلاعهم ومراكزهم الاجتماعية الخاصة، وكان فن العمارة لدى فرسان الهيكل بيزنطياً في خصائصه، يعكس تأثيرات تتجاوز نطاق سيطرة روما كما رأينا، جرى العثور على قبرين من قبور زعماء فرسان الهيكل الماسونيين في عثليث في فلسطين، ربما هما أقدم قبرين «ماسونيين» معروفين في العالم.

تبنّى فرسان الهيكل نقاباتهم الخاصة، عملوا رعاة وحماة للنقابات الأخرى من الحرفيين والحجّارين أيضاً، ويبدو أحياناً أنهم أصبحوا أنفسهم أعضاء في هذه النقابات[1]، وأحياناً الصنّاع الماهرون أيضاً سيجري ضمّهم إلى المعبد «زملاء»، سيعيشون في قرى مستقلة ذاتياً مرتبطة بمراكز اجتماعية لفرسان الهيكل، وسيتمتّعون بالكثير من امتيازات النظام كالاستثناء من الرسوم والضرائب، علاوة على ذلك نصّب فرسان الهيكل في أوروبا أنفسهم حماة للطرق، إذ كانوا يضمنون المرور الآمن للحجاج والمسافرين والتجار والبناة، نظراً إلى هذا الطيف الواسع من النشاطات، ليس غريباً أن تجد تلك المبادئ في الهندسة المقدّسة وفن العمارة طريقها إلى أوروبا الغربية برعاية فرسان الهيكل.

لكن إن كان فرسان الهيكل حماة هذه المبادئ، فيمكنهم أن يكونوا كذلك فترة من الزمن فقط لا أكثر، وربما لا أقل، من فترة وجودهم التي لم تتجاوز قرنين من الزمن، وليس واجباً أيضاً أن يجري تضخيم فرسان الهيكل إلى الشكل الذي لم يكونوا عليه قط كما شدّدنا مراراً وتكراراً، بعضهم من موظفي النظام ربما كانوا في الحقيقة مثقفين جيداً كنظرائهم في السلطة الكنسية مثلاً، بعضهم ربما كان في الحقيقة مثقّفاً في أسرار الهندسة المقدّسة وفن العمارة، ولكن أغلبية فرسان الهيكل كانوا جنوداً عنيفين فقط، وجاهلين وبسيطين كأكثر النبلاء الآخرين في زمانهم، هؤلاء الرجال ربما تعلموا من رؤسائهم أن نقابات الحجّارين «المهرة» كانت تمتلك أسراراً تقنية تستحقّ الاحترام، ولكنّهم لم يكونوا على معرفة بتلك الأسرار، والأقل من ذلك هو قدرتهم على فهمها، علاوة على ذلك لدى الحلّ الرسمي للنظام، فُقد الكثير بلا شك، في اسكتلندا خصوصاً انفصل اللاجئون من فرسان الهيكل عن رؤسائهم السابقين، وربما لم يتبق لهم سوى ملاحظة الأشكال الفارغة، ربّما عاملوا فنّ البناء باحترام، ولكن أهميته لهم ربما كانت أكثر رمزية

1ـ في اسكتلندا وصلت الأنشطة التجارية لفرسان الهيكل إلى مرحلة كانوا يهدّدون فيها مصالح أعضاء النقابة التجارية، وجرى سن قانون لضمان «أنه لا يُسمح لأي من فرسان الهيكل بالتدخّل في شراء السلع التي تخص النقابة أو بيعها ما لم يكن هو نفسه عضواً في النقابة»، ولأن فرسان الهيكل لم يقلّلوا أنشطتهم التجارية، لذلك لا بدّ من أن بعضهم انضم إلى نقابات ملائمة، المؤلفان.

وتقليدية من التطبيق العملي، فمن الصعب جداً أن يكونوا قد فهموا الكثير عنه، في الحقيقة ربما كان فرسان الهيكل الذين نجوا في اسكتلندا أشبه بالأنواع اللاحقة من الماسونية، على نحو ميكانيكي يخلّدون مجموعة من التقاليد والشعائر من دون أن يقدروا حقاً ما تدل عليه تلك الممارسات.

إذا كان هناك اتصال بين فرسان الهيكل ونقابات الحجّارين «المهرة» في اسكتلندا، فإنه في كل الأحوال استنزف نفسه في القرن الخامس عشر، نفد وأصبح مخفّفا، ولكن تماماً في تلك المرحلة جرى انتقال وحي جديد من مكان آخر، جدّد تطبيق الهندسة المقدّسة على فن العمارة، ومنح حافزاً جديداً لكليهما، في عام 1453م سقطت القسطنطينية وآخر البقايا المتبقية من الإمبراطورية البيزنطية القديمة في أيدي الأتراك، كانت النتيجة تدفّقاً هائلاً من اللاجئين إلى أوروبا الغربية، ومعهم الكنوز التي جرى جمعها خلال السنوات الألف السابقة من المكتبات البيزنطية العامة، نصوص عن التكهّن والأفلاطونية المحدثة والغنوسطية والقبلانية والتنجيم والكيمياء والهندسة المقدّسة وكلّ التعاليم والتقاليد التي نشأت في الاسكندرية في أثناء القرون الثالث والثاني والأول التي جرى تحديثها ودمجها على نحو متواصل، وبعد ذلك، أي في عام 1492م افتتح فيردناند وإيزابيل الإسبانيّان عمليات الاستئصال عديمة الرحمة للإسلام واليهودية من نطاق حكمهم كما رأينا، وهذا أدى أيضاً إلى نزوح جماعي للاجئين الذين شقوا طريقهم شرقاً وشمالاً، جالبين معهم كامل المجموعة «السرية» الأيبيرية التي كانت تتسرب تدريجياً إلى الديانة المسيحية منذ القرنين السابع والثامن.

تأثير هذه التطوّرات كان ساحقاً، لقد حوّل الحضارة الغربية، يلتقي العلماء والمؤرخون على أن تدفّق الأفكار من بيزنطة[1] وإسبانيا هو ربما العامل المساهم الوحيد والأكثر أهمية إلى الظاهرة الثقافية التي تُعرف الآن بعصر النهضة.

وجدت الثقافة البيزنطية طريقها أولاً إلى إيطاليا، حيث انقض عليها مباشرة رجال مثل كوزيمو دو ميديسي[2]، جرى تأسيس وانتشار الأكاديميات الدراسية، جرى تشجيع

1ـ بيزنطة مدينة يونانية قديمة على البوسفور، بنى الإمبراطور قسطنطين في موقعها (عام 330 ب. م) مدينة القسطنطينية، وقد عُرفت في العهد العثماني بالآستانة، وتُعرف اليوم باسطنبول، المترجم.

2ـ كوزيمو دي ميديسي (1389م ـ 1464م)، مصرفي إيطالي ورجل دولة، معروف بكوسيمو الأكبر، خلف أباه جيوفاني مديراً ناجحاً لمصالح العائلة التجارية والمصرفية وزعيماً الفئة الشعبية في السياسة الفلورنسية، وبعد أن نُفي عام 1433م جرت إعادته في العام التالي، واستلم آنذاك سيطرة شبه تامة على الحكومة، وحافظ على منصبه في إبعاد بعض أعدائه، ودمّر الآخرين بضرائب باهظة، فطنته المالية أفادت عائلة فلورينس وعائلته، وربما كان الرجل الأغنى في إيطاليا المعاصرة. شجّع كوزيمو الزراعة والصناعة الحريرية والتجارة، وأراد المحافظة على السلام في إيطاليا عبر توازن القوى بين المناصب الرئيسة ومنع التدخل الخارجي، رعى على نحو نشيط الفنانين والمصممين والعلماء، وحشد مكتبة بشرية عالية المستوى، برنامج البناء العام الذي وضعه أصبح نموذجاً لعائلته ولغيره من الحكّام، المترجم.

التراجم وإقرارها، أقدمها وأكثرها شهرة يعود إلى «مارسيليو فيسينو[1]»، جرت كتابة التفاسير ونشرها كما حصل في منشورات بيكو ديلا ميراندولا مثلاً، من إيطاليا في أثناء السنوات المئة التالية موجة من العلوم «الباطنية» عبر بقيّة أنحاء أوروبا، الهندسة المقدّسة التي تُعدّ الآن أحد أنواع «الطلاسم السحرية» لم تكن تُطبّق فقط على الهندسة المعمارية بل على الرسم أيضاً، كما في أعمال ليوناردو وبوتيشيلي مثلاً، وقريباً غطّت الفنون الأخرى، بما في ذلك الشعر والنحت والموسيقى وخصوصاً المسرح.

ذلك لا يعني أن فن العمارة، الهندسة المعمارية قد قلّت أهميته، على العكس لقد اكتسب منزلة سامية أكبر من ذي قبل، نشر الأفلاطونية المحدثة، مجموع التعاليم الباطنية التي اندمجت في الاسكندرية بعد المسيحية مباشرة، منح أهمية مُجدَّدة للفكر الكلاسيكي الأقدم لأفلاطون نفسه، علماء عصر النهضة الذين كانوا يسعون بحماسة إلى العثور على ارتباطات ملائمة، أسسوا قاعدة حاسمة للتبلور اللاحق للماسونية، في كتاب أفلاطون «تيمايُس» (Timaeus) يظهر أقدم تشبيه للخالق بـ «مصمم الكون»، إنّ الخالق في كتاب «تيمايُس» الخالق يُدعى «تيكتون» (tekton) أي «الحِرَفيّ» أو «البنّاء»، وهكذا فإن «Arche tekton» تدلّ على «الحرفي البارع»[2] أو «البنّاء البارع»، عند أفلاطون «arche-tekton» هو من صنع الكون بوساطة الهندسة.

كما رأينا شقت مجموعة المواد «الباطنية» الآتية من القسطنطينية طريقها أولاً إلى إيطاليا، والكثير من المجموعة الخارجة من إسبانيا وصلت بعد أربعين سنة إلى إيطاليا أيضاً، ولكن الكثير شقت طريقها إلى البلدان المنخفضة[3]، أراضي فلاند وهولندا الخاضعة للسيطرة الإسبانية، هنا ولد عصر النهضة الفلمنكي الذي وازى الإيطالي، ومع بداية القرن السادس عشر، توحّدت الخيوط التي نشأت في إيطاليا وفي البلدان المنخفضة برعاية عائلتي غايس ولورين، وهكذا جرى نشر الطبعة الفرنسية الأولى من

1ـ أفضل رواية عن الأحداث وعن الخلفية «الهرميزية» لفنّ عصر النهضة موجودة في كتاب فرانسيس ييتس «جوردانو برونو والتقاليد السحرية»، صدر في لندن عام 1964م، وجرت إعادة طباعته مرات كثيرة، عملها مثلاً يوضح أن سادة عصر النهضة كانوا «يحاولون التأثير في العالم بالرسوم والصور السماوية، لكي يقللوا شأن المؤثرات المفضّلة ولاستبعاد غير الملائم منها»، وأن الكثير من أمثلة فنّ عصر النهضة التي أنشئت لهذه الأسباب العملية المتفوقة كانت «تعويذات معقّدة»، لوحة بوتيشيلي «بريمافيرا» هي على نحو مؤكد أحد هذه الأسباب»، المؤلفان.

2ـ في أنحاء مختلفة من الكتاب قمت بالدلالة على هذه الاسم بعدة مفردات مثل «المعلّم» أو «السيد»، وذلك للربط بالتسميات التي يحملها الزعماء الماسونيون، فهذا ما يسعى إليه تدريجياً مؤلفا الكتاب، المترجم.

3ـ منطقة في شمال غرب أوروبا، تتكوّن من بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ، السكان 000. 016. 26 (1995م) والمساحة 943. 73 كيلومتر مربّعاً، المترجم.

«المجموعة الهرميزية» المؤثرة (Corpus hermeticum) التي نُشرت عام 1549م، وكُرّست لتشارلز دي غايس كاردينال لورين، شقيق ماري دي غايس التي تزوّجت جيمس الخامس ملك اسكتلندا وأنجبت ماري ملكة الاسكتلنديين.

عائلتا غايس ولورين كانتا مشبعتين بالتقاليد «الباطنية»، في الحقيقة اهتمام كوزيمو دو ميديسي في «الباطنية» البيزنطية له الكثير من الفضل على تشجيع زميله الأكاديمي رينيه دانجاو الذي كان دوق لورين في منتصف القرن الخامس عشر، والذي أمضى بعض الوقت في إيطاليا، وتبنّى ازدراع[1] النهضة الفكرية الإيطالية ضمن أراضيه، كما فرض القرب الجغرافي المطلق على الثقافة القادمة من فلاندر أن تشق طريقها إلى تلك الأراضي أيضاً، وبعد ذلك أصبحت عائلتا غايس ولورين مع أوائل القرن السادس عشر، ومع كاثوليكيتهم المزعومة الضامن المثابر للأعمال «الباطنية» للأوروبيين، وجرى نقلها إلى اسكتلندا عن طريقهم، عن طريق زواج ماري دي غايس من جيمس الخامس، وعن طريق الحرس الاسكتلندي، وعن طريق عوائل كعائلة ستيوارت، سيتون، هاملتون، مونت غومري، وسينكلير، وهنا في اسكتلندا وجدت التربة الخصبة، حيث إرث فرسان الهيكل القديم هيّأ الأرض والنقابات للحجّارين «المهرة» برعاية سينكلير، وقاموا بتأسيس أسرارهم الخاصة، وهنا نجد أن ماري دي غايس تكتب للسّير وليام سينكلير أن:

... نلتزم للسّير المذكور وليام، بأننا سنكون على النمط نفسه، وبأنّنا سنحفظ أسراره على نحو حقيقي وصحيح، مشورته وسرّه الذي أطلعنا عليه سيبقى سراً[2].

المعرفة الخفيّة في فرنسا وانجلترا

عائلتا غايس ولورين كما رأينا كانتا طموحتين على نحو متحجّر القلب، لم يكن بينهم وبين العرش الفرنسي مسافة شعرة فقط، بل هم سلطوا أنظارهم إلى البابوية أيضاً، وكانوا سيحصلون عليها على نحو مؤكد لو أن مؤامراتهم وحماقاتهم في السياسة الفرنسية لم تعرض صدقهم للخطر، ولم تهدر مواردهم، لكي يسهّلوا خططهم للاستيلاء على عرش القديس بطرس تعهّدوا بجعل أنفسهم حصن أوروبا الكاثوليكية، أي «حماة الدّين» ضدّ التوسع الإصلاحي البروتستانتي إلى ألمانيا وسويسرا والبلدان المنخفضة، في النتيجة تبنّوا وتابعوا سياسة عامّة من الكاثوليكية الحماسية، والمتعصّبة جداً في أغلب

1ـ يَزْدَرِع: ينقل غرسةً إلى تربة أخرى، يُقصد بها نقل الفكر الإيطالي إلى أراضيه، المترجم.
2ـ رسالة تاريخها في الثالث من حزيران عام 1546م، المؤلفان.

الأحيان، أحد مظاهر هذه السياسة كان الاتحاد المقدّس المعروف، وهو تحالف الأمراء والملوك الكاثوليكيين المكرّس لاستئصال البروتستانتية من أوروبا، عند الغرباء بدا الاتحاد المقدّس شهادة على تقوى عائلتي غايس ولورين، على أي حال عند عائلتي غايس ولورين ذاتهما كان الاتحاد المقدّس ببساطة مسألة ذريعة سياسية، مخطّط لكيان ينوي في النهاية خلع الإمبراطورية الرومانية المقدّسة أو ضمها، وستكون الفائدة قليلة طبعاً لو جرت السيطرة على البابوية وهي ضعيفة، ومن أجل أن تكون السيطرة على البابوية جديرة بالتقدير يجب أن تجري تقويتها وجعلها تستعيد هيمنتها على أوروبا قدر الإمكان، كما كانت في القرون الوسطى القديمة.

من سوء حظ عائلتي غايس ولورين كانت السياسة والصورة العامّة التي سهلت خططهم في أوروبا ذات نتيجة عكسية في بريطانيا، ففي ذلك الوقت اعتنقت انجلترا واسكتلندا المذهب البروتستانتي تجسّد لدى انجلترا خصوصاً التهديد الأساسي سريعاً في إسبانيا الكاثوليكية التي تزوج حاكمها فيليب الثّاني من ماري تودور قبل أربع سنوات من موتها عام 1558م، أيّ شيء «كاثوليكي» حتى وإن كان ضعيفاً كان يشكل لعنة في انجلترا، والاتحاد المقدّس جرى عدّه خطراً ليس على البروتستانتية في أوروبا فقط، بل في الجزر البريطانية أيضاً، استناداً إلى دعمهم المتحمّس للكنيسة أصبح فرانسوا دي غايس وعائلته في نظر الانجليز كالغيلان، ولا يفوقهم خطراً إلا الملك الإسباني.

جرى اعتناق الفكر «الباطني» بحماسة في انجلترا، فقد اعتنقه شعراء مثل سيدني وسبينسير مثلاً، وظهر في أعمال شعرية مثل «أركاديا» (Arcadia) و«الملكة الجنّية» (The Faerie Queene)، وقد اعتنقه أيضاً مارلو وفرنسيس بيكون، ولكن إلى الحدّ الذي ارتبطت به العائلات الكاثوليكية في أوروبا، لم يكن يمكن التعامل به علناً، فقد جرت معاملته في أغلب الأحيان على نحو غير مباشر ومجازي، وجوده كان سرياً بشدة، وانحصر في عصابات علمية صغيرة، ومقيداً بالحلقات الأرستقراطية، وبما ندعوه «الجمعيات السرية»، هذه المنظمات كانت على الأغلب معادية للبابويّة على نحو نضالي، كما عارضت بنشاط الطموحات السياسية والوراثية الصارخة لعائلتي غايس ولورين في أوروبا، لكنّها كانت معاً حافلة بالأعمال «الباطنية» التي تسرّبت عائدة إلى اسكتلندا من عائلتي غايس ولورين ووجدت هناك تربة أكثر خصباً.

تثبت مهنة الفيلسوف الاسكتلندي ألكساندر ديكسون الطريقة التي جرى فيها نقل ثقافات كهذه وسط التيارات المتبادلة السياسية المعقّدة لتلك الفترة، ديكسون وُلد عام

1558م، وتخرّج في سانت أندروز عام 1577م، وأمضى سنواته الستّ التالية في باريس، لدى عودته نشر كتاباً كرّسه لمحبوب الملكة أليزابيث، إنه روبرت دادلي الذي كان إيرل بلدة ليستر، اعتمد هذا الكتاب بشدّة على الأعمال السابقة للإيطالي «الباطني» البارز جوردانو برونو الذي قاده تحديث روما إلى حتفه عام 1600م، والذي رشّح قبل موته ديكسون وريثاً له[1]، ومع ذلك وفي عام 1583م، ومع علاقته المتينة ببرونو الذي تعدّه روما زنديقاً كبيراً، ومع تحركاته ضمن حلقات مقربة جداً من عرش أليزابيث كان ديكسون في باريس يعلن دعمه على نحو صاحب لماري ملكة الاسكتلنديين، ويرتبط بشخصيات بارزة ارتبطت بالاتحاد المقدّس، ومع أن صداقته لسيدني تبدو نقية على نحو كاف، إلا أنه كان جاسوساً أيضاً، وكان يمد السفير الفرنسي بالوثائق الانجليزية السرية، بما فيها بعض مما كتبه سيدني، في عام 1590م كان ديكسون في فلاندر يؤدي مهمات سرية للملوك الكاثوليكيين، في عام 1596م أشيع أنه كان يعمل مع جيمس بيتون السفير الاسكتلندي في فرنسا، ومع تشارلز دي غايس دوق ماين (Mayenne)، وكان آنذاك رئيس الاتحاد المقدّس، ارتبط بهذه المجموعة أيضاً اللّورد جورج سيتون الذي جُعل ابنه روبرت إيرل وينتون عام 1600م، وتزوّج مارجريت مونت غومري، وفي ذلك شكل التحالف الذي كان من شأنه أن يقود بموازاة فرع شاب من العائلة إلى أرليّة إيغلينتون (Eglinton)، بيتون الذي كان سابقاً رئيس أساقفة غلاسكو كان يتآمر مع عائلتي غايس ولورين على الأقل منذ عام 1560م، في عام 1582م وبينما كان ديكسون لا يزال في باريس كان بيتون وهنري دوق غايس يخطّطان لغزو انجلترا بجيش جهّزته إسبانيا والبابوية، في ليلة قبل إعدامها عام 1587م عينت ماري ملكة الاسكتلنديين بيتون وهنري دي غايس من بين مُعدميها.

يمثّل ألكساندر ديكسون الطريقة التي أصبحت فيها الولاءات «الباطنية» والسياسية متشابكة، فتعمل أحياناً بتناسق وأحياناً أخرى بتعارض تام، على أي حال كان ديكسون شخصية ثانوية تقريباً مقارنة «بالمجوسي الرئيسي» لانجلترا في ذلك العصر، إنه الدّكتور جون دي، ومع ذلك كان دي أيضاً يشق طريقاً مزعزعاً بين الفئات المتحاربة، أي بين المصالح الكاثوليكية والبروتستانتية، وبين التطلّع إلى المعرفة «الباطنية» ومتطلبات الحالة الراهنة الأكثر إلحاحاً، ولم يهرب من غير أذية كديكسون، ومع أن ولاءه البروتستانتي لم

1ـ في الحقيقة كان ديكسون أحد المروجين لأفكار برونو الأكثر مثابرة، عندما زار برونو انجلترا عام 1584م اجتمع باثنين من أقرب أصدقاء ديكسون، فولك غريفيل الذي كان لورد بروك، والسّير فيليب سيدني، ديكسون على نحو شبه مؤكد كان موجوداً، المؤلفان.

يكن قطّ مشكوكاً فيه كديكسون، إلا أنه وقع تحت الشبهة مراراً وتكراراً، وسُجن مرّة وجرى إزعاجه بقسوة.

الدكتور جون دي «Johne Dee» وُلد في ويلز عام 1527م، طبيب، فيلسوف، عالم، منجّم، خيميائي، قبلاني، عالم رياضيات، مبعوث دبلوماسي وجاسوس، وكان أحد الرجال الأكثر تميزاً وحذاقة في عصره، أي كان صورة مصغرة لما يُدعى «رجل عصر النهضة»، يُظن على نحو واسع بأن شكسبير عدّه نموذجاً لخلق شخصية بروسبيرو[1] في مسرحيته «العاصفة» (The Tempest)، وتأثيره كان هائلاً في عصره وما بعد ذلك، دي هو الذي جمع الخيوط المتنوّعة لـ «الباطنية»، وركّبها معاً في الأزياء التي مهّدت الطريق أمام التطوّرات اللاحقة، وبفضل دي وأعماله أصبحت انجلترا في أثناء القرن السابع عشر مركزاً رئيساً للدراسات «الباطنية»، دي هو الذي مهد الطريق لظهور الماسونية في الواقع.

وكونه شاباً لا يزال في عشرينياته كان دي لا يزال يحاضر في الجامعات الأوروبية، في لوفين وباريس مثلاً عن مبادئ الهندسة، في أثناء الفترة التي كانت عائلتا غايس ولورين تحوك فيها المؤامرات وتحاك ضدها المؤامرات، كان يتحرّك بلا رقابة في أنحاء أوروبا، ويؤسّس لنفسه تياراً واسع الانتشار، بين عامي 1585م-1586م كان في براغ التي أصبحت المركز الجديد للدراسات «الباطنية» تحت حكم إمبراطور الرومانية المقدسة رودولف الثّاني الذي كان تحرّرياً وسلمياً و«غريب الأطوار» كما يُزعم، يتميز برعاية الامبراطور، وعاد بالثقافة التي مكّنت انجلترا من خلع براغ في ذلك المجال، من بين أتباعه اللاحقين الأكثر أهمية كان إنيجو جونز وروبرت فلود الذي عمل في شبابه معلماً في الرياضيات والهندسة لدى دوق غايس وأخيه في تلك الفترة.

كان دي ذا دور فعّال في نشر المبادئ الفيتروفية[2] في فن العمارة والهندسة، علاوة على ذلك في عام 1570م، أي قبل خمس عشرة سنة من رحلته إلى براغ، نشر مقدّمة لترجمة انكليزية لإقليديس، في هذه المقدّمة «مجّد سيادة فن العمارة بين العلوم الرياضية»، تحدّث عن السيد المسيح بأنه «معلّمنا السماوي الرئيسي الأول»، كرر تصوير فيتروفيوس للمصمّم بأنه مجوسي من نوع ما:

1ـ بروسبيرو أشهر شخصيات مسرحية شكسبير «العاصفة»، وهو الساحر والخيّر الذي يسيطر على كل شخصيات المسرحية، المترجم.

2ـ نسبة إلى فيتروفيوس (Vitruvius) مصمم ومهندس روماني من القرن الأول قبل الميلاد، يزوّد كتابه فن العمارة (De Architectura) بمعلومات ثمينة عن التصميم المعماري والهندسة في الأوقات الكلاسيكية، الاسم الكامل ماركوس فيتروفيوس بوليو، المترجم.

أظن أن لا أحد يمكنه بعدل أن يعد نفسه مصمماً فجأة، فقط أولئك الذين منذ طفولتهم تجري تنميتهم بهذه الدرجات من المعارف وتعزيزهم بالحصول على الكثير من اللغات والفنون هم الذين سيكسبون المعبد العالي لفن العمارة.

وفي مقطع ذي صلة حاسمة بالماسونية اللاحقة استند إلى أفلاطون:

وشهرة فن العمارة هي في الإمارة التي يمتلكها هذا العلم فوق كل الفنون الأخرى، وأفلاطون أكد أن المصمّم هو معلّم وبارع في كل شيء، وأنه قادر على أداء أي عمل.

بقي الفكر «الباطني» في انجلترا سرياً في معظم حياة دي كما رأينا، أو كان محصوراً فقط بين بعض الحلقات السامية، وازدهر في اسكتلندا، ولكن بسبب ماري دي غايس وماري ملكة اسكتلندا كان كلّ شيء اسكتلندي مشكوكاً فيه في نظر الانجليز، في النتيجة لم يستطع دي وأتباع «الباطنية» الانجليز الآخرين أن يؤسسوا حتى الآن علاقات حاسمة بالتطوّرات في اسكتلندا.

على أي حال تغيّرت مع بداية القرن السابع عشر الحالة على نحو مثير، في عام 1588م كان أسطول فيليب الثّاني قد هزم على نحو حاسم، وعلى نحو متناقص جرى النظر إلى إسبانيا كأنها تهديد للأمن الانجليزي، إمكانية تأسيس عائلتي غايس ولورين لموطئ قدم في بريطانيا انحسرت نتيجة إعدام ماري ملكة الاسكتلنديين، واغتيال دوق غايس الشاب مع أخيه بعد عام من ذلك كان من شأنه أن يقصم ظهر العائلة فعلياً، وأن يشلّ طموحاتها الوراثية والسياسية، في عام 1600م لم تكن قوتهم سوى قوة مستَنفدة، وكذلك الاتحاد المقدّس كان قد انهار أيضاً.

علاوة على ذلك الفكر لم يعد «الباطني» مرتبطاً على نحو خاص جداً بعائلتي غايس ولورين، أو حتى بالمصالح الكاثوليكية نتيجة لذلك أحد الرعاة الجدد الأكثر أهمية لهذا الفكر كان الامبراطور الروماني المقدّس رودولف الثّاني الذي أعلن أنه ليس كاثوليكياً كما رأينا، ولا بروتستانتياً، بل مسيحي، هو لم يضطهد البروتستانتيين قطّ، وأصبح على نحو متزايد منفصلاً عن البابوية، وعندما كان على فراش الموت رفض الشعائر الجنائزية للكنيسة، في الحقيقة في عام 1600م بدأ الفكر الباطني بالازدهار على نحو نشيط وعلني في الإمارات البروتستانتية، في هولندا وفي بَلاطِينيّة[1] نهر الراين وفي مملكتي ورتمبرغ وبوهيما كان يُستعمل أداة دعائية ضدّ روما على الأغلب، ولأنه كان مطهّراً من أيّ تلوث من عائلتي غايس ولورين، كان يمكنه أن يخرج إلى السطح بأمان في انجلترا.

1ـ البَلاطِينيّة مقاطعة يحكمها بَلاطِيْن، المترجم.

علاوة على ذلك أصبح جيمس الخامس في عام 1603م ملك اسكتلندا وهو ملك ستيوارتي من سلالة غايس-لورين، جيمس الأول ملك انجلترا عندما لم تكن عائلتا غايس ولورين قادرتين على استغلال الوضع في هذه المرحلة، ومن منظور الأجيال القادمة، يمكن المرء أن يسمع عملياً «قرقعة» عندما تنزلق المكوّنات التاريخية الضرورية إلى مكانها الملائم أخيراً، باتحاد انجلترا واسكتلندا تحت راية واحدة أصبحت العوائل الاسكتلندية النبيلة تمارس دوراً في الشؤون الانجليزية، وقامت عائلتان منهم هما عائلتا هاملتن ومونت غومري بعبور البحر الإيرلندي لتأسيس مستعمرة ألستر، ومن عوائل كهذه بدأ بعض الغموض والأسرار القديمة لفرسان الهيكل وللحرس الاسكتلندي بالتسرّب إلى انجلترا وإيرلندا، وما يجب تذكّره أن الملك الجديد كان راعياً، وربما عضواً في نقابات الحجّارين «المهرة»، جلب معه من الشمال تقاليدهم، إضافة إلى التراث «الباطني» لأجداد غايس-لورين، كلّ هذه العناصر مُدمجة بأعمال جون دي وأتباعه كان من شأنها أن تلتئم للتحول إلى الماسونية الفلسفية أو كما تُسمى الماسونية «التأملية»، عندها لم يصبحوا جميعهم محترمين وشرعيين فحسب، بل أصبحوا مرتبطين أيضاً بالعرش، سيف فرسان الهيكل ومالج معلّمي البناء القديمين أصبحا في الواقع من ملحقات الأسلحة الستيوارتية.

كان هناك تيار آخر من التأثيرات قبل أن تتبلور الماسونية في شكلها الحديث، في أوروبا أصبح الأمراء البروتستانتيون الآن يروجون للتعاليم «الباطنية» كما لاحظنا، وخصوصاً في ألمانيا، وكانت تُستعمل أداة دعائية ضدّ المعاقل الكاثوليكية المزدوجة، البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدّسة، وفي تلك الأثناء أصبحت تدعو نفسها بـ «الروزيكروشيّة»[1]، وفرانسيس ييتس سمّت هذه المرحلة من الانتشار «التنوير الروزيكروشيّ»، بدأت الكتيّبات المجهولة بالظهور، وكانت تمجّد «الكليّة المخفية» أو الجمعية الخيرية السرية التي زُعم أنها استندت إلى مؤسسها الأسطوري كريستيان روزينكروز، هذه الكتيّبات هاجمت بروح فدائية البابا والإمبراطور الجديد لروما المقدّسة، مجدت طيف التعاليم «الباطنية»، توقّعت الوصول الوشيك للعصر الذهبي الجديد الذي سيجري فيه تجديد كلّ النظم الاجتماعية والسياسية، وسيبدأ فيه عهد الانسجام اليوطوبي[2]، وسيكون خالياً من الاستبداد القديم العلماني والروحي.

1ـ جمعيّة سرّيّة اشتهرت في القرنين 17 و18، وزعمت أنها تملك معرفة سريّة للطبيعة والدين، المترجم.
2ـ نسبة إلى اليوطوبيا أو المدينة الفاضلة، دنيا مثاليّة، وبخاصة من حيث قوانينُها وحكومتُها وأحوالها الاجتماعيّة، المترجم.

في انجلترا كان تابع جون دي المدعو روبرت فلود الداعية الرئيس للفكر «الروزيكروشيّ» والذي كان مع فرنسيس بيكون بين المجموعة السرية من العلماء الذين كُلّفوا من الملك جيمس إصدار ترجمة انجليزية للكتاب المقدس، لكن لأن فلود كان مؤيداً للفكر «الروزيكروشيّ»، فهم على نحو مؤكد لم يتعاونوا معه، وكذلك من غير المعروف أنه كان له أي يد في تأليف «البيانات الروزيكروشيّة الرسمية» المجهولة، الآن يُظن أن تلك البيانات الرسمية جرى إعدادها جزئياً، إن لم يكن كلياً من كاتب ألماني من فُرتمبورغ، يُدعى يوهان فالانتاين أندريا، ويُظن أنها كانت مرتبطة كثيراً في هايدلبرغ بقصر فريدريك كونت بلاطينيّة[1] نهر الراين.

في عام 1613م تزوّج فريدريك من أليزابيث ستيوارت ابنة جيمس الأول ملك انجلترا، بعد أربع سنوات عرض نبلاء مملكة بوهيما تاج بلادهم على فريدريك، وقبوله له عجّل في حرب الثلاثين عاماً، وهي أكثر النزاعات ضراوة وتكلفة في الأرض الأوروبية قبل القرن العشرين، في السنوات الأولى من القتال اجتاحت الجيوش الكاثوليكية معظم الأراضي الألمانية، والبروتستانتية الألمانية هُدّدت بالانقراض، آلاف اللاجئين من بينهم الفلاسفة والعلماء والباطنيون الذين جسّدوا «التنوير الروزيكروشيّ» هربوا إلى فلاندر وهولندا، ومن هناك إلى أمان انجلترا، ولتسهيل عمليات هروب أولئك الفارّين قام يوهان فالانتاين أندريا وزملاؤه في ألمانيا بتأسيس ما يسمّى «الاتحادات المسيحية»، الاتحادات التي كانت نوعاً من نظام المحفل عزمت على الحفاظ على المجموعة الكاملة من التعاليم «الروزيكروشيّة» بتنظيم أنصارها ضمن خلايا وتهريبهم إلى ملاجئ آمنة في الخارج، وهكذا منذ عام 1620م فصاعداً بدأ اللاجئون الألمان بالوفود إلى انجلترا جالبين معهم كل الأفكار «الروزيكروشيّة» والبنية التنظيمية للاتحادات المسيحية.

في عهد جيمس الأول جرى تأسيس أحد أنظمة المحفل ضمن نقابات الحجّارين «المهرة» كما رأينا، وبدأ بالانتشار في اسكتلندا، في نهاية حرب الثلاثين عاماً تسرب النظام نحو انجلترا، في بنيته العامّة يبدو أنه تزامن بأفضل صورة مع الاتحادات المسيحية التي أسسها أندريا، وأثبت أنها جاهزة جداً لإيواء تدفّق الفكر «الروزيكروشيّ»، وهكذا وجد اللاجئون الألمان موطناً روحياً في صناعة البناء الانجليزية، ومساهمتهم في» الأفكار الروزيكروشيّة» كانت المكون الضروري النهائي لظهور «الماسونية التأملية» الحديثة.

1ـ البلاطينيّ أحد أبناء «البلاتينايت» Palatinate، وهما مقاطعتان ألمانيتان، كان يحكم كلاً منهما في عهد الإمبراطورية الرومانية المقدّسة أمير بلاطينيّ، المترجم.

في السنوات التالية حصلت تطوّرات على جبهتين، نظام المحفل دعم نفسه وانتشر على نحو أوسع، حتى إن الماسونية أصبحت مؤسسة رسمية معترفاً بها، في الوقت نفسه وحّد بعض الأفراد الأكثر نشاطاً في تلك المؤسسة صفوفهم، ليشكلوا النسخة الانجليزية التي حملت اسم «الكليّة المخفية» لـ «الروزيكروشيّين»، مجموعة سريّة من العلماء والفلاسفة و«الباطنيين» يبحثون طليعة الأفكار التقدمّية، في أثناء الحرب الأهلية الانجليزية ووصاية كرومويل كانت «الكليّة المخفية» لا تزال مخفيّة، وكانت تتضمّن بذلك الوقت نجوماً مثل روبرت بويل وجون لوقا، على أي حال في عام 1660م، ومع عودة الحكم الملكي أصبحت «الكليّة المخفية» تُدعى «الجمعية الملكية» برعاية ستيوارت، وفي فترة السنوات الثماني والعشرين التالية لم تكن «الروزيكروشيّة» والماسونية والجمعية الملكية متداخلة فحسب، بل كان صعباً عملياً تمييزها من بعضها.

الفصل الثالث

أصول الماسونية

القسم العاشر

الماسونيون الأوائل

يعود تاريخ الماسونية في شكلها الحالي على نحو محدّد إلى القرن السابع عشر، في الحقيقة هي منتج فريد لفكر القرن السابع عشر وظروفه، وهي مكوّنة من الأفكار والتصوّرات المتنوعة التي نتجت من توترات الدين والفلسفة والعلم والثقافة والمجتمع والسياسة في الغرب، القرن السابع عشر كان فترة تغيير كارثي، وتبلورت الماسونية رداً على ذلك، الماسونية عملت عامل ربط وتماسك، فقامت بدمج العناصر والمكونات المتنوّعة للعالم المتمزق ولوجهة نظره المتمزقة، وبطريقة عجزت عنها الكنيسة الكاثوليكية.

الماسونية نفسها تبحث عن أصولها عموماً في القرن السابع عشر، أو تبحث عن الظهور الأول للكيان الذي تسرب إلينا اليوم على أي حال، لذلك نقّب الكتّاب والمؤرخون الماسونيون على نحو كامل في قضايا القرن السابع عشر ساعين لتتبّع الشبكة المتدرجة الانتشار من المحافل، إضافة إلى تحديد العملية التي قامت فيها بعض المناسك بتوليد المناسك الأخرى والشخصيات الشهيرة المختلفة التي أصبحت مرتبطة بها، من الضروري أن نتطرق إلى هذه المادّة ذاتها ولو بعجالة، على أي حال ليس الهدف من هذا الكتاب محاولة الوصول إلى أيّ من هذه الأدلة، نحن لا نسعى إلى التداخل مع ما يسهل الوصول إليه من الأدلة التاريخية الغزيرة للماسونية وغير الماسونية، مع أن بعضها ذو علاقة متينة بالماسونيين أنفسهم، هدفنا يجب أن يكون الحصول على نوع من «النظرة العامّة»، أي تتبّع «الدافع الرئيس» والروح والطاقة العامّة الماسونية التي غمرت وحوّلت في النهاية المجتمع الانكليزي كما سنناقش لاحقاً.

أصبحت الماسونية في السنوات قبل الحرب الأهلية الانجليزية ووصاية كروموبل كما رأينا مرتبطة مباشرة بالحركة الروزيكروشيّة، لقد اقتبسنا سابقاً في هذا الكتاب من قصيدة أعدّها عام 1638م من هنري آدمسون من بيرث، لو عددنا النوعية الفنية مقياساً، فسنلاحظ أن آدمسون ربّما هو تجسيد سابق لوليام ماكونيغال الأديب المعروف على نحو غريب وكاف، قصيدة آدمسون تتعلق بانهيار جسر على نهر التاي[1] أيضاً، هنا يستحق الأمر اقتباساً كاملاً للتفاصيل:

1ــ النهر الأطول في اسكتلندا يتدفّق شرقاً من بحيرة تاي، ويصب في بحر الشمال، طوله 190 كيلومتراً، المترجم.

في هذا الوقت تماماً نرى جسر نهر التاي

ياله من منظر جميل حقاً في ذلك اليوم،

الجسر مهيب جداً، وله إحدى عشرة قوساً عظيمة

يربط الجنوب بالشمال، وموكب عام سار عبر كليهما،

جسر من الحجارة المربّعة...

... وفي السنة الستين وثلاث عشرة

حصل الانهيار الأول لهذا الجسر قبل أن يتحمّل،

من انهيار ثلاث أقواس قرب البلدة جرت إعادة بنائها آنذاك

بعد ذلك انهارت خمس أقواس في سنة ثمانين واثنتين.

لذلك تحليت بالشجاعة، وتمنّيت رؤية

بناء جسر في النهاية، مع أنّ عمري

هو العمر الأكثر فخراً وقوة وإجلالاً

من أيّ عمر سابق يمكن مقارنته حتى الآن،

لذلك أكّد «غال» لي أن الأمر سيكون كذلك،

وعبقريتي الجيدة تعرف بصدق

ما نستبشر به لا يُرى بالعين المجردة،

لأننا نحن إخوة في الصليب الوردي،

لدينا الكلمة الماسونية، والاستبصار،

أشياء ستحدث يمكننا أن نتنبّأ بها تماماً،

وسنُظهر الغموض الذي نعنيه نحن،

في العبارة الأوائلية[1] الواضحة «كارولوس ريكس»، يظهر ...

1ـ قصيدة إذا جُمعت حروف أوائل أبياتها أو أواخرها شكلت كلمة أو عبارة، وفي هذه الحالة العبارة هي «كارولوس ريكس» (CAROLUS REX)، المترجم.

في عام 1638م لم يتردّد آدمسون وغيره من الأعضاء المزيفين في «إخوة الصليب الوردي» بعد ذلك في الادّعاء أنهم يمتلكون «كلمة الماسونيين وقدرتهم على الاستبصار»، وليس هناك إطلاقاً أي سجل لأيّ اعتراض ماسوني على هذا الادّعاء، من الجدير بالملاحظة أيضاً المنزلة التي منحتها القصيدة لتشارلز الأول[237].

بينما هزّت حرب الثلاثين عاماً أوروبا، وبينما النصر الكاثوليكي هدّد البروتستانتية الأوروبية بالانقراض كانت بريطانيا على نحو عام، والحكم الملكي الستيوارتي على نحو خاص تبدو بشدة معقلاً وحصناً ومأوى، بعد أن أُخرج من موطنه في هايدلْبرغ وجد فريدريك كونت بلاطينية نهر الراين وزوجته أليزابيث ابنة جيمس الأول ملجأ لهما في لاهاي[238]، هنا قاما بتأسيس قصر ـ «روزيكروشيّ» جديد في المنفى، حيث احتشد فيه اللاجئون الألمان، ومنه تحوّلوا إلى انجلترا، حيث والد حاميتهم الستيوارتية وبعد ذلك شقيقها حكم كما يبدو بأمان، حامياً نفسه بخندق مائي من القناة.

الحرب الأهلية اندلعت في انجلترا، والبرلمان وحّد صفوفه ضدّ الحكم الملكي، وجرى إعدام الملك، وتأسست وصاية كرومويل الصارمة، الصراع في انجلترا الذي يمكن عدّه رافداً أو فرعاً من حرب الثلاثين عاماً، لم يكن بشناعة حرب الثلاثين عاماً في أوروبا، إلا أنه كان على نحو مؤكد صدمة كافية، انجلترا ربما لم تكن مهدّدة بالهيمنة الكاثوليكية التي أُعيد فرضها، لكنّها أُخضعت لنمط آخر من أنماط السيطرة الدينية التي ربما كانت أكثر تعصّباً، وكانت على نحو مؤكد قليلة التسامح وعنيدة وصارمة، في أعمال مثل «الفردوس المفقود» استطاع ميلتن[239] النجاة بإخفائه الأفلاطونيّة المحدثة مع أنه خالف النظام مراراً وتكراراً، لكن في بيئة وصاية كروميل حافظت الماسونية بطيفها الواسع من الاهتمامات العلمية والفلسفية والدينية والبدعية على انزوائها على نحو متعقل، و«الكليّة الخفية» بقيت بعيدة عن الأنظار.

الماسونيون اللاحقون تمسكوا بثبات بغياب المصالح السياسية أو الولاء لأسلافهم، يُقال دائماً إن الماسونية لم تكن سياسية منذ نشوئها الأقدم، سوف نناقش أنّ هذا الموقف ناتج عن تطور لاحق، وأن الماسونية في القرن السابع عشر وفي معظم مراحل القرن

237ـ من الواضح أن ذِكر تشارلز الأول ورد في الأبيات التي لم تُقتبس في القصيدة السابقة، المترجم.

238ـ لاهاي (The Hague) مدينة في غرب هولندا على بحر الشمال، عاصمة إقليم جنوب هولندا، المترجم.

239ـ (Milton) ميلتن، (1608م ـ1674م) شاعر انجليزي، تصنّف قصائده من بين أعظم كنوز الأدب الانجليزي ومن قصصه القصة الملحمية لطرد آدم وحواء من الجنة في رواية «الفردوس المفقود» (عام 1667م)، وفي أثناء الحروب الأهلية الانجليزية كتب مناظرات انفعالية عنيفة دافعت عن الحريّة الدينية والمدنية، المترجم.

الثامن عشر أيضاً كانت سياسية في الحقيقة، جذورها كمنت في العوائل والنقابات المرتبطة بولاء قديم لآل ستيوارت والحكم الستيوارتي الملكي، وجدت طريقها من اسكتلندا إلى انجلترا برعاية جيمس الأول، وهو ملك اسكتلندي يُفترض أنه كان ماسونياً، «وثائق سينكلير» القديمة تعترف بوضوح برعاية التاج وحمايته، وفي مخطوطة من منتصف القرن السابع عشر مطلوب من الماسونيين:

... أن تكونوا رجالاً حقيقيين للملك ومن دون أي خيانة أو نكران، وأن عليكم أن لا تفعلوا أي خيانة أو نكران، بل عليكم إصلاحها أو إخبار الملك بذلك.

استناداً إلى هذا الأمر كان الماسونيون مرتبطين بإخلاص بالحكم الملكي.

غياب أي بيانات صارخة موالية لستيوارت في أثناء الأرباع الثلاثة الأولى من القرن السابع عشر يمكن عدّه على نحو قليل برهاناً على الحياد أو الإهمال أو عدم المبالاة السياسية من الماسونية، قبل الحرب الأهلية لم يكن هناك أي حاجة إلى أي من هذه البيانات، مطالبة ستيوارت بالعرش الانجليزي بدت آمنة، والولاء للسلالة ربما كان طبيعياً جداً وواضحاً جداً، وليس في حاجة إلى تصريح صارخ، من الناحية الأخرى في أثناء فترة الوصاية أيّ تصريح رسمي بالولاء لستيوارت ربما كان خطراً جداً، بعض الأفراد طبعاً صرّحوا بتمسّكهم بالحكم الملكي وبأنّهم لن يتحدّوا سلطة البرلمان أو نظام كرومويل، ولكنّه من الصعب جداً تصديق أن كرومويل أقرّ شبكة نصف سرية من المحافل التي كانت تنشر وجهات نظر سياسية كان يعدّها عدائية، الماسونية كانت تحت غيمة من الشكّ وفق التغاير الانتقائي والمتسامح والمخفَّف الذي أبدته تجاه الصفويين[240] الصارمين، إعلان الولاء لستيوارت ربما كان يعني الانتحار الرسمي، والأعضاء الماسونيون كانوا سيلفتون أنظار الجنرالات المشهَّرين الذين يصطادون السَحَرة، في النتيجة من المؤكد أن الماسونية في عهد الوصاية وإلى الحدّ الممكن تتبّعه على نحو مطلق لم تكن متورطة.

إذاً باختصار لم تُنكر الماسونية في أثناء الحرب الأهلية وحكم الوصاية تمسّكها بالحكم الستيوارتي الملكي، هي ببساطة حافظت على صمت متعقل، وخلف ذلك الصمت بقي الولاء القديم سليماً بثبات، ولم يكن مصادفة أنه في عام 1660م عندما عاد الحكم الستيوارتي وتولّى تشارلز الثاني العرش حصلت الماسونية على مكانتها الخاصة وعلى تميّزها بحكم حقّها الشخصي وخلال الجمعية الملكية.

240ــ البروتستانتيون في القرنين السادس عشر والسابع عشر في انجلترا، المترجم.

لكن حتى وإن بقي الماسونيون موالين للحكم الستيوارتي الملكي، إلا أنهم كانوا لا يزالون قادرين على الاحتجاج بقوّة السّلاح إن احتاج الأمر ضدّ الانتهاكات الستيوارتية، في عام 1629م حل تشارلز البرلمان، في عام 1638م ونتيجة انزعاجهم من نتائج العمل الاستبدادي للملك، قام النبلاء والوزراء والمواطنون الاسكتلنديون البارزون بوضع ما سمّوه «الميثاق الوطني»، هذا الميثاق احتج على الحكم الفوضوي للملك، وأعاد التأكيد على الامتيازات التشريعية للبرلمان، تعهّد الموقّعون بالدفاع المشترك وبدؤوا بحشد الجيش، من بين «المعاهدين» الذين تميزوا بأهمية خاصة كان إيرل روثز (Rothes)، في إحدى الملاحظات المدونة في مفكرته التي تعود إلى تاريخ 13 أكتوبر/تشرين الأول من عام 1637م هناك أول إشارة معروفة عن «الكلمة الماسونية».

في أغسطس/آب عام 1639م جرى عقد اجتماع برلماني في أدنبرة، يديره «المتعاهدون»، هذه العملية أثارت التحدي، فقام تشارلز بتعبئة جيشه، واستعدّ للتقدّم لمواجهة اسكتلندا، على أي حال قام الجيش الاسكتلندي بقيادة إيرل مونت روز بالتحرّك جنوباً وهزم فريقاً انجليزياً قبل أن يتمكن من القيام بذلك، وفي أغسطس/آب عام 1640م جرى احتلال نيوكاسل، جرى توقيع هدنة ولكن الاسكتلنديين بقوا في نيوكاسل حتى يونيو/حزيران عام 1641م، عندما جرى توقيع سلام رسمي[1].

وعندما احتل جيش المعاهدين نيوكاسل وعلى خلفية أحداث عام 1641م حصل ما يعدّه الماسونيون أنفسهم مرحلة تاريخية في حياتهم، أول إدخال مسجّل في العضوية على الأرض الانجليزية، في 20 مايو/أيار عام 1641م في نيوكاسل أو قربها جرى قبول عضوية السّير روبرت موري في محفل مصلى مريم القديم في أدنبرة، «فخامة السّيد روبرت موري القائد العامّ للجيش الاسكتلندي»، إدخال موري في عضوية المحفل يدلّ طبعاً على أنّ المحفل كان موجوداً أصلاً ويعمل كاملاً، وكذلك نوع من أنظمته كان فعالاً طبعاً، هكذا كان الوضع حقيقة بعض الوقت كما رأينا، الجنرال ألكساندر هاملتُن الذي كان في شعائر قبول عضوية موري، كان نفسه قد قُبل في المحفل في السنة السابقة[2]، مع هذا يعدّ المعلّقون اللاحقون في أغلب الأحيان أن موري هو «الماسوني التامّ الأول»، ولكن

1ـ بعد ثماني سنوات، وعندما جرى إعدام تشارلز الأول جرى إعلان تشارلز الثّاني ملكاً على اسكتلندا، وصل إلى البلاد عام 1650م وقبل الميثاق، وفي عام 1651م تُوّج رسمياً في سكون، على أي حال جرت هزيمة جيشه على يدي كرومويل، وعاد إلى المنفى في فرنسا حتى إعادة الحكم عام 1660م، المؤلفان.

2ـ الجنرال هاملتُن شقيق إيرل هادِنغتُن انضم إلى محفل مصلى مريم في أدنبرة في 20 مايو/أيار عام 1640م، المؤلفان.

حتى إن لم يكن كذلك تماماً، إلا أنه كان ذا أهمية كبيرة جداً، تكفي لجذب أنظار العلماء ولإخراج الماسونية من الظلال إلى نور ساطع جداً.

مع أن التاريخ الدقيق غير معروف إلا أنه معروف أن موري وُلد في بداية القرن السابع عشر لعائلة عريقة من بيرتشاير، وتوفي عام 1673م في ريعان شبابه التحق بالخدمة العسكرية في فرنسا حيث خدم في وحدة اسكتلندية يُظن أنها كانت تابعة آنذاك للحرس الاسكتلندي المنتعش، ورفّع إلى رتبة مقدّم، في عام 1643م أي بعد عام ونصف من عضويته الماسونية، جرى منحه لقب فارس من تشارلز الأول، ثمّ عاد إلى فرنسا واستأنف مهنته العسكرية، وأصبح عقيداً تاماً في عام 1645م، في السنة نفسها أصبح المبعوث السري المُخوّل لمفاوضة معاهدة بين فرنسا واسكتلندا، حيث سيجري إعادة تشارلز إلى الحكم بعد أن جرى خلعه عام 1642م، في عام 1646م كان متورطاً في مؤامرة أخرى لضمان هروب الملك من الحجز البرلماني، نحو عام 1647م تزوّج من صوفيا ابنة ديفيد ليندساي لورد بالكارس، كانت عائلة ليندساي فترة طويلة من بين العوائل الاسكتلندية النبيلة الحافلة بالتقاليد «الباطنية» كعائلة سينكلير وسيتون ومونت غومري التي كانت على صلة بها، لورد بالكارس نفسه كان معروفاً بأنه هرميزي، وكان يزاول الخيمياء[1]، زوجته كانت ابنة ألكساندر سيتون من فرع سيتون مونت غومري من العائلة التي كان لها دور رئيس في الماسونية اللاحقة، ضمن هذه الحلقة واستناداً إلى زواجه جرى قبول عضوية موري مع أنه جدير بالملاحظة أن قبوله في الماسونية سبق زواجه بنحو ست سنوات.

عند إعدام تشارلز الأول استأنف موري مهنته العسكرية والدبلوماسية في فرنسا، كان مستشاراً مقرّباً من تشارلز الثّاني الملك المستقبلي، وحمل عدداً من المناصب الرسمية تحت إمرة الملك المنفي المنتظِر، في عام 1654م كان هو ونسيبه ألكساندر ليندساي الذي ورث لقب بالكارس مع تشارلز في باريس، وبعد ذلك بين عامي 1657م و1660م كان في المنفى في ماستريخت، وكما كتب، كان مكرّساً وقته على نحو أساسي لـ «الحِرف الكيميائية».

بعد فترة قليلة من إعادة الحُكم أصبح السّير وليام موري من دريغورن (شقيق موري) سيد الأعمال، أي سيد الحجّارين «المهرة» لدى الملك الذي أُعيد تنصيبه حديثاً، موري

1ـ الكيمياء القديمة (alchemy) كانت غايتها تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب، واكتشاف علاج كليّ للمرض ووسيلة لإطالة الحياة إلى ما لا نهاية، المترجم.

نفسه عاد إلى لندن واتصف بعدد من الألقاب القضائية مع أنّه في الحقيقة لم يمارسها، في عام 1661م أصبح رئيس الخزينة العامة في اسكتلندا، وفي عام 1663م أصبح السكرتير الأول في البلاد، في السنوات السبع اللاحقة كان هو والملك ودوق لودردايل وحدهم يحكمون اسكتلندا فعلياً مع أن موري حافظ أيضاً على علاقات وثيقة بالفرع الاسكتلندي من عائلة هاملتن، بقي حتى وفاته أحد أقرب مستشاري الملك، «تشارلز كان يثق به بشدة، ومشوراته كانت على نحو منتظم تنم عن التعقل والاعتدال»، كان الملك غالباً يقوم بزيارات خاصة له في مختبره في مقر الحكومة ووصفه بـ «رئيس كنيسته»، من بين زملائه في ذلك الوقت والذين تحدثوا جميعاً عنه بكلمات مبهرة كان افيلن وهايجنس وبيبيس[1]، طبقاً لـ «القاموس البريطاني للسير الذاتية الوطنية»[2]: «جرى الاعتراف عالمياً بنزاهة أهدافه وسموها، لقد كان مجرداً من الطموح، وكما قال في الحقيقة: «لم يكن يرغب بالوظائف العامّة».

طبقاً لشخص آخر من معاصري موري كان «خيميائياً شهيراً، وراعياً عظيماً للروزيكروشيّين، وعالم رياضيات ممتازاً»، وفق هذه القدرات كان من حقه الحصول على مكانته الدائمة بين الأجيال القادمة، موري لم يكن فقط أحد مؤسسي الجمعية الملكية، بل كان أيضاً روحها الموجِّهة، وكما يقول هايجنس: «هو روحها»، وفقاً لما قالته فرانسيس ييتس: «من الممكن أن موري أنجز أكثر مما قدمه أيّ شخص آخر في تعزيز تأسيس الجمعية الملكية وفي إقناع تشارلز الثّاني بتأسيسها برعاية...، طوال حياته ربما كان موري يعد الجمعية الملكية إنجازه الأعظم وتابع بعناية مصالحها».

نظراً إلى حقيقة أن ما نجا من سجلات ماسونية في القرن السابع عشر قليل جداً، فلا يمكن المرء أن يستدل على مصالحها ونشاطاتها وتوجيهاتها إلا من الأفراد البارزين الذين ارتبطوا بها، موري يقدم تماماً هذا المقياس، فهو يبدو نموذجاً مثالياً ومجسداً لماسونية القرن السابع عشر، إن كان هو في الحقيقة كذلك، فماسونية ذلك الوقت يمكن وصفها بأنها دمج لثلاثة عناصر، هي أولاً التقاليد المرتشحة من الحرس الاسكتلندي وخلال العوائل الاسكتلندية النبيلة كعائلة ليندساي وسيتون، ثانياً «الكيمياء» أو الخيمياء المرتشحة من «الروزيكروشيّة» من أنحاء أوروبا، ثالثاً طيف الاهتمامات العلمية والفلسفية التي سادت في «الكليّة المخفية» وبعد ذلك في الجمعية الملكية.

1ـ كُتّاب بارزون من تلك الفترة، بيبيس اشتهر بكتابته عن حريق لندن العظيم مثلاً، المترجم.

2ـ عملية إحياء ذكرى المشاهير الراحلين تجري اليوم بتجميع كل المعلومات المعروفة عنهم في مجلدات ذات أحجام متعدّدة، ويُطلق عليها أسماء مثل «القاموس الأمريكي للسير الذاتية»، و«القاموس البريطاني للسير الذاتية الوطنية» (DNB)، المترجم.

طبعاً يمكن التساؤل إن كان موري فرداً استثنائياً وانتقائياً وتمييزياً على نحو كبير، وإنه في الحقيقة لا يمكن عدّه نموذجاً مثالياً للماسونية على نحو مطلق، لكن السجلات الماسونية في تلك الفترة تستشهد بشخصية أخرى بارزة حقاً، وتُظهر تماماً طيف الاهتمامات والتأثيرات والأعمال نفسها التي مارسها موري، هذا الشخص ربما هو معروف اليوم على نحو أساسي من المتحف الذي يحمل اسمه، إنه إلياس أشمول (Elias Ashmole).

أشمول ولد في ليتشفيلد عام 1617م، في أثناء الحرب الأهلية كان من النشطاء المؤيدين للجانب الملكي، وبعد ذلك في عام 1644، ذهب إلى بلدته المحلية، حيث قام تشارلز المخلوع بتعيينه مفوّضاً عن الضرائب، واجباته الرسمية جلبته كثيراً إلى أكسفورد، وهناك وقع تحت تأثير الكابتن، وبعد ذلك السيّر جورج وارتون الذي زرع فيه تأجّجاً دائماً وشغفاً كبيراً بالكيمياء والتنجيم، في عام 1646م كان أشمول يتنقل بين الحلقات التنجيمية في لندن، ولكنّ تماسه المباشر الذي حافظ عليه كان مع «الكليّة المخفية» التي بدأت في عام 1648م بالاجتماع في أكسفورد، كانت تتضمّن في ذلك الوقت روبرت بويل وكرستوفر رين والدّكتور جون وِلكِنز عضو مؤسس آخر للجمعية الملكية.

أشمول كان يمتلك خمسة مخطوطات أصلية على الأقل لجون دي، وفي عام 1650م حرّر أحدها وكانت ذات عنوان «أطروحة عن الخيمياء»، ونُشرت باسم بديل مستعار هو جيمس هاسول، تبع ذلك أعمال هرميزية وخيميائية أخرى، وكان من شأنها التأثير في كلا بُويْل[1] ونيوتن بعد ذلك، بينما أصبح أشمول نفسه مشهوراً بتردده الدائم على الحلقات «الروزيكروشيّة»، في عام 1656م جرى تكريس ترجمة انجليزية لنصّ ألماني هام ونشرها: «إلى... الفيلسوف الأوحد في العصر الراهن: ... إلياس أشمول»[2].

تشارلز الثّاني كان مهتماً جداً بالخيمياء، وأشمول عمل على موضوع نال إعجابه، التعيين الأول للملك الجديد بعد أن استعاد مُلكه جعل أشمول يشغل منصب الموظف المسؤول عن منح الأزياء الرسمية وشعارات النبالة في بلدة ونزر وابتكارها[3]، ولاؤه وعلاقته بالقصر الملكي كانت تتزايد باستمرار، ومن ثم جرى منحه الكثير من المناصب الأخرى إضافة إلى عدة أوسمة دولية أيضاً، منذ عام 1655م كان مشغولاً برائعته التي حملت عنوان «تاريخ نظام غارتر»، وعلى نحو عابر كان مشغولاً بكلّ المؤسسات الفروسية

1ــ روبرت بُويْل (1627م ـ 1691م) كيميائي وفيزيائي انكليزي، المترجم.
2ــ هذا التكريس موقّع من «N. L» و«T. S» و«H. S»، المؤلفان.
3ــ ونزر (Windsor) بلدة في جنوب انجلترا على نهر التايمز، المترجم.

في الغرب، هذا العمل الذي لا يزال يُعد نصّاً متميزاً وحاسماً في حقله نُشر عام 1672م، وحظي بمديح هائل ليس فقط في انجلترا، بل في الخارج أيضاً، في عام 1677م منح أشمول جامعة أكسفورد المتحف الأثري الذي ورثه عن صديقه مع أعماله الخاصة به أيضاً، أكسفورد في المقابل التزمت رعاية المجموعة التي طبقاً لمصدر معاصر شملت حمولة اثنتي عشرة عربة، وبعد أن مُدح ومُجّد على نحو مفرط، وبعد أن عدّ أحد حكماء عهده، توفي أشمول عام 1692م.

أشمول قُبل ماسونياً في عام 1646م، أي بعد موري خمس سنوات، إنّ الحدث البارز في مفكرته الخاصة هو:

في 16 تشرين الأول عام 1646م، الساعة الرابعة والنصف مساءً جرى قبولي ماسونياً في وارينجتون في لانكا شاير مع كول، هنري مينوارينغ من كارينشام في تشاشر، أسماء أولئك الذين كانوا آنذاك في المحفل هي السّيد ريتشارد بينكت، واردِن، السّيد جيمس كولير، السّيد ريتشارد سانكي، هنري لتلر، جون ايلم، ريتشارد ايلم، وهيو بريور».

بعد ستّ وثلاثين سنة، أي في عام 1682م تسجّل مفكرة أشمول اجتماعاً آخر للمحفل، وفي هذه المرة في لندن في قاعة الماسونيين، وقائمة الحضور في ذلك الاجتماع تتضمّن عدداً من السادة المحترمين البارزين في المدينة، وهكذا فإن مفكرة أشمول تشهد على عدد من الأشياء، ولائه للماسونية الذي استمر على مدى ست وثلاثين سنة، وانتشار الماسونية في انجلترا، ومكانة الأشخاص الذين ارتبطوا بها في عام 1680م.

فرانسيس ييتس أوردت فكرة هامة أن «الاثنين اللذين تأكدنا من عضويتهما الأقدم في المحافل الماسونية كانا كلاهما في الواقع عضوين مؤسسين للجمعية الملكية»، أشمول وموري كانا في الحقيقة من مؤسسي الجمعية الملكية، طوال فترة الحرب الأهلية ووصاية كرومويل كان أشمول مَلَكيّاً متقداً كما كان موري، كُرّس على نحو عاطفي على إعادة الحكم الستيوارتي الملكي، وعلى نحو صارخ أكثر من موري، أبدى أشمول انهماكه بالفروسية وبالمنظمات الفروسية، في تاريخه المتعلق بنظام غارتر سخّر نفسه لفرسان الهيكل، وأصبح الكاتب المعروف الأول منذ إخماد النظام الذي يتحدث إيجابياً عنهم، بوساطة أشمول عالم الآثار العريق، والخبير بالتاريخ الفروسي، والماسوني البارز، والمشارك بتأسيس الجمعية الملكية يمكن المرء أن يعرف ما أمكن معرفته عن موقف الفكر الماسوني و«الروزيكروشيّ» من فرسان الهيكل في القرن السابع عشر، في الحقيقة إن «إعادة تأهيل» فرسان الهيكل بدأت عملياً عن طريق أشمول، على الأقل بقدر تعلق الأمر بالناس، لكن أشمول لم يكن وحده.

في عام 1533م أصدر المجوسي والفيلسوف والخيميائي الألماني «هاينرك كورنيليوس آغريبّا فون نيتيشِم» أولى روائعه، وهو عمله الشهير المعنون بـ «من الفلسفة الغامضة»، هذا العمل يعد أحد معالم الأدب «الباطني»، وعزز سمعة آغريبّا كـ «الساحر» الأعظم في عصره، النموذج الحقيقي للشخصية في مسرحيّة مارلو وفي قصيدة غوته[1] الدرامية، وعلى نحو أكبر من كل الأعمال التاريخية لجورج أو يوهان فوستاس، في الطبعة اللاتينية الأصلية من عمله يذكر آغريبّا فرسان الهيكل على نحو عابر، في غياب أي أدلة أو تقاليد مناقضة في ألمانيا في ذلك الوقت تعكس تعليقاته وجهة النظر السائدة عن «البدعة المقيتة لفرسان الهيكل».

في عام 1651م جرى نشر الترجمة الانجليزية الأولى لعمل آغريبّا، احتوى عمله على قصيدة مديح إهدائية قصيرة من الخيميائي و«الفيلسوف الموهوب» توماس فوجن، وكما سنرى كان صديقاً وتابعاً لموري، وجرى بيع ذلك العمل في مكتبة في باحة كنيسة سانت بطرس، إشارة آغريبّا إلى فرسان الهيكل في اللغة اللاتينية الأصلية شملت بضع كلمات فقط في نصّ زاد على 500 صفحة، ومع ذلك أُهين المترجم الانجليزي المجهول أو أُحرج على نحو كاف بهذه الإشارة، حيث قام بتغييرها، لذلك فإن الطبعة الانجليزية لا تنسب «البدعة المقيتة» إلى فرسان الهيكل، بل إلى «رجال الكنيسة القدماء»، لذلك فمن الواضح أنه في عام 1651م، أي بعد سنتين من وفاة تشارلز الأول، كانت «إعادة تأهيل» فرسان الهيكل جارية، في انجلترا لا بد من أنه كان هناك بعض الغايات والأهداف[2] التي انعكست عن تصرف مترجم عمل آغريبّا، وعن مجموعة قرّائه المتوقّعين الذين لم يكونوا مهيّئين لرؤية تشويه سمعة فرسان الهيكل كما يُفترض، لا بطريقة عابرة، ولا حتى من المجوسي الأول آغريبّا نيتيشِم.

الماسونية وإعادة المُلك إلى آل ستيوارت

إن كان موري الروح الموجّهة و«روح» الجمعية الملكية، فإن الدّكتور جون وِلكِنز كان قوتها الدافعة وعقلها التنظيمي الموجِّه، وِلكِنز ارتبط مباشرة بالبلاط «الروزيكروشيّ» لفريدريك كونت بلاطينية نهر الراين، وأليزابيث ستيوارت، بعد ذلك عمل قسيساً لابنهم الذي أُرسل إلى انجلترا للدراسة، في النهاية أصبح وِلكِنز أسقف تشيستر، في عام 1648م

1- غوته، جوهان فلفغانغ فون (1749م - 1832م) شاعر ألماني، يعد أعظم الشعراء الألمان في جميع العصور، المترجم.

2- من عدم ذِكر بدعة فرسان الهيكل، المترجم.

نشر عمله الأكثر أهمية وعنوانه «السحر الرياضي» الذي اعتمد بشدّة على عمل روبرت فلود وجون دي ومجّد كليهما في مقدّمته، في السنة نفسها بدأ وِلكِنز بعقد اجتماعات في أكسفورد، والجمعية الملكية نفسها تنسب رسمياً أصولها إلى تلك الاجتماعات، وفي أكسفورد تعرف أشمول إلى المجموعة كما رأينا.

الاجتماعات في أكسفورد استمرّت إحدى عشرة سنة، أي حتى عام 1659م، ومن ثم انتقلت إلى لندن، عند عودة المُلك في عام 1660م تقرب موري من الملك الذي أُعيد تنصيبه لكي يحصل على رعاية مالية ملكية، الجمعية الملكية أُسّست بحسب الأصول في عام 1661م، وكان الملك راعيها الرسمي، وعضواً فيها أيضاً، موري كان الرئيس الأول للمنظمة، من الأعضاء المؤسّسين الآخرين كان أشمول، وِلكِنز، بويل، رين، وكاتب اليوميات[1] جون افيلن، واثنان من اللاجئين «الروزيكروشيّين» من ألمانيا ذوي الأهمية الخاصة، وهما صموئيل هارتلِب وثيودور هاك، في عام 1672م أصبح إسحاق نيوتن زميلاً أيضاً، في عام 1703م جرى انتخابه رئيساً، وبقي كذلك حتى وفاته عام 1727م.

في أثناء رئاسة نيوتن وبعد وفاته مباشرة كان التداخل بين الجمعية الملكية والماسونية ملحوظاً جداً، الجمعية الملكية في هذه الأثناء ضمّت النبيل الشهير رمزي الذي سيظهر قريباً بوضوح في قصّتنا، تضمّنت الجمعية أيضاً جيمس هاملتن الذي كان لورد بيسلي، وكان الإيرل السابع لأبركورن والمؤلف المشارك في الأطروحة المثيرة «بحث عن الانسجام»، كما كان السيد الأعظم للماسونية الانجليزية، وربما ما هو أهم من ذلك هو أنها ضمّت جون ديزا غيوليرز الصديق المقرّب من نيوتن والذي أصبح زميلاً في الجمعية عام 1714م، وبعد ذلك أصبح القيّم فيها، في عام 1719م أصبح جون السيد الأعظم الثالث لمحفل انجلترا الكبير، وكان من شأنه أن يبقى أحد أكثر الشخصيات السامية في الماسونية الانجليزية للسنوات العشرين اللاحقة، في عام 1731م قام جون بإدخال فرانسوا دوق لورين في العضوية، والذي صار بعد ذلك زوج الإمبراطورة النمساوية ماريا تيريزا، في عام 1737م أدخل في العضوية أيضاً فريدريك أمير ويلز الذي كان جون يعمل قسيساً عنده.

لكن الجمعية الملكية في السنوات التي تلت مباشرة إعادة الحكم كانت فقط ملجأ واحداً للماسونية وللفكر الماسوني، طيف النشاطات التي اعتنقتها الماسونية في القرن

1ــ كاتب اليوميات من يدوّن خبراتِهِ وملاحظاتِهِ في يوميات، المترجم.

السابع عشر تضمّنت العلوم والفلسفة والرياضيات والهندسة والأفكار الهرميزية والأفلاطونية المحدثة و«الروزيكروشيّة»، الاهتمامات نفسها نجدها واضحة في عمل بعض الشخصيات الأدبية الأكثر أهمية في تلك الفترة مثل التوءمين توماس وهنري فوجن، والملقبين «أفلاطونيي كامبردج» وهنري مور ورالف كادوورث، ليس هناك سجلات باقية تُثبت أنّ هؤلاء الأفراد كانوا أعضاء مُدخَلين حقاً في محافل معيّنة، في الوقت نفسه هم لم يعكسوا تماماً أو بدقّة كبيرة اندفاعهم وتوجّههم نحو الاهتمامات الماسونية، حلقة هنري مور تضمّنت الطبيب البارز والعالم والخيميائي فرنسيس فان هيلمونت، توماس فوجن خيميائي بارز و«فيلسوف موهوب» أصبح صديقاً شخصياً مقرباً، وتابعاً للسّير روبرت موري وفي حمايته ورعايته.

كان فوجن وأخوه نشطاء لمصلحة الجانب الملكي في وقت سابق أي في أثناء الحرب الأهلية، تحت وصاية كرومويل، لقد ترجما عدداً من الأعمال «الباطنية» والهرميزية السحرية من أوروبا بما فيها «البيانات الروزيكروشيّة العامة» المشهورة، وقد استعملا في تلك الأعمال اسماً مستعاراً هو يوجينيوس فيلالِثْس، ارتباط فوجن الوثيق بموري يقترح أنه حتى وإن لم يكن نفسه ماسونياً إلا أنه كان مرتبطاً مباشرة بالتوجه العام للفكر الماسوني، واهتماماته تكررت من أخيه هنري الذي أثبت أنه الناطق الأكثر البلاغة على قدر تعلق الأمر بالأجيال القادمة، شِعر هنري فوجن الذي يصنّف بمرتبة أشعار أندرو مارفيل وجورج هيربيرت يمكن أن يعد جمعاً للتيارات والتأثيرات التي ميّزت ماسونية القرن السابع عشر.

لكن بينما مور والأخوان فوجن أنشؤوا الوصايا الدائمة في الأدب، ربما نجد أن النُصب التذكاري الأكثر روعة لماسونية القرن السابع عشر هو اليوم في فن العمارة في لندن، في عام 1666م سحق حريق لندن العظيم 80 بالمئة من المدينة القديمة بما فيها الكنائس السبع والثمانين، واستوجب الأمر إعادة بناء فعلية كاملة للعاصمة، هذا نفسه استوجب جهداً عظيماً ومركّزاً من نقابات الحجّارين «المهرة»، وهكذا حظي البناؤون «المهرة» بوعي عامّ، وذلك لأعمالهم اليدوية ومهاراتهم الواضحة والتي تُعرض بفخامة وإجلال في أبنية مثل سانت بطرس وسانت جيمس، بيكاديلي (Piccadilly)، ورويال اكستشينج[1]، وعندما كانت المدينة الجديدة تتشكل أمام أنظار عامة الشعب حصد

1ـ دار التجارة الملكية في لندن، بناها الخبير المالي الانجليزي السّير توماس غريشم وافتتحت عام 1566م، المترجم.

مصمّموها وبُناتها سمعة، لم يسبق لها مثيل حتى الآن، ومعظم تلك الأعمال كشفت عن أنها تابعة للماسونيين «التأمليين» الذين سارعوا إلى أن يشدّدوا على قرابتهم وصلتهم بإخوتهم «المهرة»، الشخصية الأكثر أهمية في هذا السياق كانت السّير كريستوفر رين طبعاً، رين كان يرتاد «الكليّة المخفية» التي واجهها في أكسفورد كما رأينا، وأصبح بعد ذلك عضواً مؤسّساً في الجمعية الملكية، يُزعم أنه أصبح سيداً أعظم في الماسونية في انجلترا عام 1685م، [1] في الوقت نفسه هو لم يكن مفكّراً فحسب، بل كان مصمّماً معمارياً متمرساً أيضاً، ولذلك شكّل الصلة الحاسمة وربما الأكثر حسماً بين الماسونية «التأملية» ونقابات «المهرة».

مباشرة في الفترة التي تلت عودة الحكم الملكي دخلت الماسونية عصرها الذهبي لتجسيدها الفلسفة والدين في الفنون والعلوم، وعلى نحو واضح جداً في الهندسة المعمارية، لكن إن كانت مزدهرة في هذا الوقت فلا بد أنها أيضاً مارست تأثيراً مفيداً وبنّاء، في الحقيقة يمكن القول إنها نتيجة لانتشارها المتزايد ولشعبيتها المتقدمة تدريجياً لا شك في أنها عملت الكثير لمعالجة الأضرار الناجمة من الحرب الأهلية.

هذا لا يعني طبعاً أنّها افتقرت إلى المبغضين، فعلى سبيل المثال، في عام 1676م نبأ «بور روبن»، وهو نبأ هجائي قصير الأجل، طبع الإعلان الوهمي التالي:

ليكن معلوماً أن عصابة غرين ريبوند الحديثة مع إخوة الصليب الوردي القديمة ومتبنّي الهرميزية وشركة الماسونيين المعروفة ينوون جميعاً تناول العشاء معاً في الحادي والثلاثين من نوفمبر/تشرين الثاني القادم في «فلايينغ بول» في شارع ويندمِل كراون.

لكن هذا الهجاء المضحك يمكنه التسبب بأيّ أذيّة للماسونية على نحو قليل، كان عملها كعمل أعمدة الثرثرة الصحفية الحديثة إن لم يكن شيئاً آخر، كما حفّزت الاهتمام العام، ومن الممكن أنها حسّنت السمعة ذاتها التي عزمت على تلويثها، هذا ينطبق على عمل الدّكتور روبرت بلوت القيّم على المتحف الأشمولي في أكسفورد على السواء والذي

1ـ يجب أن يؤخذ في الحسبان أن هذا الزعم غير مثبت، في السنة التي مات فيها رين (1723م) نشر أندرسن أول كتاب «الدساتير»، نوّه فيه مرّتين بالسّير كرستوفر رين، ولكن في كلتا الحالتين لم يصرّح بأنه كان ماسونياً، على أي حال في كتاب الدساتير «الجديد» عام 1738م يؤكد أندرسن على أنّ رين كان السيد الأعظم للأخويّة، يبدو مستحيلاً تفادي استنتاج أنّ هذا لم يُذكر عام 1723م، لأن زملاء رين كانوا لا يزالون أحياء، ومن ثم كانوا سيتحدون ذلك الزعم، مع ذلك هو يعمل، ويبدو ممكناً أنّ رين كان عضواً في الأخوية، هناك ملاحظة مدونة باليد من جون أوبري صديق أشمول على ظهر الملف 72 من مخطوطته التي عنوانها «التاريخ ويلتشر الطبيعي» تصرّح بأنّه في يوم الكتابة، أي 18 مايو/أيار عام 1691م كان هناك اجتماع رئيس بين الماسونيين في سانت بول لإدخال رين عضواً. المؤلفان.

نشر في عام 1686م عمله الأدبي ذا العنوان «التاريخ الطبيعي لستافورد شاير»، بلوت أراد أن يخدع الماسونية، هذا إن لم يكن في الحقيقة يسعى لإدانتها، بدلاً من ذلك قام بتزويد الماسونية تماماً بنوع الدعاية التي تسعى إليها بأقصى درجة، وفي الوقت نفسه زوّد الأجيال القادمة ليس فقط بكتاب يُعد مصدراً ثميناً، لكن أيضاً بشهادة على مدى التأثير الذي وصلت إليه تلك المؤسسة.

يُضاف إلى هذا التقاليد التي تتعلّق بسكان المقاطعة، وأحدها هو السماح بدخول الأشخاص إلى مجتمع الماسونيين، وذلك هو المطلب الأعظم في الأراضي البور الأعظم من المقاطعة من أي مكان آخر، مع ذلك أجد انتشار هذا التقليد في جميع أنحاء الأمة تقريباً، حتى إنني وجدت أشخاصاً من النوعية الأكثر سموّاً لا يترفّعون عن انضمامهم إلى هذه الزمالة، وفي الحقيقة ليس هناك حاجة إلى أن يدّعوا أنهم يمتلكون رقّ كتابة كبيراً يتميز بذلك القِدم أو الشرف، والذي يحتوي على تاريخ حرفة البناء وقواعدها كما يدّعون، والتي لا يعود أصلها إلى الكتابة المقدّسة فحسب، بل إلى قصّة تجديفية، وخصوصاً أنّها جُلبت إلى انجلترا من القديس أمفيبال، ونُقلت أولاً إلى القديس ألبان الذي وضع تقاليد البناء، وأصبح آمر صرف الرواتب ومدير أعمال الملوك، وعلمهم العادات والتقاليد، كما علّمه القديس أمفيبال، حيث جرى ترسيخها بعد ذلك من الملك أثلستِن الذي كان ابنه الأصغر ادوِن يحب البناء كثيراً، وتعلّم العادات والتقاليد، وحصل لهم من أبيه على وثيقة الحرية، عند ذلك طلب منهم التجمع في يورك وجلْب كلّ الكتب القديمة المتعلقة بحرفتهم، ومنها جرى وضع الكثير من العادات والتقاليد التي ظنوا آنذاك أنها ملائمة، التقاليد في المخطوطة أو الرق المذكور هي مصرّحة جزئياً، وهكذا جرى تأسيس حرفة البناء وترسيخها في انجلترا، وما هو مصرح أيضاً أن هذه العادات والتقاليد دُرست من الملك هنري السادس ومجلسه وجرى التصديق عليها لكل من السادة والزملاء في هذه الحرفة المبجّلة[1].

الدّكتور بلوت يتابع بإطالة بالغة ليصف ما يعرفه عن الشعائر والاجتماعات والمحافل وشعائر القبول الماسونية، إضافة إلى النزاهة التي ينفّذ بها الحجّارون «المهرة» أبنيتهم، في خاتمة روايته تماماً، وفي جزء من جملة معقدة جداً يُطلق هجومه:

... لكن بعض الممارسات الأخرى التي يمتلكونها والتي أقسموا عليها كالعادة لا أحد يعرفها غيرهم، والتي لدي المسوغ لأن أشكّ بأنها أسوأ كثيراً من هذه، ربما سيئة بقدر ما

1ـ التاريخ الأسطوري للماسونية والملك أثلستِن جرى استكشافه كاملاً من أليكس هوم في كتابه «أسطورة يورك في التقاليد القديمة»، هو يستنتج أنّ هناك القليل من الحقائق التاريخية في القصّة.

يسيء تاريخ الحرفة نفسه، وأكثر انحلالاً وبطلاناً من أيّ شيء قابلته إطلاقاً.

إنه أسلوب ضعيف للهجوم، لا عجب من أن أغلب قرّاء بلوت أهملوا، أو لم يصلوا، هجمته الختامية، بل عوضاً عن ذلك تحمسوا لكل ما سبق تلك الخاتمة، النسب القديم والعريق الذي تدّعيه الماسونية، وارتباط «الأشخاص الأكثر سموّاً» بها، ومنافع العضوية، والدعم المتبادل، والأعمال الجيدة، والسمعة المرتبطة بالبناء وفن العمارة، بعد كل هذا يبدو أن الغضب والثورة بلا شك كانت نتيجة عدم قبوله نفسه ماسونياً.

إذاً تميزت الماسونية في الفترة بين عامي 1660 و1688 بعصر ذهبي كما رأينا، أسّست نفسها على درجة ربما فاقت عملياً الكنيسة الأنجليكانية قوة توحيدية عظيمة في المجتمع الانجليزي، بدأ تشكّل منتدى «ديمقراطي» حيث الملك والعامة والأرستقراطيون والصنّاع والمثقّفون والحرفيون جميعاً يمكنهم التجمّع ضمن حرم المحفل لبحث أمور ذات اهتمام مشترك، لكن هذه الحالة ما كان لها أن تدوم، خلال ربع قرن كُتب على الماسونية المعاناة نفسها من الانقسامات المؤلمة التي سادت المجتمع الانجليزي نفسه.

القسم الحادي عشر

فيكونت[1] دندي[2]

نحو عام 1668م تحوّل جيمس دوق يورك الشقيق الأصغر لتشارلز الثاني إلى الديانة الكاثوليكية، قام بذلك على نحو هادئ ومن دون أي جعجعة، وفي النتيجة لم يكن هناك أي اعتراضات شديدة، لكن في عام 1685م توفي تشارلز الثّاني واعتلى أخوه العرش ليكون جيمس الثّاني، بعد ذلك مباشرة بدأ الملك الجديد بالهداية وجمع الأنصار لدينه، جرى منح الهبات لليسوعيين، وجرى عرض الأموال على الأفراد في المناصب المرموقة إن هم اهتدوا إلى الدين، المؤسسات القضائية والمدنية والعسكرية مُلئت بالموظفين الكاثوليكيين، علاوة على ذلك جيمس وهو رئيس للكنيسة الانجليزية قادرٌ على تعيين الأساقفة الموالين للكاثوليكية، أو ترك الكراسي الأسقفية شاغرة إن كان يرغب بذلك.

قبل عام 1688م كان لجيمس ابنتان، هما ماري وآن، كلتاهما تربت على المذهب البروتستانتي، عموماً من المفترض أنّ إحداهما ستصبح وريثته، وأنّ انجلترا ستحظى مرة ثانية بملك بروتستانتي، على أساس هذه الفرضية جرى تحمّل كاثوليكية جيمس كونها مرحلة عابرة، كانت مقيتة، ولكنها أفضل من الثورة المدنية المؤلمة التي حدثت قبل أربعين سنة من ذلك.

في عام 1688م أصبح لجيمس ولد يحق له بالقانون الوراثي أن يسبق وراثة النساء على أي حال، وهكذا كانت انجلترا معرضة لفرصة الحصول على سلالة كاثوليكية، علاوة على ذلك، قبل ذلك ثلاث سنوات أبطل لويس الرّابع عشر في فرنسا مرسوم نانت[3] الذي ضمن الحرية الدينية للبروتستانتيين، البروتستانتيون الفرنسيون بعد أن استأثروا بالسلام مدة قرن تقريباً، خضعوا فجأة للاضطهاد والنفي المجدّد، خوفاً من إمكانية تعرضهم لمصير مماثل، البروتستانتيون الانجليز أطلقوا ثورة ومقاومة.

1ـ الفيكونت نبيل دون الكونت وفوق البارون، المترجم.
2ـ مدينة في شرق اسكتلندا، المترجم.
3ـ نانت (Nantes) مدينة وميناء رئيس على نهر لوار في غرب فرنسا، المترجم.

زاد الاحتكاك بين البرلمان والملك، ثمّ طلب جيمس من رجال الدين الأنجليكانيين أن يقرؤوا وثيقة تسامح مع الكاثوليك والمنشقّين الآخرين، ورفض الامتثال لذلك الأمر سبعة من الأساقفة الذين اتهموا بعصيانهم للمرسوم الملكي، ولكنهم بُرئوا بازدراء واضح لسلطة الملك، في اليوم نفسه عرض البرلمان العرش كماري ابنة جيمس التي كانت معادية للكاثوليكية بحماسة، وعلى زوجها وليام أمير أورنج، الأمير الهولندي قبل الدعوة، وفي 5 نوفمبر/تشرين الثّاني من عام 1688م نزل في توربايِ[1] ليصبح الملك الجديد لانجلترا.

المخاوف من حرب أهلية شاملة أخرى على التراب الانجليزي أثبتت أن لا أساس للرحمة فيها، اختار جيمس أن لا يحارب، وفي 23 ديسمبر/كانون الأول نُفي إلى فرنسا، في مارس/آذار عام 1689م نزل في إيرلندا مع قوّات فرنسية بمن فيهم المستشارون العسكريون على أي حال، هنا أسس برلمانه الخاص، ومضى في حشد جيش من رعاياه الإيرلنديين الكاثوليك بقيادة ريتشارد تولبوت، إيرل تيركونِل (Tyrconnell).

حصلت مناوشات متقطعة، قوّات جيمس الكاثوليكية حاصرت لندُن دَري في 19 أبريل/نيسان، وصمدت حتى 30 يوليو/تموز، حيث خُفّف عنها الحصار، ولكنّ جيوش وليام وجيمس لم تلتق في معركة حامية حتى بعد عام من ذلك، في 1 يوليو/تموز عام 1690م في نهر بوين هُزم جيمس على نحو مشؤوم، وعاش في المنفى في فرنسا على نحو دائم، مؤيدوه واصلوا النزاع سنة أخرى حتى 12 يوليو/تموز عام 1691م، حيث هُزموا ثانية في معركة أوريم (Aughrim)، انسحبت القوات الكاثوليكية المُدمَّرة إلى ليمريك، وجرت محاصرتها هناك، واستسلمت أخيراً في 3 أكتوبر/تشرين الأول، وهكذا انتهت «الثورة المجيدة» في انجلترا، وانتهى معها حكم سلالة ستيوارت، وطبقاً لأحد المؤرخين أبدى جيمس طوال فترة أحداثه التي كلّفته عرشه « حماقة سياسية ذات أبعاد بطولية تقريباً».

ما دامت «ثورة» مطلقة، فإن ما حصل في عام 1688م كان ثورة متحضّرة على نحو معقول، وتحديداً لم تكن «ثورة» على قدر ما هي انقلاب، وكانت حتى ذلك الوقت ثورة بيضاء[2] على الأقل، لأن كل انجلترا كانت متورطة فيها، مع هذا فككت المجتمع البريطاني على نحو مؤسف، كما فعلت الحرب الأهلية في وقت سابق من ذلك القرن، مرة ثانية وفي

1ـ Torbay جنوب غرب انجلترا على خليج تور (مدخل القناة الانجليزية)، المترجم.
2ـ خالية من الدماء، المترجم.

أقل من خمسين سنة جرى خلع الملك الستيوارتي، وهذا سبّب الكثير من البحث عن الذّات فردياً وجماعياً، مهما كانت ذنوب ملك ما وتجاوزاته، فقد كان هناك الكثير في انجلترا الذين أحسّوا أن الحكم الملكي الستيوارتي كان يمتلك الحق الشرعي والنسب المحلي و«الانكليزية» الحقيقية التي لم تمتلكها العائلة الهولندية من أورنج، والتي كانت العدو البريطاني اللدود فقط قبل ربع قرن من ذلك.

في اسكتلندا أخذ الولاء للأسرة الحاكمة القديمة في النهاية الأولوية على كلّ الانتماءات الدينية، في إيرلندا جعل احتضان جيمس للكاثوليكية محبّباً على نحو خاص لدى عامة الناس، الانشقاقات التي حصلت في المجتمع الانجليزي شابهت تلك التي حصلت بين العوائل الاسكتلندية النبيلة التي تضافرت بشدة في قصّتنا، في حصار لندُن دَري مثلاً كان هناك عائلات هاملتون في كلا الجانبين، اللّورد جيمس سينكلير بقي «موالياً للتاج» من دون النظر إلى من سيلبسه، بينما كان شقيقه في السجن وابنه الذي كان ضابطاً في الحرس الاسكتلندي مات في معركة نهر بوين.

في اسكتلندا دافع عن القضية الستيوارتية على نحو رئيس جون غراهام من كلافر هاوس (Claverhouse) الذي عيّنه جيمس الثّاني في عام 1688م، ليكون أول فيكونت في دندي[1]، كالكثيرمن العائلات الاسكتلندية النبيلة الأخرى يدّعي آل غراهام من كلافر هاوس قرابة الدم مع آل ستيوارت، وبذلك ينحدرون من سلالة بروس، في عام 1413م تزوّج السّير وليام غراهام شقيقة جيمس الأول ملك اسكتلندا، وهي أيضاً ابنة حفيد «مارجوري بروس» و«والتر القهرمان» (ستيوارت)، بعد ذلك تزوّج عضو من العائلة شقيقة الكاردينال بيتون المتآمر الرئيس لمصلحة رغبات عائلتي غايس ولورين، على أي حال كان الجزء الأكبر من تاريخ العائلة غير مميَّز، «سجل من الأشخاص غير المهمين الذين ورثوا مقداراً كافياً من المال».

جون غراهام من كلافر هاوس وهو فيكونت مدينة دندي وُلد عام 1648م، كان رجلاً حسن التعليم، إذ إنه تخرّج بدرجة أُستاذ في العلوم في جامعة سانت أندروز عام 1661م، بعد ذلك كان من شأنه أن يخدم كلا الملكين تشارلز الثّاني وجيمس الثّاني، بين عامي 1672م و1674م كان متطوّعاً في فرنسا مع دوق مونموث ومع جون تشرشل الذي أصبح بعد ذلك دوق مارلبورو، في عام 1683م كان في قصر تشارلز في انجلترا، وبعد

1ـ مدينة في شرق اسكتلندا على خور تاي (فيرث أوف تاي). المترجم.

سنتين كان مع جيمس، في عام 1684م منحه الأخير قلعة دنهوب، وتزوّج السّيدة جين كاكْرن ابنة اللّورد وليام كاكْرِن الذي كان أحد الماسونيين البارزين، في عام 1686م ترقّى إلى رتبة لواء في الخيّالة، من بين أعز أصدقائه كان كون ليندساي الإيرل الثالث لبالكارس، وحفيد الخيمياء.

في أبريل/نيسان عام 1689م عندما كانت الجيوش الكاثوليكية في إيرلندا تحاصر لندُن دَري رفع كلافر هاوس راية الملك جيمس في مدينة دندي بعد أن جمع القوات الموالية لستيوارت في اسكتلندا، في 27 يوليو/تموز واجهت قوّاته قوات قائد الويليامايت اللواء هيو ماكاي في شِعْب كيلي كرانغي[1] الذي يبعد نحو ثلاثين ميلاً عن بيرث، كان هناك مناورات تمهيدية كثيرة، ولكن عندما بدأت المعركة أخيراً دامت تقريباً ثلاث دقائق، جنود ماكاي استطاعوا إطلاق وابل واحد من السهام قبل أن يكتسحهم هجوم كلافر هاوس، في اللحظة نفسها التي تفككت فيها صفوف الويليامايت أسقط كلافر هاوس الذي كان يجري على رأس جنوده المنتصرين من على حصانه، وأُصيب إصابة مميتة في العين اليسرى، ذلك يُذكّر على نحو فضولي بالرمح الذي ضربه غابريل دي مونت غومري، وقتل به هنري الثّاني ملك فرنسا قرناً وربع قرن قبل ذلك، مع موت كلافر هاوس تداعت القضية الستيوارتية في اسكتلندا لافتقارها إلى القيادة، تاه الجيش وتقدّم إلى دُنكيلد (Dunkeld)، حيث هُزم هناك، في مايو/أيار من السنة التالية حصلت الهزيمة الثانية في كرومديل (Cromdale) التي وضعت حدّاً للمقاومة المنظّمة في اسكتلندا على الأقل جيلاً واحداً.

طبقاً لأحد المؤرخين «في كيلي كرانغي هناك عُرف مستمر بأنه في دندي كان هناك ضحيّة غدر»، في الحقيقة هناك أدلة تقترح أن كلافر هاوس لم يمت «في المعركة»، بل قتله رجلان وسط الفوضى العارمة للهجوم، رجلان من جنود الملك وليام دخلا في جيش كلافر هاوس واخترقا حرسه، ذلك الأمر وحده لا يُعد غريباً جداً أو استثنائياً، بل على العكس ربما كان ملائماً لأعراف ذلك الوقت اغتيال عدو خطير، ما له صلة بتحقيقنا ليس سواء مات كلافر هاوس في المعركة أم جرى اغتياله، بل حقيقة أنّه عندما جرى العثور على جسده في ميدان المعركة كان يحمل صليب فرسان الهيكل كما يظن.

1ـ شِعْب مشجّر في بيرث وكينروس، وسط اسكتلندا، المترجم.

سيد فرسان الهيكل الاسكتلنديين!

طبقاً للمؤرخ «الباطني» أ. ي. ويت:

قيل إن الدوم[1] كالِمت منح باسمه تصديقاً لثلاثة بيانات مهمة: (1)ـ إن جون كلافر هاوس فيكونت دندي كان سيداً أعظم في نظام فرسان الهيكل في اسكتلندا، (2)ـ وإنه عندما سقط في كيلي كرانغي في 27 يوليو/تموز عام 1689م كان يلبس الصليب العظيم للنظام، (3)ـ وإنّ هذا الصليب أُعطي إلى كامِت (كالِمت) من أخيه، إن كانت هذه القصّة حقيقية فإننا سنتوصل حالاً إلى نجاة فرسان الهيكل أو انتعاشهم والتي لا تدين بشيء لأحلام النبيل رمزي أو حقائقه، ولا شيء، لحرفة البناء ذاتها، نعرف أنّ هناك حاجة إلى الأدلة في كلّ نقطة من التخليد المزعوم بأن نظام فرسان الهيكل القديم كان مرتبطاً بحرفة البناء، ونعرف أن أساطير تخليد كهذا تحمل كلّ علامات التلفيق، ولكن إن كان صليب المعبد الكبير حقيقياً وقابلاً للبرهان على جسد فيكونت دندي فمن المؤكد أن نظام المعبد كان منتعشاً في عام 1689م.

كتب ويت هذه الكلمات في عام 1921م، أي قبل أن تتوافر لنا معظم الأدلة التي لخّصناها هنا، على سبيل المثال كان ويت غافلاً عن إمكان أن الحرس الاسكتلندي كان مستودعاً لتقاليد فرسان الهيكل، كان غافلاً أيضاً عن الشبكة المعقّدة من الارتباطات العائلية التي ربما جرى الحفاظ خلالها على هذه التقاليد، مع هذا فحوى بيانه تبقى صحيحة، إن كان كلافر هاوس يلبس صليباً أصلياً لفرسان الهيكل، أي في الحقيقة قبل عام 1307م، فإن ذلك يشكّل برهاناً رائعاً على أن النظام لا يزال قائماً أو بُعث من جديد في اسكتلندا عام 1689م، من سوء الحظ لم يصرّح ويت عن أي مصدر للقصّة المقتبسة. لذلك على المرء أن يبحث في مكان آخر.

في عام 1920م أي قبل عام من رواية ويت ظهرت الإشارة التالية في مجلّة محفل « Quatuor Coronati»، وهو محفل البحث الماسوني الرئيس في المملكة المتّحدة:

عام 1689م في معركة كيلي كرانغي فقد لورد دندي حياته زعيماً لحزب ستيوارت الاسكتلندي، طبقاً لشهادة الأب كامِت قيل إنه كان سيداً أعظم لنظام المعبد في اسكتلندا.

هذا البيان يمكن العثور عليه في فترة أسبق، وذلك عندما قام باحث في الماسونية يُدعى جون باركر بكتابة ما يلي في عام 1872م:

1ـ دوم (DOM) لقب للراهب الكاثوليكي الروماني، وخصوصاً البنديكتيّ، المترجم.

... وذلك لورد مار كان السيد الأعظم لفرسان الهيكل الاسكتلنديين في عام 1715م في خلافة لفيكونت دندي الذي قُتل في كيلي كرانغي عام 1689م حاملاً صليب النظام كما أخبرنا الدوم كامِت.

قبل ياركر ظهرت القصّة في كتيب نُشر عام 1843م، المؤلف مجهول، ولكن ربما كان الشاعر والأكاديمي الاسكتلندي دبليو. ي. ايتون:

نجد من شهادة الأب كامِت أنّه استلم من ديفيد غراهام، وهو فيكونت فخري لدندي، الصليب العظيم للنظام، والذي لبسه أخوه الشهم وذو الحظ العاثر في معركة كيلي كرانغي، يقول الأب: «ايتون كان الأسقف الأعلى لنظام فرسان الهيكل في اسكتلندا».

« Il étoit,» says the Abbé, «Grand Maitre de l'ordre des Templiers en Ecosse. »[1]

تظهر لنا ثلاثة أسئلة حاسمة، من كان لورد مار الذي كان طبقاً لياركر وريث كلافر هاوس كسيد أعظم لنظام فرسان الهيكل الاسكتلندي؟، من كان الأب كامِت الذي كان مصدراً مهماً جداً للقصّة كما يبدو ؟، من كان ديفيد المحيّر الذي كان شقيق كلافر هاوس والذي يُزعم أنه مرّر الصليب من الفيكونت الراحل إلى الأب الفرنسي؟.

جون إرسكين إيرل بلدة مار كان زعيماً جيمسياً[2] مشهوراً، أصبح إيرلاً في عام 1689م، وهو العام الذي حدثت فيه معركة كيلي كرانغي، في البداية عارض القضية الستيوارتية حتى وقت متأخر كما في عام 1705م، كان وزير الدولة يعمل لمصلحة التاج في اسكتلندا، في أثناء السنوات العشر التالية غيّر ولاءاته كثيراً جداً حتى إنه حصل على لقب «جون المذبذب»، على أي حال في عام 1715م التزم أخيراً الولاء لآل ستيوارت المنفيين، وفي تلك السنة كان له حيز كبير وبارز في التمرّد لمصلحتهم، مع إخماد الثورة فقد أملاكه وعاش في المنفى مع جيمس الثّاني في روما، في عام 1721م عيّن «وزير جيمسي

1ـ في كتاب «قوانين نظام المعبد الديني والعسكري» الصفحة 15 يجري النقاش بأنْ مؤلف هذه الملاحظة التاريخية كان دبليو. ي. ايتون، أستاذ فن البلاغة والأدب المحض في جامعة أدنبرة، راجع كتاب شيتوود كرولي ذا العنوان «أساطير فرسان الهيكل في الماسونية» الصفحة 232، ايتون يظهر في العمل المذكور سابقاً كالأسقف الأعلى لنظام فرسان الهيكل الاسكتلندي، على نحو مؤكد تمكن من التوصل إلى السجلات القديمة للماسونية الاسكتلندية وفرسان الهيكل خلال علاقاته بألكساندر ديوتشار الذي أعاد تشكيل النظام في اسكتلندا في أواخر القرن الثامن عشر، اشترى ايتون مواثيق «سانت كلير» التي تتعلق بأوائل القرن السابع عشر، والتي كانت بحوزة ألكساندر ديوتشار، وقدّمها إلى المحفل الكبير في اسكتلندا، حيث لا تزال هناك حتى يومنا هذا.

2ـ (Jacobites): الجَيْمِسي، الستِيْوارْتيّ المؤيد لجميس الثاني ملك انجلترا أو لآل ستيوارت بعد ثورة عام 1688م، المترجم.

للبلاط الفرنسي» أي سفير آل ستيوارت في فرنسا، في باريس أصبح صديقاً مقرّباً من النبيل رمزي الذي كان الداعية الرئيس لماسونية القرن الثامن عشر كما سنرى لاحقاً.

الدوم الأغُسْطُسِيّ[1] كامِت كان أحد أكثر العلماء والمؤرخين شهرة وتقديراً في عصره، واشتهر على نحو خاص بمعرفته لغات كثيرة، وُلد عام 1672م، وأصبح راهباً بنديكيتياً في عام 1688م، وكان له من العمر ستّة عشر عاماً، في عام 1704م حمل منصباً مهماً في دير مونستر في الجانب الفرنسي من نهر الراين، في عام 1718م أصبح رئيس دير سانت ليوبولد في نانسي، وفي عام 1728م أصبح رئيس دير سينونز، حيث مات في عام 1757م، أعماله كانت ضخمة، وتضمّنت تعليقات على كلّ كتب العهدين القديم والجديد، وكذلك تاريخ هائل للتوراة كلها، وتاريخ الكنيسة في لورين، ومقدمة رفيعة لـ «التاريخ الكنسي» للكاردينال فلوري وبابتعاد غريب عن موضوع الأعمال السامية كهذه ألّف أيضاً نصّاً قياسياً عن مصاصي الدماء، من رسائل كامِت المنشورة نجد أنه من الواضح أنّه كان يعيش في باريس بين أيار عام 1706م وتموز عام 1715م، وكان يتنقل على نحو كبير بين حلقات الجيمسيين المنفيين.

ديفيد غراهام الشقيق الأصغر لكلافر هاوس هو على نحو مؤكد أكثر صعوبة للتتبّع، معروف أنه قاتل في كيلي كرانغي، وأنه نجا من المعركة، إلا أنه أُخذ سجيناً بعد ثلاثة شهر، على أي حال استطاع في عام 1690م الهروب بطريقة ما من آسريه، وظهر لاحقاً في فرنسا، حيث منحه جيمس الثّاني لقب دندي الذي حمله أخوه سابقاً، كفيكونت لمدينة دندي ورد ذكره في قائمة كتيبة من فرقة الاسكتلنديين التي كانت تخدم في دانكر في يونيو/حزيران عام 1692م بقيادة اللواءين بوتشان وكانون، من بين الضبّاط الآخرين على هذه القائمة يظهر السّير ألكساندر ملين والد السّير هيكتُر ماكلين، جون فليمنج الإيرل السادس لويغتاون (Wigtoun)، جيمس غالوي البارون الثالث لدانكِلد (Dunkeld)، وجيمس سيتون الإيرل الرابع لدنفرملِن (Dunfermline)، الأخير كان قريباً خاصاً من كلافر هاوس قائد سلاح فرسانه في كيلي كرانغي، وكان أحد أفراد المجموعة الجنائزية التي أزالت سرّاً جسد القائد الميت من الحقل، وربما دفنته.

يظهر ديفيد غراهام في قائمة ضباط الجيش الفرنسي الأخرى من عام 1693م، آخر إشارة عُرفت عنه في أي مكان هي في كتيّب معاد للجيمسية، نُشر في لندن عام 1696م طبقاً لهذا الكتيّب منح هو وغيره من المنفيين البارزين الآخرين مناصب مهمة في

1ـ الأغُسْطُسِيّ متعلق بالعهد الكلاسيكي المُحْدَث في انجلترا أو مميّزٌ له، وأصل الكلمة من أغسطس قيصر (أول إمبراطور روماني)، وتُستخدم هذه الكلمة أيضاً للتعبير عنه أو عصره أو ما هو مميّز لهما، المترجم.

الجيش الفرنسي، بعد ذلك اختفى ديفيد غراهام من التاريخ بكل بساطة، أحد المؤرخين يعلق: «هذا فضولي، فلأنه كان الفيكونت الثالث فلا شك أنه كان شخصاً مهماً»، عندما تواصلنا مع «الخدمة التاريخية للجيش الفرنسي» حصلنا على إجابة من الجنرال روبرت باسك الذي ذكر أنّه لم يجد أي إشارة تُذكر عن أي شخص باسم ديفيد غراهام، على أي حال وجد ما يلي:

... أحدهم يحمل منصب فيكونت ويُدعى غراهام من دندي كان يخدم ضابطاً في فوج «D'Oilvy» (أي: أوجيلفي، إيرل إيرلي «Airlie») في عام 1747م.

أسس هذا الفوج شخص يُدعى ديفيد الذي كان كونت إيرلي، وشكّله من بقايا القوات التي هُزمت في كولودين، ربما كان ابناً أو ابن أخ.

اللواء الاسكتلندي الذي تمركز في دانكِر في عام 1692م ربما قد يمنح فكرة إضافية عن مصير ديفيد غراهام، في أيار من تلك السنة:

... الضبّاط الاسكتلنديون يظنون أنه بخسارة الأسطول الفرنسي سوف تتأخر إعادة الملك جيمس بعض الوقت، وأنّهم كانوا يشكلون حملاً ثقيلاً على ملك فرنسا، إذ إنهم كانوا في حاميات، ويحصلون على أجر كامل من دون أداء أي واجب، الملك جيمس توسّل بتواضع أن يخفّضوا عددهم إلى مجموعة من الحرس الخاص، وأن يختاروا ضبّاطاً من بينهم للقيادة.

وجرت إعادة تشكيل الوحدة وفقاً لذلك تضمّنت قائمة الضبّاط اثنين من آل رمزي، واثنين من آل سيندير، وواحداً من مونت غومري وآخر من هاملتن، جرى نقلهم أولياً إلى جنوب فرنسا، ثمّ في عام 1693م إلى ألساس[1]، ليس بعيداً عن دير مونستر، في عام 1697م كانت تحارب ثانية على مقربة من هذا الدير، ففي عام 1704م كان الدوم كامِت مُعيّناً في منصب «sous-prieur»، أي «معاون رئيس الدير»، لذلك كان هناك مكانان يمكن كامِت أن يتواصل فيهما مع غراهام، المكان الأول كان في ألساس بين عامي 1693م و1706م، الثاني كان في باريس بعد أيار عام 1706م، عندما كان كامِت يتردّد على الحلقات الجيمسية هناك.

على أساس هذه المعلومات المساعدة، يستحق الأمر إعادة النظر في القصّة ثانية، أبعاد القصة هي كالتّالي:

1ـ «Alsace»: منطقة وإقليم سابق في فرنسا، غرب نهر الراين، المترجم.

1. جون كلافر هاوس، فيكونت دندي، كان «السيد الأعظم» لمنظمة ما لفرسان الهيكل، أو لفرسان الهيكل الجدد الذين نجوا في اسكتلندا على نحو معين حتى وقت متأخر كالعام 1689م على الأقل.

2. بعد موت كلافر هاوس في كيلي كرانغي، خلفه في «السيادة العظمى» إيرل مار.

3. عندما جرت استعادة جثة كلافر هاوس من حقل معركة كيلي كرانغي، وُجد أنه كان يلبس أو يحمل بعض قطعة أصلية، أي قبل عام 1307م من ملابس فرسان الهيكل الفخمة التي تُدعى «الصليب العظيم للنظام».

4. هذه الأداة بعد أن وصلت إلى متناول أخيه ديفيد عُهدت بعد ذلك إلى الأب كامِت.

إن كان تلخيص القصّة على هذا النحو صحيحاً، فذلك يشكّل الدليل الأكثر أهمية على بقاء فرسان الهيكل في اسكتلندا منذ أواخر القرن السادس عشر، عندما يُزعم أن المحيّر ديفيد سيتون جمع حوله فرسان الهيكل بعد أن جرى تخليصهم من أراضيهم على نحو غير شرعي من السّير جيمس سانديلاندز.

على أي حال تطرح القصّة بعض الأسئلة، إن كان فرسان الهيكل الاسكتلنديون قد انتسبوا في الواقع إلى القضية الستيوارتية، فلماذا ورث إيرل مار كلافر هاوس في السيادة العظمى، إيرل مار الذي بدا آنذاك يدعم البرلمان الانكليزي، ولم يصبح جيمسياً متمسكاً حتى عام 1715م؟، وإن كانت الأداة الخاصة لزعامة فرسان الهيكل في الحقيقة مهمة، فلماذا لم يجرِ تمريرها إلى السيد الأعظم التالي أياً كان، بدلاً من تمريرها إلى كاهن وعالم ومؤرخ فرنسي؟، للإجابة عن هذه الأسئلة يجب على المرء أن يلجأ إلى الفرضية والتخمين، حتى وإن كانت قصّة صليب فرسان الهيكل الذي كان مع كلافر هاوس ملفقة كليّاً، فإنها في كل التصورات لا تحتوي على التناقضات التي تمتلكها، الخيال والإبداع حر في تحرير نفسه من هذه التناقضات، وبطريقة يعجز عنها التاريخ.

ذلك معقول جداً في كل الأحوال، ومهما كانت الأسئلة التي شكّلتها القصّة، الدوم كامِت لم يكن له أي شيء ليكسبه من معالجة القصة وتحريفها، إلا الحصول على عشاء ما، وإن كانت الحالة كذلك، فلأنه كان سيفعل أكثر مما فعل، علاوة على ذلك عرف عن كامِت عموماً الشهادة النزيهة الموثوقة، إن كان كلافر هاوس في الحقيقة يمتلك صليب فرسان الهيكل أو غيره من الأدوات الأصلية، فإنها على الأغلب ستصل إلى متناول أخيه، وأخوه كان يمتلك الفرصة الكافية ليعهدها إلى الكاهن الفرنسي كما رأينا، إن بقي هناك

قطعة من أدوات فرسان الهيكل الأصلية فلا بد أنها كانت استثنائية، نحن أنفسنا رأينا ولمسنا شخصياً قطعاً أخرى من هذا النوع محفوظة بعناية في اسكتلندا، رأينا ولمسنا مسطرة أصلية للنظام، يعود تاريخها إلى قبل عام 1156م، الوجود المطلق لهذه المواد يحمل شهادة بليغة على مقدار مراوغة وتحيير أبحاث المؤرخين.

لكن هناك جزءاً آخر حاسماً من الأدلة على دعم قصّة صليب فرسان الهيكل لدى كلافر هاوس، كما رأينا ميراث فرسان الهيكل في اسكتلندا بقي سليماً ضمن نظام القدّيس يوحنا حتى عام 1564م إلى أن قام السّير جيمس سانديلاندز الذي كان مديرها آنذاك بتحويلها إلى ملكه الدنيوي الخاص، في القرن الخامس عشر تزوّج وريث كلافر هاوس المدعو روبرت غراهام ابنة حاكم دندي، بهذا الزواج أصبح نسيب جون سانديلاندز، جدّ السّير جيمس.

وهكذا فإن عائلتي غراهام وساندیلاندز أصبحتا مرتبطتين، والأداة التي وُضعت برعاية الأسرة الأخيرة كان من الممكن أن تجد طريقها بسهولة إلى أيدي الأولى.

القسم الثاني عشر

تطوير المحفل الكبير

من الصعب القول بدقة، كيف تدين الماسونية على النحو الذي تطوّرت فيه في اسكتلندا لتراث فرسان الهيكل القديمة وتقاليدهم في بداية القرن الثامن عشر، أياً كانت الصلة بينهم آنذاك فهي كانت مفقودة منذ مدة طويلة، ولم تجرِ صياغة أي صلة جديدة حتى ذلك الوقت، حتى تلك الفترة لم تحاول الماسونية أن تدعي علناً أي انتساب إلى فرسان الهيكل، ومع أن كلافر هاوس وأخاه كانا ماسونيين على نحو ممكن جداً، إلا أنه لا وجود لأي توثيق لتأكيد ذلك، إن كان صليب فرسان الهيكل قد وصل في الحقيقة من كلافر هاوس إلى أخيه ومن هناك إلى الأب كامِت، فهذا قد يشهد على نوع من البقاء لفرسان الهيكل، لكنّه لن يشكّل أي اتصال مباشر بالماسونية، عندما ظهر غموض فرسان الهيكل ثانية فذلك حصل أولاً في فرنسا، كما ستلاحظ كانت الماسونية في هذه الأثناء تؤدي على نحو أكثر كثيراً دوراً محورياً في الشؤون الانجليزية.

في عهد وليام وماري استعادت البروتستانتية سيادتها على انجلترا، بالقانون البرلماني الذي لا يزال يعمل حتى يومنا هذا حُرم كلّ الكاثوليك من العرش، وكذلك كل شخص متزوّج من الكاثوليك، وبذلك جرى إحباط فعال لتكرار الظروف التي عجّلت في ثورة عام 1688م.

توفي وليام أوف أورنج في عام 1702م، أي بعد ثماني سنوات من وفاة زوجته ورثته الملكة آن، كنّته والابنة الأصغر لجيمس الثاني، وورثها تباعاً جورج الأول عام 1714م، حفيد أليزابيث ستيوارت وفريدريك الذي كان كونت بلاطينية نهر الراين، عندما توفي جورج في عام 1727م انتقل العرش إلى ابنه جورج الثّاني الذي حكم حتى عام 1760م، بعد ستّين سنة من تولّي وليام للعرش في عام 1688م تمسّك آل ستيوارت المنفيون بعناد بحلمهم في استعادة المملكة التي فقدوها، جيمس الثّاني المخلوع توفي في عام 1701م، وورثه ابنه جيمس الثّالث الملقّب «المُدّعي العجوز»، وتباعاً ورثه وفقاً للادّعاء ابنه الملقب «المُدَّعي الشاب» تشارلز إدوارد والملقب أيضاً «الأمير الرائع تشارلي»[1]، بوجود هؤلاء الملوك الثلاثة في المنفى بقيت الحلقات الجيمسية في أوروبا مستنبتات للمؤامرة والإثارة

1ــ تشارلز إدوارد (1720م ــ1788م) أمير بريطاني، وادّعى حقه في العرش البريطاني، قاد الانتفاضة الجيمسية في اسكتلندا عام 1745م، وبعد أن أخفقت عاش في المنفى في أوروبا، اسمه الحقيقي تشارلز إدوارد ستيوارت، له لقبان كما رأينا، الأول «المُدّعي الشاب» وللتنويه: «المُدّعي» تعني المطالب بالعرش، واللقب الثاني هو «الأمير بوني شارلي»، وكلمة بوني لها معان كثيرة، مثل فاتن وسيم وجذّاب ورائع، المترجم.

السياسية،ولم تكن عديمة الفائدة، ففي عام 1708م حدث غزو متوقّع لاسكتلندا من الستيوارتيين، وكان ذلك الغزو تدعمه جيوش الفرنسيين، كما جرت عمليات النقل بوساطة السفن الفرنسية، انجلترا التي كانت أغلب قوّاتها قد تورّطت بحرب الوراثة الإسبانية كانت ناقصة العدة والعتاد لمواجهة هذا التهديد، وكاد الاحتلال يُثبت نجاحه كثيراً لولا بعض الأمور ذات الحظّ السيئ، وهي الارتباك الجيمسي وعدم المبالاة الفرنسية، في ذلك الحدث أخفق كل المشروع، ولكن بعد سبع سنوات، أي في عام 1715م اندلعت في اسكتلندا ثورة شاملة بقيادة إيرل مار الذي كما رأينا، زُعم أنه خَلَف كلافر هاوس سيداً أعظم لنظام فرسان الهيكل الحديث،اشترك في التمرّد أيضاً اللّورد جورج سيتون الذي كان إيرل وينتون، وخسر ذلك اللقب نتيجة للأحداث، كما انتهى مفعول الأرليّة وحُكم عليه بالموت، على أي حال في عام 1716م هرب من برج لندن وانضم إلى الستيوارتيين المنفيين في فرنسا والمطالبين بالعرش، وفي بقية حياته كان نشيطاً في الشؤون الجيمسية، وفي عام 1736م أصبح سيداً لمحفل ماسوني جيمسي هام في روما، جرى إخماد الثورة، ولكن لم يحدث ذلك إلا بكلفة كبيرة، وآل ستيوارت المنفيون بقوا تحت التهديد ثلاثين سنة أخرى، ولم ينته ذلك التهديد إلا بعد الاحتلال والعمليات العسكرية الشاملة التي حدثت بين عامي 1745م ــ 1746م.

ثورة عام 1688م قدّمت عدداً من الإصلاحات الحديثة المطلوبة بشدّة بما فيها «لائحة حقوق الإنسان» على الأقل، في الوقت نفسه، انقسم المجتمع البريطاني بشدّة على أي حال، ولم تكن المسألة ببساطة أن أولئك الذين دعموا آل ستيوارت هربوا من البلاد جماعياً، وتركوها كليّاً لمنافسيهم، على العكس استمر تمثيل المصالح الستيوارتية في الشؤون الانجليزية، لم يكن كلّ أتباع آل ستيوارت مهيّئين لإقرار القوة، ولا مهيّئين لتحدّي البرلمان، الكثير منهم ومع ولائهم أثبتوا أنهم موظفون حكوميون واعون بقيادة وليام وماري آن وآل هانوفَر، هكذا كان الوضع مع السّير إسحاق نيوتن مثلاً، ولكن إن كان وليام وماري وآن ملوكاً شعبيين إلى حدّ معقول، فالهانوفَريّون لم يكونوا كذلك، فكان هناك الكثير في انجلترا من الذين قاموا بلا خجل ومن دون الانزلاق الفعلي لخيانة رسمية بالتنديد بالملوك الألمان الممقوتين، وقاموا بإثارة المشاعر لإعادة آل ستيوارت بعدّهم سلالة البلاد الشرعية.

وحزب المحافظين الحديث نشأ ونما في الحقيقة من بين هؤلاء المتعاطفين مع آل ستيوارت، محافظو القرن الثامن عشر الأوائل ظهروا في أواخر عام 1670م، حيث خرجوا من صفوف الطبقة المتعجرفة القديمة التي سبقت الحرب الأهلية، أكثرهم كانوا من الأنجليكانيين المتمسكين بالشعائر التقليدية، أو كانوا من الانجليز الكاثوليك، أكثرهم

كانوا ملاكاً للأراضي، وسعوا لتركيز القوّة بأيدي طبقة النبلاء المالكة للأراضي، عملياً كلّهم فضّلوا التاج على البرلمان، وأصرّوا على حقّ آل ستيوارت الوراثي في العرش.

معارضوهم الملقّبون بالهُويغيّين[1] ظهروا على نحو هام أيضاً في عام 1670م، الهُويغيّون ضمنوا في الغالب التجار وأصحاب المهن الحرة المندمجين حديثاً، وكانوا نشطاء بالتجارة والصناعة والشؤون المالية والأعمال المصرفية والجيش، شجّعوا على النوع الديني وضمنوا الكثير من المنشقّين والمفكّرين الأحرار، مجّدوا سلطة البرلمان على سلطة التاج، وكما قال سويفت: «فضّلوا الاهتمامات المالية على ملكية الأراضي»، وبتأييد ضمني أو صريح لـ «الخُلق البيوريتاني»، هم مثّلوا الطبقة المتوسطة المؤثّرة التي كانت قيادتها ستقرّر وجهة التاريخ البريطاني وستعدّ المال الحاكم الأعلى في الثورة التجارية أولاً ثم في الصناعية، لم يمتلكوا مودّة خاصة للهانوفريّين، بل كانوا مهيّئين لتحمّل الحكّام الألمان ثمناً لنجاحهم المزدهر الخاص.

الانشقاقات في المجتمع البريطاني ظهرات في الماسونية ذاتها، طبقاً للسجلات الموجودة الماسونية استمرّت بعد ثورة عام 1688م ظاهرياً كما في السّابق، استمر الاجتماع في المحافل، ليس ذلك فقط، بل استمرّ انتشارها أيضاً، من الممكن أن الكثير من المحافل الأقدم أو الكثير من الأعضاء الكبار في المحافل الأحدث كانوا موالين لآل ستيوارت أو المحافظين، ولكن ليس هناك أدلة تقترح أن الماسونية في هذه المرحلة كانت تعمل في الحقيقة أداة للتجسس أو المؤامرة أو الدعوة الجيمسية، على قدر ما هو ممكن يبدو أن أكثر المحافل في انجلترا بقيت بعيدة على نحو حريص عن السياسة أو حاولت البقاء، ولأن المزيد والمزيد من الهُويغيّين حصلوا على الشهرة وعلى مناصب هامة في الشؤون الاجتماعية والتجارية للبلاد، فحتماً وجدوا طريقهم إلى نظام المحفل، حيث وضعوا بصمتهم الخاصة على الماسونية، البصمة الموالية لآل هانوفَر.

على أي حال كانت الماسونية منذ بداياتها الأولى مرتبطة على نحو معقّد بآل ستيوارت كما رأينا، في أثناء القرن السابع عشر لم يكن مطلوباً من الماسونيين أن «يكونوا مخلصين للملك» فحسب، بل طُلب منهم أيضاً وعلى نحو نشيط استئصال المتآمرين والإبلاغ عنهم، وبذلك يصبحون في الحقيقة جزءاً من الآلة والجهاز الإداري لآل ستيوارت، ذلك الولاء أصبح عميقاً، لذلك ليس مفاجئاً أن القوة الرئيسة للماسونية كان يجب أن تبقى ملحقة بالجانب الستيوارتي، وأن تتبعه إلى المنفى، وأن تلك القوة سعت

1ـ الهُويغيّ (Whigs) عضوٌ في حزب بريطانيّ مؤيّد للإصلاح، عُرف بعد ذلك بحزب الأحرار، المترجم.

لتوسيع مصالحها في انجلترا، في أثناء الثلث الأول تقريباً من القرن الثامن عشر كانت المحافل الماسونية إمّا هُوِيغيّة وإما محافظة، هانوفَريّة أو جيمسية، لكنّ محافل المحافظين في انجلترا والجيمسيين في الخارج هي التي امتلكت معظم تاريخ المنظمة وتراثها، لقد شكّلت النبع الرئيس، بينما لم تكن التطوّرات الأخرى سوى روافد.

في انجلترا كان ماسونيون بارزون مثل دوق وارتون جيمسيين معروفين أيضاً، في الخارج أغلب الزعماء الجيمسيين مثل الجنرال جيمس كيث، وإيرل وينتون ألكساندر سيتون، وإيرلات ديروينت[1]، الإيرل الأول جيمس رادكليف، والثاني أخوه الأصغر تشارلز لم يكونوا ماسونيين، بل كان لهم أيضاً دور فعّال في نشر الماسونية في كل أنحاء أوروبا، بعد إخماد تمرّد عام 1745م حُكم على عدد من الماسونيين الشهيرين بالموت لولائهم وخدمتهم للقضية الجيمسية، إيرل ديروينت واتر الذي كان سابقاً سيداً أعظم للماسونية في فرنسا، وإيرل كيلمارنوك وإيرل كروماتري اللذان كانا السيدين العظيمين للماسونية في اسكتلندا، الأخير فقط هرب من الإعدام في البرج.

طبقاً لأحد المؤرخين:

ليس هناك أدنى شك بأن الجيمسيين كان لهم تأثير حاسم في تطوير الماسونية، كان ذلك إلى حد بعيد، حتى إن الشهود اللاحقين في الحقيقة وصفوا الماسونية بأنها مؤامرة جيمسية عملاقة.

سوف نناقش أنّ الجيمسيين لم يكن لهم فقط «تأثير حاسم في تطوير الماسونية»، سوف نناقش كيف كانوا حماتها ودعاتها الرئيسين، في البدايات على الأقل، وعندما جرى تأسيس المحفل الكبير في عام 1717م الذي أصبح بعد ذلك المستودع الأساسي للماسونية الانجليزية كان السبب الأكبر في تأسيسه هو محاولة هُوِيغيّة أو هانوفَريّة لتجاوز ما كان احتكاراً جيمسياً شبه تام حتى ذلك الوقت.

مركزة الماسونية الانجليزية

المحفل الأعظم في انجلترا أُسس في 24 يونيو/حزيران عام 1717م عيد القدّيس يوحنا، وكان هذا اليوم يقدّسه سابقاً فرسان الهيكل، كان هناك أولاً أربعة محافل في لندن، وكانت مندفعة على نحو واضح نحو المركزية، فقد فضلت الاندماج في منظمة واحدة وانتخبت محفلاً عظيماً، ليكون الهيئة الحاكمة، ضَمَّت إليها بسرعة المزيد من المحافل، وفي عام 1723م ازداد عدد المحافل الأصلية الأربعة إلى اثنين وخمسين.

1ــ واتر ديروينت واتر بحيرة في كامبريا شمال غرب بريطانيا، المترجم.

إنّ التفسير الطبيعي لاتحاد المحفل الأعظم باهت على نحو غريب، أو بالأحرى محيّر، طبقاً لأحد الكتاب: «جرى تأسيسه لهدف اجتماعي صريح، وهو توفير مكان ملائم لاجتماع أعضاء المحافل القليلة في لندن»، آخر يُخبر أيضاً بأنّ تلك الفترة كانت تتسم بشغف عام للأندية والجمعيات، وأن انتشار الماسونية الانجليزية وتوسعها كان نتيجة لهذه الحماسة، ومع ذلك ليس هناك حركة مشابهة للمركزية بين أندية الطعام والشراب في تلك الفترة، أو الجمعيات المتنامية العلمية والبِبليوغرافية[1] والآثارية، الماسونية على نحو محدّد هي التي تميّزت بالتشديد على الانتشار، ليس الانتشار فحسب، بل على المركزية أيضاً وعلى درجة أكبر. وهكذا، على سبيل المثال من المحافل الاثنين والخمسين التي شكلت المحفل الكبير في عام 1723م كان هناك على الأقل ستّة وعشرون منها يظهر أنها كانت تمتلك محفلاً عظيماً ذا تاريخ أقدم، يعود إلى عام 1717م، أي إن دخولها إلى السجل التاريخي لم يكن نتيجة انتشارها، بل لاستعدادها للقيادة المركزية.

طبقاً لجي. آر. كلارك الكاتب والمؤرخ الماسوني في عام 1967م: «أظن أنه في عام 1717م كان هناك سبب وجيه جداً للتعاون، أصبح ذلك ضرورياً نتيجة للحالة السياسية للبلاد»، يتابع كلارك بالتشديد على المظاهر الفياضة للإخلاص والولاء الهانوفَريّ في الاجتماع الافتتاحي للمحفل الكبير، شرب الأنخاب المؤيدة للملك جورج، وكذلك إنشاد الأغاني الموالية له، وكلارك استنتج على نحو صحيح أنّ هذا العرض المبالغ فيه للتأجّج الوطني يجب أن يُنظر إليه محاولة لإثبات أنّ الماسونيين لم يكونوا جيمسيين، عرض كاد يكون ضرورياً، لأنه لم يكن هناك سبب لأن يشك أحد بأنهم كذلك.

المؤرخون اليوم ينحازون لعدّ التمرّد الاسكتلندي في عام 1715م وتأسيس المحفل الأعظم في عام 1717م حدثين منفصلين، تفصلهما سنتان كاملتان، إن تمرد عام 1715م في الحقيقة لم يُقمع ويتلاشى في النهاية تماماً على أي حال، إلى أن جرى إعدام لورد كينمور ولورد ديروينت واتر في فبراير/شباط 1716م، وخطط الدمج التي أدت إلى تشكيل المحفل الأعظم وُضعت قبل الحادثة تماماً، أي في أثناء الصيف أو الخريف السابقين لعام 1716م، لذلك لم يفصل بين التمرّد الاسكتلندي وتأسيس المحفل الأعظم عامان، بل ستّة شهور إلى ثمانية، ويبدو واضحاً أنه كان بينهما صلة سببية، كأنّ المؤسسة الموالية لآل هانوفَر والتي كانت حاسدة للشبكة التي قدمتها الماسونية لمنافسيها الجيمسيين أرادت بتعمد أن تتبنّى وتمتلك شبكة موازية، كأنّها أرادت التنافس، وعلى

1ـ البِبليوغرافيا فنّ وصف الكتب والمخطوطات أو التعريف بها، المترجم.

نحو يشبه جداً روح السوق الحرّة المغامرة في انجلترا الجورجية القديمة، إضافة إلى أن المحفل الكبير لم يكن يكسب معلومات من منافسيه لكي يزيد جاذبيته.

هذا ظاهر في القضية الجدالية والمعقّدة والعويصة لـ «الدرجات» الماسونية، أو التي تُدعى مراحل التلقين، الماسونية اليوم منقسمة إلى ثلاث درجات من «الحرفة» وعدد من «الدرجات الأعلى» «الاختيارية»، درجات «الحرفة» الثلاث، الصانع المبتدئ[1] وزميل الحرفة[2] والبنّاء المعلّم[3] تتبع السلطة القضائية للمحفل الكبير المتّحد في انجلترا، أما «الدرجات الأعلى» لا تتبع سلطة ذلك المحفل، بل تتبع السلطة القضائية لهيئات ماسونية أخرى مثل «المجلس الأعلى للمذهب الاسكتلندي القديم المقبول»، أو «الجماعة العظمى لفن العمارة الملكي»، أكثر الماسونيين الانجليز اليوم يعملون خلال الدرجات الثلاث التي يعرضها المحفل الأعظم، وبعد انتهائهم يستمرّ للعمل بعد أن يختاروا إحدى «الدرجات الأعلى المختلفة»، بالأحرى بالطريقة نفسها التي يتخرج بها الطالب بشهادة بكالوريوس في الأدب الانجليزي في إحدى الجامعات، ثم ينتقل إلى جامعة أخرى لدراسة البكالوريوس في الأدب الفرنسي أو الألماني، ذلك لم يكن مسموحاً من أوائل القرن الثامن عشر وحتى منتصفه على أي حال، الماسونيون الانجليز الذين لم يرغبوا في ذلك الوقت بأن يُشكّ في أمر ولائهم للتاج، كانوا يحصلون فقط على الدرجات المتوافرة في المحفل الأعظم، فلم يُمنحوا «الدرجات الأعلى» التي كانت حصرية تقريباً بالجيمسيين على نحو خاص، والسلطات الماسونية التي تُقدم هذه الدرجات العليا كانت تُعد مشتبهاً بها في أحسن الأحوال وخائنة في أسوأ الأحوال، الجدل ما زال شديداً في المسألة، لكنّه معروف على نحو واسع اليوم أنّ ما تُدعى الآن «الدرجات الأعلى» ليس منشؤها من الماسونية الجيمسية فقط، بل في الحقيقة كانت منذ القِدم، أي إنه لا يبدو أنها ابتكارات لاحقة، بل هي من «مخزن الأساطير» والتقاليد والرمزية الواسعة الذي اختار منه المحفل الكبير في عام 1717م جزءاً صغيراً فقط، وطبقاً لأحد المؤرخين الماسونيين:

... ما فعله إخوتنا الجيمسيون هو أنهم فقط أخذوا أجزاء أخرى من المستودع نفسه، وقاموا بتعديلها وتكييفها بالأسلوب الذي بدا مسوغاً جداً لهم لخدمة تلك القضية المقدسة لهم، القضية انتهت، ولكن الكثير من الدرجات لا تزال موجودة، الدرجات التي تخلّصت من كل الارتباطات السياسية.

1ـ Entered Apprentice.

2ـ Fellow Craft.

3ـ Master Mason.

يبدو أن «الدرجات الأعلى» تضمّنت سمات من التاريخ والشعائر والتقاليد الماسونية التي كانت ببساطة غير معروفة أو متوافرة للمحفل الأعظم، أو التي كانت تُشكل قلقاً وخطراً سياسياً ممكناً إن تبنّاها المحفل الكبير، ومن ثم كان واجباً إنكارها، على أي حال بعد عام 1745م، أي عندما لم يعد آل ستيوارت أخيراً وعلى نحو مؤكد يشكلون أي تهديد، وعندما جرى ضمان القبضة الهانوفَريّة على العرش بدأ المحفل الكبير بالاعتراف بـ «الدرجات الأعلى» ولو بتذمّر، وفي الحقيقة بعض سمات «الدرجات الأعلى» التي كانت بذلك الحين مطهّرة من كل العناصر المثيرة للجدل جرى في النهاية تخصيصها ودمجها في توسعات نظام المحفل الكبير، نتيجة لذلك ظهر أخيراً في عام 1813م «المحفل الكبير المتحد» الذي احتاج إلى الاندماج في محفل عظيم بديل مواز ومنافس[1].

معظم التاريخ الماسوني الانجليزي اليوم كتبه العلماء الذين يعملون برعاية المحفل الأعظم المتّحد،يجسدون الماسونية الجيمسية، ويجسدون أيضاً المذاهب الناتجة من تكاثر «الدرجات الأعلى» مثل الانشقاقية والضلالية، وهي انحرافات عن النبع الرئيس الذي هم أنفسهم يجسدونه، على أي حال سيظهر في الحقيقة أن ما حدث هو على العكس تماماً، فالماسونية الجيمسية كما يبدو تشكّل النبع الرئيس، والمحفل الكبير هو الرافد أو الانحراف الذي أصبح في النهاية النبع الرئيس نظراً إلى الظروف والتقلّب التاريخي، قد يتذكر أحدنا أصول المسيحية والعملية التي أزاح فيها الفكر البولسي[2] التقاليد وأصبح هو ذاته التعاليم والتقاليد الجديدة، بعد أن كان أصلاً انشقاقاً دينياً أو انحرافاً ضلالياً عن التعاليم الأصلية للسيد المسيح، كما جرى عدّ الفكر النصراني نوعاً من أنواع البدعة مع كونه الخزينة الأصلية للتعاليم والتقاليد.

يبدو المحفل الكبير أنه بدأ رافداً من النبع الرئيس كالفكر البولسي، أو انحرافاً عن التوجّه العام، أزال التوجّه العام وأصبح هو نفسه التوجّه العام، لكن لم يكن سهلاً دائماً كالفكر البولسي، بل استمرّ في كونه مشتبهاً به في نظر السلطة العلمانية التي أراد استرضاءها، كما يصرح المؤرخ الماسوني: «أن يكون المرء عضواً في الأخوية الماسونية في تلك الفترة فذاك يدعو للشكّ في أن ذلك الشخص هو أيضاً جيمسي...».

1ــ في عام 1751م شُكّل محفل عظيم منافس أولاً من طائفة ماسونيي المحفل الكبير الإيرلندي ادّعى أنه يطبّق القواعد والأساليب القديمة، هذا المحفل دُعي «القديم» (Antients)، والمحفل الكبير من عام 1717م دُعي «الحديث» (Modems)، على خلاف «الحديث» استخدم «القديم» «الدرجات الأعلى» وعلى نحو خاص «فن العمارة الملكي» (Royal Arch)، في عام 1813م كلا النظامين تصالح واندمج لتشكيل «محفل انجلترا العظيم المتّحد» (United Grand Lodge of England)، والذي لا يزال حتى اليوم، المؤلفان.

2ــ نسبة إلى بولس الرسول أو تعاليمه، المترجم.

دوق وارتون الذي كان السيد الأعظم للمحفل الكبير في عام 1722م لم يعمل إلا القليل لتشجيع الثقة العامّة أو الرسمية، هو لم يكن جيمسياً صاخباً فقط، قبل ذلك ثلاث سنوات شارك في تأسيس «نادي نار الجحيم» الشهير، أو السيئ السمعة، الذي كان يحصل اجتماعه أصلاً في حانة غريهاند قرب سانت جيمس، في هذه المبادرة انضم إليه شخص آخر سرعان ما أصبح بارزاً في الماسونية، إنه جورج لي إيرل ليتشفيلد الذي توفي والده في أثناء قتاله في سبيل آل ستيوارت في بوين، والذي كانت أمّه شارلوت فيتزوري بنتاً غير شرعية لتشارلز الثّاني، لذلك كان لي نفسه من السلالة الستيوارتية مع ابن عم حفيدين آخرين غير شرعيين لتشارلز الثّاني، وهما جيمس وتشارلز رادكليف اللذان أصبحا بالتوالي إيرلين لـ «ديروينت واتر»، لا عجب من أنه أيضاً أدى دوراً فعالاً في الشؤون الجيمسية، في عام 1716م أدت مكائده إلى هروب تشارلز رادكليف وثلاثة عشر آخرين من سجن نيوغايت، حيث جرى حجزهم لدورهم في تمرّد عام 1715م، جيمس رادكليف أُعدم.

على نحو متوقع تماماً اتخذت السلطات إجراءات صارمة، في عام 1721م أُصدر مرسوم ضدّ «بعض الأندية أو الجمعيات المخزية»، جرى إغلاق «نادي نار الجحيم» على نحو هادئ، ولكن مؤقتاً، ولإدراك المحفل الكبير أنه بدأ يجذب الشكّ، شعر بأنه مضطر ليطمئن، أو ليعيد الطمأنينة إلى الحكومة بأنه «آمن»، ولا خوف منه، في عام 1722م:

... مجموعة مختارة من جمعية الماسونيين الأحرار انتظروا اللّورد فيكونت تاونسيند نسيب روبرت والبول، رئيس الوزراء... ليبيّنوا لسيادته أنهم التزاماً بأعرافهم سيعقدون الآن اجتماعاً عاماً في منتصف الصيف طبقاً للعادة السنوية، وتمنوا من الإدارة أن لا تستاء من تلك الدعوة للاجتماع، كما كانوا جميعاً ملتزمين بحماسة بشخص جلالته وحكومته، سيادته تلقّى هذا التنويه بأسلوب لطيف جداً، وأخبرهم بأنه يظن أنّه لا حاجة إلى أن يقلقوا من أي تحرّش أو إزعاج من الحكومة، ما داموا لن يقوموا بما هو أخطر من الأسرار القديمة للجمعية التي يجب أن تكون ذات طبيعة غير مؤذية أبداً، لأنه على قدر ما تحب البشرية الأذى، فقد عجز أحد عن خداعهم إطلاقاً.

ومع ذلك استطاع وارتون في هذا الاجتماع عام 1722م أن يضمن انتخابه ليكون السيد الأعظم وسط الكثير من الاتهامات بعدم الالتزام بالقوانين، بعد ذلك اتّهم بمحاولة

«الاستيلاء على الماسونية لمصلحة الجيمسيين»[1]، في السنة التالية ورثه إيرل دالكيث الموالي لآل هانوفر، وغادر فجأة «من دون أيّ مراسم»، إن كان هناك على نحو مطلق أيّ محضر اجتماع لفترة السيادة العظمى له أو لأسلافه فإنها قد اختفت، رسمياً تبدأ محاضر اجتماعات المحفل الأعظم في 25 نوفمبر/تشرين الثّاني عام 1723م بسيادة دالكيث العظمى.

في سبتمبر/أيلول عام 1722م وقعت مؤامرة جيمسية طموحة، إن لم تكن بالأحرى نصف محضرة لإثارة تمرّد في لندن، وأسر البرج واحتلاله إلى أن يتمكن الثوّار من الانضمام إليهم بقوة غازية من فرنسا، من بين المتآمرين الذي تورّطوا في هذه المؤامرة كان الدّكتور جون أربوثنات، ماسوني بارز وطبيب ملكي سابق للملكة آن، أصدقاء أربوثنات الأقرب تضمّنوا عدداً من الماسونيين البارزين الآخرين، من بينهم بوب وسويفت الذين مع عدم اشتراكهم في الخطة عانوا إلى حد ما وصمة العار من الجمعية، مؤامرة سبتمبر/أيلول ألغت معظم المصداقية التي سعى المحفل الكبير لتأسيسها في وقت سابق من السنة، وفرض الحاجة إلى اتخاذ ضمانات جديدة.

في عام 1723م ظهرت «دساتير» جيمس أندرسن الشهيرة نوعاً من التهدئة النهائية لأيّ شكّ في نشاطات سياسية هدّامة، أندرسن الذي كان وزير الكنيسة الاسكتلندية في سانت جيمس، وكان قسيس إيرل بوتشان المؤيد الشديد لآل هانوفر كان عضواً في «محفل هورن» (Horn Lodge) الشديد التأثير، والذي كان يضم أعمدة من المؤسسة أمثال دوق كوينز بورو ودوق ريتشموند ولورد بيسلي، وفي عام 1725م ضم المحفل أيضاً شريك نيوتن المدعو جون ديساغُليرز، هذه المؤهلات والعلاقات وضعت أندرسن فعلياً موضع شبهات، علاوة على ذلك في عام 1712م قام بكتابة بعض الخطب المعادية جداً للكاثوليكية الفتّاكة، يمجّد الملكة آن ويناشد الله:

... أن يخيب الآمال المتكبّرة لخصومنا العامّين، وذلك بأن يُديم بيننا الدين البروتستانتي المنصلح، وبأن يضمن استمرار التعاقب البروتستانتي على التاج في السلالة وفي بيت هانوفر... [2].

1ــ وارتن اتّهم علناً بأنه كان زعيم الجيمسيين، وعلى نحو مؤكد بعد أن غادر انجلترا انضم إلى القضية الجيمسية، المؤلفان.

2ـــ حتى إنه يبدو من الممكن أن أندرسن كان ماسونياً قبل عام 1717م، يذكر هجوم ضده في كتاب «Sellers—No King» أنه كان «معلّماً في الحرفة»، ويضيف ذلك التصريح أنّ «إخوته في السيادة»، كما يدعوهم، يمتلكون أكثر من منصب استعلامي في مبنى التجارة الذي يجتمعون فيه في أغلب الأحيان، مبنى التجارة كان مركزاً لمحفلين ماسونيين قديمين على الأقل، «محفل حانة التاج» كان بعد مركز التجارة في قائمة محافل عام 1723م، وكذلك الأمر لـ «محفل حانة السفينة»، المؤلفان.

لاحقاً في عام 1732م نشر أندرسن عملاً آخر مؤيداً لآل هانوفَر ذا عنـوان «علـم الأنـساب الملكيـة»، من بين المشتركين كان إيرل دالكيث، وإيرل أبِرْكورن، والكولونيل السّير جون ليجـونير الـذي أصـبح لاحقاً جنرالاً، والكولونيل جون بيت، والدّكتور جون أربوثنات، وجون ديساغُليرز، والسّير روبرت والبول.

دساتير أندرسن أصبحت في الواقع كالكتاب المقدس للماسونية الانجليزية، تُعلـن تلـك الدسـاتير مـا أصبح الآن العقائد المألوفة والأساسية للمحفل الأعظـم، المقالـة الأولى في غموضـها المطلـق لا تـزال حتـى يومنا هذا موضع نقاش وتفسير وفرضيات، في الماضي كان الماسونيون ملزمين بإعلان ولائهـم لله والكنيـسة الانجليزية، ولكن أندرسن يكتب: «يُفترض الآن أنه من الأكثر ملاءمة أن يجري إلزامهم فقط ذلـك الـدين الذي يتفق عليه كلّ الرجال، وأن يُترك لهم آراؤهم الخاصة... »، تذكر المقالة الثانية على نحو واضـح: «أي ماسوني... لا يجب عليه أبداً أن يهـتم بـالمؤامرات والمكائـد ضـدّ سـلام الأمـة ورفاهيتهـا»، طبقـاً للمقالـة السادسة لا مناقشات تخصّ الدين أو السياسة ستُقبل في المحفل.

«الدساتير» لم تهدّئ الشكوك كليّاً، حتى عام 1737م ظهرت رسالة مطوّلة في مجلتين في لندن، تحـذّر من أنّ الماسـونية تـشكل خطـراً عـلى المجتمـع الانجليـزي، لأنهـا كانـت تخـدم القـضية الـستيوارتية سرّاً، تلميحات استثنائية أشارت إلى بعـض المحافـل «الخاصّـة» التـي كانـت مطّلعـة عـلى معلومـات حاسـمة، وحجبتها عـن الماسـونيين العـاديين، هـذه المحافـل «تعـترف بأنـه حتـى الجيمـسيون، ورافـضو القَـسَم[1]، والبابويّون» كانوا مجنّدين لمصلحة الستيوارتيين، اعترف المؤلف المجهول بأنّ الكثـير مـن الماسـونيين كـانوا مؤيدين وموالين للتاج، ولكنه بعد ذلك سأل: «كيف يمكننا التأكد من أن أولئك الأشخاص الذين اشـتهروا بتأثرهم التام بقوة ما لم يُدخلوا معهم كلّ ألغازهم؟».

في ذلــك الوقــت جنــون ارتيــاب كهــذا كــان الاســتثناء بــدلاً مــن القــانون عــلى أي حال، بدساتير أندرسن أصبح المحفل الكبير ذا هيبة، وأصبح على نحو متزايد ملحقاً اجتماعياً وثقافياً غـير قابل للنقد للنظام الهـانوفَريّ الـذي توسـع ووصـل في النهايـة إلى العـرش، اسـتمر نـشاط الأنمـاط الأخـرى للماسونية في اسكتلندا وإيرلندا وأوروبا كما سنلاحظ، على أي حال، في انجلترا أسّس المحفل الكبير ما يـشبه المؤسسة الاحتكارية، وامتثاله السياسي لم يكن بعد ذلك قطّ موضع شكّ جدّي، في الحقيقـة أصـبح المحفـل

1ـ الرافض أن يُقسِم يمين الولاء، وبخاصة أحد رجال كنيسة انجلترا الذين رفضوا عام 1689م أن يقـسموا يمـين الـولاء للملـك وليم والملكة ماري، المترجم.

الكبير مندمجاً جداً في المجتمع الانجليزي، حتى إن مصطلحاته بدأت تخرق اللغة، لا تزال معنا حتى يومنا هذا، عبارات (standing foursquare)، أي «عنيد»، أو (on the level)، أي «مخلص»، أو (taking a man's measure)، أي «الامتثال بشخص ما»، أو (subjecting a person to the third degree)، أي «تحقيق مطوّل وصارم مع شخص ما»، وغيرها الكثير من العبارات الأخرى مشتقّة من الماسونية على نحو مؤكد.

في عام 1730م بدأ المحفل الكبير بالانتشار في أمريكا الشمالية، وبدأ بـ «كفالة» محافل هناك، أي تبنّي المحافل مؤسسات فرعية له، في عام 1732م مثلاً أسّس الجنرال جيمس أوغلْثورب مستعمرة جورجيا، وأصبح بعد سنتين سيد المحفل الماسوني الأول في جورجيا، ولاء أوغلْثورب السياسي الخاص كان غامضاً، أغلب عائلته كانوا من الجيمسيين النشطاء، ثلاث من أخواته كنّ مقاتلات مواليات لقضية ستيوارت، وكذلك كان أخوه الأكبر، وجرى نفيهم لأنشطتهم التحريضية، في تمرّد عام 1745م قاد أوغلْثورب نفسه القوّات البريطانية في الميدان، وأبدى عدم مبالاة كبيرة في عملياته، حتى إنه خضع للمحاكمة، مع تبرئته يبدو هناك القليل من الشكّ بأنّه شارك عائلته في تعاطفها، مع هذا حظيت مغامرته في جورجيا بالموافقة من كلا النظامين الهانوفَريّ والمحفل الكبير، المحفل الكبير تبنّى المحفل الذي أسّسه أوغلْثورب، ليس ذلك فحسب، بل أوصى المحفل الكبير أيضاً بحماسة بأنّ الأعضاء الانجليز عليهم جمع تبرعات خيرية سخية لمصلحة فرعهم ومؤسستهم في جورجيا[1].

وهكذا في العقد الثالث من القرن الثامن عشر كانت الماسونية الانجليزية برعاية المحفل الأعظم قد أصبحت معقل المؤسسة الاجتماعية والثقافية، وأصبحت تضمّ بين الإخوة الأكثر شهرة أشخاصاً مثل ديساغُليرز وبوب وسويفت وهوغارث وبوسويل إضافة إلى فرانسوا دي لورين الزوج المستقبلي للإمبراطورة النمساوية ماريا تيريزا، كما رأينا بدأ انحرافٌ عن الاتجاه العام، وبعد ذلك أصبح الاتجاه العام نفسه، إن وضعنا في الحسبان انجلترا على الأقل حتى الآن، من بعض النواحي ربما كانت ماسونية المحفل الأعظم «أقل اكتمالاً» من ماسونية الجيمسيين، وأقل اطلاعاً على الأسرار القديمة، وأقل إرثاً للتقاليد الأصلية، ومع هذا كله أو ربما بسبب ذلك تماماً، أدّت ماسونية المحفل الأعظم الوظيفة الاجتماعية والثقافية التي لم يتمكن من أدائها منافسوها الأوروبيون.

1ـ من المؤكد أن المهاجرين البريطانيين إلى أمريكا حملوا معهم مبادئ الماسونية، ولذلك نجدها قد انتشرت كثيراً في أمريكا من دون أي عوائق، وهذا يؤكد أن بريطانيا هي المنبت الأول للماسونية. (المدقق).

المحفل الأعظم غمر كلّ المجتمع الانجليزي، وغرس قيمه تماماً في نسيج الفكر الانجليـزي، في إصرار على الأخوية العالمية التي تتجاوز الحدود الوطنية كان على الماسونية أن تمارس تأثيراً عميقـاً في المـصلحين العظماء في القرن الثامن عشر مثل ديفيد هْيوم[1] وفولتير وديدرو[2] ومونتيسكيو[3] وروسّـو[4] في فرنـسا، وأتباعهم في البلاد التي ستصبح الولايات المتّحدة، وإلى المحفل الكبير وإلى المنـاخ الفلـسفي العـامّ الـذي عزّزه يُنسب معظم ما هو أفضل ما في التاريخ الانجليزي في ذلك العصر، بدعم من المحفل الكبير أصبح كامل نظـام الطوائـف الاجتماعيـة[5] في انجلـترا أقـل تـصلباً وأكـثر مرونـة مـن أي مكـان آخـر في أوروبـا، وباستعمال المصطلحات التخصصية لعلماء الاجتماع نجد أن «قابلية النمو» أصبحت ممكنـة جـداً، تفنيـد الإجحاف الديني والسياسي لم يشجع على التسامح فقط، بل ساعد أيضاً على نشر روح العدل التي أُعجب جداً بها الزوّار الأجانب، مثلاً فولتير نفسه [6] الـذي أصـبح ماسـونياً لاحقـاً كـان متحمـساً جـداً بـالمجتمع الانجليزي الذي وصفه بالنموذج الذي يجب على كلّ الحـضارة الأوروبيـة أن تطمـح إلى أن تكـون مثلـه، تقلصت معاداة الساميّة في انجلترا[7] على نحو أكبر من أي مكان آخر في أوروبا، وأصبح في قدرة اليهود أن يكونـوا ماسـونيين[8]، لـيس ذلـك فقـط، بـل يمكـنهم الوصـول إلى مناصـب في الحيـاة العامّـة والـسياسية والاجتماعية التي حُرموا منها سابقاً، الطبقة المتوسطة النامية مُنحت مجالاً للمنـاورة والتوسّـع بطريقـة غـير ممكنة في أي مكان آخر، ومن ثم وصلت بريطانيا إلى طليعة التقدّم التجاري والصناعي، الأعمال الخيرية بما فيها الاعتناء المرهق في أغلب الأحيان بالأرامل والأيتام، نشر قيم مثالية جديدة من المسؤولية المدنية وتمهيد

1ـ (1711م ـ 1776م) فيلسوف اسكتلندي، قال: إن الاختبار مصدر المعرفة كلها، المترجم.

2ـ (Diderot) دونيس ديدرو (1713م ـ 1784م) فيلسوف وموسوعي فرنسي، شارك في تحرير «الموسوعة الفرنسية»، المترجم.

3ـ (Montesquieu) مونتيسكيو (1689م ـ 1755م) كاتب وفيلسوف سياسي فرنـسي، أشـهر آثـاره «روح القـوانين» l'Esprit des lois (عام 1748م)، المترجم.

4ـ (Rousseau) هنري روسّو (1844م ـ 1910م) رسام فرنسي، عُني برسم الأدغال والوحوش والغجر، المترجم.

5ـ نظام اجتماعي قوامه التمييز الطبقيّ المبنيّ على أساس المنزلة أو الثروة، إلخ، المترجم.

6ـ فولتير (Voltaire) (1694م ـ 1778م) فيلسوف فرنسي، يُعد أحد أكبر رجال الفكر في القرن الثامن عشر، المترجم. ومن دلائـل ماسونية فولتير وعدائه للإنجيل وللمسيح قوله في أحد كتبه ماهذا الكتاب المقدس الـذي يقـول إن الأرانـب تجـتر، كيـف نصدق هذا الكتاب وهو يخالف أبسط قواعد العلوم، (المدقق).

7ـ تقلص معادة السامية في انجلتر يعود إلى كـون القيـادات الماسـونية البريطانيـة كانـت مرتبطـة بـزعماء اليهـود ارتباطـاً ماسونياً وثيقاً، (المدقق).

8ـ الحقيقـة أن الحركـة الماسـونية يتزعمهـا يهـود منـذ نـشأتها، ولـيس كـما قـال الكاتـب إن اليهـود يمكـن أن يكونـوا ماسونيون،فشعارات الماسونية لاتختلف عن شعارات حكماء صهيون والحركة الصهيونية، (المدقق).

الطريق للكثير من برامج الخدمات الاجتماعية اللاحقة[1]، وحتى إنه يمكن القول إنّ تضامن المحفل ساهم في الكثير من السمات النقابية اللاحقة إضافة إلى استناده إلى نقابات القرون الوسطى، وأخيراً زرعت عملية انتخاب السادة والسادة العظام في الفكر الانجليزي تمييزاً سليماً أثمر سريعاً في أمريكا، ليميّز بين الرجل والمنصب.

في كلّ هذه النواحي شكّلت الماسونية الانجليزية نوعاً من المادة اللاصقة التي جعلت النسيج الاجتماعي في القرن الثامن عشر موحّداً ومتماسكاً، من بين الأشياء الأخرى ساعدت على تقديم مناخ أكثر اعتدالاً من بقية أنحاء أوروبا التي تتوّجت فيها المظالم في النهاية بالثورة الفرنسية أولاً، ثم في ثورتي عامي 1832م و1848م، كما سنشاهد هذا المناخ امتد إلى المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية[2]، وأدى دوراً حاسماً في تأسيس الولايات المتّحدة، لذلك نمط الماسونية الذي أعلنه المحفل الأعظم قام باستئصال أصولها الخاصة بقيامه بذلك، وكان من شأنه أن يبدو بصدق إحدى الظواهر المهمة والمؤثرة جداً في القرن، والتي غفل عنها في أغلب الأحيان المؤرخون التقليديون.

1ـ تقدم الماسونية خدماتها لليهود والمسيحيين المؤيدين لها، ولا تقدم أي معونة لأي شعوب أخرى على وجه الأرض، (المدقق).

2ـ من طبيعة الحركة الماسونية كما جاء في بروتوكولات صهيون الدفع لقيام ثورات دموية كما حدث في فرنسا ثم في روسيا عام 1917م، (المدقق).

القسم الثالث عشر

القضية الجيمسية الماسونية

بينما كان المحفل الكبير يزدهر كانت المحافل الجيمسية الولاء في انجلترا سرية جداً، بعضها استمرّ على نحو مؤكد حول نيوكاسل، خصوصاً في المنطقة الشمالية الشرقية، وحول عقارات آل رادكليف في ديروينت واتر، لكن المناخ السائد وفر لهم القليل من الحرية في التوسّع أو التطوير، الشيء نفسه حصل في اسكتلندا، حيث فُقد الكثير من الأدلة التي تخصّ الماسونية عمداً أو غير ذلك بين عامي 1689م و1745م نتيجة اضطرابات الأحداث، كانت إيرلندا مسألة مختلفة على أي حال.

في عام 1688م تقريباً كانت الماسونية مشهورة في إيرلندا، في تلك السنة أشار خطيب من دبلن في مسعاه لأسر انتباه جمهوره إلى رجل «أصبح ماسونياً بالطريقة الجديدة»، وذلك طبعاً يدل على أنه كان هناك أيضاً «طريقة قديمة»، في السنة نفسها حدثت فضيحة بسيطة عندما وُجد شخص سيئ السمعة يدعى ريدلي مقتولاً، وكان معروفاً عنه أنه جاسوس ومخبر معاد للكاثوليكية، ولكن وُجدت علامة على جسمه، أشير إليها بأنها «علامة ماسونية»، مع ذلك ليس هناك إشارة إلى ماهية تلك «الإشارة»، أو كيفية تثبيتها أو طبعها، سواء كان لها علاقة بموته أم لا[290].

التوثيق عن التاريخ القديم للمحفل الكبير لإيرلندا متفرق، وقد فُقدت كلّ الكتب الدقيقة قبل عام 1780م، وكذلك كلّ السجلات قبل عام 1760م، أياً كانت المعلومات التي يمكن الحصول عليها فهي متسربة من المصادر الخارجية، كالتقارير والرسائل الصحيفة، الأدلة المتوافرة تشير إلى أنّ المحفل الكبير الإيرلندي تشكّل في عام 1723م أو 1724م تقريباً، أي بعد ستّ سنوات أو سبع من منافسه الانجليزي، السيد الأعظم الأول كان دوق مونتيجو (Montague) الذي ترأس المحفل الكبير في انجلترا في عام 1721م، مونتيجو كان فليون[291] جورج الأول وموالياً شديداً لآل هانوفر، نظراً إلى عمق الموالين لآل

290ـ تكررت أساليب القتل على يد الماسونيين في عدد من بلدان أوروبا وغيرها، وكان من ضحيتها المفكر الروسي إميليانوف الذي فضح الماسونية بعدد من كتاباته، ثم وجد مقتولاً تحت البناء الذي يقطنه، وقد أثبتت التحقيقات أنه دُفع من على سطح البناء من أشخاص يهود ينتسبون إلى الماسونية، (المدقق).

291ـ ابن بالمعمودية، المترجم.

ستيوارت في إيرلندا وتغلغلهم فلا عجب من أنه أثار الكثير من الأشخاص، والمحفل الكبير الإيرلندي أُصيب بمشكلات داخلية، بين عامي 1725م و1731م هناك فجوة كبيرة في تاريخه، والمعلّقون اللاحقون استنتجوا أنّه لا بدّ من أنه كان هناك انشقاق بائس بين مؤيدي الهانوفريين والجيمسيين.

في مارس/آذار عام 1731م يظهر أنه كان هناك بعض التعزيز نتيجة لتولي إيرل روس السيادة العظمى، بعد شهر روس خَلَفه جيمس الذي كان لورد كنغستون، هو أيضاً ترأس المحفل الكبير لانجلترا في عام 1728م، ولكن بعد عام 1730م «حصر ولاءه بالماسونية الإيرلندية»، وذلك عندما صدّق المحفل الانجليزي الكبير على بعض التغييرات غير المحدّدة، كنغستون كان يمثل توجّه المحفل الكبير الإيرلندي، لديه ماض جيمسي وانحدر من عائلة جيمسية، أبوه كان أحد رجال حاشية جيمس الثّاني، وتبع الملك المخلوع إلى المنفى، وعاد إلى إيرلندا في عام 1693م بعد أن عُفي عنه أولاً، ولكنه اعتُقل لاحقاً، واتّهم بتجنيد أفراد الجيش للقضية الستيوارتية. في عام 1722م، كنغستون نفسه تلقّى اتهامات مماثلة.

لذلك بقي المحفل الكبير الإيرلندي مستودعاً للسمات الماسونية التي أنكرها أو رفض أن يمتلكها المحفل الكبير في انجلترا، وماسونية المحفل الكبير الإيرلندي هي التي اطّلعت عليها الكتائب البريطانية العديدة التي عبرت إيرلندا، أو تمركزت هناك في الحاميات، عندما بدأت شبكة المحافل الكتائبية بالانتشار عبر الجيش البريطاني، كان معظمها على الأقل في البداية في كفالة المحفل الكبير الإيرلندي، كان ذلك مهماً جداً، ولكن تأثيراته لم تظهر حتى ربع قرن من الزمن.

في هذه الأثناء انتقل التوجّه العام الأصلي للماسونية مع الستيوراتيين المنفيين إلى أوروبا، والتطوّرات الأكثر أهمية حصلت في فرنسا مباشرة قبل عام 1745م، وفي فرنسا ستصبح الماسونية الجيمسية مندمجة، أو ربما اندمجت في تراث فرسان الهيكل القديم.

أقدم المحافل

يبدو أن الماسونية أحضرت إلى فرنسا فرق الجيش الجيمسي المهزوم بين عامي 1688م و1691م، طبقاً لإحدى الروايات من القرن الثامن عشر يعود تاريخ المحفل الأول في فرنسا إلى 25 مارس/آذار عام 1688م، وأسّسه فوج مشاة كان من الجيش الإيرلندي الملكي الذي شكّله تشارلز الثّاني في عام 1661م، والذي رافقه إلى انجلترا عند عودته،

والذي ذهب مع جيمس الثّاني إلى المنفى ثانية، وبعد ذلك أصبحت هذه الوحدة في القرن الثامن عشر تُعرف بـ «فوج مشاة والش» (Regiment d'Infantrie Walsh) وفقاً لاسم قائدها[1]، آل والش كانوا عائلة بارزة من الإيرلنديين المنفيين مالكي السفن، أحد أفراد تلك العائلة هو النّقيب جيمس والش، وهو الذي قدم السفينة التي حملت جيمس الثّاني إلى بر الأمان في فرنسا، لاحقاً أسّس والش وأقرباؤه مشروعاً رئيساً لبناء السفن في سانت مالو (St Mâlo) التي كانت متخصّصة بتزويد البحرية الفرنسية بالسفن الحربية، في الوقت نفسه استمروا في ولائهم المتحمس للقضية الجيمسية، بعد جيلين من الزمن قدّم أنتوني فنسينت والش حفيد والش ومعه دومينيك أوهيغريتي الذي كان تاجراً مؤثراً ومالك سفن آخر السفن التي أطلق فيها تشارلز إدوارد ستيوارت حملته على انجلترا، وفي تقدير لهذه الخدمة قام آل ستيوارت المنفيون بمنح أنتوني والش منصب إيرل، أصبح لقبه معترفاً به رسمياً في الحكومة الفرنسية.

في فرنسا تنقل الرجال العسكريون الإيرلنديون المسؤولون عن ازدراع[2] الماسونية ضمن حلقات اللاجئين نفسها من اسكتلندا الموالين لآل ستيوارت مثل ديفيد غراهام شقيق جون كلافر هاوس الذي كان فيكونت دندي، والذي زُعم حمله لصليب فرسان الهيكل بعد معركة كيلي كرانغي، إن كانت الماسونية قد فقدت فترة من الوقت الاتصال بخيوط تقاليد فرسان الهيكل، فإن ذلك الاتصال جرى تأسيسه ثانية في فرنسا في أثناء الربع الأول من القرن الثامن عشر، وفرنسا كانت تقدم التربة الخصبة للماسونية ولغموض فرسان الهيكل.

من نواح عديدة كان الفرنسي رينيه ديكارت[3] في القرن السابع عشر أول من جسّد العقلية السائدة في القرن الثامن عشر، على أي حال أثبتت الضغوط المشتركة من الدولة والكنيسة في فرنسا أنها عدائية، والزخم الفكري الديكارتي انتقل إلى انجلترا، حيث ظهر في رجال مثل لوك[4] وبويل[5] وهيوم ونيوتن، إضافة إلى ظهوره في مؤسسات كالجمعية

1ـ في عام 1772م قدّم المحفل العسكري الذي يعمل في هذا الفوج من الجيش الفرنسي طلباً للمحفل الفرنسي «المشرق العظيم» (Grand Orient) ليحصل على لقب «المحفل الأرشد» (Senior lodge) في فرنسا، وكما يبدو جرى تقديم أدلة كافية لهذا الادّعاء لكي يجري قبوله بقرار من «المشرق العظيم» في عام 1777م، هذا الادّعاء يقول إن المحفل كان في الفوج منذ 25 مارس/آذار عام 1688م، المؤلفان.

2ـ يَزْدَرِع: ينقل غرسةً إلى تربة أخرى، ويقصد بها هنا نقل الماسونية من إيرلندا إلى فرنسا، المترجم.

3ـ ديكارت (1596م ـ 1650م) فيلسوف وفيزيائي ورياضي فرنسي، يُعد مؤسس الفلسفة الحديثة، المترجم.

4 ـ جون لوك (1632م ـ 1704م): فيلسوف انكليزي، عارض نظرية الحق الإلهي، وقال إن الاختبار أساس المعرفة، المترجم.

5ـ روبرت بُويْل (1627م ـ 1691م) كيميائي وفيزيائي انكليزي، المترجم.

الملكية والماسونية ذاتها، لذلك كان المفكّرون الفرنسيون التقدمّيون مثل مونتيسكيو وفولتير يتطلعون إلى انجلترا للبحث عن أفكار جديدة، هم وأبناء بلدهم على نحو خاص أثبتوا أنهم متقبّلون جداً للماسونية.

لكن إن كانت الماسونية قد جاءت أولاً إلى فرنسا في عام 1688م فذلك يعني انقضاء خمس وثلاثين سنة تقريباً قبل تأسيس أول محفل فرنسي محلي رسمي موثّق، طبقاً لأكثر المصادر جرى تشكيل هذا المحفل في عام 1725م، وطبقاً لمصدر آخر يبدو أكثر صدقاً من هذا المحفل، جرى تشكيله في عام 1726م[1]، مؤسسه الأساسي كان تشارلز رادكليف الذي كان إيرل ديروينت واتر، والذي جرى إعدام أخيه الأكبر جيمس لدوره في تمرد عام 1715م، من بين المؤسسين المشاركين لرادكليف هناك السّير جيمس هيكتر ماكلين الذي كان رئيس عشيرة ماكلين، ودومينيك أوهيغريتي التاجر الغني المغترب ومالك السفن الذي قدَّم مع أنتوني والش السفن لحملة تشارلز إدوارد ستيوارت في عام 1745م، والرجل الغامض الذي يقال إنه صاحب مطعم والذي يظهر اسمه في الوثائق الباقية كـ «Hure» (هيور) أو «Hurc» (هورك)، أحد الكتّاب ناقش على نحو مقنع بأنّ هذا الاسم قد يكون تحريفاً لاسم «Hurry» (هوري)، السّير جون هوري قُطع رأسه في أدنبرة في عام 1650م لولائه لآل ستيوارت، عائلته بقيت جيمسية متحمسة، وجرى إجلالها من تشارلز الثّاني، وربّما أحد أولاده أو حفدته المنفيين مع رادكليف وماكلين وأوهيغريتي هم الذين أسّسوا المحفل الفرنسي الأول.

في عام 1729م كانت المحافل الفرنسية تنتشر ضمن إطار الماسونية الجيمسية على نحو محدّد، المحفل الكبير في انجلترا بدأ في تلك السنة بتأسيس محافله الفرعية الخاصة في فرنسا، لكي لا يجري ابتزازه في «المنافسة»، فترة من الوقت سار النظامان الماسونيان المنفصلان على منهج تطويري متواز ومتنافس، مع أنّ النظام الجيمسي لم يستطع فرض الاحتكار، إلا أنه كسب الهيمنة تدريجياً، وتطوّر منه في النهاية في عام 1773م المؤسسة الماسونية الأكثر أهمية في فرنسا «المشرق الكبير» (Grand Orient).

1ـ التاريخ الأقدم المكتوب عن أصول الماسونية في فرنسا هو لعالم الفلك يوسف جيروم الفرنسي من لالاند الذي كتب في عام 1773م أن المحفل الأول أسّس في باريس في عام 1725م من إيرل ديرونت واتر ـ أي تشارلز رادكليف الذي لم يحمل في الحقيقة اللقب حتى موت ابن أخيه الشاب، الكاتب تشيفالير أورد في كتابه في عام 1974م إمكانية قيام رادكليف بتأسيس محفل «القديس توماس» (كما يبدو نسبة إلى توماس بيكيت) في 12 يونيو/حزيران المؤسس عام 1726م، ومع ذلك يعترف بأنه من دون أي توثيق إضافي لا يمكن معرفة الحقيقة، المؤلفان.

أحد المحافل الجيمسية الأبرز في فرنسا كان محفل دي بوسي (Lodge de Bussy)، الشارع الذي كان فيه هذا المحفل هو شارع «de Bussy» والآن هو «de Buci»، ويمر مباشرة من الساحة أمام « St Germain des Prés»، الشارع الآخر الذي يمرّ من الساحة هو شارع «de Boucheries»، حيث كان المحفل الذي أسّسه رادكليف، أي المحفلان كانا على بُعد ياردات عن بعضهما، والحيّ كان فعلياً أحد الجيوب الجيمسية، الجيمسيون الفرنسيون سارعوا إلى إلقاء شبكاتهم في ميادين أبعد، على سبيل المثال في سبتمبر/أيلول عام 1735م قبل محفل دي بوسي عضوية لورد تشوتن (Chewton) الذي كان ابن إيرل والدغريف السفير البريطاني في فرنسا، ونفسه كان عضواً في محفل «هورن» منذ عام 1723م، وكذلك عضوية كونت سانت فورينتن (St Florentin) الذي كان وزير خارجية لويس الخامس عشر، ومن بين الآخرين كان ديزا غيوليرز، ومونتيسكيو، وابن عم رادكليف الذي كان دوق ريتشموند، لاحقاً في السنة نفسها أسّس دوق ريتشموند محفله الخاص في قلعته في «Aubigny-sur-Nère»[1].

مع أن رادكليف شارك في تأسيس أول محفل مسجّل في فرنسا فإنه لم يكن سيداً أعظم، طبقاً للوثائق الأقدم الباقية على قيد الحياة لم يكن السيد الأعظم الأول والذي عُيّن في عام 1728م إلا السيد الأعظم السابق للمحفل الكبير في انجلترا، إنه دوق وارتون، وارتون بعد أن أصبح في أشد الإخلاص والتعاطف مع الجيمسيين، وبعد أن خُلع من المحفل الكبير ذهب إلى فينا رغبة في إقناع عائلة هابسبرغ النمساوية باحتلال انجلترا نيابة عن عائلة ستيوارت، رحلاته اللاحقة قادته إلى روما، وبعد ذلك إلى مدريد، حيث أسّس المحفل الأول في إسبانيا[2]، وبينما كان في باريس يبدو أنه بقي فترة من الوقت مع عائلة والش، لدى عودته إلى إسبانيا خلفه السّير جيمس هيكتر ماكلين زميل رادكليف سيداً أعظم للماسونية الفرنسية، وفي عام 1736م خَلَف ماكلين تباعاً رادكليف الوكيل السرّي الذي جاء من المناطق النائية ليحتل المركز.

رادكليف كان أحد الشخصيتين الرئيستين في نشر الماسونية في كل أنحاء فرنسا، الشخص الآخر كان شخصاً[3] متجوّلاً يُدعى أندرو مايكل رمزي، رمزي وُلد في اسكتلندا في وقت ما من عام 1680م، عندما كان شاباً انضم إلى جمعية «شبه روزيكروشيّة» تدعى

1ـ بلدة قديمة في فرنسا، المترجم.
2ـ أحد المراجع يذكر أن هذا التأسيس هو في عام 1728م، المؤلفان.
3ـ الانتقائي من لا يتّبع نظاماً واحداً في الفلسفة إلخ، بل ينتقي كل ما يعدّه الأفضل في جميع الأنظمة، المترجم.

«الفيلاديلفيين»، ودرس مع صديق مقرّب من إسحاق نيوتن[1]، لاحقاً ارتبط بأصدقاء آخرين لنيوتن بمن فيهم جون ديزا غيوليرز، وكان صديقاً مقرّباً جداً من ديفيد هيوم أيضاً، وكان بينهما تأثير متبادل.

في عام1710م كان رمزي في كامبري يدرس مع الرجل الذي عدّه ناصحه، وهو الفيلسوف الكاثوليكي الباطني التحرّري فرانسوا فينلون، لدى موت فينلون في عام 1715م حضر رمزي إلى باريس، هنا أصبح صديقاً حميماً للوصي على العرش الفرنسي فيليب دو أورلنز[2] الذي أدخله إلى النظام الفروسي الجديد «القديس لِعازار»[3]، منذ ذلك الحين كان رمزي يُعرف بـ «تشافيلير»[4]، لا يُعرف تماماً متى تعرّف إلى رادكليف، ولكن في عام 1720م كان منتسباً إلى القضية الجيمسية، وخدم فترة من الوقت مرشداً للشاب تشارلز إدوارد ستيوارت.

في عام 1729م عاد رمزي إلى انجلترا مع ارتباطاته الجيمسية، هناك جرى إدخاله الجمعية الملكية مباشرة، ومع افتقاره الظاهر إلى المؤهلات أصبح أيضاً عضواً في منظمة أخرى عصرية ورفيعة المستوى، تُدعى «نادي السادة المحترمين في سبالدنغ»[5]، وذلك النادي ضمّ بين صفوفه دوق مونتيجو، وإيرل ابركورن، وإيرل دالكيث، وديزا غيوليرز، وبوب، ونيوتن، وفرانسوا دي لورين، في عام1730م عاد إلى فرنسا، وكان أحد النشطاء جداً في الماسونية، وزاد ارتباطه على نحو متزايد بتشارلز رادكليف.

في 26 ديسمبر/كانون الأول عام 1736م التاريخ الذي تولى فيه رادكليف السيادة العظمى على الماسونية الفرنسية ألقى رمزي الخطاب الذي أصبح أحد المعالم الرئيسة في التاريخ الماسوني، ومصدراً لخلاف لانهائي، لم يسبق له مثيل منذ ذلك الحين، هذا الخطاب الذي نُشر ثانية للعامة في نسخة معدلة بعض الشيء في 20 مارس/آذار عام 1737م أصبح معروفاً بـ «خطاب رمزي»، كان خلفه دوافع سياسية خفية، فرنسا في ذلك

1ـ «الفيلاديلفيون» أسّسهم الدّكتور فرنسيس لي في عام 1696م، وكانوا مهتمّين بتأمّلات البوهيمية المحدثة، المؤلفان.
2ـ يُزعم أن الوصي فيليب دو أورلنز في عام 1705م هو من أشرف على إعادة تشكيل نظام المعبد، ووضع قوانين جديدة للنظام، تلك القوانين التي تُستعمل الآن من «النظام العسكري القديم المستقل لمعبد أورشليم»، المؤلفان.
3ـ ربما نسبة إلى لِعازار شقيق مريم الذي أحياه المسيح بعد موته، كما ورد في إنجيل يوحنا، المترجم.
4ـ نبيل فرنسي من الدرجة الدنيا، المترجم.
5ـ سبالدنغ الآن مدينة تجارية في لنكولن شاير شرقي انجلترا، المترجم.

الوقت كان يحكمها لويس الخامس عشر، وكان عمره آنذاك سبعة وعشرين عاماً، على أي حال كان المستشار الرئيس للملك، وهو الكاردينال أندريه هرقل دي فلوري السلطة الحاكمة الحقيقية في البلاد، كما كان ريشيليو[1] قبل قرن من ذلك، فلوري الذي أتعبته الحرب كان متلهّفاً لتأسيس سلام دائم مع انجلترا، في النتيجة هو كان معادياً لمستتبت المؤامرة المعادية للهانوفريّين، والتي كانت الماسونية الجيمسية في فرنسا تجسدها، آل ستيوارت تمنّوا إقناع فلوري بإقامة الصلح والحفاظ بحزم على تأييد فرنسا المؤيد التقليدي للعائلة الملكية الاسكتلندية لحلمهم في استعادة العرش الانجليزي، «خطاب» رمزي كان يهدف جزئياً على الأقل إلى تخفيف كراهية فلوري للماسونية، ولإقناعه بالهدف الأكبر، وهو تأسيس الماسونية في فرنسا بالرعاية الملكية، تمنّى إدخال لويس الخامس عشر في العضوية، لدى انضمام الملك الفرنسي سوف تشكّل الماسونية جبهة فرنسية اسكتلندية موحَّدة، ومن ثم يمكن تأمّل غزو آخر لانجلترا، أي محاولة أخرى لإعادة آل ستيوارت إلى العرش الانجليزي، هذه الأهداف دفعت رمزي لأن يكشف أكثر مما قام به أي شخص قبله من المواقف والتوجهات الماسونية الجيمسية في أوائل القرن الثامن عشر، وفي الوقت نفسه أفشى عن تاريخها المزعوم ما هو أكثر مما سبقه إليه أحد.

رمزي أعلن في بيان سُلب حرفياً تقريباً من فينيلون[2]: «العالم ليس إلا جمهورية ضخمة، كلّ أمة فيه هي عائلة، وكلّ فرد فيه هو طفل»، هذا البيان لم يؤثر كثيراً في فلوري الذي كان كاردينالاً قومياً كاثوليكياً ملكياً، ولم يكن يحب فينيلون بأي حال، لكنّ ذلك أثبت أنه كان مؤثراً جداً بين المفكّرين السياسيين لاحقاً، ليس فقط في فرنسا، وليس في أماكن أخرى من أوروبا، بل في المستعمرات الأمريكية أيضاً، يتابع رمزي: «مصالح الأخوية ستصبح مصالح الجنس البشري بأسره»، وأدان المحفل الكبير إضافة إلى الأنماط الماسونية الأخرى غير الجيمسية ونعتها بأنها «ضلالية ومرتدة وجمهورية[3]».

شدّد رمزي على أنّ أصول الماسونية تمتد إلى المدارس السرية وإلى طوائف العالم القديم:

1ــ ريشيليو، آرمان جان دو بليسيس (1585م ـ 1642م) كاردينال وسياسي فرنسي، كبير وزراء لويس الثالث عشر والحاكم الفعلي لفرنسا (1624م ـ 1642م)، المترجم.

2ــ فرانسوا فينيلون (1651مــ1715م) أسقف وكاتب فرنسي، ومن أشهر آثاره «مغامرات تليماك» les Aventures de Télémaque (عام 1699م)، المترجم.

3ــ قوله: (العالم ليس إلا جمهورية ضخمة كل أمة فيه عائلة وكل فرد فيه طفل) لا يبتعد عن سفر الماسونية الحكومة العالمية التي تحكم العالم وكل الناس رعاياها، (المدقق).

لذلك فكلمة «ماسوني» يجب ألا تؤخذ بالمعنى الحرفي والتام والمادي، كأنّ مؤسسينا كانوا عمّالاً بسطاء في الحجارة، أو كانوا عباقرة فضوليين فقط تمنّوا إتقان الفنون، هم لم يكونوا مصمّمي بناء ماهرين فقط، وتوّاقين إلى تكريس مواهبهم وبراعتهم لبناء معابد مادية، بل كانوا أيضاً أمراء دينيين ومحاربين، صمّموا على تنوير إنشاء المعابد الحيّة ذات السمو الأعظم وحمايتها.

رمزي يصرح بأنه مع أنهم نتاج المدارس السرية في العصر القديم، إلا أنهم كانوا مسيحيين متمسّكين، في فرنسا الكاثوليكية آنذاك كان التنويه بفرسان الهيكل بالاسم حماقة طبعاً، لكن رمزي بدلاً من ذلك أكّد أنّ الماسونية بدأت في الأرض المقدّسة بين «الصليبيين»:

في أثناء الحملات الصليبية في فلسطين وحّد الكثير من الأمراء والأسياد والمواطنين أنفسهم، وأقسموا على إعادة الهيكل المسيحي في الأرض المقدّسة، وأن يسخروا أنفسهم لإعادة فن العمارة إلى أساسها الأول، اتفقوا على عدّة إشارات وكلمات رمزية قديمة مشتقة من المصدر الديني، لكي يميز بعضهم بين الوثنيين والمسلمين، جرى إبلاغ هذه الإشارات والكلمات فقط لأولئك الذين وعدوا بإخلاص وأحياناً أمام المذبح بألا يبوحوا بها أبداً، لذلك فإن هذا الوعد المقدّس لم يكن قسماً لعيناً كما يُدعى، بل رابطة محترمة لتوحيد المسيحيين من كلّ الجنسيات في جمعية دينية واحدة، وفي وقت ما بعد ذلك شكّل نظامنا وحدة عميقة مع فرسان القدّيس يوحنا في أورشليم، منذ ذلك الوقت أصبحت محافلنا تحمل اسم محافل القدّيس يوحنا.

لا حاجة إلى القول: إن فرسان القدّيس يوحنا كما كانوا في أوائل القرن الثامن عشر لم يقرّوا بأيّ انتماء من هذا النوع، على فرض أن فرسان الهيكل استمروا مؤسسة عامّة معتمدة، فإنه من الممكن تماماً أنهم هم من عمل ذلك[1]، رمزي من جهته، وهو يرسم التاريخ المزعوم للماسونية ينتقل بسرعة من الأرض المقدّسة إلى اسكتلندا والمملكة السلتية التي سبقت بروس مباشرة:

في أثناء الحملات الصليبية الأخيرة جرى تشييد الكثير من المحافل في ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وفرنسا، جيمس ستيوارد سيد اسكتلندا كان السيد الأعظم لمحفل، أُسّس في كِلوييننغ غرب اسكتلندا (Mcclxxxvi)[2]، بعد فترة قليلة من موت ألكساندر

1ـ أي رمزي يتحدث عن علاقة بين الماسونية وفرسان القديس يوحنا، إلا أن المؤلفين يؤكدان أن تلك العلاقة لم تكن معهم، بل مع فرسان الهيكل، المترجم.

2ـ أحرف لاتينية تدل على تاريخ تأسيس ذلك المحفل، وهو عام 1286م، المترجم.

الثّالث ملك اسكتلندا وقبل سنة واحدة من اعتلاء جون باليول العرش، هذا اللورد أدخل ماسونية محفله كلاً من إيرل غلوستر وإيرل ألستر، الأول انكليزي والآخر إيرلندي.

وأخيراً أعلن رمزي أنّ الماسونية «حافظت على عظمتها بين أولئك الاسكتلنديين الذين عهد ملوك فرنسا إليهم عدة قرون بحراسة شخصياتهم الملكية في إشارة واضحة إلى الحرس الاسكتلندي ».

نتائج «خطاب» رمزي وأهميته سوف نهتم بها بعد قليل، الآن من الكافي ملاحظة أن محاولة الحصول على عطف الكاردينال فلوري ودعمه أثّرت عكسياً، قبل ذلك عامين، أي في عام 1735م عارضت الشرطة الماسونية في هولندا، في عام 1736م حدث الشيء نفسه في السويد، الآن وخلال بضعة أيام من «خطاب» رمزي الثاني أمر فلوري الشرطة الفرنسية بأن تحذو حذوهم، وتم الأمر بإجراء تحقيق فوري بشأن الماسونية، اكتمل تقرير الشرطة في الأول من آب عام 1737م، أي بعد أربعة أشهر، جرى الإعلان أن الماسونية كانت بريئة من «البذاءة»، ولكنها كانت تشكل خطراً ممكناً «استنادا إلى عدم مبالاة هذا النظام بالأديان»، في 24 أغسطس/آب جرى حظر الماسونية في فرنسا، وجرى اعتقال السكرتير الكبير.

في سلسلة من المداهمات البوليسية جرت مصادرة الكثير من وثائق وقوائم العضوية، فلوري ومستشاروه أنهم صُدموا بلا شك بالعدد الهائل من كبار النبلاء والكهنة الذين ثبت أنهم كانوا ماسونيين، مثلاً ثبت أن قسيس حارس الملك كان عضواً في المحفل الجيمسي الكبير الذي يحمل اسم «بوسي-أومنت»، وهو الاسم الجديد للمحفل الكبير القديم «محفل دي بوسي»، وكذلك كان أمين الإمدادات والتموين للحرس، في الحقيقة كلّ أعضاء المحفل كانوا عملياً ضبّاطاً أو مسؤولين أو مقرّبين من البلاط.

روما على يقين سابق، ولكن هناك القليل من الشكّ في أن فلوري مارس الضغط على زملائه ورؤسائه الكنسيين، البابا كليمنت الثّاني عشر اتخذ الإجراءات حتى قبل أن يكتمل التحقيق في فرنسا، في 24 أبريل/نيسان عام 1738م حذر مرسوم بابوي «In eminenti apostolatus specula» كلّ الكاثوليك من أن يصبحوا ماسونيين بالتهديد بالحرمان الكنسي، بعد سنتين في الولايات التي تحت السيطرة البابوية أصبحت عضوية المحفل عرضة لعقاب الموت.

طبقاً لأحد المصادر عن الموضوع كان التأثير الأول لمرسوم كليمنت إجبار رادكليف على التنحي عن السيادة العظمى للماسونية الفرنسية، خلال سنة جرى استبدال

أرستقراطي فرنسي هو دوق أنتن (Duc d'Antin) به، والدوق خلفه تباعاً في عام 1743م كونت دي كليرمونت، أمير من السلالة، وهكذا من الواضح أن المرسوم البابوي كان فيه أقل ما يمكن من التأثير لثني الكاثوليك الفرنسيين عن الانضمام إلى الماسونية، على العكس بعد نشر المرسوم البابوي أصبح بعض من الأسماء الأكثر شهرة في فرنسا مرتبطاً بالماسونية، حتى إنه يبدو أن الملك نفسه كان على وشك الانضمام إلى المحفل[1]، البابا لم ينجز أي شيء كما سنلاحظ، ناهيك بإسقاط الجيمسيين من مناصبهم السابقة في سيادة الشؤون الماسونية الفرنسية، منذ إصدار المرسوم البابوي فصاعداً كان دور الجيمسيين وتأثيرهم في الماسونية الفرنسية يتراجع تدريجياً، وتوقّف تأثيرهم كاملاً على تطويرها ونموها، في النهاية ظهر محفل «المشرق الكبير» ليكون الخزينة الرئيسة للماسونية في فرنسا كما لاحظنا.

في بعض الأماكن لا بد من أن موقف الكنيسة كان ولا يزال محيراً، أغلب الزعماء الجيمسيين هم في النهاية إمّا كاثوليكيو المولد وإما أنهم اهتدوا إليها، إذاً لماذا كان على البابا أن يتصرّف ضدّهم، وخصوصاً أن القيام بذلك يعني أن الماسونية سوف تقع على نحو متزايد تحت تأثير المحفل الكبير الانجليزي المعادي للكاثوليكية؟ في إدراك متأخر أصبح الجواب عن ذلك السؤال أوضح كثيراً مما كان عليه الحال في ذلك الوقت لكثير من الناس، كاثوليكيين أو ماسونيين أو معاً، إنّ الفكرة هي أن روما خافت ببعض التسويغ من أن الماسونية مؤسسة دولية تشكل «فرصة معقولة لعرض بديل أخلاقي ولاهوتي وفلسفي للكنيسة».

قبل الإصلاح اللوثري كانت الكنيسة تقدم منتدى دولياً معيناً، أياً كانت مؤهلات النجاح، مع أن شعوب الملوك والأمراء كانت تتحارب ضد بعضها إلا أنهم كانوا اسمياً كاثوليك، وكانوا يتصرفون تحت ظل الكنيسة، شعوبهم قد تأثم، ولكنّهم كانوا يأثمون

1ـ في 30 ديسمبر/كانون الأول من عام 1739م هناك أول ذِكر لقبول إخوة جدد في عضوية «محفل الملك»، هؤلاء الأعضاء مجهولون، لكن الكاتب تشيفالير يشير في كتابه إلى أنه في مكتب الاستقبال في فندق دي بوسي في وقت سابق من الشهر نفسه كانت رادكليف وموريس دي ساكس ودوق أنتن وتسعة آخرون من بينهم دوقان آخران، تشيفالير يتساءل إن كان هؤلاء هم أعضاء «محفل الملك»، ويشير إلى أنه من بين الثلاثة عشر صديقاً للويس الخامس عشر الذين تعشّوا معه هناك ثمانية يُعرف بأنهم ماسونيون، وأحدهم كونت دي نويلز كان سيد محفل في فيرساي في عام 1744م، من هؤلاء الرفاق كان هناك ثلاثة حاضرون في الاجتماع في فندق دي بوسي مع رادكليف، من الواضح أنّ لويس الخامس عشر كان يمكن أن يقع بسهولة تحت تأثير ماسوني كاف لجعله يفكر بجدية في الانضمام إلى النظام، يبدو واضحاً أنّه لم يفعل ذلك، لكنّه من الواضح أنّه أبدى الرغبة في القيام بذلك أحياناً، وفي الحقيقة الرغبة بأن يصبح السيد الأعظم للماسونيين الفرنسيين، المؤلفان.

طبقاً للسياق والتعريف الذي حددته روما، ما دام ظل الكنيسة في مكانه، فإنه يضمن أنّ قنوات الاتصال لا تزال مفتوحة بين المحاربين، وأن روما على الأقل نظرياً هي الحكم، عند ظهور الإصلاح لم تعد الكنيسة قادرة طبعاً على العمل وفقاً لتلك القدرة بعد أن فقدت سلطتها على الأقاليم البروتستانتية في شمال أوروبا، لكنّها لا تزال تتميز بتيار كبير في إيطاليا وجنوب ألمانيا وفرنسا وإسبانيا والنمسا وأقاليم الإمبراطورية الرومانية المقدّسة.

هدّدت الماسونية بتقديم نوع المنتدى الدولي الذي قدمته روما قبل الإصلاح، بتجهيز ميدان للحوار، وشبكة من الاتصالات، ومخطّط للوحدة الأوروبية التي تجاوزت دائرة نفوذ الكنيسة وأهملت الكنيسة، في الواقع هدّدت الماسونية بأن تصبح كعصبة الأمم أو الأمم المتّحدة المعاصرة، من الجدير بالذكر ثانية عبارة رمزي التي أوردها في «خطابه»: «العالم ليس إلا جمهورية ضخمة، كلّ أمة فيه هي عائلة، وكلّ فرد فيه هو طفل».

الماسونية لا يمكنها أن تكون أكثر نجاحاً من الكنيسة في تبنّي الوحدة، ولكن على الأقل كانت أقل من تلك المكانة، على سبيل المثال، بعد بضع سنوات من مرسوم كليمنت كانت النمسا وبروسيا في حالة حرب، فردريك الكبير ملك بروسيا وفرانسوا إمبراطور النمسا كانا ماسونيين، استناداً إلى هذه الرابطة المشتركة أمن المحفل فرصة للحوار، وعلى الأقل فرصة للسلام، وتصرّف روما ضدّ الماسونية كان في جهود لمنع هذه التطوّرات، ولكن تلك الجهود كانت عقيمة في تلك الحالة، بل يُقال إنها كانت ذات نتيجة عكسية، الجيمسيون والماسونية الجيمسية في أوروبا كانوا ضحايا عَرَضية ذات اعتبارات أوسع كثيراً، وإسقاطهم من الشهرة ربما كان في النهاية أكثر كلفة على روما من ترك شهرتهم سليمة، كما كانت من قبل.

كما رأينا كان المرسوم البابوي يهدف إلى استثناء الكاثوليك من الماسونية، وأثبت على نحو كبير عدم نفعه، في الحقيقة في نصف القرن التالي أثبتت الماسونية انتشارها بشدة كبيرة في دوائر السلطة الرومانية تماماً، وهناك أيضاً اتخذت الماسونية تقلباتها وأنواعها الأكثر غرابة ووحشية وتطرّفاً، جرى تبنيها بحماسة أكثر من أي شخص آخر من الملوك الكاثوليكيين، فرانسوا النمساوي على سبيل المثال، وأثبتت أن تأثيرها الأعظم ضمن معاقل السلطة الرومانية في إيطاليا وإسبانيا تماماً، باتهام الماسونية بالنذالة حوّلتها روما في الواقع إلى مأوى، وتحشّد لخصومها المميزين.

في انجلترا أصبح المحفل الكبير تدريجياً طليقاً من كلا الدين والسياسة، تبنّى روح الاعتدال والتسامح والمرونة، وعمل في أغلب الأحيان بتعاون مع الكنيسة الأنجليكانية التي

كان الكثير من رجالها الدينيين أنفسهم ماسونيين[1]، ولم يحسوا بأي نزاع على الولاء، من الناحية الأخرى في أوروبا الكاثوليكية أصبحت الماسونية بؤرة للمشاعر والنشاطات العدوانية والمعادية لرجال الدين والكنيسة الرسمية، والتي تحولت في النهاية إلى نشاطات ثورية، صحيح أن الكثير من المحافل بقيت حصوناً للمحافظين، بل المحافظون المتشددون أيضاً، لكن المزيد أدى دوراً حيوياً في الحركات الراديكالية، في فرنسا على سبيل المثال عمل الماسونيون البارزون مثل المركيز دي لافاييت، وفيليب ايفاليت، ودانتون[2]، وسيِّيَيْس[3] الذين، كانوا المحرّكين الأساسيين في أحداث عام 1789م وكلّ تبعاتها وفقاً للقيم الماسونية، في بافاريا وإسبانيا والنمسا كانت الماسونية تجسد بؤرة المقاومة للأنظمة الاستبدادية[4]، وعملت بوضوح في الحركات التي توّجت بثورات عام 1848م، كلّ الحملة التي أدت إلى توحيد إيطاليا من الثوريين في أواخر القرن الثامن عشر، مروراً بماتزيني[5] ووصولاً إلى غاريبالدي[6] يمكن وصفها جوهرياً بأنها ماسونية، ومن بين صفوف الماسونية الأوروبية في القرن التاسع عشر ظهرت الشخصية التي ألقت ظلال الإرهاب الشرّير، ليس فقط على زمانه بل على زماننا أيضاً، رجل اسمه ميخائيل باكّونين.

1ـ إن التحالف اليهودي البروتستانتي بدأ منذ بداية القرن السادس عشر فلاعجب من أن يكون زعماء البروتستانتيين في أمريكا وبريطانيا من الماسونيين مادامت الغاية دعم اليهود وإقامة هيكلهم على أنقاض المسجد الآقصى، (المدقق).

2ـ دانتون، جورج جاك (1759م ـ 1794م) أحد زعماء الثورة الفرنسية، أعدم بالمقصلة، المترجم.

3ـ (Sieyès) سيِّيَيْس، عمانوئيل جوزيف (1748م ـ 1836م) كاهن وثوريّ فرنسي، المترجم.

4ـ الماسونية لم تجسد بؤرة المقاومة للانظمة الاستبدادية، وهذا الطرح ليس إلا تعمية للحقيقة، وهي ضرب الكاثوليكية من داخلها وإسقاطها وكذلك الأرثوذكسية، فالثورة الشيوعية عام 1917م دليل على قوة الماسونية اليهودية وقدرتها على ضرب الأرثوذكسية الروسية بقيام ثورة شيوعية ضد الأديان، (المدقق).

5ـ ماتزيني، جوزيبّي (1805م ـ 1872م) ثائر وبطل قومي إيطالي، عمل من أجل إيطاليا موحدة جمهورية النظام، المترجم.

6ـ غاريبالدي، جوزيبّي (1807م ـ 1882م) قائد وزعيم قومي إيطالي، يُعدّ أحد صانعي الوحدة الإيطالية، المترجم.

القسم الرابع عشر

الماسونيون وفرسان الهيكل

مع الأوامر البابوية شقت الماسونية الجيمسية طريقها الخاص، واستمرت بصمود في تأييدها للقضية الستيوارتية وللحلم في إعادة آل ستيوارت إلى العرش البريطاني، على نحو واضح أكثر من أي وقت مضى بدأ الجيمسيين باستغلال الماسونية وشبكة المحافل المنتشرة في أوروبا من أجل التجنيد في بادئ الأمر، أما بعد هزيمتهم فبدؤوا باستغلالها من أجل دعم إخوتهم المكتئبين المنفيين ومساندتهم، في عام 1746م مثلاً جاء أحد الجيمسيين الانجليز إلى فرنسا، يحمل رسالة تحثّ كلّ الماسونيين على القيام بمساعدته.

ولكن إن قام الجيمسيون على هذا النحو باستغلال الماسونية للأغراض السياسية، فإنهم أعادوا دمجها علناً بعناصرها الأصلية وتراثها الخاص أيضاً، العناصر التي «غربلها» المحفل الكبير، أعاد رمزي نتيجة لتأثّره بفينلون استثمار الماسونية الجيمسية بسمة باطنية، والأكثر أهميّة من ذلك أنه في «خطابه» أعاد ذكر الفروسية على نحو محدّد، وذلك عندما شدّد على دور «الصليبيين»، وبعد ذلك أعلن أن المسعى لإعادة العرش إلى آل ستيوارت لا يقل عن كونه «حملة صليبية»[1]، في رسائل متبادلة بين المحافل في هذا الوقت كان هناك الكثير من الحديث عن «ابتكارات مقترحة، تهدف إلى تحويل الأخوية من «نظام اجتماعي» إلى «نظام فروسي»[2]، «الكتيّبات وحتى تقارير الشرطة بدأت بالتحدث عن «الفرسان الجُدّد» و«هذا النظام الفروسي».

إن كان المحفل الكبير يتطلّع إلى مجتمع متكافل، فالماسونية الجيمسية كانت تطمح إلى شيء أكثر فخامة ورومانسية وتأثيراً، جيل جديد من الفرسان والمحاربين الباطنيين مكلّفين بالمهمّة السامية في استرداد المملكة وإعادة السلالة المقدّسة إلى عرشها، مجاراة فرسان الهيكل كانت واضحة جداً بحيث لا يمكن تجاهلها، ولم تكن إلا مسألة وقت فقط، حتى ظهر بوضوح أن الماسونية وريثة هؤلاء الفرسان.

من غير الواضح تماماً متى توضّحت الصلة بين الماسونية وفرسان الهيكل أول مرة، وخصوصاً أن هذه المحافل سرية تماماً، وسجلاتها إن وُجدت فُقدت منذ فترة طويلة،

1ـ قال في خطابه: «حملة صليبية جديدة لإعادة تأسيس الحكم الملكي الحقيقي لبريطانيا العظمى»، المؤلفان.
2ـ يُقال إن مصدر هذه التغييرات هو تشارلز رادكليف، المؤلفان.

هناك تصوّر كبير أن ذلك حصل نحو عام 1689م، عندما وصل ديفيد كلافر هاوس إلى فرنسا، ومعه زعماً صليب فرسان الهيكل الذي أعاده من جسد أخيه وسلمه إلى الأب كلامنت، ولكن ولأنه لا يسعنا إلا التخمين فقط بشأن هذا الأمر، فليس هناك أدنى شك بأنّ تراث فرسان الهيكل انتشر في عام 1730م برعاية رادكليف ورمزي، في عام 1738م وبعد فترة قليلة من «خطاب» رمزي نشر المركيز دارجينز مقالة عن الماسونية، يتحدث في هذه المقالة عن محاولة المحافل الجيمسية ادّعاء وجود نسب خاص بينهم وبين فرسان الهيكل، وفي أثناء العقد التالي أصبح فرسان الهيكل حتى الآن على الأقل محط انتباه على نحو متزايد، يتعلق الأمر بكلّ أنواع الماسونية، ناهيك بالمحفل الكبير، في عام 1743م مثلاً يُظن أنه جرى في مدينة ليون تقديم الدرجة التي تُسمّى «الثأر» أو «Kadosh»، نسبة إلى الثأر الّذي ستقوم به الماسونية لموت السيد الأعظم الأخير لفرسان الهيكل «جاك دي مولاي»، وقد رأينا كم كانت تلك المسألة حساسة[1].

الرجل المسؤول على نحو خاص عن نشر تراث فرسان الهيكل ضمن الماسونية كان أحد النبلاء الألمان، وهو البارون «كارل غوتليب فون هوند»، بعد أن انضمّ هوند أولاً إلى المحفل في فرانكفورت تنقّل على نحو واسع بين الحلقات الماسونية، وهو الرجل ذو الخبرة الكبيرة في الحياة، في الفترة بين ديسمبر/كانون الأول عام 1742م وسبتمبر/أيلول عام 1743م كان في باريس، وفي أوائل عام 1750م بدأ يعلن زعماً عن شكل «جديد» للماسونية، يدّعي أنه تماماً منسوب إلى فرسان الهيكل، وعندما جرى الضغط على هوند لتسويغ ذلك، أعلن أنه في أثناء زيارته إلى باريس التي استمرت تسعة أشهر تعرف إلى «ماسونية فرسان الهيكل»، وصل قبل ستّة أشهر من موت رمزي، وقبل ثلاث سنوات من موت رادكليف، قال إنه حصل على «درجات عليا»، وإنه مُنح لقب «فارس الهيكل» (Chevalier Templier) من «زعيم مجهول» جرى تمييزه فقط باللقب «Eques a Penna Rubra»، أي «فارس الريشة الحمراء»، وصرّح بأن هذه المراسم جرت بحضور مجموعة من بينهم اللورد كلفورد، ربما هو اللورد الشاب كلفورد من تشودلي «Chudleigh» الذي تربطه برادكليف صلة زواج، وإيرل كيلمارنوك، قال هوند إنه لم يمض وقت طويل على تنصيبه حتى قابل تشارلز إدوارد ستيوارت شخصياً، والذي يظن أنه كان أحد «الرؤساء المجهولين»، هذا إن لم يكن في الحقيقة السيد الأعظم السري لكلّ الماسونية.

1ـ إذاً هذا مثال لتدخل الماسونية بفرسان الهيكل، وخصوصاً في أكثر مسائلهم حساسية وأهمية كموت آخر زعمائهم «جاك دي مولاي»، ومن هنا نلاحظ كيف تنسب الماسونية نفسها إلى فرسان الهيكل، المترجم.

نمط الماسونية الذي تعرّف إليه هوند أصبح معروفاً بعد ذلك باسم «الالتزام الصارم»، وهذا الاسم مشتقّ من قَسَم هذا النظام، قسم الطاعة الدائمة والمطلقة لـ «الرؤساء المجهولين الغامضين»، العقيدة الأساسية لمنظمة «الالتزام الصارم» هي أنّها تنحدر مباشرة من فرسان الهيكل، أعضاء هذه المنظمة شعروا بأنّهم يمتلكون حقاً شرعياً في أن يشيروا إلى أنفسهم باسم «فرسان الهيكل».

وعند إحراج هوند بالضغط عليه للحصول على مزيد من الأدلة والمعلومات لم يكن قادراً على دعم ادّعاءاته، في النتيجة اتهمه الكثير من معاصريه بأنه محتال، وبأنه لفّق قصة عضويته والتقائه بـ «الرؤساء المجهولين»، وتشارلز إدوارد ستيوارت الذي كلّفه نشر نظام «الالتزام الصارم»، ورداً على هذه التهم لم يكن هوند قادراً إلا على أن يقول بحزن إنّ «رؤساءه المجهولين» تخلّوا عنه، واحتجّ بأنهم وعدوه بأن يتصلوا به ثانية، وأن يقدموا له المزيد من التعليمات، لكنهم لم يفعلوا ذلك إطلاقاً، استمر على نحو مؤكد على نزاهته حتى آخر حياته زاعماً أن كفلاءه الأصليين هجروه.

بحكمة الإدراك التاريخي المتأخر من الواضح الآن أن هوند لم يكن ضحيّة لأي خيانة متعمّدة على قدر ما كان ضحية للظروف التي هي خارجة عن سيطرة أي إنسان، لقد حصل على العضوية في عام 1742م، أي عندما كان التيار الجيمسي في حالة جيدة، وعندما كان آل ستيوارت يتصفون بسمعة وتأثير كبيرين في أوروبا، وعندما بدا أن هناك فرصة مؤاتية لإعادة تشارلز إدوارد إلى العرش البريطاني، في كل الأحوال خلال ثلاث سنوات تغير كلّ شيء.

في الثاني من أغسطس/آب عام 1745م نزل الأمير شارلي في اسكتلندا، من دون الدعم الفرنسي الموعود في مجلس الحرب أقرّ التصويت بالإجماع بالتقدّم جنوباً، وشرعت القوات الجيمسية بالتقدم بهدف الوصول إلى لندن، دخلوا مانشستر، وفي الرابع من كانون الأول وصلوا إلى دربي، ولكن بضعة متطوعين فقط التفّوا حولهم، حيث حصلوا في مانشستر على 150 رجلاً فقط، كما لم تحصل الانتفاضات العفوية المتوقّعة المؤيدة لهم، بعد يومين في دربي أصبح واضحاً على نحو مؤلم أن الخيار الوحيد كان التراجع، بينما كانت القوات الجيمسية هناك كانت القوّات الهانوفريّة تطاردهم، وفي أثناء الشهور الأربعة اللاحقة كانت أوضاعهم في تدهور مستمر، أخيراً في 16 أبريل/نيسان عام 1746م حاصرهم جيش دوق كامبرلاند في كولودين، وفي أقل من ثلاثين دقيقة جرت إبادتهم فعلياً، تشارلز إدوارد ستيوارت هرب ثانية إلى المنفى المشين، وأمضى بقية حياته في غموض، من

الجيمسيين البارزين الذين نجوا من المعركة جرى إبعاد الكثير إلى المنفى الطوعي أو طردهم أو نفيهم، وبعضهم الآخر جرى إعدامهم بمن فيهم إيرل كيلمارنوك، وكذلك أيضاً تشارلز رادكليف الذي أُسر في سفينة فرنسية على ضفة دوغر، الحلم الجيمسي في إعادة آل ستيوارت إلى العرش البريطاني أُخمد إلى الأبد.

لذلك ليس غريباً أن «الرؤساء المجهولين» الذين قابلهم هوند لم يتصلوا ثانية، والذين كانوا جميعاً من الجيمسيين البارزين، معظمهم كان ميتاً أو في السجن أو في المنفى أو في الذل، لم يُترك أحد ذو سمعة كافية لمساعدته على تبرئة ادّعاءاته، وتُرك وحده لإعلان ماسونية «الالتزام الصارم»، لكنّه لا يبدو أنه كان محتالاً على نحو مؤكد، أو أنه لفّق رواية إدخاله في «ماسونية فرسان الهيكل»، في الحقيقة لم تظهر إلا مؤخراً بعض الأدلة الصادقة التي تقف إلى جانبه.

هوية الزعيم المخفي في رواية هوند

جزء من أدلة هوند التي تتعلّق بنسب «الالتزام الصارم» يشمل قائمة الأسياد العظام لفرسان الهيكل الأصليين منذ نشأتهم عام 1118م[1]، حتى وقت متأخر جداً كان هناك الكثير من هذه القوائم، لا يشابه أي منها الآخر، وجميعها مشبوهة أكاديمياً، ولم نتمكن حتى عام 1982م من القيام بأنفسنا بإعداد القائمة التي يمكن عدّها قائمة جازمة للأسياد العظام الأوائل حتى فقدان القدس[2]، هذه القائمة جُمعت بوساطة المعلومات والتوثيق الذي لم يكن متوافراً، أو لم يكن سهلاً الوصول إليه في عهد هوند، لذلك من غير الممكن أنه اعتمد على المصادر نفسها التي اعتمدنا عليها، ومع ذلك أصدر القائمة التي استلمها كما يظن من «رؤسائه المجهولين»، وتلك القائمة متطابقة تماماً مع قائمتنا إلا في كنية اسم واحد، قائمة هوند لا يمكن إلا أن تكون صادرة من «مصادر داخلية»، المصادر التي كانت في الحقيقة على علم بتاريخ فرسان الهيكل وسجلاتهم ، وبطريقة لا يمكن «الغريب» في ذلك الوقت أن يقوم بها.

1ـ فون هوند استطاع تقديم القليل جداً من الوثائق «الأصلية»، إحدى تلك القوائم قُدمت في الاجتماع الذي عُقد في ولهلمسباد «Wilhelmsbad»، المؤلفان.
2ـ في كتاب الدمّ المقدّس والكأس المقدّسة (بيجنت، لي، لينكولن)، هذه القائمة تصل حتى موت ريدرفورت عام 1190م، بقيّة قائمة فون هوند تختلف على درجة كبيرة أيضاً عن تلك القوائم عادة، وكذلك الأمر إصراره على استمرارية النظام في اسكتلندا طبعاً، عن صدق هذه الأقسام الأخيرة لا يمكننا قول أي شيء، لا يسعنا القول إلا أنه إن كانت هذه الأجزاء تستند على معلومات تاريخية صحيحة فإنها أصبحت بوضوح محرّفة ومفسّرة على نحو خاطئ، المؤلفان.

الدليل الثاني الهام جداً على تصديق هوند يتضمّن هوية «فارس الريشة الحمراء» الـذي ادعـى أنـه منحه لقب «فارس الهيكل» في عام 1742م، حتى الآن لا تزال هوية هذا الشخص لغـزاً وفي بعـض الأمـاكن جرى عدّه خيالاً محضاً، ظن كما رأينا هوند نفسه في بادئ الأمر أن «فارس الريشة الحمراء» هـو تـشارلز إدوارد ستيوارت، اقترح بعض المعلّقين أن ذلك الشخص هـو إيـرل كيلمارنـوك الـذي كـان الـسيد الأعظـم للماسونية الجيمسية في فرنسا آنذاك، ولكن في هذا المقترح نـسوا، أو فـضلوا تجاهـل مـا زعمـه هونـد أن كيلمارنوك كان في الغرفة في اللحظة نفسها التي كان فيها الشخص الذي يحمل ذلك الاسم المستعار، نحن أنفسنا اقترحنا في مقالات سابقة أنّ «فارس الريشة الحمراء» ربما كان رادكليـف الـذي لم يقـل هونـد إنـه كان موجوداً، على أي حال يمكننا الآن عـلى نحـو حاسـم تقريبـاً أن نعـرف مـن كـان في الحقيقـة «فـارس الريشة الحمراء».

في عام 1987م تمكنا من الوصول إلى صحف جماعة تُدعى «ستيلا تيمبلوم» (Stella Templum)، وتلك الجماعة على مدى مئتي سنة أو أكثر احتفظت بسجل يتعلق بفرسان الهيكـل الجيمـسيين[1]، كـان هنـاك رسالة تعود إلى 30 يوليـو/تمـوز عـام 1846م، أي قبـل تـسعة عـشر يومـاً مـن الـذكرى المئـة لإعدام إيـرل كيلمارنوك في برج لندن في 18 أغسطس/آب عام 1746م، التوقيع على الرسالة يبدو أنه كان لشخص يُـدعى «اتش. وايت» (H. Whyte)، وأسفل التوقيع هناك خـتم مـن الـشمع عـلى شـكل صـليب فرسـان الهيكـل، المرسل إليه يُدعى ببساطة «وليام»، يشير النصّ إلى بعض شعارات النبالة، بما فيها السيف الحقيقي الـذي جرت به مراسم إدخال هوند في العضوية كما سيظهر:

أدرك أنّ السيف والمواد الأخرى هي الآن تحت تصرفك، الإيرل لم يكـن قـادراً عـلى أخـذها، الـسّيد غريلز وأنا نظن أن عنايتك هي الأفضل، كيلمارنـوك العجـوز المـسكين، باركـه الـرب، اسـتلم الـسيف مـن ألكساندر سيتون فارس الريشة الحمراء.

لا أعرف ماذا سيحدث الآن، بعون الرب أنت وغاردينر ستعيشون 100 سنة.

تذكّر: «ك» (K) في الثامن عشر من الشهر القادم.

1ـ مجموعة «ستيلا تيمبلوم» هذه تعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، عندما نظّم ألكساندر ديوتشار إحياء فرسان الهيكل الاسكتلنديين، ديوتشار أيضاً حصل على معظم ما بقي من المستندات القديمة التي تخصّ كلاً من فرسان الهيكل الجيمسيين والماسونية الاسكتلندية، على سبيل المثال «قوانين سانت كلير» كانت في حوزته،قصيدة ديفيد سيتون ظهرت أول مرة في أيدي نظام ديوتشار، مع أن الماسونية في ذلك الوقت كانت تسيطر عملياً على هذه المجموعة، وديوتشار نفسه أبعد بالقوة عن القيادة.
هدف ستيلا تيمبلوم كان جمع كلّ المواد التي تتعلّق بالتيّارات السرية في الثقافة والتراث الاسكتلندي وحفظها ولا يزال، وفقاً لذلك جمعوا بعناية كلّ الكتابات والشعارات والمصنوعات اليدوية والرسائل والقصص الشفهية لقناعتهم بأنهم إن لم يفعلوا ذلك فإن «هذه السمات الباطنية» سوف تُصنّف ضمن الثقافة الانجليزية المهيمنة، المؤلفان.

إن كانت هذه الرسالة قابلة للتصديق وعلى نحو مؤكد، ليس هناك أي سبب للشكّ في أصالتها، فإن كاتبها يحدد هوية «فارس الريشة الحمراء»، بأنه كان الشخص المدعو ألكساندر سيتون.

ألكساندر سيتون كان معروفاً عموماً باسم ألكساندر مونتغومري، الإيرل العاشر لـ «ايغلنتون»، في عام 1600م أصبح روبرت سيتون الإيرل الأول في وينتون، تزوّج السّيدة مارجريت مونتغومري وابنة هيو مونتغومري ووريثته، الإيرل الثالث في ايغلنتون، ولقب ايغلنتون ورثه أصغر أبنائهم الذي حصل حفدته على كنية مونتغومري، وهكذا فإن ألكساندر سيتون موضع السّؤال كان في الحقيقة ألكساندر مونتغومري الذي كان نشيطاً جداً في الماسونية الجيمسية في أوروبا، على سبيل المثال عندما مات رمزي في عام 1743م جرى توقيع شهادة وفاته من ألكساندر مونتغومري إيرل ايغلنتون، وتشارلز رادكليف إيرل ديروينت واتر، ومايكل دي رمزي ابن عم رمزي، وألكساندر هوم، وجورج دي ليزلي.

لماذا كان الشخص الذي منح البارون فون هوند لقب «فارس الهيكل» هو ألكساندر مونتغومري، أو سيتون بدلاً من أن يكون رادكليف، أو رمزي، أو كيلمارنوك، أو تشارلز إدوارد ستيوارت، أو أي شخص آخر؟، بلا شك لأنه كان ينحدر من العائلة التي احتشد حولها كل فرسان الهيكل الأصليين الباقين على قيد الحياة في اسكتلندا، عندما قام السّير جيمس سانديلاندز في عام 1564م بتخليصهم على نحو غير شرعي من إرثهم، كما لاحظنا سابقاً ديفيد سيتون هو من تجمّع فرسان الهيكل حوله، وإن كانت المعلومات التي حصلنا عليها من عضو معاصر من العائلة دقيقة، فإن هناك نظاماً يُدعى «نظام الهيكل»، لا يزال موجوداً عند بعض عائلات من آل مونت غومري حتى يومنا هذا.

إثر تمرّد عام 1745م انقرضت الماسونية الجيمسية ذاتها بتوجهها السياسي المحدد وولائها لسلالة ستيوارت، عملياً، على أي حال بقي بعض أنماطها، الأنماط التي كانت مطهّرة من المحتوى السياسي ومختلطة نوعاً ما بالمحفل الانكليزي الكبير، بقيت جزئياً خلال ما يسمّى «الدرجات العليا» التي قدمتها مؤسسات كالمحفل الإيرلندي الكبير، على أي حال ما هو أكثر أهمية هو أن وجودهم استمر في منظمة «الالتزام الصارم» الذي تحدث عنها هوند، والتي كانت الدرجة الأعلى فيها هي «فارس الهيكل»، «الالتزام الصارم» انتشر في كل أنحاء أوروبا، وعلى أي حال لا يزال الأكثر أهمّية هو أن تلك المنظمة وجدت التربة الخصبة لها بين المستعمرين الذين شكلوا بعد ذلك الولايات المتّحدة، والذين كان الكثير منهم من اللاجئين أو المبعدين الجيمسيين[1].

1 ــ يذكر أن البروتستانت واليهود الأوربيين هم الأكثر أعداداً من بين المهاجرين إلى الولايات المتحدة، والتحالف بينهم كان تحالفاً دينياً واقتصادياً وسياسياً حتى أن الصهيونية المسيحية البروتستانتية كانت أشد حماسة لمشروع الدولة اليهودية في فلسطين وإقامة مايسمى الهيكل، (المدقق).

الفصل الرابع

الماسونية والاستقلال الأمريكي

القسم الخامس عشر

الماسونيون الأمريكيون الأوائل

فيما يتعلق بأصول الماسونية في أمريكا، ربما لا عجب من أن هناك أساطير وشائعات وخرافات أكثر من وجود حقائق راسخة أو معلومات موثّقة، طبقاً لبعض التقاليد أحد أنماط الماسونية أو الماسونية الأصلية وصلت إلى العالم الجديد منذ زمن طويل، يعود إلى مستوطنة جيمس تاون (Jamestown) في عام 1607م وأسّست نفسها في فرجينيا، وعملت على ترويج المجتمع المثالي الذي أشار إليه فرنسيس بيكون بعد عشرين سنة في أعمال مثل «أطلانطس الجديد»، هذا التصور لا يمكن إهماله كليّاً، المفكّرون «الروزيكروشيّون» في أوائل القرن السابع عشر كانوا مدركين بشدة للفرص التي عرضتها أمريكا عن المخطّطات الاجتماعية المثالية التي ظهرت بوضوح كبير في أعمالهم، كذلك كان أعضاء «الكليّة المخفية» الذين ظهروا في النهاية على شكل جمعية تُدعى «الجمعية الملكية»، سيكون مفاجئاً جداً إن لم ينتقل على الأقل شيء من أفكارهم عبر الأطلسي، في كل الأحوال لا شك من أن الازدراع الأول للماسونية في أمريكا في أي زمان ومكان كان أمراً حتمياً، واعتيادياً، ومتوقّعاً، وعلى نحو أساسي كان مجرداً تماماً من العواقب الرئيسة التي حصلت على ازدراع المواقف والمؤسسات الانجليزية الأخرى، لا أحد كان يمكنه أن يتنبأ بالأهمية التي قام بها سريعاً هذا الازدراع.

على قدر تعلق الأمر بالتوثيق الرسمي، الماسوني المعروف الأول الذي استقر في المستعمرات الأمريكية هو جون سْكِين (John Skene)، اسم سكين أُدرج في محفل أبردين في عام 1670م، وفي عام 1682م هاجر إلى أمريكا الشمالية، استقرّ في نيو جيرسي، حيث أصبح نائب الحاكم لاحقاً، لكن الماسونية التي جلبها معه كان فراغاً في نيو جيرسي لا أكثر، فلم يكن لديه أي أعضاء من الأخوية لينسجم معهم، ولم يكن هناك بيئة ماسونية لكي يتلاءم معها، كما لم يؤسس أي بيئة بنفسه، على أي حال لا وجود لأي سجل يقترح غير ذلك.

سكين كان ماسونياً قبل أن يذهب أبداً إلى أمريكا، أول مستوطن أمريكي أصبح ماسونياً كان جوناثان بيلشير (Jonathan Belcher) الذي ضُمّ إلى محفل انجليزي لدى زيارته لانجلترا في عام 1704م، بعد عام عاد بيلشير إلى المستعمرات، وأصبح مع مرور الوقت أحد التجار الناجحين، وفي النهاية في عام 1730م أصبح حاكم ماساشوستس

ونيوهامشير، في ذلك الوقت بدأت الماسونية تؤسس نفسها على نحو متين في المستعمرات، وابن بيلشير أصبح أحد الناشطين جداً في نشرها.

لا بدّ من أنه كان هناك الكثير من الحالات المشابهة لسكين وبيلشير، أي رجال كانوا ماسونيين سابقاً عندما هاجروا إلى المستعمرات، أو رجال استقرّوا في المستعمرات وعند زيارتهم إلى انجلترا أُدخلوا في المحافل، وحتى إنه يُذكر أنه في عام 1719م كان هناك سفينة تُدعى «الماسونية» (Freemason)، تُستعمل للتجارة الساحلية الأمريكية، لكن لا وجود لأي سجل عن وجود أيّ محافل مؤسسة في أمريكا قبل أواخر عام 1720م، في 8 ديسمبر/كانون الأول عام 1730م طبع بنيامين فرانكلين في صحيفته «جريدة بينسلفانيا الرسمية» أول ملاحظة موثّقة عن الماسونية في أمريكا الشمالية، مقالة فرانكلين كانت رواية عامّة عن الماسونية، وذكرت في مقدمتها بياناً يتحدث عن «وجود عدّة محافل ماسونية في تلك الولاية... ».

فرانكلين نفسه أصبح ماسونياً في 5 فبراير/شباط عام 1731م، والسيد الأعظم الإقليمي لبينسلفانيا في عام 1734م في تلك السنة تحديداً وجّه بطباعة أول كتاب ماسوني، يُنشر في أمريكا، والذي كان طبعة من «دساتير أندرسن»، في هذه الأثناء جرى تأسيس أول محفل أمريكي مسجّل في فيلاديلفيا، أقدم وثائقه الباقية على قيد الحياة، والتي تُصنّف على أنها الكتاب الثاني من السجلات يعود تاريخها إلى عام 1731م، لذلك فإن الكتاب الأول، لو افترضنا وجوده، لا بدّ من أنه غطّى السنة السابقة على أقل تقدير.

الكثير من المحافل الأقدم في أمريكا كانت «غير تقليدية»، ومن الممكن جداً أن بعضها لم تنجُ سجلاته، ولذلك لا سبيل لمعرفتنا إياها، باستخدام اللغة الماسونية الخاصة، لكي يصبح المحفل «نظامياً» أو «منظّماً» يجب أن يكون «مكفولاً»، أي لا بدّ له من أن يحصل على كفالة من سلطة حاكمة عليا كمحفل عظيم مثلاً، أو من المحفل الأم إن جاز التعبير، وبهذه الطريقة يصدر المحفل الانكليزي الكبير كفالات لفروعه أو للمحافل الجديدة في المستعمرات الأمريكية، لكن الكفالات يمكن أن تكون صادرة أيضاً عن هيئات أخرى كالمحفل الكبير في إيرلندا الذي كان يقدم ما يسمّى «الدرجات العليا» وغيرها من سمات الماسونية الجيمسية، والذي بعد عام 1745م جُرِّد على نحو خاص من توجهه السياسي والموالي للقضية الستيوارتية، ومع ذلك احتفظ بنوعيته الفروسية الاستثنائية.

أول محفل مسجّل جرت كفالته أو إجازته رسمياً في أمريكا هو محفل القدّيس يوحنا[1] في بوسطن الذي أُسّس في عام 1733م وجرت كفالته من المحفل الكبير في انجلترا، وفي السنة نفسها كان المحفل الكبير في

1ـ أو سانت جون، المترجم.

يجمع المال أيضاً لإرساله إلى الإخوة في مستعمرة أوغلْثورب في جورجيا كما رأينا، مع أنه لا وجود لأي سجلات عن محافل مرخصة أو غير مرخصة قبل عام 1735م، وهو العام الذي جرى فيه تأسيس أحدها الذي يُدعى سافانّه «Savannah»، في هذه الأثناء عام 1733م كانت ماساشوستس كافلة لمحفل عظيم إقليمي، كان يتزعمه هنري برايس، نائب السيد الأعظم كان أندرو بيلشير بن جوناثان بيلشير الذي دخل العضوية في انجلترا في عام 1704م، بين عامي 1733م و1737م كفل المحفل الكبير في انجلترا المحافل الكبيرة الإقليمية في ماساشوستس ونيويورك وبينسلفانيا وكارولينا الجنوبية، في جورجيا ونيوهامشير والولايات المستقبلية الأخرى كان هناك واحد أو أكثر من المحافل المحلية، ولكن لم يكن هناك محفل عظيم إقليمي، من فرجينيا لم يبق هناك أي سجلات، ولكن يُفترض أنه كان هناك محافل مكفولة من المحفل الكبير شبه الجيمسي في يورك، وليس من المحفل الانكليزي الكبير.

المحافل العسكرية

في الوقت نفسه الذي كانت فيه الماسونية تقريباً برعاية كلية من المحفل الكبير في انجلترا تنتشر عبر المستعمرات، حدث هناك تطور آخر كان له تأثير أعمق كثيراً في التاريخ الأمريكي، منذ عام 1732م كانت الماسونية تنتشر أيضاً بين صفوف الجيش البريطاني على شكل محافل كتائبية، هذه المحافل كانت متنقلة، يحملون أزياءهم وشعاراتهم ومؤنهم في صناديق مع أعلام كتائبهم وفضتهم والأمتعة الأخرى العسكرية تماماً، في أغلب الأحيان يترأسهم الكولونيل سيداً أصلياً للمحفل، ومن ثمّ يخلفه الضبّاط الآخرون، المحافل في الكتائب الميدانية كان لها تأثير عميق في الجيش كله، وكما سنرى زودت قنوات اتصال للنظر في الشّكاوى، وكما هو الحال في المحافل المدنية هذه المحافل ضمت رجالاً ذوي خلفيات وطبقات اجتماعية متنوعة، وهكذا فإن المحافل الميدانية جمعت الضبّاط مع الرجال، القادة الكبار مع المرؤوسين، إحدى نتائج هذه العملية كان خلق المناخ الذي استطاع فيه الجنود الشباب مثل جيمس وولف[326] أن يقدّموا أنفسهم بغض النظر عن الطبقة.

جرى تأسيس المحفل الأول في الجيش البريطاني في عام 1732م باسم «فوج المشاة الأول»[327]، ولاحقاً أصبح «الاسكتلنديين الملكيين»، في عام 1734م كان هناك خمسة كهذه

326ـ جيمس وولف (1727م ـ1759م) جنرال بريطاني، القائد الثاني للقوّات البريطانية في أمريكا الشمالية، أشهر ما قام به هو احتلال إقليم كوِبك (1759م) من الفرنسيين في الحرب الفرنسية والهندية (1756م ـ1763م)، أُصيب بجروح مميتة في ذلك الهجوم، المترجم.

327ـ هذا كان المحفل ذا الرقم 11 على قائمة المحفل الإيرلندية العظيمة، وجرت كفالته في 7 نوفمبر/تشرين الثاني من عام 1732م وشُطب مع عودة التفويض من العقيد مونسل في أبريل/نيسان عام 1847م، المؤلفان.

المحافل الكتائبية، في عام 1755م كان هناك تسعة وعشرون، من بين الكتائب التي امتلكت محافل خاصة بها كان هناك كتائب عُرفت بعد ذلك بأسماء مثل «الغدّاريّون[1] الملكيون لأمبرلاند الشمالية»، و«الجنود الاسكتلنديون الملكيون»، و«غدّاريّو إنيسكيلنغ الملكيون»، و«فوج غلوستشاير»، و«فوج دورسِت»، و«فوج الحدود»، وفوج دوق ولينغتون «ويست رايدينغ»[2].

والأهمية الخاصة تنطوي على حقيقة أنّ هذه المحافل لم تكن مرخّصة من المحفل الكبير في انجلترا، على العكس كانت مرخّصة من المحفل الإيرلندي الكبير الذي كان يقدم «الدرجات العليا» التي تخص الماسونية الجيمسية، علاوة على ذلك هذه المحافل رُخّصت قبل عام 1745م، عندما بدأ أول مرة تطهير «الدرجات العليا» من توجيهها الجيمسي.

في الوقت نفسه طبعاً رسّخت الماسونية نفسها أيضاً في الصفوف العليا من القيادات العسكرية والإدارية بمن فيهم بعض الشخصيات الأبرز آنذاك، دوق كامبرلاند كان ماسونياً على سبيل المثال، وهو الابن الأصغر لجورج الثّاني، وكذلك أيضاً كما يبدو كان الجنرال السّير جون ليجونير، وهو القائد العسكري البريطاني الأكثر أهمية في فترة عام 1740م في أثناء التمرّد الجيمسي عام 1745م قاد ليجونير الجيش البريطاني في ميلاندز[3]، بعد سنة جرى نقله إلى أوروبا، حيث أدى دوراً رئيساً في العمليات العسكرية في أثناء حرب الوراثة النمساوية، الانتسابات الماسونية الدقيقة ليجونير لم تؤكَّد على نحو حاسم، لكن يظهر أنه عام 1732م تقريباً من ضمن قائمة المشتركين التي وردت في كتاب لجيمس أندرسن مع أولئك الماسونيين البارزين مثل ديزا غيوليرز، وإيرل أبيركورن، وإيرل دالكيث، والذين كانوا أسياداً عظاماً سابقين في المحفل الكبير.

بين أتباع ليجونير كان الرجل الذي سيصبح القائد البريطاني الوحيد الأكثر أهمية في العصر، إنه اللّورد المستقبلي جيفري اميرست الذي سيظهر على نحو واضح في هذه القصة، اميرست كان مكلّفاً في «فوج حرّاس المشاة الأول» (الآن «حرس الغرينادير») بقيادة ليجونير، حيث أصبح معاونه، قبل قيامه بأشياء أعظم في أمريكا خدم مع ليجونير في أوروبا في أثناء حرب الوراثة النمساوية، في عام 1756م أصبح مقدّماً في فوج المشاة

1ـ الغدّاريّ الجنديّ المسلّح بغدارة (بندقية قديمة)، المترجم.
2ـ نسبة إلى ويست رايدينغ وهي مقاطعة تاريخية في يوركشاير في شمال انجلترا، أُلغيت في عام 1974م، المترجم.
3ـ مركز صناعي كبير في إنجلترا في برمنغهام، المترجم.

الخامس عشر، لاحقاً أصبح «فوج شرق يوركشاير» الذي كان يرعى المحفل الميداني الذي جرى تأسيسه قبل سنتين من ذلك[1]، بعد ذلك أصبح عقيد فوج المشاة الثالث، «فوج المتحمسين» أو «فوج شرق كينت»، وفوج المشاة الستين التي كانت تُعرف آنذاك بـ»الأمريكيون الملكيون»، ولاحقاً بـ «فيلق الرماية الملكي»، والآن «السترات الخضراء الملكية»، في كلتا الوحدتين جرى تأسيس المحافل الميدانية بحمايته[2]، الرجل الذي رعى اميرست، أي الرجل الذي دفع له المال مقابل مهمته كان صديق العائلة، إنه لايونيل ساكفيل أول دوق في دورسِت وصديق دوق وارتون الذي أصبح معه أعضاء في «فرسان غارتر» عام 1741م، ساكفيل كان لديه ولدان، الأكبر اسمه تشارلز، وكان إيرل ميدلسيكس، وقام بتأسيس محفل ماسوني في فلورينس عام 1733م، واشترك أيضاً مع السّير فرنسيس داشود بتأسيس «جمعية ديليتانتي» التي ضمت الكثير من الأعضاء الماسونيين، في عام 1751م كان هو وداشود أعضاء من الحاشية الماسونية البارزة العاملة في قصر فريدريك أمير ويلز الذي كان نفسه ماسونياً[3].

جورج ابن ساكفيل الأصغر كان نشيطاً على السواء في الشؤون الماسونية، في عام 1746م كان كولونيلاً في فوج المشاة العشرين، لاحقاً اسمهم أصبح «غدّاريّو لانكاشير»، وحظي باهتمام خاص في محفل الفوج الميداني، بل إنه أصبح سيده الرسمي[4]، أحد قائديه الاثنين كان المقدّم إدوارد كورن والِس، الأخ التوءم لرئيس أساقفة كانتربوري لاحقاً،

1ـ المحفل ذو الرقم 245 في السجلّ الإيرلندي جرت كفالته في عام 1754م، المؤلفان.

2ـ المحفل ذو الرقم 170، «المحفل الكبير القديم»، أسّس في فوج المشاة الثالث في عام 1771م، والمحفل ذو الرقم 448، «المحفل الانجليزي العظيم»، أسّس في فوج المشاة الستّين في عام 1764م، المؤلفان.

3ـ الماسونيون في بلاط فريدريك كانوا: روبرت نيوجنت، مراقب حسابات العائلة، القيّم العظيم الأصغر في المحفل الإيرلندي الكبير في عام 1732م، آرثر سانت ليجر، فيكونت دونيرايل، السيد الأعظم للمحفل الإيرلندي الكبير في عام 1740م، تشارلز ساكفيل، إيرل ميدلسيكس، مؤسس المحفل في فلورينس في عام 1733م، يُظن أن هناك اتصالاً بالمحفل الإيرلندي الكبير، جوزيف سير مرافق الملك، لاحقاً في عامي 1773م و1774م أصبح على التوالي القيّم العظيم الأصغر والقيّم العظيم الأكبر في المحفل الإيرلندي الكبير، هنري بريدجز، مركيز كارنارفون وصيف حجرة النوم، وفي عام 1737م السيد الأعظم للمحفل الانجليزي العظيم، وأخيراً، قسيس فريدريك في عام 1727م الدّكتور الكلّي الوجود جون ديزا غيوليرز الذي كان في عام 1719م السيد الأعظم للمحفل الإنكليزي الكبير، وحمل بعد ذلك عدداً من المناصب الكبيرة في النظام، ديزا غيوليرز هو من أدخل فريدريك نفسه في العضوية في عام 1737م، المؤلفان.

4ـ محفل جرى ترخيصه أولاً في فوج المشاة العشرين بين نوفمبر/تشرين الثّاني من عام 1736م وشباط التالي من عام 1737م، مع ذلك يبدو أن هذا التفويض فُقد، حيث إن اللورد جورج ساكفيل نفسه مُنح في ديسمبر/كانون الأول عام 1748م «تفويض اعتماد» للمحفل ذي الرقم 63 (المحفل الإيرلندي الكبير)، القيّمان عليه كانا المقدّم إدوارد كورن والِس والنقيب ميلبورن، المؤلفان.

والذي أصبح في عام 1750م حاكم نوفا سكوشا (Nova Scotia)، وأسّس المحفل الأول هناك، من بين أتباع كورن والِس كان النّقيب الشاب جيمس وولف الذي أسّس سابقاً شهرته في الذكاء والجرأة في أوروبا بقيادة دوق كامبرلاند، وبعد ذلك بقيادة السّير جون ليجونير، بعد ذلك وولف عمل عن كثب مع اميرست، وكان له دور حاسم في التاريخ الأمريكي الشمالي، في هذه الأثناء وفي عام1751م أصبح جورج ساكفيل نفسه السيد الأعظم للمحفل الكبير الإيرلندي، بعد ثماني سنوات في أثناء حرب السبع سنوات جرى اتهامه بالجبن في معركة ميندين ومن ثم جرت محاكمته عسكرياً وطُرد من الخدمة، على أي حال صداقته لجورج الثّالث مكّنته من الاحتفاظ بمنزلته في المنشآت الحكومية، في عام 1775م أصبح وزير المستعمرات[1] حاملاً لقب «اللّورد جيرمين»، هو كان وزير مستعمرات، وكان في هذه السلطة عندما خدم في حرب الاستقلال الأمريكية.

الحرب الفرنسية الهندية

سرعان ما دمجت الأحداث الماسونية الأمريكية بماسونية الجيش البريطاني على مقياس لم يسبق له مثيل حتى الآن، الفرق الأساسية من الجيش البريطاني النظامي من الضبّاط والجنود كان من شأنها سريعاً أن تعمل عن كثب مع المستعمرين، حيث أصبحت تدرّبهم على الإجراءات والعمليات العسكرية، وفي أثناء تلك العملية جلبوا أيضاً سمات أخرى من الماسونية، ناهيك بالقوانين الكاملة من «الدرجة الأعلى» للماسونية التي كانت ماسونية جيمسية سابقاً، وهذه الماسونية كان من شأنها أن تحتضن على نحو مثالي مشاعر الوئام والإحساس بالأخوية التي تطورت عموماً بين رفاق السلاح.

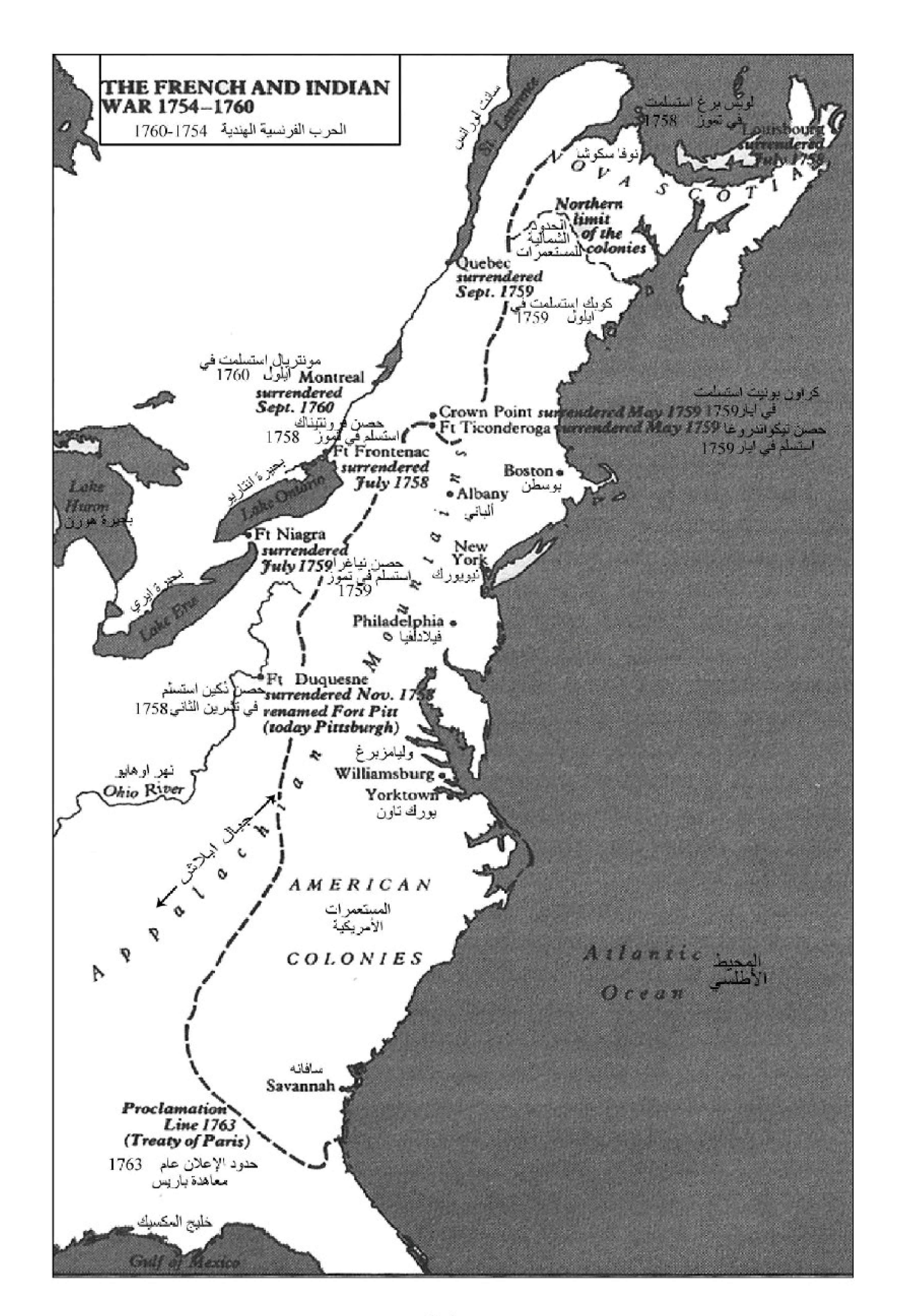
طبعاً كان هناك عمليات عسكرية في أمريكا قبل ذلك، حيث كانت المصالح البريطانية والفرنسية متشابكة منذ بداية القرن الثامن عشر، في أثناء حرب السلالة الإسبانية عام (1701م-1714) جرى بنجاح صد الهجوم الفرنسي الإسباني المشترك على تشارلستون في كارولينا الجنوبية، حدثت مناوشة على نطاق ضيق أيضاً بين المستعمرين البريطانيين والفرنسيين على الحدود الكندية، حيث جرى احتلال أرض فرنسية تدعى أكاديا، وجرت إعادة تسميتها لتصبح نوفا اسكوشا، بعد ربع قرن في أثناء حرب التعاقب النمساوي عام (1740م-1748)، كان هناك ثانية عمليات عسكرية في أمريكا، ولكن في هذا الوقت كانت على مقياس أكبر قليلاً، في عام 1745م استولى

1ـ المستعمرات الأصلية المكوِّنة للولايات المتحدة الأميركية كان عددها ثلاث عشرة، المترجم.

المستعمرون من نيو إنجلاند[1] على القلعة الفرنسية لويسبرغ في جزيرة بريتون كيب التي تحرس المدخل إلى سانت لورانس، على أي حال كانت العمليات في أمريكا الشمالية سطحية مرة ثانية، كانت هوامش لا أكثر للحملات الأكثر أهميّة التي كانت تجري في أوروبا، كانت تتضمّن أعداداً صغيرة جداً من القوّات النظامية وضبّاطاً صغار الرتبة تقريباً، ولم تكن تلك الحملات تتعدى كونها مناوشات.

على أي حال في عام 1756م انفجرت حرب السنوات السبع في أوروبا، وفي هذا الوقت انتشر جيش وعمليات بحرية ذات نطاق أوسع كثيراً، في الحقيقة لم تتوسع فقط حتى أمريكا، بل وصلت إلى الهند أيضاً، القوّات البريطانية أطلقت مرة أخرى حملات على أوروبا، ولكن بأعداد بسيطة تقريباً مقارنة بالقوات الفرنسية والنمساوية والبروسية، المسرح الرئيس لنشاطات الجيش البريطاني كان في أمريكا الشمالية، وأنهار العالم الجديد وغاباته شهدت اشتباكات بين الجيوش الأوروبية المتمرّسة والفائقة المهارات والكبيرة على مقياس بدا أنه مستحيل قبل نصف قرن من ذلك.

1- منطقة في الولايات المتّحدة الشمالية الشرقية، تشمل ولايات مين، نيوهامشير، فيرمونت، ماساشوستس، رود آيلاند، وكونيكتيكت، المترجم.



THE FRENCH AND INDIAN WAR 1754–1760
الحرب الفرنسية الهندية 1754-1760
St. Lawrence
سانت لورانس
لويس برغ استسلمت في تموز 1758
Louisbourg surrendered July 1758
نوفا سكوشيا
NOVA SCOTIA
Northern limit of the colonies
الحدود الشمالية للمستعمرات
Quebec surrendered Sept. 1759
كويك استسلمت في ايلول 1759
مونتريال استسلمت في ايلول 1760
Montreal surrendered Sept. 1760
كراون بوئنيت استسلمت في ايار1759
Crown Point surrendered May 1759
Ft Ticonderoga surrendered May 1759
حصن تيكوانديروغا استسلم في ايار 1759
حصن فرونتيناك استسلم في تموز 1758
Ft Frontenac surrendered July 1758
Lake Ontario
بحيرة انتاريو
Lake Huron
بحيرة هورن
Boston
بوسطن
Albany
ألباني
Ft Niagra surrendered July 1759
حصن نياغرا استسلم في تموز 1759
New York
نيويورك
Lake Erie
بحيرة إيري
Philadelphia
فيلادلفيا
Ft Duquesne surrendered Nov. 1758 renamed Fort Pitt (today Pittsburgh)
حصن نكين استسلم في تشرين الثاني1758
Ohio River
نهر اوهايو
وليامزبرغ
Williamsburg
Yorktown
يورك تاون
Appalachian Mountains
جبال ابلاتش
AMERICAN COLONIES
المستعمرات الأمريكية
Atlantic Ocean
المحيط الأطلسي
سافانه
Savannah
Proclamation Line 1763 (Treaty of Paris)
حدود الإعلان عام 1763
معاهدة باريس
خليج المكسيك
Gulf of Mexico

بين عامي 1745م و1753م تضخم التعداد السكاني الانجليزي على نحو مثير في أمريكا الشمالية، ولم يكونوا فقط من المنفيين أو اللاجئين الجيمسيين، في عام 1754م تقريباً اقترح بنيامين فرانكلين خطة لتوحيد كلّ المستعمرات، ولكن الحكومة البريطانية رفضت، وإذا كانت المركزية السياسية قد رُفضت، فإن المنظمات والاتصالات والتجارة تطورت بسرعة، وأصبحت الحاجة ملحة جداً إلى التوسّع غرباً، على أي حال عندما بدأ المستعمرون من فرجينيا بالتحرّك إلى أوهايو فالي غرب بينسلفانيا، فإنهم بذلك هدّدوا التواصل بين الأرض الفرنسية في كندا (سانت لورانس) والميسيسيبي، واندلع قتال شامل عندما جرى إرسال فريق من المقاومة الشعبية الاستعمارية بقيادة الشاب جورج واشنطن إلى المنطقة لبناء حصن، السنوات الأربع الأولى من الحرب تلطخت بكوارث عسكرية كان بعضها على درجة كبيرة من الخطورة، حتى إنها أرسلت موجات اهتزازية عادت إلى انجلترا، في أبريل/نيسان عام 1755م قام طابور بريطاني من كلا الجيش النظامي والمقاومة الشعبية الاستعمارية بقيادة الجنرال إدوارد برادوك بنصب كمين للقوّات الفرنسية وحلفائها الهنود قرب حصن دُكين (Duquesne)، الطابور أُبيد عملياً، وبرادوك أُصيب بجروح قاتلة، أمّا معاونه واشنطن فهرب بصعوبة، عقب ذلك حصلت سلسلة من الهزائم الأخرى، الحصون البريطانية فُقدت الواحد تلو الآخر في كل أنحاء المنطقة التي تُعرف الآن بنيويورك، وجرى ردّ هجوم أوروبي عامّ وهائل، كان ينوي استرداد حصن تيكوندروغا، ونجم منه إصابات مروّعة من بينهم كان القائد نفسه الجنرال جيمس أبِرْكرومبي، واللّورد جورج هاو الذي كان من بين أصغر الضبّاط الواعدين في الجيش البريطاني آنذاك، هاو كان قبل وفاته أحد أبرز المبتكرين في الحرب غير التقليدية التي اتسمت بها العمليات في أمريكا الشمالية، مع اميرست وولف، كان ذا دور فعّال في مساعدة الجيش على التحول من وسائل المناورة الصلبة، أي في ساحة المعركة الأوروبية إلى الوسائل الأكثر مرونة وحداثة، أي باستخدام الأنهار والغابات البريّة التي تُستخدم الآن للقتال.

طبقاً لمؤرخ عسكري بارز:(هاو) تخلى عن كل تدريبات ساحة الثكنة وتعليماتها، وانضمّ إلى الأفراد غير النظاميين في أحزابهم الكشّافة، وتبنّى لباس زملائه الصارمين، وأصبح واحداً منهم، وبعد أن علّم نفسه ذلك بدأ بتعليم الدروس التي تعلمها لغيره، جعل الضبّاط والجنود على السواء يتخلون عن كلّ الأعباء العديمة الفائدة، لقد قام بقص التنورات من معاطفهم والشعر من رؤوسهم، موّه براميل ذخيرة المسكيتات[1]، وجعلهم يكسون أقدامهم من الأسفل لحمايتها من الورد الجبلي والأشواك، وملأ الفراغ المتبقي من

1ــ المسكيت بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة، المترجم.

حقائبهم بثلاثين باونداً من الطعام، لكي يعتمدوا على أنفسهم لأسابيع[1].

موت هاو في تيكوندروغا حرم الجيش البريطاني من إحدى أكثر الشخصيات براعة وجرأة ودهاء، رجل أبدى إمكانيات قائد عظيم، لكن تيكوندروغا كان الهزيمة البريطانية الجدّية الأخيرة في الحرب، في انجلترا كان وليام بيت، لاحقاً إيرل تشاتَم (Chatham) قد أصبح وزيراً للخارجية، وشرع بعملية هائلة في إعادة تعديل الجيش والبحرية الملكية، الضبّاط النظريون والمتزمتون وذوو الفكر العتيق جرى طردهم أو تخفيض رتبهم أو إهمالهم، وجرى تسليم القيادات إلى مجموعة من الرجال الأكثر إبداعاً والأصغر سناً والأكثر حيوية ومرونة، في أمريكا الشمالية كان أهمهم جيمس وولف الذي كان آنذاك في الحادية والثلاثين، واميرست الذي كان أكبر منه بعشر سنوات، والذي جرى تعيينه جنرالاً رئيساً وقائداً عاماً بناء على نصيحة رئيسه الكبير السن السّير جون ليجونير، من بين أبرز أتباع وولف واميرست كان توماس ديزا غيوليرز ابن الماسونية البارز، ووليام هاو الأخ الأصغر لجورج، وشخصية رئيسة لاحقاً في حرب الاستقلال الأمريكية[2].

كونه قائداً عاماً كان اميرست بمكانة أفضل من اللّورد جورج هاو لتقديم التقنيات والوسائل الجديدة للجيش، طبقاً لابتكارات هاو، وأنشأ أخرى أيضاً، مثل كتائب الرماة أو كتائب البنادق المكسية باللون الأخضر القاتم، ووحدات المغاوير المسؤولة عن العمليات الفدائية وعن الاستكشاف، وفرق المشاة الخفيفة، فوج المشاة الخفيف مصمّم خصيصاًً للكشّافة والمناوشات، وكان يرتدي معاطف قصيرة بنية قاتمة خالية من أي أربطة أو زينة، حتى إن بعض القوّات كان تلبس الملابس الهندية.

عدد من الضبّاط الاستعماريين تعلّموا مهنتهم من اميرست، وهم الضبّاط الذين اشتهروا لاحقا في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية، رجال مثل تشارلز لي، وإسرائيل بوتنم، وايثِن ألين، وبنيديكت آرنولد، وفيليب جون شويلر اكتسبوا من اميرست التدريب الاحترافي والتقنيات التي جرى تبنيها على نحو محدّد في حرب أمريكا الشمالية، وعندما تخلى واشنطن عن مهمته في ذلك الوقت، كان هو أيضاً يعرف اميرست وتأثّر به على نحو كبير.

في يوليو/تموز عام 1758م استردّ اميرست وحاشيته من الأتباع الشباب الموهوبين

1ـ هاو كان كولونيلاً في فوج المشاة الخامس والخمسين الذي ضم في عام 1743م أول محفل عسكري مجاز من المحفل الاسكتلندي العظيم، المؤلفان.

2ـ توماس ديزا غيوليرز خدم بقيادة وولف في لويسبرغ برتبة كولونيل الفوج الثالث (المدفعية الملكية)، وأصبح قائد المدفعية الملكية، ومرافق جورج الثالث، وكما هو معروف عنه كان من نشطاء الماسونيين، إلا أن سجلات مسيرته الماسونية قاصرة، المؤلفان.

لويسبرغ التي احتُلت أولياً في أثناء حرب التعاقب النمساوي، ثمّ فُقدت بعد ثلاثة شهور ونصف قام طابور بريطاني آخر بأسر حصن دُكين، وسووه بالتراب ثم أعادوا بناءه ثانية ليكون حصن بِت، الموقع الآن هو بِتسبرغ، في السنة التالية تقدم امبرست في ريف نيويورك، وبدأ يحتل الحصون واحداً تلو آخر بما فيها تيكوندروغا، في سبتمبر/أيلول عام 1759م، أنجز وولف برفقة وليام هاو الذي كان يقود الطابور المتقدّم أحد أكثر المفاخر الجريئة في التاريخ العسكري، حيث وصلوا بالسفينة حتى سانت لورانس، ثم تسلقوا مرتفعات إبراهيم الشاهقة خارج حصن كوِبك ومعهم 4000 جندي، في المعركة التي حصلت قُتل كل من وولف والقائد الفرنسي المركيز دي مونتكالم، ولكن مجرى التيار تغير الآن، استمرّت العمليات المنفصلة سنة أخرى، ثمّ في سبتمبر/أيلول 1760م قام امبرست ووليام هاو بمحاصرة مونتريال التي استسلمت، وهكذا تركت فرنسا مستعمراتها الأمريكية الشمالية لبريطانيا.

إن تدفّق الجيش النظامي البريطاني إلى أمريكا الشمالية جلب معه تدفّق الماسونية، خصوصاً الماسونية من «الدرجة العليا» التي ضمن المحفل الإيرلندي الكبير، من بين الكتائب التسع عشرة التي كانت بقيادة امبرست كان هناك ما لا يقل عن ثلاث عشرة منها تمارس المحافل العسكرية الميدانية، المقدّم جون يونغ الذي كان يقود فوج المشاة الستّين الذي كان إحدى الكتائب التابعة لامبرست شخصياً في لويسبرغ وكوِبك كان في عام 1736م قد جرى تعيينه نائب السيد الأعظم للمحفل الاسكتلندي الكبير من السّير وليام سانت كلير من روزلين، في عام 1757م أصبح السيد الأعظم الإقليمي لكلّ المحافل الاسكتلندية في أمريكا وفي جزر الهند الغربية، في عام 1761م خَلَف يونغ في قيادة فوج المشاة الستّين المقدّم أوغسطين بريفوست الذي أصبح لواء بعد ذلك، في السنة نفسها أصبح بريفوست السيد الأعظم لكلّ المحافل في الجيش البريطاني المكفولة من هيئة ماسونية أخرى، وهي «المذهب الاسكتلندي القديم المقبول».

في عام 1756م كان العقيد ريتشارد جريدلي مفوّضاً في حشد كلّ الماسونيين الأحرار والمقبولين في البعثة ضدّ محفل كراون بوينت الذي أخذه امبرست بعد ذلك، وتشكيل محفل واحد أو أكثر[1]، عندما سقطت لويسبرغ في عام 1758م شكّل جريدلي هناك محفلاً آخر، في نوفمبر/تشرين الثّاني عام 1759م أي بعد شهرين من أسر وولف

1ـ الكولونيل ريتشارد جريدلي كان الشقيق الأصغر لجيرمي جريدلي السيد الإقليمي الأعظم لأمريكا الشمالية منذ عام 1755م، ومقرّه في بوسطن، ريتشارد جريدلي ترفّع إلى رتبة سيد ماسوني في 4 أبريل/نيسان عام 1746م في محفل القدّيس يوحنا في بوسطن، في عام 1769م كان نائب السيد الأعظم لمحفل القدّيس يوحنا العظيم، أنهى مهنته العسكرية قائداً عاماً للمدفعية في الجيش الأوروبي، المؤلفان.

لكوبك، ستة من المحافل الميدانية من القوّات التي احتلّت الحصن عقدت اجتماعاً، تلك المحافل قرّرت ما يلي: «حيث إن هناك الكثير من المحافل في حامية كوبك، فمن الواجب أن يوحدوا أنفسهم لتشكيل محفل عظيم وانتخاب سيد أعظم»، وفقاً لذلك جرى انتخاب جون غينِت الملازم الأول من فوج المشاة السابع والأربعين، لاحقاً أصبح فوج لانكاشير سيداً أعظم لإقليم كوبك، بعد سنة خَلَفه العقيد سيمون فريزر قائد فوج المشاة الثامن والسبعين الذي كان اسمه «فريزر هايلاندرز»، فريزر كان ابن اللّورد لوفات الذي كان له دور رئيس في تمرد عام 1745م، وحظي بتميز مريب كونه آخر رجل يُعدم على نحو مطلق في تاور هيل، في عام 1761م سايمون فريزر جرت وراثته سيداً أعظم لإقليم كوبك من توماس سبان من فوج المشاة السابع والأربعين، وبعد سبان في 1762م جاء الكابتن ميلبورن ويست من الفوج نفسه، وويست أصبح عام 1764م السيد الأعظم الإقليمي لكلّ كندا.

إحدى أكثر السمات المثيرة لكلّ ذلك هي الخلفية العادية والغموض العام والرتبة العسكرية الصغيرة تقريباً للرجال الذين يحملون هذه المناصب السامية، معظمهم لم يكونوا أرستقراطيين، أو لم يحصلوا على مناصب اجتماعية بارزة، أو حتى إنهم لم يبرزوا أنفسهم على نحو ملحوظ في الجيش، هم كانوا في الأساس «جنوداً عاديين»، من تعيينات أشخاص مثل الملازم الأوّل غينِت والنّقيب ويست يمكن المرء أن يكتشف شيئاً عن الطريقة التي كانت تعمل وفقها محافل الكتائب الميدانية، وكيف تخلّلوا سلسلة القيادات العسكرية كاملة، وكيف تميزوا بتلك الشعبية، ضابط كالملازم الأوّل غينِت ربما كان على اتصال يومي بأعضاء القيادة الذين يعاملونه مثيلاً ضمن بيئة المحفل، في الوقت نفسه كان يترأس الضبّاط الذين أعلى منه درجة وفق نظام الرتب العسكرية كونه سيداً أعظم لإقليم كوبك لذلك المحافل العسكرية خلقت سلاسة في التفاعل والتواصل بطريقة كانت ضمن بيئة ذلك العصر تُعدّ ظاهرة اجتماعية استثنائية وربما فريدة.

لا عجب من أن الماسونية التي كانت سائدة جداً في جيش اميرست انتقلت إلى الضبّاط الاستعماريين وإلى الوحدات التي تخدم عندهم، القادة والأفراد الأمريكيون انقضّوا على كل الفرص السانحة، لا ليصبحوا زملاء في السلاح فحسب، بل ليكونوا أيضاً زملاء في الماسونية، وهكذا جرى صياغة روابط أخوية بين القوّات النظامية البريطانية وزملائهم المستعمرين، انتشرت المحافل، وجرى منح الرتب والألقاب الماسونية على شكل أوسمة أو ترقيات، رجال مثل إسرائيل بوتنم، بنديكت آرنولد، جوزيف فراي، هيو ميرسر، جون نيكسون، ديفيد ووستر، وطبعاً واشنطن نفسه لم يحصلوا فقط على مناصبهم العسكرية، بل أصبحوا أيضاً أعضاء في الماسونية، هذا إن لم يكونوا كذلك

سابقاً[1]، وحتى أولئك الذين لم يصبحوا أنفسهم ماسونيين كانوا معرّضين على نحو ثابت للتأثير الماسوني الذي طفح من الجيش البريطاني ليُدمج بالمحافل الجديدة التي أُسّست في المستعمرات، بهذه الطريقة أصبحت الماسونية تغمر كامل المجتمع والثقافة والإدارة الاستعمارية.

ليس لأنها كانت الماسونية ذاتها فقط، أي لا يتعلق الأمر فقط بالمناسك والشعائر والتقاليد والفرص والمنافع الماسونية، بل أيضاً بسبب البيئة والعقلية وسلسلة المواقف والقيم التي قدمت لها الماسونية رعاية خاصة، وعلى نحو فعّال جداً، الماسونية المعاصرة كانت خزينة للإثارة التخيلية والمثالية الفعّالة التي تمكنت من نشرها بأزياء فريدة خاصة بها، في الحقيقة أكثر المستعمرين لم يقرؤوا أعمال لوك[2] أو هيوم أو فولتير أو ديدرو أو روسّو على نحو أكبر مما قرأه الجنود البريطانيون. على أي حال خلال المحافل أصبحت التيارات الفكرية المرتبطة بهؤلاء الفلاسفة سهلة المنال عالمياً، إنه من خلال المحافل تعلم المستعمرون العاديون تلك المسلّمة السامية التي تُدعى «حقوق الإنسان»، خلال المحافل تعلّموا مفهوم اكتماليّة المجتمع، كما بدا العالم الجديد كأنه لوح فارغ أو مختبر ما، يمكن أن تطبق فيه عملياً التجارب الاجتماعية والمبادئ التي قدستها الماسونية.

1ـ التالون كانوا ماسونيين قبل الحرب الفرنسية والهندية أو في أثنائها أو بعدها، ووصلوا إلى رتبة جنرال في الجيش الأوروبي، الجنرال بنديكت آرنولد، قبل عام 1765م، الجنرال جوزيف فراي، قبل عام 1760م، الجنرال ريتشارد جريدلي، عام 1746م الجنرال هيو ميرسر، عام 1761م الجنرال جون نيكسون، قبل عام 1762م الجنرال إسرائيل بوتنم، عام 1758م الجنرال جورج واشنطن، عام 1752م الجنرال ريتشارد مونتغومري، قبل عام 1775م يُظن أنه انضم إلى المحفل في فوج المشاة السابع عشر في أثناء الحرب الفرنسية الهندية، ولكن لا وجود لأي سجلات، الجنرال ديفيد ووستر السيد الأوّل لـ «محفل حيرام الأول» (Hiram Lodge No. 1) في مدينة نيو هافِن (New Haven) عام 1750م، لكن تاريخ انضمامه مجهول، المؤلفان،

2ـ لوك جون (1632م ـ1704م) فيلسوف انكليزي، عارض نظرية الحق الإلهي، وقال إن الاختبار أساس المعرفة، المترجم.

القسم السادس عشر

ظهور القادة الماسونيين

أحد الأسئلة الرئيسة عن حرب الاستقلال الأمريكية هو: كيف خططت بريطانيا لخسارتها ولماذا؟، فالحرب لم «تُربح» من المستعمرين الأمريكان بقدر ما «خُسرت» من بريطانيا، بريطانيا وحدها كانت تمتلك القدرة على ربح النزاع أو خسارته وعلى نحو مستقل تماماً عن جهود المستعمرين المساعدة وتقريباً هي قررت في الأساس أن تخسر النزاع، قبل أن تختار كسبه على نحو فعال.

في أكثر النزاعات، على سبيل المثال حرب الوراثة الإسبانية، وحرب السنوات السبع، وحروب العصر النابليوني، والحرب الأهلية الأمريكية، والحرب الفرنسية البروسية، والحربان العالميتان في عصرنا، نصر أحد المقاتلين أو هزيمته يمكن أن يوضّح ضمن اللغة العسكرية، في أكثر هذه النزاعات يمكن المؤرخين أن يُشيروا إلى عامل أو أكثر من العوامل المسببة للنصر أو الهزيمة، مثلاً بعض القرارات التكتيكية أو الاستراتيجية أو بعض الحملات أو المعارك أو بعض الاعتبارات اللوجستية كخطوط الإمداد، أو حجم الإنتاج الصناعي، أو ببساطة عملية الاستنزاف، كما يمكن أن يذكر المؤرخون فإن أياً من هذه العوامل، على نحو منفرد أو جماعي، يمكنها أن تجلب الهزيمة لأحد طرفي النزاع أو تُضعفه، بحيث لا يعود قادراً على الاستمرار في القتال، على أي حال في حرب الاستقلال الأمريكية ليس هناك عوامل كهذه، يمكن المؤرخين أن يشيروا إليها على نحو مُرض، حتى المعركتان اللتان تُسميان عادة المعركتين «الحاسمتين»، معركتي ساراتوغا ويورك تاون يمكن عدّهما «حاسمتين» فقط وفقاً لوجهات النظر المعنوية الأمريكية، أو ربما حاسمتين لكونهما بحكمة الإدراك المتأخر شكلتا «لحظة تحول تاريخية» معنوية، ولكن أياً من هذه العوامل لم يعق أو حتى يضعف قدرة بريطانيا على الاستمرار في الحرب، كما لم تُشرك الحرب إلا جزءاً بسيطاً من القوّات البريطانية التي كانت منتشرة في أمريكا الشمالية، لقد استمرت الحرب أربع سنوات بعد معركة ساراتوغا، وخلال تلك السنوات جرى إصلاح الهزيمة البريطانية بسلسلة من الانتصارات، وعندما استسلم كورنوالِس في يورك تاون كانت معظم القوات البريطانية في أمريكا الشمالية لا تزال سليمة، ولا تزال متمركزة على نحو جيد لمواصلة العمليات القتالية في أماكن أخرى، ولا تزال في مكانة متفوقة عددياً واستراتيجياً، في حرب الاستقلال الأمريكية لم يكن هناك نصر حاسم يمكن

مقارنته بواترلو[1]، لم يكن هناك «لحظة تحوّل حاسمة» يمكن مقارنتها بغيتزِبُرغ (Gettysburg)[2]، ببساطة يبدو أن الجميع تعبوا من الحرب، وأصابهم الملل، ومن ثم قرّروا حزم أمتعتهم، وأن يعودوا أدراجهم إلى الوطن.

في كتب التاريخ الأمريكية الدراسية تقدّم بعض التفسيرات القياسية دورياً تفسيرات عسكرية للهزيمة البريطانية، وذلك طبعاً لأن أي تفسيرات عسكرية كهذه تعني تزكية المهارة الأمريكية العالية في الحرب، وهكذا على سبيل المثال يجري الاقتراح غالباً، هذا إن لم يُصرّح على نحو واضح تماماً بأنّ كلّ المستعمرين في أمريكا الشمالية كانوا معاً للقتال، وأنهم واجهوا بريطانيا بقارة معادية اصطفّت ضدّها، ذلك شبيه بحالة احتلال نابليون أو هتلر لروسيا، حيث كل الشعب اتحد لصدّ المعتدين، والأكثر من ذلك أنه في أغلب الأحيان يُزعم بأنّ براري أمريكا الشمالية كانت بيئة غير ملائمة للجيش البريطاني الذي لم يكن مدرّباً ومكيّفاً لنوع القتال الفدائي غير النظامي الذي استخدمه المستعمرون، والذي فرضته التضاريس، كما يُزعم في أغلب الأحيان عموماً أنّ القادة البريطانيين كانوا فاسدين وكسالى وحمقى وعاجزين، يفتقرون إلى الدهاء والمناورة، يستحق النظر في كلّ هذه المزاعم كلّ على حدة.

في الحقيقة لم تواجه الجيش البريطاني أي قارة أو شعب متحد ضده على نحو عاطفي، من الصحف السبع والثلاثين في المستعمرات في عام 1775م كان هناك ثلاث وعشرون لمصلحة التمرّد، وسبع كانت موالية لبريطانيا، وسبع كانت محايدة أو غير ملتزمة، فلو جرى عدّ هذا مقياساً لعكس مواقف عامة الشعب، فإن 38 بالمئة من كامل الشعب لم يكونوا مستعدين لدعم الاستقلال، في الواقع بقي عدد كبير من المستعمرين مرتبطاً على نحو نشيط بما عدّوه الوطن الأمّ، لقد تجسّسوا طوعاً، وقدموا المعلومات طوعاً، وقدموا السكن والتجهيزات للقوّات البريطانية، في الحقيقة انضم الكثير منهم إلى الجيش وقاموا إلى جانب الوحدات البريطانية المنتظمة بشن حملات ضدّ جيرانهم المستعمرين، في أثناء الحرب كان هناك ما لا يقل عن أربع عشرة من الكتائب «الموالية» الملتحقة بالجيش البريطاني.

1ـ واترلو بلدة في وسط بلجيكا، نحو 16 كيلومتراً جنوب بروكسل، كانت موقعاً لمعركة واترلو الشهيرة في 18 حزيران عام 1815م والتي سحق فيها نابليون على نحو حاسم القوات البريطانية والبروسية، المترجم.

2ـ عاصمة مقاطعة أدامز في جنوب بينسلفانيا، وهي الموقع الذي حصل فيه النصر الشمالي الحاسم في أثناء الحرب الأهلية من 1ـ3 يوليو/تموز عام 1863م، عندما أوقفت قوّات جورج ميد تقدّم قوات روبرت لي شمالاً، المترجم.

كذلك لا يمكن القول إن الجيش البريطاني كان غير مهيأ أو مدرّب على نوع الحرب التي شُنّت في أمريكا الشمالية، في المقام الأول وعلى نقيض الانطباعات الشعبية لم تتضمّن معظم الحملات التي جرت في ذلك النزاع مطلقاً حرباً غير تقليدية، أغلبه تضمّن معارك وحصارات رسمية تماماً كنوع المعارك التي حصلت في أوروبا، تماماً كالنوع الذي برع فيه الجيش البريطاني بمن فيهم المرتزقة الهسيّون[1]، ولكن حتى وإن جرى استخدام الحرب غير التقليدية، فإن القوّات البريطانية لم تُصب بالضرر، كما رأينا استخدم وولف واميرست وأتباعهما قبل عشرين سنة تماماً ذلك النوع من الحرب في استعادة أمريكا الشمالية من فرنسا، في الحقيقة ابتكر الجيش البريطاني نوع القتال الذي فرضته أحياناً الغابات والأنهار التي لم يكن من الملائم فيها استخدام التقنيات والتشكيلات الميدانية القتالية الأوروبية، قوّات الهسيّين في الحقيقة ربما كانت ضعيفة في هذه الوسائل، لكن الوحدات البريطانية مثل فوج المشاة الستّين، فوج البنادق القديم لاميرست يمكن أن يتفوق، وتفوق غالباً، على المستعمرين في لعبتهم الخاصة، اللعبة التي مع ذلك تعلمها أغلب الزعماء المستعمرين العسكريين من القادة البريطانيين.

تبقى هناك تهمة عدم كفاءة القادة البريطانيين وحماقتهم، إنْ تعلق الأمر بأحد أولئك القادة مثل السّير جون بورغون، فمن الممكن أن تكون التهمة صحيحة، أما القادة الثلاثة الأساسيون، السّير وليام هاو والسّير هنري كلنتن واللّورد تشارلز كورنوالِس فإن تلك التهمة باطلة، في الحقيقة كان هاو وكلنتن وكورنوالِس مؤهّلين تماماً كنظرائهم الأمريكان، ثلاثتهم ربحوا معارك ضدّ المستعمرين على نحو أكبر من المعارك الخاسرة، وحققوا انتصارات أكبر وأهم، ثلاثتهم أبرزوا مهارتهم سابقاً، وكان لديهم الفرصة لعرضها ثانية، هاو على نحو خاص أدى دوراً بارزاً في الحرب ضدّ فرنسا قبل عشرين سنة من ذلك، تعلّم الوسائل غير التقليدية من أخيه الذي مات في تيكوندروغا، خدم تحت إمرة اميرست في لويسبرغ ومونتريال، وقاد قوّات وولف على مرتفعات إبراهيم في كوبك، وبين عامي 1772م و1774م كان مسؤولاً عن تحويل مجموعات المشاة الخفيفة إلى كتائب نظامية، كلنتن وُلد في نيوفندلند، ونشأ في نيوفندلند ونيويورك، وخدم في المقاومة الشعبية في نيويورك قبل الانضمام إلى الحرّاس والشروع في القتال في أوروبا، ووصف ترقّعه في الرتب العسكرية بأنه «هائل»، كورنوالِس جلب لنفسه الشهرة أيضاً في أثناء حرب السنوات السبع، وبعد ذلك وفي أثناء القتال في ميسوري ربح سلسلة الانتصارات

1ـ الهسيّ أحد مواطني هَسّ، ولاية في ألمانيا الغربية، ويُقصد هنا المرتزقة الألمان العاملون في القوات البريطانية خلال الثورة الأمريكية، المترجم.

التي منحت بريطانيا السيطرة على جنوب الهند، وفي مسيرته عمل مرشداً للسّير الشاب آرثر ويليزي الذي أصبح لاحقاً دوق ولينغتون، وفي أثناء تمرد عام 1798م في إيرلندا لم يثبت كورنوالِس أنه استراتيجي ماهر فقط، بل رجل حكيم وإنساني أيضاً، كبح بثبات وحشية أتباعه الحماسية التي فاقت الحدود، باختصار لم يكن هؤلاء قادة حمقى أو يفتقرون إلى الكفاءة.

لكن إن لم تكن القيادة البريطانية العليا في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية حمقاء أو مفتقرة الكفاءة، فإنهم كانوا بغرابة إلى درجة لم يُوضّحها المؤرخون على نحو مُرض غير مبالين ومتفككين ومتلكئين، بل أيضاً بلداء، جرى على نحو عادي إهمال الفرص التي كان يمكن رجالاً أقل كفاءة كثيراً أن يغتنموها أو يكسبوها، أجريت العمليات بطريقة واهنة وسَرْنَمية[1] تقريباً، الحرب ببساطة لم تجر بالنوع القاسي الضروري للنصر، القسوة التي طبقها القادة أنفسهم عندما حُرّضوا ضدّ خصوم غير المستعمرين الأمريكيين.

في الحقيقة لم تفقد بريطانيا الحرب في أمريكا الشمالية لأسباب عسكرية إطلاقاً، فالحرب فُقدت لأسباب أخرى، لعوامل مختلفة كليّاً، لقد كانت حرباً مكروهة جداً، كما كان الحال في الحرب التي خاضتها أمريكا في فيتنام بعد قرنين من الزمن، كانت مكروهة من الشعب البريطاني، ومن أغلب الحكومة البريطانية، وعملياً من كلّ الموظفين البريطانيين الذين كانوا على صلة مباشرة بها، من جنود وضبّاط وقادة، كلنتن وكورنوالِس كلاهما قاتل بالإكراه وبتردّد مفرط، حتى إن هاو كان أكثر عناداً، ويعبّر مراراً وتكراراً عن غضبه وحزنه وإحباطه من القيادة التي أُوكلت إليه، أخوه العميد هاو أحسّ بالشعور نفسه، صرّح بأن المستعمرين كانوا «الشعب الأكثر اضطهاداً واكتئاباً على الأرض».

موقف اميرست كان قتالياً على نحو أكبر، عند انتشار العداوات كان اميرست في التاسعة والخمسين، أكبر من واشنطن خمس عشرة سنة، وأكبر من هاو اثنتي عشرة سنة، ولكنه كان لا يزال قادراً على نحو مثالي على القيام بالعمليات العسكرية، بعد سلسلة النجاحات التي حققها في حرب السنوات السبع، كان قد أصبح حاكماً لفرجينيا، وطوّر مهاراته في الحرب غير التقليدية بدرجة أعلى في أثناء التمرّد الهندي الذي قاده الزعيم بونتياك، عندما بدأت حرب الاستقلال الأمريكية، كان قائداً عاماً للجيش البريطاني، وكان ناقماً على البيروقراطية ومصاباً بالملل من «منصبه»، لو حصل اميرست على منصب القيادة في أمريكا الشمالية، وقام مع تابعه القديم هاو بشن حملة بالحماسة التي أبداها

1ـ السَّرْنَمة السير خلال النّوم، المترجم.

ضدّ الفرنسيين قبل عشرين سنة من ذلك، لاتخذت الأحداث منحى آخر بلا شك، لكن اميرست أظهر المقت نفسه الذي أبداه أولئك الذين قاتلوا بتذمّر، ومكانته المتفوّقة سمحت له بالحصول على متعة الرفض، الفرصة الأولى جاءت في عام 1776م، واميرست رفضها، في يناير/كانون الثّاني عام 1778م اقتربت الفرصة ثانية، ولكن هذه المرة لم يُطلب منه أي شيء حتى، عيّنه الملك جورج الثّالث في الحقيقة قائداً عاماً في أمريكا، وطلب منه أن يسيطر على الحرب هناك، رفض اميرست الأمر المباشر للملك، وهدد بالاستقالة من مهمته، محاولات إقناعه من أعضاء الحكومة أثبتت على السواء أنها عقيمة.

أما لدى اميرست وهاو، وأغلب القادة البريطانيين الآخرين، وكذلك معظم عامّة الشعب البريطاني، فقد جرى عدّ حرب الاستقلال الأمريكية حرباً أهلية، في الواقع وجدوا أن هزيمتهم لم تكن سوى هزيمة أمام خصوم ليسوا إلا من الأشقاء الانكليز الذين لم تكن الرابطة بهم فقط رابطة اللغة والتراث والعادات والتقاليد، بل هي أيضاً في الكثير من الحالات روابط عائلية فعلية، ولكن كان هناك ما هو أكبر من ذلك، كانت الماسونية في القرن الثامن عشر في بريطانيا شبكة تتخلّل كلّ المجتمع كما رأينا، وخصوصاً الفئات المتعلّمة، المهنيين والموظفين الحكوميين والمديرين والمثقفين، إنهم الرجال الذين شكّلوا وحددوا الرأي العام، لقد أحدث أيضاً مناخاً نفسياً وثقافياً عامّاً، جوّاً امتلأ بالعقلية المعاصرة، كان ذلك حقيقياً، خصوصاً في الجيش، حيث المحافل العسكرية شكّلت بناء متماسكاً شدّ الجنود إلى وحداتهم وقادتهم وبعضهم، كان ذلك حقيقياً على درجة أكبر بين «الجنود العاديين» الذين افتقروا إلى الروابط المنغلقة والعائلية التي كانت تحصل بين صفوف الضباط، في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية، أغلب أفراد الجيش المشاركين من القادة والجنود من كلا الجانبين كانوا إمّا ماسونيين بأنفسهم وإما حافلين بالمواقف والقيم الماسونية، الانتشار المطلق للمحافل العسكرية ضَمن أنّه حتى غير الماسونيين كانوا مطلعين على نحو دائم على المثل العليا للمنظمة، لا إخفاء أن الكثير من تلك المثل العليا كانت مجسّدة لما كان المستعمرون يكافحون من أجله، المبادئ التي أعلنها المستعمرون، وبعد ذلك كافحوا من أجل الاستقلال كانت ماسونية، ربما على سبيل المصادفة، ولكنها كانت واسعة الانتشار، وهكذا للقيادة البريطانية العليا وكذلك للجنود، لم تكن الحرب فقط مع الزملاء الانكليز، بل كانت أيضاً مع الإخوة الماسونيين، في هذه الظروف كان صعباً في أغلب الأحيان أن تكون الحرب عديمة الرحمة، هذا طبعاً ليس مقترحاً أن القادة البريطانيين كانوا متهمين بالخيانة، هم في النهاية كانوا جنوداً محترفين ومستعدين لأداء واجبهم أياً كان تردّدهم، لكنّهم حاولوا جاهدين تقييد واجباتهم ضمن أصغر مجال ممكن، ومن ثم لا يقومون بأكثر مما تمليه عليهم واجباتهم.

من سوء الحظ ليس هناك مخطوطات أو قوائم عضوية أو غير ذلك لتوثيق حاسم للماسونيين بين أفراد القيادة العليا البريطانية، عادة، كان معظم العساكر أولاً أعضاء في المحافل الميدانية، وهذه المحافل كانت متهاونة جداً في الاحتفاظ بالسجلات أو في تقديم هذه السجلات عند الضرورة إلى محفلها الأصل، ما إن يجري ترخيص أو كفالة المحفل الميداني حتى يقوم بقطع الاتصال بالهيئة التي تبنّته عادة، هذا كان يحصل فعلاً مع المحافل التي كفلها المحفل الإيرلندي الكبير الذي كانت لديه مشكلات كبيرة في سجلاته، والمحفل الإيرلندي الكبير هو الذي كفل أغلب المحافل الميدانية القديمة كما رأينا، وفي بعض الحالات أيضاً تقوم المحافل الميدانية بكفالة محافل ميدانية أخرى، والمحفل الأصلي لن يعلم بذلك أبداً، وعندما كانت الكتائب تُحلّ أو تُدمج كانت المحافل الميدانية تنزح أو تُعدّل أو تغير نفسها، أو تحصل على تفويضات جديدة أحياناً من هيئات مختلفة للتبنّي، حتى خارج الجيش كان التوثيق غالباً متفرقاً ومتفككاً بفظاعة، من المعلوم أن الإخوة الثلاثة لجورج الثالث مثلاً كانوا جميعاً من الماسونيين، أحدهم وهو دوق كامبرلاند أصبح في النهاية السيد الأعظم للمحفل الانجليزي الكبير، على أي حال تتحدث السجلات الموجودة فقط عن عضوية دوق غلوستر في 16 فبراير/شباط عام 1766م، وأما دوق يورك الذي كان في ذلك الوقت ماسونياً، ليس هناك أي إشارة عن زمان عضويته ومكانها أو من قام بها، مع أن أحد المؤرخين يقول على نحو ضعيف إنّه أُدخل في العضوية في خارج البلاد[1]، إن كانت المعلومات في حالة أمير ملكي معلومات عشوائية وغريبة، فلا شك أنها كذلك في حالة القادة العسكريين، ولكن على درجة أكبر.

لذلك لا يدعو للاستغراب أنه من غير الممكن التحقق سواء كان هاو وكورنوالِس وكلنتن في الحقيقة من الماسونيين، على أي حال، هناك أسس وفيرة جداً لاستنتاج أنهم كانوا كذلك، من الكتائب الأربع التي خدم فيها هاو قبل أن يصبح ضابطاً عاماً، كان هناك ثلاث تحتوي على محافل ميدانية، وكونه كولونيلاً كان يمكنه التغاضي عن نشاطاتها، هذا إن لم يكن يترأسها أساساً، علاوة على ذلك خدم هاو بإمرة وولف واميرست في الجيش الذي كانت تنتشر فيه الماسونية كما رأينا، في أثناء حرب الاستقلال الأمريكية تلتقي بياناته ومواقفه تماماً مع تلك الصادرة عن ماسونيين معروفين، ومن

1ـ بعض المراجع تقول إن الشقيق الملكي الثالث «دوق كامبرلاند» أُدخل في العضوية في 6 شباط عام 1767م، المؤلفان.

الكتائب الإحدى والثلاثين التي تحت قيادته في أمريكا الشمالية كان تسع وعشرون منها تمتلك محافل ميدانية، وحتى إن لم يكن هاو نفسه ماسونياً، لم يكن يقدر إلا أن يتشرّب شيئاً ما من تأثير الماسونية.

مثل ذلك ينطبق على كورنوالِس الذي تميز بعلاقة وثيقة جداً بهاو، كورنوالِس خدم في كتيبتين قبل أن يصبح ضابطاً عاماً وكان كولونيل أحدهما، كلتا الكتيبتين لم تمتلك محافل ميدانية، كما رأينا كان إدوارد الذي هو عمّ كورنوالِس، والذي أصبح لاحقاً برتبة قائد (فريق) حاكم نوفا سكوشا، وفي عام 1750م أسّس محفلاً هناك، وفي الحقيقة كانت عائلة كورنوالِس كاملة إحدى أبرز العائلات في الماسونية الانجليزية في أثناء القرنين الثامن والتاسع عشر.

في حالة كلنتن الأدلة أكثر غموضاً، قبل أن يصبح ضابطاً عاماً هو لم يخدم في الكتائب المقاتلة، بل في الحرّاس الذين لم يمتلكوا محافل ميدانية حتى وقت لاحق، من الناحية الأخرى في أثناء حرب السنوات السبع هو كان معاوناً لفيردناند الذي كان دوق برونسويك وأحد أكثر الماسونيين النشيطين والمؤثرين في العصر، فيردناند حصل على العضوية في برلين عام 1740م، في عام 1770م أصبح السيد الأعظم الإقليمي لدوقية برونسويك برعاية المحفل الانجليزي الكبير، بعد سنة انضمّ إلى منظمة «الالتزام الصارم»، في عام 1776م شارك في تأسيس محفل رفيع المستوى في هامبورغ مع الأمير كارل أمير هيس، في عام 1782م حرّض على تأسيس دير وِلهلمسباد الذي هو الكونجرس الرئيس لكلّ الماسونية الأوروبية، كلنتن لكونه الضابط المرافق لفيردناند فإنه بما لاشكّ فيه كان مطّلعاً على الماسونية وتعاليمها، علاوة على ذلك هناك سجل عن احتفالية بـ «يوم القديس يوحنا»، أجراها زعيم وإخوة المحفل ذي الرقم 210 في 25 يونيو/حزيران عام 1781م، بينما كان الجيش البريطاني يحتل نيويورك، طبقاً لهذا السجل شُربت الأنخاب:

إلى الملك والمهنة،

وإلى الملكة، وزوجات الماسونيين

والسّير هنري كلنتن، وكلّ الماسونيين الموالين

والأميرال اربثنوت، وكلّ الماسونيين المتألمين

والجنرالات نيفوزِن (Knyphausen) وريدَزيل (Reidesel)، والإخوة الزائرين

واللوردات كورنوالِس ورودُن، والأخوية القديمة.

وهكذا فإن الماسونية تخلّلت الجيش البريطاني، وكـذلك المـستعمرات الثـائرة، عـلى أي حـال يجـب التشديد في هذه الفكرة على أن الأدلة اللاحقة لا تشهد على أيّ نوع من «مؤامرة ماسونية» متماسكة أو منظّمة، معظم مؤرخي حرب الاسـتقلال الأمريكيـة ينحـازون إلى أحـد المعـسكرين عنـدما يتعلـق الأمـر بالماسونية، بعض الكتّاب الثانويين مثلاً سعوا إلى تصوير الحرب، كأنها على نحو خـاص «حـدث ماسـوني»، حركة مدبّرة ومنظّمة نفذتها عصابات الماسونيين وفق بعض الخطط الكبيرة المدبّرة بإحكام، كتّاب كهـؤلاء سوف يذكرون غالباً قوائم طويلة من الماسونيين التي تثبت أنها قوائم لا تستحق الذكر، وعلى نحو مؤكـد هناك الكثير من هذه القوائم، من الناحية الأخرى أكـثر المـؤرخين التقليـديين يتملـصون كليـاً مـن الـسمة الماسونية للنزاع، فلاسفة مثل هيوم، لوك، آدم سميث والفلاسفة الفرنسيون يجـري الاستـشهاد بهـم عـلى نحو كاف، ولكن جرى إهمال البيئة الماسونية التي مهّدت الطريق لهؤلاء المفكّرين، والتي عملت كالرحم الذي غذّى عقولهم، والذي منح أفكارهم ذلك التيار الشعبي.

في الحقيقة لم تكن هناك مؤامرة ماسونية، من بين الـستّة والخمـسين الـذين وقّعـوا عـلى وثيقـة الاستقلال هناك فقط تسعة من المؤكد أنهم كانوا ماسونيين، بيـنما هنـاك عـشرة آخـرون مـن الممكـن أنهم كانوا كذلك، وفقاً للوثائق من بين الضبّاط العامّين في الجيش الأوروبي، كان هنـاك ثلاثـة وثلاثـون ماسونياً من أصل أربعة وسبعين، من المؤكد أن الماسونيين البارزين كـانوا أكـثر فعاليـة في تـشكيل سـير الأحداث من زملائهم غير التابعين لهم، لكن مـع ذلـك هـم لم يقومـوا بتنفيـذ أي خطـة كبـيرة مـدبّرة سابقاً، ربما كان مستحيلاً لهم أن يقومـوا بـذلك، الحركـة التـي توّجـت بالاسـتقلال الأمـريكي كانـت في الواقع ممارسة ارتجالية دائمة وراسخة، أي «سيطرة على الوضـع الأمنـي والـضرر»، كـما تُـسمى اليـوم، ذلك الأمر الواقع وغير المتوقّع كان واجباً مواجهتـه وقبولـه واحتـواؤه وتوجيهـه خطـوة خطـوة إلى أن يفرض الأمـر الواقـع القـادم سلـسلة جديـدة مـن التكيّفـات والتعـديلات المرتجلـة، في هـذه العمليـة توجّهت الماسونية إجمالاً إلى العمل قوة معدّلة ومقيدة، على سبيل المثال في عام 1775م كان عـدد مـن المقاتلين الراديكاليين يشعلون الفتنة لقطع تام للعلاقات ببريطانيا، على أي حال كـان الجـنرال الماسـوني جوزيف وارن الذي كان لاحقاً قائداً في القوّات الاستعمارية في تلّ بـونكير (بـونكير هيـل)، كـان يـصدر بيانات سبقت تلك البيانات التـي ينـادي بهـا اليـوم «وحـدويو إيرلنـدا الـشمالية» (Ulster Unionists)، مفادها أنه يتحدّى البرلمان، لكنه لا يزال موالياً للتاج، تمسكت واشـنطن تماماً بـالموقف نفـسه، وعـلى نحـو متـأخر حتـى كـانون الأول عـام 1777م، أي بعـد سـنة مـن وثيقـة الاسـتقلال، فـرانكلين كـان

مستعداً للتخلي عن كل أفكار الاستقلال، إن جرت تلبية الشكاوى التي عجلت حدوث الحرب[1]، لذلك من الحماقة التحدث عن «المؤامرات الماسونية» كأنها أسقطت الماسونية إجمالاً، في النهاية أثبتت تيارات الفكر التي نشرتها الماسونية أنها أكثر أهمية وانتشاراً من الماسونية نفسها، الجمهورية التي نتجت من الحرب لم تكن بأيّ معنى دقيق «جمهورية ماسونية»، أي لم تكن جمهورية أسسها الماسونيون للماسونيين وفق المثل العليا الماسونية، لكنّها جسّدت تلك القيم، وتأثّرت على نحو كبير بتلك القيم، وتدين لتلك القيم على نحو أكبر كثيراً مما هو معروف أو مُدرَك، كما كتب أحد المؤرخين الماسونيين:

... الماسونية مارست في تأسيس هذه الحكومة (الأمريكية) وتطويرها تأثيراً أعظم كثيراً من أي مؤسسة وحيدة أخرى، لا المؤرخون العامّون ولا أعضاء الأخوية منذ أيام الاتفاقيات الدستورية الأولى أدركوا كم تدين الولايات المتحدة الأمريكية للماسونية، وكم هو عظيم الدور الذي أدته في ولادة الأمة وفي تأسيس معالم تلك الحضارة.

1ـ في وثائق وليام ايدن لورد أوكلاند الذي أدار شبكة التجسس لجورج الثالث هناك تقرير عن وكيل انجليزي هو النّقيب هينسون يذكر: «... سوف تُفاجأ لسماع الدّكتور فرانكلين يقول إنه حينما تظهر بريطانيا العظمى ترتيبات للسلام فإنه سيكون الأول للتخلّي عن هذا الاستقلال، يقول إن السّيد دين له الرأي نفسه، لكن الدكتور فرانكلين قال إنّه يعلم أنهم لم يفكروا في السلام، كما يقول إن السّيد «لي» عاش في مقام أعلى من أي وقت مضى إطلاقاً، وإنه يتسم بالغرور الكبير، كان عنده الكثير من الفخر، كما يبدو أنه يتمنّى الاستمرار مثلما كان، لذلك فإنه الوحيد المعارض للتخلّي عن الاستقلال، لكنه أعلن أنه سيجري الاستسلام فوراً إن عرضت انجلترا ترتيبات السلام (الرسالة في 10 ديسمبر/كانون الأول عام 1777م، في المكتبة البريطانية)، المؤلفان.

القسم السابع عشر

مقاومة بريطانيا

الشكل «التقليدي» أو «الرسمي» للماسونية الانجليزية عرض على الأغلب درجات «الحرفة» الثلاث الأولى فقط كما جسده المحفل الكبير، ما تُسمى «الدرجات العليا» كانت في البدء مفردة للماسونية الجيمسية الأقدم، بعد تمرد عام 1745م لم تنقرض ماسونية «الدرجات العليا»، بل فقدت خاصيتها الجيمسية وتوجّهها السياسي ببساطة، ولكنها واصلت العمل، بعد أن تطهّرت من أعضائها الستيوارتيين، لم يعد المحفل الكبير يشعر بأنها هدّامة، ومن ثم بدأ هذا المحفل بالاعتراف الرسمي بـ «الدرجات العليا» ولو بتذمّر، لدى الرجال الانجليز المستقيمين والمخلصين والمهتمين بالشؤون المدنية، وخلال الدراسة التخصّصية، سرعان ما أصبح السعي لهذه «الدرجات العليا» جديراً بالاحترام، درجات مثل «درجة مارك» (Mark Degree) أو «فن العمارة الملكي» (Royal Arch) أو «ملاح السفينة الملكي» (Royal Ark Mariner)، لقد قاموا بذلك برعاية متنوعة، بما فيها رعاية المحفل الإيرلندي الكبير والمحفل الاسكتلندي الكبير ونظام «الالتزام الصارم» الذي أنشأه البارون فون هوند كما رأينا، ووفقاً للسجلات العامة هوند هو أول من ادعى انتماء الماسونية إلى فرسان الهيكل.

قبل حرب السنوات السبع أو الحرب الفرنسية الهندية كان معظم الماسونيين في أمريكا الشمالية موالين تقليدياً للهانوفريّين، ويضمنهم المحفل الكبير، في أثناء حرب السنوات السبع زرعت ماسونية «الدرجة العليا» وبوساطة المحافل العسكرية نفسها على نطاق واسع في المستعمرات الأمريكية، وتجذّرت سريعاً، بوسطن التربة التي انبثقت منها الثورة الأمريكية جسدت عملية الزرع والاحتكاك الذي نشأ منه أحياناً.

محفل سانت أندرو[1] في بوسطن

بدأت الماسونية في ماساشوستس عام 1733م، عندما أصبح هنري برايس وفقاً لسلطة المحفل الانكليزي الكبير السيد الأعظم في ماساشوستس للمحفل الإقليمي الكبير محفل «القدّيس يوحنا»، كان نائبه أندرو بيلشير ابن الحاكم الإقليمي كما رأينا، في عام

1ـ سانت أندروز تعني القديس أَنْدَرَاوُسُ، وهو أحد الحواريين الاثني عشر الذين رافقوا السيد المسيح، ولكن للسهولة سأورده اسم علم، أي كما يُلفظ، أي «سانت أندروز»، واسم «القديس يوحنا» الذي ورد كثيراً هو أصلاً «سانت جون» ولكني آثرت ذكر كلتا الحالتين على نحو مختلف مع أن إحدى الحالتين خاطئة، وهي «القديس يوحنا»، فكما نعلم أسماء العلم تُذكر كما تُلفظ، أي «سانت جون»، المترجم.

1750م كان هناك محفلان آخران مقرّهما في بوسطن، هذان المحفلان والمحفل الأصلي «القدّيس يوحنا» اجتمعوا في حانة تُدعى «Bunch of Grapes»[1]، في تقاطع شارعين يُطلق عليهما اليوم «ستيت» و«كيلبي»، والكتائب البريطانية التي تمتلك ضمانات من المحفل الكبير كانت تجتمع أيضاً في المبنى، بعد ذلك وضع محفل القدّيس يوحنا أكثر من أربعين محفلاً في رعايته، في هذه الأثناء في عام 1743م قام المحفل الانكليزي الكبير بتعيين أحد تجار بوسطن المميزين وهو يدعى توماس أوكسنارد، ليكون السيد الإقليمي الأعظم لأمريكا الشمالية، وهكذا أصبحت بوسطن في الواقع العاصمة الماسونية للمستعمرات البريطانية عبر الأطلسي.

لكن في عام 1752م وجد أن محفلاً «غير شرعي»، أي لا يمتلك تفويضاً رسمياً، كان يعمل في حانة أخرى تدعى (Green Dragon) «التنين الأخضر»، وجرى تبديل اسمها في عام 1764م، ليصبح «قاعة الماسونيين»، عندما اشتكى أعضاء محفل القدّيس يوحنا الذين شعروا بالإهانة، تقدّم ذلك المحفل المخالِف بطلب ليحصل على تفويض خاص به ليس من المحفل الانكليزي الكبير، بل من المحفل الاسكتلندي الكبير الذي كان يمنح «الدرجات العليا» على أي حال، التفويض لم يأت حتى عام 1756م أي عندما بدأت القوّات البريطانية ومحافل كتائبها الميدانية المجازة من كلا المحفلين الكبيرين الإيرلندي والاسكتلندي بالوصول إلى أمريكا، عند ذلك جرت إجازة المحفل «غير الشرعي» باسم «سانت أندرو»، سرعان ما بدأ هذا المحفل نفسه برعاية المحافل الجديدة على أي حال، وبذلك يعيّن نفسه في منزلة المحفل الإقليمي الكبير، في سلطة المحفل الاسكتلندي الكبير، وهكذا كان هناك محفلان إقليميان عظيمان متنافسان في بوسطن، محفل القدّيس يوحنا الذي يدعمه المحفل الانكليزي الكبير، ومحفل سانت أندرو الذي تدعمه اسكتلندا، لا يدعو للاستغراب أن الأمور بدأت بالتوتر والتفاقم، وتطورت حالة من «نحن وهم»، تلتها حرب أهلية مصغّرة تتعلق بالإهانة الماسونية، محفل القدّيس يوحنا نظر باستنكار إلى محفل سانت أندرو، وبغضب حقود صادق مراراً وتكراراً على قرارات ضدّه، ومهما كانت النتائج تلك القرارات لم تؤد إلى أي تأثير، وتابع محفل القدّيس يوحنا امتعاضه، وقام على نحو وقح بمنع أعضائه من زيارة محفل سانت أندرو، في مشاجرات من هذا النوع أهدر بعض مواطني بوسطن الأسمى مكانة الكثير من الوقت والطاقة والمشاعر.

محفل سانت أندرو أهمل الإنكار الذي يُشن ضدّه، واستمر في عقد الاجتماعات وكسب المجنّدين، وفي الحقيقة كان يسرقهم أحياناً من محفل القدّيس يوحنا، أو محفل

1ـ معنى هذا الاسم هو «عنقود العنب»، المترجم.

سانت جون، وفي 28 أغسطس/آب عام 1769م مَنَح محفل سانت أندرو درجة ماسونية جديدة، تُدعى على نحو محدّد «درجة فارس الهيكل»[1]، ومن غير الواضح من أين جاءت تماماً هذه الدرجة، مع عدم وجود أي توثيق جازم للموضوع، يُظن أنها جُلبت إلى بوسطن بوساطة فوج المشاة التاسع والعشرين الذي أصبح لاحقاً الفوج الأول في فوج وسترشير[2] الذي كان محفله الميداني في كفالة المحفل الإيرلندي الكبير قبل عشر سنوات من ذلك، أقدم إشارة معروفة عن هذه الدرجة كانت في القوانين الداخلية لمحفل «ستيرلنج القديم» في عام 1745م، في كل الأحوال بدأ الانتساب إلى فرسان الهيكل الذي ادّعاه الجيمسيون، والذي أعلنه هوند في تلك الأثناء بكسب مشايعين لمناسك أبعد من مناسكهم الخاصة.

لكن منح درجة «فارس الهيكل» التي عُرفت أول مرة لم تكن العلامة الفارقة الوحيدة التي ادّعاها محفل سانت أندرو، في عام 1773م تولى المحفل موقعاً في طليعة الأحداث التي كانت تتصاعد بسرعة آنذاك، في ذلك الوقت كان سيده الأعظم جوزيف وارن الذي عيّنه المحفل الاسكتلندي الكبير ليكون السيد الأعظم لكلّ أمريكا الشمالية، من بين الأعضاء الآخرين في المحفل كان جون هانكوك وبول ريفير. [3]

قبل ثماني سنوات تقريباً من عام 1773م حصل احتكاك بين بريطانيا ومستعمراتها الأمريكية استأنف أبعاداً مشؤومة جداً، بريطانيا التي أفلست عملياً من حرب السنوات السبع أرادت إعادة ملء خزانتها على نفقة المستعمرات، وذلك بفرض سلسلة من إجراءات الضرائب الصارمة التي لم يسبق لها مثيل، تلك القرارات أثارت على نحو طبيعي مقاومة ومعارضة غاضبة جديدة في المستعمرات، في عام 1769م قام الماسونيان المزعومان باتريك هنري وريتشارد هنري لي بتحريض مجلس النواب في فرجينيا على إدانة الحكومة البريطانية رسمياً، ومن ثم جرى حله من الحاكم الإقليمي، في عام 1770م حصلت «مذبحة بوسطن الشهيرة» التي قام فيها حارس بريطاني وزملاؤه بفتح النار على حشد أحاط بهم من الأعداء، وقتلوا خمسة أشخاص، في عام 1771م كان

1ـ أحد الكتب يذكر أنّ المحفل ذا الرقم 296 في سجلّ المحفل الإيرلندي الكبير جرت ضمانته في عام 1758م، كما يُذكر أن درجة «فارس الهيكل» وردت ضمن قوانينه الداخلية التي من سوء الحظ لم يُذكر تاريخها، من الممكن أن هذه الدرجة وُجدت في عام 1758م تقريباً، المحفل لم يعد مستخدماً في عام 1791م، المؤلفان.

2ـ نسبة إلى وسترشير (Worcestershire)، مقاطعة في غرب وسط انجلترا، المترجم.

3ـ قائمة كاملة لأعضاء محفل سانت أندرو من عام 1756م وحتى عام 1906م يمكن العثور عليها في كتاب «الذكرى المئة والخمسون لمحفل القديس أندرو»، بول ريفير حصل على العضوية في 4 سبتمبر/أيلول عام 1760م، جون هانكوك حصل على عضويته في كوبك قبل عام 1762م، المؤلفان.

ضرورياً قمع انتفاضة كارولاينا الشّمالية باستخدام الجيش، وجرى إعدام ثلاثة عشر ثائراً بتهمة الخيانة، في عام 1772م قام الماسونيان البارزان جون براون وإبراهيم ويبل بمهاجمة سفينة شحن عند جزيرة رود وأحرقاها.

وصلت الأحداث إلى ذروتها مع صدور قانون الشاي، حيث جرى إقراره لإنقاذ شركة الهند الشرقية من الإفلاس، استناداً إلى هذا القانون أصبحت شركة الهند الشرقية مخوّلة بإفراغ معظم حمولتها الفائضة من الشاي في المستعمرات وبلا ضريبة، هذا مكّنها من البيع أرخص من تجار الشاي القانونيين والمهربين كذلك، وبذلك جرى احتكارها لتجارة الشاي، في الواقع أُجبر المستعمرون على شراء شاي شركة الهند الشرقية فقط، وعلى نحو أكثر مما يحتاجون إليه أو يتطلبونه.

في 27 نوفمبر/تشرين الثّاني عام 1773م وصلت أوّل السفن التجارية الثلاث من شركة الهند الشرقية والتي تحمل اسم «دارتماث» إلى بوسطن، وهي محملة بشحنة هائلة من الشاي، في 29 و30 نوفمبر/تشرين الثّاني جرى عقد اجتماع احتجاجي كبير، ومن ثم لم تتمكن تلك السفينة من إفراغ حمولتها، وبقيت محاصرة في الميناء أكثر من أسبوعين، بعد ذلك في ليلة 16 ديسمبر/كانون الأول قامت مجموعة من المستعمرين، يقدّر عددهم على نحو متفاوت بين ستّين ومئتين على نحو أخرق واستفزازي بالتنكّر بزي الموهوك[1] ركبوا الباخرة، وأغرقوا حمولتها كاملة في ميناء بوسطن، 342 صندوقاً من الشاي، يقدر ثمنها بنحو 10,000 جنيه استرليني، هذا الحدث هو ما يُطلق عليه «حفلة شاي بوسطن الشهيرة»، كان ذلك مزحة مؤذية أكثر من كونه عملاً ثورياً، هذا العمل ذاته لم يتخلله أي عنف، كما لم يعجل عمليات العنف، لم يكن هناك أيّ إطلاق جدّي للنار مدة أربعة عشر شهراً بعد ذلك، مع ذلك تعدّ حفلة الشاي المؤشّر الفعلي لبداية حرب الاستقلال الأمريكية.

في فترة «حفلة الشاي» كان محفل سانت أندرو يجتمع بانتظام في المكان الذي كان يُدعى «الغرفة الطويلة» في «قاعة الماسونيين» التي كانت تُدعى سابقاً حانة «التنين الأخضر»، المحفل ومعظم أعضائه اشتركوا في هذه الغرفة مع العدد المتنامي بسرعة من الجمعيات السرية ذات التوجّه السياسي، ومع الجمعيات السرية شبه الماسونية المكرّسة لمعارضة التشريع الضريبي البريطاني، من بين المنظمات التي اجتمعت في «الغرفة الطويلة» كان هناك «نادي الغرفة الطويلة» الذي كان يضمّ جوزيف وارن السيد الأعظم لمحفل سانت أندرو، و«لجنة التوافق» التي ضمّت وارن وبول ريفير وزامنت المعارضة

1ـ الموهوك «Mohawk» قبيلة من هنود أمريكا الشماليّة الحمر، في وادي نهر الموهوك بولاية نيويورك، المترجم.

المحليّة مع المعارضة في المدن الأمريكية الأخرى مثل فيلادلفيا ونيويورك، و«المؤتمر التحضيري للطرف الشمالي» الذي ضمّ عدداً لا بأس به من الإخوة الماسونيين ممن فيهم وارن، وكان هناك منظمات أخرى أكثر نضالاً مثل «أبناء الحريّة»، ونواتها الداخلية التي كانت تُسمّى «التسعة المخلصون»، والتي دعت إلى العنف وأثارت الاضطرابات والمظاهرات والأنواع الأخرى من العصيان المدني منذ عام 1765م، أحد البارزين في منظمة «أبناء الحريّة» كان صموئيل أدامز الذي لم يُعرف عنه إن كان ماسونياً، كلتا منظمتي «أبناء الحريّة» لم تجتمع في «الغرفة الطويلة» في قاعة الماسونيين، مرة ثانية على أي حال اختلف أعضاؤها مع محفل سانت أندرو، بول ريفير مثلاً كان أحد النشطاء جداً في منظمة «أبناء الحريّة»، وعلى الأقل ثلاثة من «التسعة المخلصون» كانوا أيضاً من الإخوية الماسونية من محفل سانت أندرو[355].

إنّ سجل اجتماعات محفل سانت أندرو قبل «حفلة شاي بوسطن» مباشرة هو سجل حافل بالمعلومات، على سبيل المثال اجتمع المحفل في 30 نوفمبر/تشرين الثّاني عام 1773م، أي في اليوم الثاني من الاحتجاج الجماعي بعد وصول سفينة دارتماث، ولكن لم يحضر إلا سبعة أعضاء، طبقاً لمحضر الجلسة «هناك إشارة إلى تأجيل اجتماع المحفل إلى مساء الخميس التالي بسبب العدد القليل من الإخوة الحضور، مع الانتباه جيداً أن ناقلي الشاي شغلوا وقت الإخوة».

في الخميس المقرر في 2 ديسمبر/كانون الأول حضر إلى المحفل خمسة عشر عضواً وزائر واحد، وجرى انتخاب الضبّاط للسنة التالية، بعد أسبوع، أي في 9 ديسمبر/كانون الأول كان التاريخ المحدّد للاجتماع الشهري المنتظم، حيث حضر أربعة عشر عضواً وعشر زوّار، لكن جلسة العمل الرسمية أُجّلت حتى الأسبوع التالي في السادس عشر من ذلك الشهر، تلك الليلة كانت ليلة «حفلة شاي بوسطن»، حضر إلى المحفل خمسة أعضاء فقط، وقد دوّن تحت أسمائهم في محضر الجلسة: «يُغلق المحفل بسبب قلة الأعضاء الحضور حتى مساء الغد».

على نقيض بعض الادعاءات والأساطير اللاحقة لا يبدو أن «حفلة الشاي» كانت مدبّرة في محفل سانت أندرو، في الحقيقة يبدو أن من خططها هو صموئيل أدامز و«أبناء الحريّة»، لكن لا مجال للشك في أن هناك ما لا يقل عن اثني عشر من أعضاء المحفل

355ـ قائمة «التسعة المخلصون» كانت في كتاب غريسوولد (Griswold)، ثلاثة من أعضاء «التسعة المخلصون» كانوا أيضاً من أعضاء محفل القديس أندرو في بوسطن، وهم توماس تشيس الذي انضمّ عام 1767م، توماس كرافتس الذي انضمّ عام 1761م، هنري ويلس الذي انضمّ عام 1760م، المؤلفان.

اشتركوا في «الحفلة»، ليس ذلك وحسب، بل أصبح اثنا عشر آخرون أعضاء في محفل سانت أندرو بعد ذلك[1].

علاوة على ذلك لم تكن «حفلة الشاي» ممكنة الحدوث من دون تواطؤ فعال لاثنين من أفوج المقاومة الشعبية الاستعمارية اللذين يُفترض أنهما كانا يحرسان حمولة سفينة دارتماث، أحد هذين الرجلين كان قائد الفوج الأول إدوارد بروكتور الذي كان عضواً في محفل سانت أندرو منذ عام 1763م، كان ثلاثة من رجاله، ستيفن بروس وتوماس نوكس وبول ريفير أيضاً أعضاء في المحفل، وثلاثة آخرون كانوا أعضاء في منظمة «التسعة المخلصون»، في الفوج الثاني من المقاومة الشعبية كان هناك ثلاثة رجال آخرين من أعضاء محفل سانت أندرو، المجموع الكلي هو تسعة عشر عضواً من أصل ثمانية وأربعين في كتيبتي المقاومة الشعبية، وعُرف أنهم أعانوا على إغراق الشاي الذي كانت تحمله سفينة دارتماث، من بين هؤلاء التسعة عشر كان هناك ستّة بمن فيهم قائد الفوج من أعضاء محفل سانت أندرو وثلاثة آخرون كانوا أعضاء في منظمة «التسعة المخلصون»[2].

الجيش الأوروبي

في اليوم التالي بعد «حفلة الشاي» ذهب بول ريفير إلى نيويورك، حيث انتشرت أخبار الأحداث التي حصلت وانتقلت ببهجة بين المستعمرات الأخرى، عندما وصلت الأخبار إلى لندن بعد ثلاثة أشهر كانت ردّة الفعل سريعة وصارمة، جرى تشريع «قانون ميناء بوسطن» الذي حظر كلّ التجارة مع بوسطن، وجرى عملياً إغلاق الميناء، المدينة،

1ـ المؤلفان: لا وجود لأي قائمة جازمة للمشاركين في حفلة الشاي في بوسطن، تضمنت الحفلة أكثر من 200 شخص، أُجريت الدراسات على الوثائق العائلية، وفي عام 1835م قام سبعة من المشاركين الباقين على قيد الحياة بمساعدة جمع تلك القائمة، النتيجة كانت 110 أسماء، يمكننا أن نضيف إلى هذه قائمة أسماء «التسعة المخلصون» الذين كانوا مشاركين على نحو مؤكد. المشاركون في حفلة الشاي الذين كانوا أيضاً أعضاء في محفل القديس أندرو: ستيفن بروس، ماسوني منذ عام 1767م، توماس تشيس، ماسوني منذ عام 1767م، آدم كولسون، ماسوني منذ عام 1762م، توماس كرافتس، ماسوني منذ عام 1761م، جون هانكوك، ماسوني منذ عام 1762م، صموئيل بيك، ماسوني منذ عام 1756م، إدوارد بوكتور، ماسوني منذ عام 1763م، بول ريفير، ماسوني منذ عام 1760م، توماس يوران، ماسوني منذ عام 1760م، جوزيف وارن، ماسوني منذ عام 1761م، جوزيف ويب، ماسوني منذ عام 1760م، هنري ويلز، ماسوني منذ عام 1760م. المشاركون في حفلة الشاي الذين انضموا إلى محفل القديس أندرو لاحقاً: ديفيد برادلي، انضمّ عام 1777م، صموئيل كوبير، انضمّ عام 1795م، روبرت ديفيس، انضمّ عام 1777م، صموئيل غور، انضمّ عام 1778م. إبراهام هونت، انضمّ عام 1777م، دانيال انغيرسول، انضمّ عام 1782م، عاموس لينكولن، انضمّ عام 1777م، ايليفالِت نيول، انضمّ عام 1777م، هنري بوركت، انضمّ عام 1795م، وليام روسل، انضمّ عام 1777م، جيمس سوان، انضمّ عام 1777م، ناثانيل ويليس، انضمّ عام 1779م.

2 ـ قائمة أسماء الحراس في مساء 29 نوفمبر/تشرين الثّاني وصباح 30 نوفمبر/تشرين الثّاني من عام 1773 كانت في كتاب «غريسوولد»، الصفحة 144، كما جرت الإشارة إلى أولئك الذين شاركوا في أحداث 16 ديسمبر/كانون الأول عام 1773م، أحد الأعضاء في محفل القديس أندرو وفي كتيبة الحراسة الذي يُدعى توماس نوكس لا يبدو أنه قد اشترك في حفلة الشاي، المؤلفان.

وتوسعاً، كلّ ولاية ماساشوستس وقعت تحت سيطرة الإدارة المدنية، وخضعت لما يوازي الحكم العسكري، رجل عسكري يدعى الجنرال توماس غيج عُيّن حاكماً كماسوشوستس، بعد سنة، أي في عام 1775م حصل غيج على تعزيزات كبيرة من الجيش النظامي البريطاني بقيادة السّير وليام هاو.

بطء الاتصال عبر الأطلسي كان من شأنه عرقلة تطور الأحداث، لكنّها كانت في ذلك الوقت تأخذ زخمها الخاص، في 5 سبتمبر/أيلول عام 1774، جرى عقد أول اجتماع كونجرس قاري في فيلاديلفيا برئاسة بيتن راندولف الذي كان محامياً بارزاً والسيد الأعظم الإقليمي في فرجينيا، من بين مندوبي بوسطن كان صموئيل أدامز العضو في منظمة «أبناء الحريّة»، وكذلك بول ريفير، ولكن على نقيض التقاليد اللاحقة لم يكن هناك إجماع على وجهات النظر أو الأهداف، قلة من الممثلين في تلك المرحلة رغبوا، بل فكروا، في استقلال أمريكا، الإجراءات التي أقرها الكونجرس كانت اقتصادية جوهرياً، وليست سياسية، كانت أيضاً قرارات مؤقتة جداً، خليط من الخداع والبدائل المؤقتة لا أكثر، وهكذا مثلاً جرى تشكيل «الجمعية القارية» التي كانت اسمياً تشرف على وقف التجارة أو كبحها كلياً مع بريطانيا ومع بقيّة العالم، أي إغلاق الاقتصاد الاستعماري[1]، وجعله مكتفياً ذاتياً على نحو كليّ، خطة كهذه كان صعباً تنفيذها عملياً، ولكن يُتوقع أن إعلانها يؤدي على نحو قابل للتسويغ إلى تحريض البرلمان.

على أي حال كان رد البرلمان الذي كان على بُعد 3500 ميل والذي كان مقصراً في فهم حقائق الوضع الراهن أو غير مهتم لها، كان يستجيب دائماً بطريقة خاطئة وبإجراءات خاطئة، استمرت الحالة في التدهور، وعندما اجتمع كونجرس ماساشوستس الإقليمي في فبراير/شباط عام 1775م، أعلن خطة المقاومة المسلّحة، ردّ البرلمان بإعلان أن ماساشوستس في حالة تمرّد، وسط الخطابات اللاحقة الشديدة التحريض، قدم باتريك هنري في خطابه إلى جمعية فرجينيا الإقليمية البيان الشهير: «امنحني الحريّة، أو امنحني الموت».

لكن الأزمة كانت قد تجاوزت مجال الخطابات، بل حتى مجال العمل المدني أو الاقتصادي، في 18 أبريل/نيسان من عام 1775م جرى إرسال 700 جندي من القوّات البريطانية للاستيلاء على مستودع أسلحة المقاومة الشعبية في كونكورد خارج بوسطن،

1ـ الاستعمار يُقصد به أمريكا، كما رأينا يبدو أن هذا هو الاسم الأصلي لأمريكا، وليس لقباً لها، ومهما طال الزمن لا يمكن أن يستغني أحد عن اسمه، المترجم.

بول ريفير انطلق في جولته الشهيرة للتحذير من تقدّمهم، وجرت مواجهة تلك القوات في ليكسنغتن من سبعة وسبعين مستعمراً مسلّحاً، بعد ذلك حدثت مناوشات، «وسمع إطلاق النار في كل مكان»، وقُتل ثمانية مستعمرين وجُرح عشرة، الطابور البريطاني عندما كان في طريق عودته إلى بوسطن، ومعه الأسلحة المصادرة جرى اعتراضه من 4000 تقريباً من المستعمرين الرماة، وأوقعوا 273 إصابة بين قتيل وجريح، المستعمرون فقدوا تسعين شخصاً.

في 22 أبريل/نيسان عُقد اجتماع الكونجرس الإقليمي الثالث في ماساشوستس، وكان رئيسه جوزيف وارن السيد الأعظم للمحفل الاسكتلندي الكبير في أمريكا الشمالية، أقر وارن بتعبئة 30,000 رجل، في الوقت نفسه كتب في «خطابه إلى بريطانيا العظمى»:

لقد بدأت الاعتداءات على نحو تام في هذه المستعمرة من القوّات بقيادة الجنرال غيج، هؤلاء «الإخوة» هم إشارات إلى الثأر التنفيذي من هذه المستعمرة لرفضها وشقيقاتها المستعمرات الرضوخ للعبودية، لكنّهم حتى الآن لم يفصلونا عن مَلكنا، نصرّح بأن نكون رعاياه المخلصين والمطيعين، مع هذا نحن على نحو مألوف لن نخضع لاضطهاد مهمته الوحشية واستبداده.

أغلب غير الماسونيين ضمن صفوف المستعمرين المتحدّين، رجال مثل جون وصموئيل أدامز، كانوا يطالبون بإجراءات أكثر ثورية، على أي حال جسد وارن في إعلان ولائه المستمر للتاج، إن لم يكن للبرلمان كما لاحظنا، موقف معظم الماسونيين، هذا كان الموقف السائد عندما جرى عقد اجتماع الكونجرس القاري الثاني في 10 مايو/أيار عام 1775م الذي كان أولاً برئاسة بيتن راندولف، وبعد وفاته أصبح برئاسة جون هانكوك من محفل سانت أندرو، وفي ذلك الاجتماع أُقرّ تشكيل جيش كامل، عُيّن جورج واشنطن قائداً عاماً، حيث كان آنذاك ماسونياً بارزاً في محفل فرجينيا الكبير الذي كان يترأسه راندولف، مؤرخ واحد على الأقل يقترح أنّ تعيين جورج واشنطن في ذلك المنصب عائد لارتباطاته بالماسونية الحرة، على نحو مؤكد كان هناك رجال يتميزون بخبرة عسكرية أكبر، مع أنهم عملياً كانوا جميعاً ماسونيين أيضاً، في الحقيقة في أثناء الأيام الأولى من الحرب القيادة العليا للجيش القاري كان يسيطر عليها الماسونيون، ويجب النظر إلى بعضهم من سيرهم الذاتية ولو سريعاً.

من بين أولئك الذين جرى تعيينهم قائداً أعلى في منصب جورج واشنطن كان الجنرال ريتشارد مونتغومري، مونتغومري ولد في إيرلندا قرب دبلن، في أثناء الحرب الفرنسية الهندية عمل ضابطاً نظامياً في الجيش البريطاني بقيادة اميرست، في حصار

لويسبرغ كان في فوج المشاة السابع عشر الذي أصبح بعد ذلك يحمل اسـم «فـوج ليـستيرشاير»، والـذي كان يشكّل جزءاً من لواء وولف، مونتغومري استقر في المستعمرات بعد الحرب، وتزوّج ابنة «روبـرت آر. ليفنغستن» الذي كان في عام 1784م السيد الأعظم للمحفل الإقليمي الكبـير في نيويـورك، والـذي أشرف في عـام 1789م عـلى القَـسَم الـذي جعـل واشـنطن الـرئيس الأول للولايـات المتحـدة الأمريكيـة، يُظـن أن مونتغومري أُدخل في عضوية المحفل الميداني لفوج المشاة السابع عشر في أثناء حملة لويسبرغ، عـلى نحـو مؤكد كانت مكانته الماسونية مشهورة بين معاصريه، عندما تُشرب الأنخاب الماسونية يُذكر باستمرار ثلاثة أسماء هي «وارن، مونتغومري وووستر!»، تجري تحية الإخوة الثلاثة البارزين الذين كانوا من بين الأوائـل الذين ماتوا في النزاع.

في أثناء الحرب الفرنسية الهندية كان الجنرال ديفيد ووستر كولونيلاً (عقيد)، ثم أصبح عميداً، خدم بقيادة اميرست في لويسبرغ، ويظن أنه انضمّ هناك إلى المحفل الميداني العسكري مع اللّورد بليني الذي أصبح بعد ذلك السيد الأعظم للمحفل الانجليزي الكبير في عام 1750م تقريباً، ووستر نظّم «محفل حيرام الأول» (Hiram Lodge No. 1) في نيو هافِن[1]، وأصبح سيده الأول.

الجنرال هيو ميرسر عمل مرافقاً جرّاحاً في الجيش الجيمسي الثائر لتشارلز إدوارد ستيوارت، بعد كولودين هرب إلى فيلاديلفيا، حيث خدم بعد عشر سنوات بإمرة برادوك، وجُرح في حصن دُكين، بعد عام كان عضواً في الفوج الستّين الماسوني المتشدد، عندما أُعيد بناء حصن دُكين مثل حصن بِت جرى تنصيب ميرسر ليكون قائداً عليه برتبة العقيد، ولكونه ماسونياً عتيقاً كان عضواً في محفل فريدركسبرغ، كما كان واشنطن.

الجنرال آرثر سانت كلير وُلد في كيثنِس، وكان منحدراً من سـلالة السّير وليـام سـينكلير الـذي بنـى مصلى روزلين، وكما فعل مونتغومري التحق سانت كلير بالجيش البريطاني، وخدم في فـوج المـشاة الـستّين في أثناء الفترة بين عامي 1756م-1757م، ثمّ خدم في لواء وولف في لويسبرغ بقيادة اميرست، بعد سنة كـان مع وولف في كوبك، في عـام 1762م تخـلى عـن مهمتـه واسـتقرّ في المـستعمرات، مـن المعـروف أنـه كـان ماسونياً، مع ذلك لم تنج أي تفاصيل من عضويته أو محفله.

الجنرال هوريشو غايتس خدم أيـضاً ضـابطاً نظاميـاً في الجـيش البريطـاني، كـما قاتـل أيـضاً بقيـادة اميرست في لويسبرغ، وكان أحد أصدقاء واشنطن الشخصيين المقرّبين، وتزوّج ابنة السيد الأعظم الإقليمـي في نوفا سكوشا، انتماءاته الماسونية الدقيقة مجهولة، لكن من المعروف أنـه كـان يرتـاد المحفـل الإقليمـي الكبير في ماساشوستس.

1ــ مدينة جنوب ولاية كونيكتيكت، المترجم.

الجنرال إسرائيل خدم بوتنم بقيادة اللّورد جورج هاو، وكان معه عندما مات في الهجوم الأمامي الكارثي على حصن تيكوندروغا، بعد ذلك خدم بوتنم بقيادة اميرست، كان ماسونياً منذ عام 1758م، عندما انضمّ إلى المحفل الميداني في «كراون بوينت» بعد فترة قليلة من أسر اميرست للحصن.

ساهم الجنرال جون ستارك مع اللّورد جورج هاو في العصابة غير التقليدية المعروفة باسم «روجرز رينجرز» (Rogers' Rangers)، بعد ذلك كان مع هاو في تيكوندروغا، ومن ثمّ مع اميرست، ربما أصبح ماسونياً في ذلك الوقت، ولكن لا وجود لأدلة قاطعة عن انتسابه قبل عام 1778م.

هذه عينات مما يشبه في الواقع الابتهال، القائمة يمكن بسهولة أن تكون مطوّلة، الجنرال جون نيكسون كان مع اللّورد جورج هاو في تيكوندروغا، ثمّ مع اميرست في لويسبرغ، كما هو حال الجنرال جوزيف فراي، الجنرال وليام ماكسويل كان مع جورج هاو في تيكوندروغا، ثمّ مع وولف في كوبك، كما كان حال الجنرال إلياس ديتون، كلّهم كانوا ماسونيين.

رجل واحد هو الذي استاء بشدة من حصول واشنطن على منصبه، إلى درجة قادته في النهاية إلى الخيانة، ذلك الرجل هو بنديكت آرنولد، خدم آرنولد أيضاً بإمرة اميرست، ويُظن أنه أصبح ماسونياً في ذلك الوقت، في عام 1765م انضمّ إلى محفل حيرام الأوّل الذي أسسه ديفيد ووستر في مدينة نيو هافِن، صديق آرنولد العقيد إيثان ألين خدم مع جورج هاو في تيكوندروغا ثمّ مع اميرست، في يوليو/تموز عام 1777م حصل على الدرجة الابتدائية أو ما تُسمى «الصانع المبتدئ» من محفل في فيرمونت، ولكن لا يبدو أنه تقدم درجة أعلى[1].

1ـ المؤلف فان جوردن يذكر أن شقيق إيثان كان ماسونياً، فقد كان عضواً في محفل فيرمونت الأوّل، المؤلفان.

القسم الثامن عشر

الحرب من أجل الاستقلال

في اليوم نفسه الذي حصل فيه الاجتماع القاري الثاني للكونجرس شنّ إيثان ألين ومعه مساعده آرنولد هجوماً مفاجئاً على تيكوندروغا[1] التي كانت الحصن المتنازع عليه على نحو مرير جداً، قبل جيل من ذلك جرى أسر مخازن الأسلحة والذخيرة بما فيها المدفعية، بعد خمسة أسابيع أحبط المستعمرون الذين كانوا آنذاك يعملون سرّاً في أثناء الليل الخطط البريطانية في تحصين بوسطن، وذلك بنصب مواقعهم الخاصة على التلّين المطلّين على المدينة، تلّ بريد وتلّ بونكير، زعيمهم الاسمي كان العميد آرتيموس وارد الذي كان أحد المحاربين الآخرين في الحرب الفرنسية الهندية، ولكن القيادة التوجيهية كانت لجوزيف وارن من محفل سانت أندرو.

جرى إلقاء المسؤولية عما حصل لاحقاً على الجنرال توماس غيج، لكن المسؤولية الحقيقية توقّفت على السّير وليام هاو الذي كان القائد الميداني، عندما انكشفت الحقيقة الطبيعية للوضع يبدو أن هاو هو الذي كان مسؤولاً عن إحباط خطة المعركة أو الالتزام بها، وكذلك هو من كان مسؤولاً عن معاناة الكلفة التي كانت محتمة، وذلك لأن هاو تصرّف في الحقيقة على نحو غريب كونه تابعاً مخضرماً لوولف واميرست.

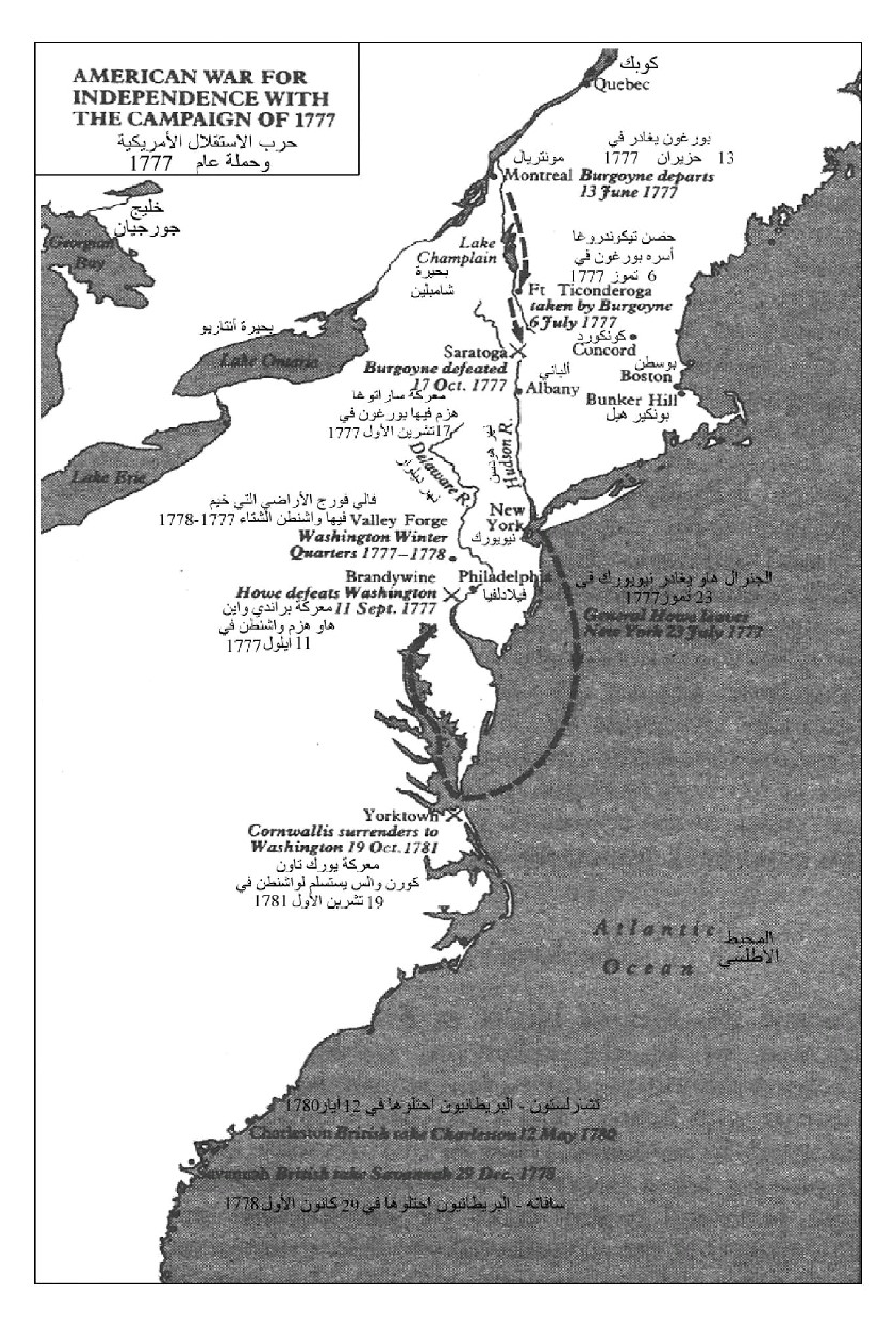
مع الحرارة الشديدة أمر هاو قوّاته بالتقدّم بصفوف متقاربة وبعتاد فردي ثقيل يزن أكثر من مئة باوند[2] لكلّ رجل، وتقدموا مباشرة إلى مرمى نيران المستعمرين من أجل احتلال مواقعهم بالعنف، أي بالحراب، نيران المستعمرين كانت تسقط بوابل متواصل جداً، كما تعلّموا من الجيش البريطاني في أثناء الحرب الفرنسية الهندية، ولكن تلك النيران بدأت تذوي، وجيش هاو احتاج إلى أربع هجمات متتالية لاحتلال الموقع، عندما حققوا ذلك، وبعد أن تجشموا أكثر من 200 ضحية ونحو 800 جريح من أصل 2500 رجل تقريباً، هاو وجنوده لم يتصرفوا بطريقة حسنة، قُتل وارن بحربة بريطانية، والذين كانوا معه ولم يهربوا، جرت إبادتهم عملياً، خسائر المستعمرين كانت أكثر من 400.

1ـ قرية في شمال شرق نيويورك، وهي موقع حصن تيكوندروغا الذي كان الحصن الاستراتيجي المهم في الحرب الفرنسية الهندية (1754مـ1763م) وفي الثورة الأمريكية (1775م-1783م)، المترجم.

2ـ الباوند رطل انكليزي، نحو 453 غراماً، المترجم.

معركة تلّ بونكير كانت مهمة، لأنها كانت المجابهة الرئيسة الأولى وجهاً لوجه بين المستعمرين والجيش النظامي البريطاني، كانت أيضاً المعركة الأولى الكاملة والشاملة في الحرب مقارنة بالمناوشات التي حصلت في ليكسنغتن وكونكورد، لكنّها كانت مهمة أيضاً استناداً إلى السلوك والتصرّف الفضولي الذي اتبعه هاو، يجب أن نتذكّر أن هاو تعلّم الوسائل غير التقليدية من أخيه الأكبر جورج ومن وولف واميرست، طوال مسيرته المهنية العسكرية قبل معركة تلّ بونكير وبعدها كان يتجنّب الهجوم المباشر الباهظ التكاليف ضدّ موقع محصّن، أي نوع الهجوم الذي في النهاية أودى بحياة أخيه الأكبر في معركة تيكوندروغا عام 1758م، في معركة تلّ بونكير كان يمتلك الكثير من الخطط البديلة المتاحة، ربما كان يمكنه إبعاد المستعمرين عن مواقعهم بنيران المدفعية، على نحو مؤكد كان يمكنه أن يمزق صفوفهم ويخرجهم من أماكنهم ويدفعهم للاستسلام نتيجة الجوع والعطش ونقص الذخيرة، وربما كان قادراً على أن ينشر مجموعات رماة القنابل اليدوية وكتائب المشاة الخفيفة وفقاً للطرق البارعة التي تعلّمها من وولف واميرست قبل عشرين سنة من ذلك، ووفقاً للطرق التي وزعهم بها في مناسبات لاحقة في الحرب، علاوة على ذلك بعد أن قاتل هاو إلى جانب القوّات الاستعمارية في أثناء الحرب الفرنسية الهندية كان يعرف مقدار القوة التي يمكن أن يتميز بها المستعمرون وعلى نحو أفضل من أيّ ضابط بريطاني آخر في بوسطن آنذاك، ومقدار التدريب النظامي والجيد الذي يمكنهم إظهاره في إطلاق النيران، وفقاً لتقنيات الجيش البريطاني ذاتها.

إن تصرف هاو بهذه الطريقة في معركة تلّ بونكير، وبعد أن أعرب مراراً وتكراراً عن تردّده في محاربة المستعمرين، يبدو تقريباً كأنّه يبعث رسالة إلى سادته في لندن: «هل تريدون مني أن أحارب؟، حسناً جداً، سوف أحارب، ولكن هذا ما سيكلّفكم، هذه هي الفوضى التي أوصلتمونا إليها، هل تريدون حقاً أن تستمرّوا في هذا الجنون؟».


AMERICAN WAR FOR INDEPENDENCE WITH THE CAMPAIGN OF 1777
حرب الاستقلال الأمريكية
وحملة عام 1777
كوبك
Quebec
بورغون يغادر في
13 حزيران 1777
مونتريال
Montreal Burgoyne departs 13 June 1777
خليج
جورجيان
Georgian Bay
Lake Champlain
بحيرة
شامبلين
حصن تيكونديروغا
أسره بورغون في
6 تموز 1777
Ft Ticonderoga taken by Burgoyne 6 July 1777
بحيرة أنتاريو
Lake Ontario
كونكورد
Concord
Saratoga
Burgoyne defeated 17 Oct. 1777
معركة ساراتوغا
هزم فيها بورغون في
17 تشرين الأول 1777
ألباني
Albany
بوسطن
Boston
Bunker Hill
بونكير هيل
Hudson R.
Delaware R.
Lake Erie
فالي فورج الأراضي التي خيم
فيها واشنطن الشتاء 1777-1778
Valley Forge
Washington Winter Quarters 1777–1778
New York
نيويورك
Brandywine
Philadelphia
فيلادلفيا
Howe defeats Washington 11 Sept. 1777
معركة براندي واين
هاو هزم واشنطن في
11 أيلول 1777
الجنرال هاو يغادر نيويورك في
23 تموز 1777
General Howe leaves New York 23 July 1777
Yorktown
Cornwallis surrenders to Washington 19 Oct. 1781
معركة يورك تاون
كورن والس يستسلم لواشنطن في
19 تشرين الأول 1781
Atlantic Ocean
المحيط
الأطلسي
تشارلستون - البريطانيون احتلوها في 12 أيار 1780
Charleston British take Charleston 12 May 1780
Savannah British take Savannah 29 Dec. 1778
سافانا - البريطانيون احتلوها في 29 كانون الأول 1778

هذا لم يكن تعبيراً ساخراً من هاو، ولم يكن أيضاً ببساطة تبذيراً طائشاً بألف رجل من أجل إيصال فكرته، على العكس كان هاو يعرف تماماً إلى أين يؤدي الطريق الذي سلكته بريطانيا، ولا بد من أنه كان يفكر بطريقة استراتيجية، وتفكيره بالطريقة الاستراتيجية ربما أوصله إلى استنتاج أن قيامه بالتضحية بألف رجل قد يوفر على بريطانيا خسارة أضعاف مضاعفة لذلك العدد في الاشتباكات المستقبلية.

ولكن حتى وإن كان هذا هو الدرس الذي أراد هاو إبلاغه للندن، فقد كان درساً غير ناجح، في الحقيقة ربّما ظن في بادئ الأمر أنّه حقق غايته، إلا أنه بُرئ شخصياً من الإصابات التي حصلت في معركة تلّ بونكير، جرى إلقاء اللوم على غيج، والجيش البريطاني أخلى بوسطن، وفي النتيجة وجد هاو نفسه في منصب ما كان يرغب في الحصول عليه، وهو منصب غيج، ومن ثم أُسر بمسؤوليات القائد العام، والتزام مواصلة العمليات ضدّ المستعمرين، من المتوقع أنه لن يضحي بقوّاته ثانية كما حصل في تلّ بونكير، ولكن على العكس لقد كرر ذلك مراراً في الحملات اللاحقة، وخرج عن طوره في إنقاذ حياة رجاله أو حياة أولئك المستعمرين، لكن سلوكه أصبح أكثر ريبة وأكثر غموضاً.

شبكة التجسس البريطانية

مع فقدان الأرواح في معركة تلّ بونكير، أو ربما بسببها، كان المستعمرون لا يزالون راغبين بتفادي مواجهة شاملة متفجرة مع البريطانيين، وذلك بتوجيه كبير من الماسونيين بينهم، في الخامس من يوليو/تموز تبنّى الكونجرس القاري عريضة أُرسلت إلى جورج الثالث سُميت «عريضة غصن الزيتون»، تدعو إلى تسوية سلمية للنزاعات، وفي اليوم التالي جرى تبني قرار آخر أيضاً، أُعلن فيه أنّ المستعمرات لا ترغب في الاستقلال، لكنها «ترفض العبودية»، على أي حال في 23 أغسطس/آب جرى باختصار رفض «عريضة غصن الزيتون»، وأعلن الملك أن المستعمرات البريطانية في أمريكا الشمالية هي في حالة تمرّد مفتوح، وهكذا اتخذت الأحداث زخماً خاصاً، وتصاعدت لما هو أبعد مما توقعته كلّ الفئات الرئيسة أو رغبت فيه.

في 9 نوفمبر/تشرين الثّاني جرى تعيين لجنة خاصّة، تُسمى «لجنة الكونجرس للمراسلة السرية»، وذلك لتأسيس شبكة من الاتصالات بين «أصدقائنا في الخارج»، هذه اللجنة ضمت روبرت موريس، وجون جاي، وبنجامين هاريسن، وجون ديكنسن، وبنجامين فرانكلين، كان عليها العمل على نطاق واسع ضمن القنوات الماسونية، وخلق شبكة جاسوسية متقنة، في الوقت ذاته عليها أن تتوافق مع شبكة تجسس بريطانية، كانت

موازية، وتعمل أيضاً خلال القنوات الماسونية، كلتا الشبكتين كان مقرها الأولي في باريس التي أصبحت مركز شبكة واسعة من التجسس والإثارات وجذب الأنصار.

كان فرانكلين ماسونياً قديماً كما رأينا ، حيث انضم قبل نصف قرن من ذلك تقريباً، أي في عام 1731م، كان السيد الأعظم في بينسلفانيا في عام 1734م، ومرة أخرى في عام 1749م، في عام 1756م أُدخل الجمعية الملكية، حيث كان في ذلك الوقت موالياً بشدة للماسونية، بين عامي 1757م و1762م، وثانية بين عامي 1764م و1775م أمضى الكثير من الوقت في الخارج، في انجلترا وفرنسا، في عام 1776م عندما أصبح النزاع في المستعمرات حرباً شاملة من أجل الاستقلال أصبح فرانكلين في الواقع السفير الأمريكي إلى فرنسا، وخدم في ذلك المنصب حتى عام 1785م في عام 1778م، وفي باريس أصبح عضواً في محفل فرنسي مهم جداً، يدعى «Neuf Soeurs» أو «الأخوات التسع» الذي ضمّ أيضاً نجوماً مثل جون بول جونز، انضم أولاً في اسكتلندا عام 1770م، وفولتير بعد سنة، أي في 21 مايو/أيار عام 1779م أصبح فرانكلين زعيم «الأخوات التسعة»، وهو منصب أُعيد انتخابه فيه ثانية عام 1780م، في عام 1782م أصبح عضو جمعية ماسونية سرية أكثر حيرة وغموضاً، تدعى «Royale Loge des Commandeurs du Temple a l'Ouest de Carcassonne» (المحفل الملكي لقادة الهيكل غرب كركسون[1]).

منذ عام 1750م وحتى عام 1775م كان فرانكلين نائب المدير العام للبريد في المستعمرات الأمريكية، في هذا المنصب أصبح مقرباً جداً من نظرائه مديري مجموعة مكاتب البريد البريطانية العامة، السّير فرنسيس داشود وإيرل ساندوِش[2]، الانتسابات الماسونية لداشود غير واضحة، من الممكن أنّه كان عضواً في المحفل الذي أسّسه في فلورينس عام 1733م صديقه المقرّب تشارلز ساكفيل إيرل ميدلسيكس[3]، كان هو وساكفيل أيضاً أعضاء شبكة ماسونية مرتبطة بفريدريك أمير ويلز، بعد ذلك أسس لنفسه ما يضاهي محفلاً ماسونياً خاصاً[4].

1ـ كركسون مدينة جنوب فرنسا، جنوب شرق تولوز، المترجم.
2ـ ساندوِش مدينة تجارية جنوب كينت في انجلترا، كانت أحد الموانئ القديمة الرئيسة الخمسة في انجلترا، المترجم.
3ـ ميدلسيكس، مدينة سابقة في جنوب شرق انجلترا، المترجم.
4ـ إشارة إلى غرفة اجتماع الرهبان في دير داشود المسمى «دير مِدْمِنهام» وإلى المناسك التي كانت تجري ضمنه، المؤلفان.

في عام 1732م شارك داشود في تأسيس جمعية شبه ماسونية، تدعى «ديليتانتي» (Dilettanti)، بينما كان يسافر في الخارج بين عامي 1739م و1741م كان يتنقل بين الحلقات الجيمسية، وأصبح فترة من الوقت صديقاً مقرّباً ومؤيداً لتشارلز إدوارد ستيوارت، هذا أوصله إلى جيمسيين بارزين في انجلترا مثل جورج لي إيرل ليتشفيلد الذي ساعد ابن عمه تشارلز رادكليف على الهروب من سجن نيوغيت، والذي شارك مع دوق وارتون الماسوني الجيمسي الآخر من المؤثرين والمتحمسين في تأسيس «نادي نار الجحيم»[1] الأصلي، لسخرية القدر شارك داشود في عام 1746م إيرل ساندوِش وآخرين في تأسيس ما يُسمّى «نظام القديس فرنسيس»[2] الذي أصبح منذ ذلك الحين معروفاً في الفكر العام وفي فكر المؤرخين اللاحقين بالاسم نفسه الذي كان لمنظمة كوارتون وليتشفيلد السابقة، في الحقيقة إن داشود هو الذي يجري خطأً ربطه عموماً بـ «نادي نار الجحيم» مع أن أعضاءه الفرنسيسكانيين اشتركوا تقريباً بنوع النشاطات الوثنية الشعائرية الجديدة نفسها.

في عام 1761م أصبح داشود عضو برلمان لمنطقتي ويموث وملكومب، في عام 1762م كان وزير المالية لدى إيرل منطقة بيوت، بعد عام أصبح لورد ديسبِنسر والممثل الملكي في باكينغهام شير، إضافة إلى كونه قائداً للمقاومة الشعبية في باكينغهام شير التي كانت تضم أيضاً جون ويلكس الذي كان منشقاً سياسياً آخر من أتباعه، وعضواً سيئ السمعة في البرلمان، أصبح مدير البريد العام المشترك في عام 1766م، زميله الأول في هذا المنصب كان ويليس هيل الذي كان لورد هيلزبورو ومؤسساً مشاركاً مع دوق وارتون وإيرل ليتشفيلد في «نادي نار الجحيم» الأصلي، بعد ذلك حصل إيرل ساندوِش على منصب هيل.

ساندوِش قابل داشود نحو عام 1740م، وأصبح الاثنان صديقين دائمين، لا عجب من أن ساندوِش أصبح أول عضو في نظام داشود «ديليتانتي»، وبعد ذلك أصبح عضواً في نظام «القدّيس فرنسيس»، بقي مدير البريد العام حتى عام 1771م، حين أصبح اللورد الأول للأميرالية[3]، وهو منصب احتلّه خلال أغلب فترة حرب الاستقلال الأمريكية، خدم في ذلك المنصب بحماقة بارزة، حتى إنه حظي ببيان، كُتب عنه في مصدر حذر ومقيّد مثل «الموسوعة البريطانية» (Encyclopaedia Britannica): «بالفساد وقلة الكفاءة تنفرد إدارة ساندوِش في تاريخ البحرية البريطانية».

1ـ باللفظ الأصلي يُدعى «نادي هيل فاير» (Hell Fire Club)، المترجم.
2ـ القديس فرنسيس الأسيزي (1182م-1226م)، راهب إيطالي مؤسس الرهبانية الفرنسيسكانية، المترجم.
3ـ إمارة البحر، المترجم.

أثناء فصول الصيف في الأعوام 1772م، 1773م، 1774م بقي فرانكلين في موطن داشود في غرب ويكومب، وتعاونا على تلخيص «كتاب الصلاة العامة»:

الصلاة الخاصة والشعائر الدينية كانت من عمل داشود وحرّرها فرانكلين، المساءلات والترانيم كانت من عمل فرانكلين، وحرّرها داشود، العمل الكامل جرت طباعته على نفقة داشود...

دي. اتش. لورانس يدعو فرانكلين بأنه «ذلك الرجل الصغير الأسمر اللون»، والمؤلف المنافق لكتاب «تقويم بور ريتشارد»، ونصير الاعتدال في معاقرة الخمر، ونصير الاقتصاد والتدبير، ونصير الصناعة والاعتدالية والنظافة، كما يحثّ قرّاءه رسمياً على عدم «الانغماس في الملذات الجنسية»، ومع كل ذلك أصبح عضو «فرانسيسكانيي» داشود، فرانكين الذي يُعدّ المثل الأعلى في الاستقامة الأخلاقية في وطنه يبدو أنه سينزع جُمّته[1] في انجلترا، والكهوف تحت أرض داشود في غرب ويكومب ستصبح مخدعاً لمديري مكاتب البريد العامة الشهوانيين الذين سيقفزون من الفرح.

للحكم على ذلك من رسالة بعثها ساندوِش إلى داشود في سبتمبر/أيلول عام 1769م نجد أنه ليس لديهم غير ذلك ليفعلوه:

أنا تقريباً محرج من إخبارك أن عمل مكتب البريد ضئيل جداً طوال الصيف، ولكن في الحقيقة هناك القليل من الأعمال التي تتطلّب حضورنا، ولدينا الوقت الكافي للاتفاق تماماً على كلّ شيء بحاجة إلى مشورة، وهناك القليل جداً من المناسبات التي من شأنها أن تضعنا في موقف غير ملائم إن حضرنا شخصياً. [2]

على أي حال كان هناك في الحقيقة مسألة أكبر من ذلك، منصب المدير العام للبريد كان أيضاً تقليدياً أشبه بمنصب رئيس دائرة المخابرات، لأنه قادر على الاطلاع عملياً على كلّ الرسائل وكلّ الاتصالات، وفي أثناء الحرب الأمريكية للاستقلال، خبرة داشود وفرانكلين في إدارة مكاتب البريد العامة جعلتهما ينتفعان جيداً.

فرانكلين في دوره الثنائي رئيس دائرة المخابرات وسفيراً إلى فرنسا من المستعمرات أسّس مركز عملياته في باريس، رافقه هناك شخصان آخران من لجنة المراسلة السرية التابعة للكونجرس، وهما سيلاس ديان وآرثر لي، شقيق لي كان يقطن في لندن، وكذلك

1ـ شعره المستعار، المترجم.

2ـ تاريخ هذه الرسالة هو 28 أيلول عام 1769م، المؤلفان.

كانت شقيقة فرانكلين التي يُظن أنها كانت تعمل في التجسس أيضاً، فترة طويلة كانت صديقة مقربة من شقيق هاو المدعو ريتشارد هاو الذي كان اللورد الأميرال وقائد العمليات البحرية في مسرح الأحداث في المستعمرات عام 1774م، جعلت فرانكلين والأميرال يلتقيان بحجة لعب الشطرنج، وكانوا كثيراً يناقشون شكاوى سكان المستعمرات، في عام 1781م قام شخص يدعى «سيسرو» بنشر رسالة مفتوحة اتّهمت الأخوين هاو بانتمائهما إلى «فئة» تآمرت لتسهيل محاولة المستعمرين للحصول على الاستقلال، سيسرو يهاجم قائلاً: «إدارة واشنطن كاملة توضح أنها لا يمكن أن تنشأ من لا شيء، بل تعتمد على معرفة مؤكّدة لشيء ما»، اتّهم الأميرال هاو بوضوح بأنه «يمتلك مؤامرات سرية هو والدكتور فرانكلين»، الأميرال أجاب في إحدى الصحف معلناً أنّ «سيسرو محق جداً في الأمر مع أنه مخدوع قليلاً في استدلالاته»، على أي حال هو اعترف في الوقت ذاته بأنّه أخفى اجتماعاته مع فرانكلين عن القيادة البحرية العليا، ما يقترح أنّه ربما في الحقيقة كان لديه شيء ما ليخفيه.

أحد أهم العملاء للمستعمرين في انجلترا كان صديق داشود السابق، وهو عضو زميل في البرلمان، وعضو زميل في النادي، إنه جون ويلكس، ويلكس أصبح ماسونياً نشيطاً في عام 1769م وفي عام 1774م أصبح عمدة مدينة لندن، اشتهر علنياً في هذا المنصب بتأييده لقضية المستعمرين، لكن منذ أواخر عام 1760م كان أيضاً الممثل البريطاني السري لمنظمة «أبناء الحرية» التي مقرّها في بوسطن، والتي أدت دوراً حاسماً جداً في «حفلة الشاي»[1]، طوال فترة الحرب كان ويلكس يجمع المال سرياً للجيش القاري[2]، ويحيلها إلى فرانكلين في باريس، من باريس كانت تُنقل إمّا إلى أمريكا الشمالية وإما تُستعمل لشراء الأسلحة والمعدّات والتجهيزات العسكرية، تقترح رسالة في عام 1777م بغرابة أنّه مع اختراق شبكة ويلكس، إلا أنه لم تتخذ أي إجراءات حيالها قط[3].

شبكة الجاسوسية البريطانية التي كانت تُدار أيضاً من باريس كانت رسمياً برعاية وليام ايدن الذي كان لورد أوكلاند[4]، وهو رجل بارز آخر تاريخه الماسوني حيّر المحقّقين،

1ــ ويلكس كان في الواقع ممثلهم في لندن، في عامي 1775م و1776م كان في اتصال مباشر بآرثر لي شقيق ريتشارد هنري لي الذي كان في لندن، لاحقاً انضم لي إلى فرانكلين وديان في باريس، ويلكس كان يرسل المال إلى الكاتب المسرحي بومارشيه الذي كان يرسلها تباعاً إلى المستعمرات الأمريكية، المؤلفان.

2ــ في هذا السياق كلمة «قارة» ومشتقاتها تشير إلى المستعمرات الثلاث عشرة الأصلية التي تشكلت منها بعد ذلك الولايات المتحدة الأمريكية، المترجم.

3ــ رسالة من الموقّر جون فارديل إلي وليام ايدن في 14 ديسمبر/كانون الأول عام 1777م، «السّيد لوبتون والدّكتور بانكروفت في لندن، السّيد لوبتون والسّيد بيتر أمضيا مساء أمس مع السّيد ويلكس، وهارتلي، إلخ، إلخ. »، المؤلفان.

4ــ اوكلاند منطقة إدارية في نيوزيلندا، في الجزيرة الشمالية الغربية، وتتضمَن مدينة أوكلاند، المترجم.

في عام 1770م أصبح القهرمان الكبير للمحفل الكبير، ولكن ليس هناك تفاصيل عن زمان انضمامه أو مكانه أو من قام بمنحه العضوية[1]، شبكة أوكلاند عملت في الجزء الأكبر منها خلال قباطنة البحر الذين كانوا يتاجرون بين فرنسا وأمريكا الشمالية، بمن فيهم أولئك الذين نقلوا المراسلات بين فرانكلين والكونجرس، في وقت متأخر حتى العاشر من كانون الأول عام 1777م أخبر أحد هؤلاء القباطنة، وهو رجل من ميريلند يُدعى هينسون، أوكلاند برسالة من فرانكلين بأنّه «عندما تُظهر بريطانيا العظمى ترتيبات السلام فإن الأول سيكون في التخلّي عن هذا الاستقلال»، طبقاً لفرانكلين كان لسيلاس ديان الرأي نفسه، على أي حال قال هينسون إنّ فرانكلين كانت لديه شكوك في آرثر لي الذي كان «يعيش في مكانة أسمى من أي مكانة عاشها إطلاقاً، وكان شديد الفخر والغرور»، لي لم يكن يرغب في أن يخسر مكانته، وكان مسروراً باستمرار الحرب.

ناهيك بالعملاء البحريين كان لدى اللّورد اوكلاند عميل ذو أهمية خاصة في باريس، إنه الدّكتور إدوارد بانكروفت، عالم بارز في الطبيعة والكيمياء، قبل الحرب كان بانكروفت صديقاً مقرّباً لفرانكلين، في عام 1773م تبنّى فرانكلين ترشيحه زميلاً في الجمعية الملكية، كان أيضاً صديقاً مقرّباً من سيلاس ديان، عندما أُرسل ديان إلى باريس بعث في طلب بانكروفت مباشرة، وهو جاهل بأنّ بانكروفت كان عميلاً بريطانياً، بانكروفت أو سادته نظّموا تمثيلية، حيث بدا أنه أُجبر على «الهروب» من انجلترا، لكي ينضمّ إلى ديان في فرنسا، هنا لم يصبح فقط مستشار ديان، بل فرانكلين أيضاً، حتى إنه في عام 1777م أصبح سكرتير فرانكلين الخاصّ! وفي عام 1779م أصبح عضواً رفيع المستوى في محفل «Neuf Soeurs» (الأخوات التسع) الذي أصبح فرانكلين في تلك السنة رئيساً له[2].

كانت الحكومة البريطانية على علم بنشاطات المستعمرين عن طريق بانكروفت، ليس ذلك فحسب، بل كانت أيضاً على علم بالمخططات الفرنسية لدخول الحرب، نظرياً على الأقل كان يمكن بريطانيا وفقاً لذلك أن تتوقّع الأحداث، وأن تتحرّك لإحباط هذه التطوّرات كالمساهمة الفرنسية في نصر المستعمرين في يورك تاون، ولكن مع وجود

1ـ الملف في المحفل الكبير المتّحد في لندن، انجلترا، المؤلفان.

2ـ عدا فرانكلين وبانكروفت، القليل جداً من غير الفرنسيين الآخرين كانوا أعضاء في هذا المحفل آنذاك، المتحدثون الإنجليز كانوا جورج فوريستر، عالم الطبيعة الذي رافق النّقيب كوك، ورجل اسكتلندي يُدعى كامبيل وهو غير معروف عادة، والبحّار الاسكتلندي جون بول جونز الذي كافح مع المستعمرين الأمريكيين، إضافة إلى شخص يُدعى بينغلي، وهو مجهول عادة، ومن المفترض أنه إما انجليزي وأما أمريكي، الجنسيات الأخرى تمثلت بستّة إيطاليين وإسبانيين، وواحد من كلّ من روسيا وبولندا والسويد وألمانيا، المؤلفان.

ساندوش في منصب اللورد الأول في الأميرالية وريتشارد هاو في منصب أميرال يقود الأسطول في مياه أمريكا الشمالية، قدّمت البحرية الملكية المستوى نفسه من التلكؤ كالذي قدمته القيادة العليا للجيش.

من الواضح أنّ الاستخبارات التي قدمها بانكروفت كانت صحيحة عند التفكير فيما حدث في السابق، في عام 1785م قام البرلمان بمكافأته، وذلك بمنحه فترة لاحتكار استيراد صبغة نباتية معينة، تُستعمل للطباعة على الكاليكو، وهي العملية التي اخترعها بنفسه، مع هذا لم يأتمنه الملك مع أنه قرأ شخصياً كلّ تقارير المخابرات، كما توقّعه أن يكون عميلاً مزدوجاً للمستعمرين[1]، العملية التي تثير التساؤل على نحو خاص هي المهمّة السرية التي شرع بها بانكروفت في إيرلندا عام 1779م، في مارس/آذار عام 1780م كتب اللّورد ستورمونت الذي كان سفير بريطانيا إلى فرنسا إلى الملك أن وفداً إيرلندياً سرياً يشمل تحالفاً من الكاثوليك والمستقلين قد وصل إلى باريس في ديسمبر/كانون الأول الماضي، واجتمعوا مع لويس السّادس عشر، وفقاً لستورمونت:

... يقترحون أنّ إيرلندا يجب أن تصبح مملكة مستقلة، وأن يكون هناك برلمان ما، وليس ملك، وأن يكون الدين البروتستانتي هو الدين الرسمي، ولكن الديانة الكاثوليكية الرومانية ستحظى بالتسامح الديني الكامل، المندوبون مرتبطون مباشرة بفرانكلين الذي يظن مخبري أنه ينفذ المراسلات بوساطة شقيقته السّيدة جونستون التي هي الآن في لندن، والتي تمتلك مسكناً صغيراً في فاونتِن كورت على الساحل.[2]

بعد نحو عشرين سنة نشأت من هذه البذور منظمة شبه ماسونية جديدة، تدعى «جمعية الإيرلنديون المتّحدون» التي كان يدعمها رجال مثل وولف تون واللّورد إدوارد فيزجيرالد، نشاطاتهم توّجت بالتمرّدات الإيرلندية التي حصلت بين عامي 1798م و1803م.

في هذه الأثناء واصلت شبكة الجاسوسية البريطانية بقيادة اللّورد اوكلاند اختراقاتها للمستعمرين، ولكن بلا استثمار، في هذه العملية كان السّير فرنسيس داشود يحظى بأهمية خاصة لأنه مدير البريد العام، مراراً وتكراراً كان داشود يعترض مراسلات المستعمرين واتصالاتهم، وكان ينقلها إلى أوكلاند، ولكن ما هو مدهش واستثنائي جداً هو

1- جورج الثّالث كتب إلى اللورد نورث قائلاً: إنّه مقتنع بأنّ بانكروفت(أمريكي كليّاً، وإنّ كلّ كلمة استعملها في المناسبة الأخيرة كانت لتخدع)، المؤلفان.

2ـ الرسالة ذات الرقم 2952، في الأول من مارس/آذار عام 1780م، من اللّورد ستورمونت إلى جورج الثّالث، المؤلفان.

أنه في أثناء كلّ ذلك الوقت يبدو أن داشود وفرانكلين حافظا على اتصال شخصي خلال قنواتهم السرية الخاصة، لذلك مثلاً قام أحد عملاء داشود المدعو جون نوريس بالتصريح في رسالة مؤرخة في 3 يونيو/حزيران عام 1778م: «أُجريت اليوم استخبارات مِشماسية[1] من الدّكتور فرانكلين في باريس إلى ويكومب[2]»، معلّق واحد على الأقل استنتج من ذلك أنّ فرانكلين كان في الحقيقة عميلاً بريطانياً!، على أي حال إن كان الوضع كذلك، فإن بعض الاتصالات بين داشود وفرانكلين كان مما لاشكّ فيه ستظهر بين أوراق اللّورد أوكلاند، أو أوراق السلطة البريطانية الأخرى، أو حتى أوراق الملك، الحقيقة تقترح أن الاتصالات لم تكن مقرّة أو مكشوفة للمخابرات البريطانية، على درجة عالية كان داشود وفرانكلين اللذان كانا في النهاية صديقين وزميلين قديمين يلعبان لعبة سليمة خاصة بهما، وكانا يتبادلان الأسرار واللغو والمعلومات الخاطئة بعض الشيء، مع أن داشود كان معارضاً للحرب، ليس هناك مقترح أنه كان متورطاً في الخيانة، على العكس يظهر أنه أدّى واجباته بوعي تقريباً، وإن كان بدرجة أقل من المطلوب، في هذا السياق، سلوكه كان على نحو مدهش مشابهاً لسلوك الجيش البريطاني والقادة البحريين.

الوثيقة

في أمريكا الشمالية تسارع زخم الأحداث على نحو مثير، في الوقت الذي جرى فيه تشكيل لجنة الكونجرس للمراسلة السرية، كان المستعمرون قد شنوا هجوماً طموحاً وخاطئاً، قوة كبيرة بقيادة الجنرال ريتشارد مونتغومري حاولت غزو كندا، في 13 نوفمبر/تشرين الثّاني 1775م استطاعوا احتلال مونتريال، لكن مونتغومري مع أنه خدم بقيادة وولف واميرست أخطأ في محاولته الاستيلاء على كوبك بالقوة، جرى ردع هجوم المستعمرين بعد أن تجشموا خسائر فادحة، الفرقة دُمّرت ومونتغومري نفسه قُتل، لكن القائد البريطاني في كندا السّير غاي كارلتون كان صديقاً مقرّباً من هاو، وشارك هاو تحفّظه على الحرب، كارلتون لم يُهمل فحسب مطاردة القوات الاستعمارية المحطّمة، بل أطلق سراح السجناء الذين أسرهم أيضاً.

في بداية عام 1776م كانت الفئات التي في الكونجرس القاري وهي الأكثر اعتدالاً في توجهها الماسوني لا تزال سائدة، موقفها أُعلن مرة أخرى في ديسمبر/كانون الأول

1ـ المِشماس، المُبْرقة الشمسية أداة لإرسال الإشارات التلغرافية بوساطة أشعة الشمس منعكسةً على مرآة، المترجم.

2ـ ويكومب منطقة في بريطانيا، المترجم.

السابق عندما تحدّى الكونجرس البرلمان ثانية مع مواصلة تأكيده الولاء للتاج، الآن على أي حال بدأ الوضع يتغير، وبدأت بالظهور عناصر أكثر تطرفاً، كتيب توماس باين الذي يحمل عنوان «الفطرة السليمة» عمل كثيراً على استقطاب المواقف وعلى تحويل الكثير من المستعمرين الذين كانوا موالين حتى ذلك الوقت إلى مبدأ استقلال الوطن الأمّ، في 7 يونيو/حزيران اقترح ريتشارد هنري لي شقيق آرثر لي رسمياً أنّ المستعمرات يجب أن تصبح «دولاً حرّة ومستقلة»، في ذلك الوقت أيضاً بدأت سفارة فرانكلين بالإثمار، لويس السّادس عشر في فرنسا تعهّد بمليون ليفر[1] لشراء العتاد الحربي، وتعهّد مشابه أُخذ من إسبانيا التي كانت الخصم القاري الرئيس الآخر لبريطانيا، هذه المساهمات سندت الجيش الاستعماري عامين تقريباً.

في 11 يونيو/حزيران عيّن الكونجرس لجنة لصياغة وثيقة الاستقلال، من بين الرجال الخمسة في هذه اللجنة كان هناك اثنان ماسونيان هما فرانكلين وروبرت ليفنغستن الذي كان عمّ ريتشارد مونتغومري، كما كان هناك رجل آخر يدعى روجر شيرمان، يُظن أنه كان ماسونياً أيضاً، مع أن ذلك غير مؤكّد، الاثنان الآخران هما توماس جيفيرسن وجون أدامز لم يكونا ماسونيين مع ادعاءات لاحقة تنقض ذلك، نصّ الوثيقة أعدّه جيفيرسن، جرى تقديمه للكونجرس وقُبل في الرابع من يوليو/تموز عام 1776م، الموقّعون التسعة الذين يمكن التأكّد الآن من أنهم كانوا ماسونيين، والعشرة الذين من الممكن أنهم كانوا كذلك تضمنوا شخصيات مؤثرة مثل واشنطن وفرانكلين، وطبعاً جون هانكوك رئيس الكونجرس، علاوة على ذلك بقي الجيش على نحو كليّ تقريباً تحت سيطرة الماسونيين، كما رأينا قاوم الماسونيون في الكونجرس وفي الجيش الاستقلال الكليّ في البداية، على أي حال، ما إن تقرّر الأمر حتى باشروا بوضع قيمهم ومعتقداتهم الخاصة المقدسة في مؤسسات الجمهورية الوليدة، يمكن على نحو ملحوظ إدراك التأثير الماسوني في الدستور كما سنرى.

عندما أُذيعت وثيقة الاستقلال أول مرة لا بدّ من أنها ظهرت كأمر يائس وبادرة غير عملية، على نحو مؤكد حالة المستعمرين في ذلك الوقت كانت بعيدة عن الوعود، وسرعان ما أصبحت أكثر كآبة، في مارس/آذار كان هاو في الحقيقة قد أخلى بوسطن لينزل في نيويورك في 22 أغسطس/آب، في معركة بروكلن التي تُدعى أحياناً معركة لونغ آيلند فقد 65 قتيلاً و255 جريحاً بينما أوقع أكثر من 2000 إصابة في خصومه، وبدلاً من أن

1ـ ليفر عملة فرنسية قديمة تعادل جنيهاً من الفضة، المترجم.

يطارد المستعمرين المهزومين سمح لهم بالهروب، في الحملة التالية أبدى التراخي، في مرتفعات هارلِم مثلاً وهي مقابل جامعة كولومبيا أخّر أربعة أسابيع أمر الهجوم الذي نزع من المستعمرين موقعهم، عندما أُسر حصن واشنطن بدأت قوّات الهسيّين بطعن السجناء، وهاو فقد رباطة جأشه من تصرف أولئك المرتزقة الألمان.

ولكن حتى تصرّف هاو النبيل لم يتمكن من إنقاذ الجيش القاري مما حصل لاحقاً، واشنطن بعد أن أُجبر على إخلاء بروكلن انسحب إلى مانهاتن، وطُرد من هناك تباعاً، وفي 15 سبتمبر/أيلول احتلّ هاو نيويورك، المناوشات اللاحقة أرغمت واشنطن على التراجع عبر نيو جيرسي وديلوار إلى بينسلفانيا، بذلك الوقت كان الجيش القاري قد انخفض من 13. 000 إلى 3000، في حصن لي وحده فُقد 140 مدفعاً، ومرة ثانية أظهر هاو عدم المبالاة، حيث دبّر التأخير والمراوغة في الوقت، ليمنح فريسته المحاصرة فرصة للهرب، من المهم معرفة أنه في أثناء السنة التالية السنة التي حصلت فيها أشد هزائم واشنطن، واشنطن، وليس هاو الذي اتخذ موقفاً هجومياً، هاو لم يسع خلف واشنطن، بل هو بحث عن هاو، وعندما قام بذلك ردّ عليه هاو بعجالة تقريباً كالرجل الذي يسحق ذبابة ويعود إلى النوم.

لذلك في 26 ديسمبر/كانون الأول عام 1776م قام واشنطن بعبوره الشهير لنهر ديلوار، وكان ضحية هجوم مفاجئ لمجموعة من السفن الهسيّة في ترينتن، بعد أن تملّص من القوة البريطانية الرئيسة بقيادة كورنوالِس، حصد بعد ذلك نصراً آخر على فرقة أصغر في برينستون في 3 يناير/كانون الثّاني عام 1777م، قام هاو ببساطة بدلاً من أن يردّ على ذلك الهجوم، ومع أن جيشه كان متفوّقاً جداً في العدة والعتاد بإخلاء نيو جيرسي وتحرّك إلى بينسلفانيا، في 11 سبتمبر/أيلول تجاهل هجوم واشنطن على براندي واين، على أي حال بدلاً من المطاردة مضى لاحتلال فيلاديلفيا، حيث الكونجرس القاري هرب بعجالة، وأسس مكاناً للإقامة شتاءً، بعد ثلاثة أسابيع شن واشنطن هجوماً آخر في 4 أكتوبر/تشرين الأول، هذه المرة على جيرمان تاون، ومرة ثانية ردّه هاو، ولكن في هذا الوقت أوقع إصابات كبيرة جداً، جيش واشنطن أُصيب بالمرض، كما تشتت الجنود، وكانت الروح المعنوية منخفضة والتجهيزات قليلة ما جعل واشنطن ينسحب إلى محميته الشتوية في فالي فورج، بروح رياضية عالية ونبيلة تركه هاو وشأنه ليلعق جروحه ويُعيد بناء جيشه المحطّم.

في هذه العملية لإعادة بناء الجيش القاري أدت الماسونية دوراً هامّاً جداً، الجنود المحترفون الذين أغرتهم الماسونية بالأحلام عبروا الأطلسي من أماكن عديدة من الخارج،

والتفّوا حول قضية المستعمرين، على سبيل المثال كان هناك البارون فريدريك فون ستيوبن، وهو محارب بروسي جنّده ديان وفرانكلين، وأصبح المدرب العسكري لواشنطن، ستيوبن الذي جلب معه انضباط جيش فردريك الكبير ومهارته قام وحده تقريباً بتحويل المجنّدين الاستعماريين الأغرار إلى قوة قتالية مقدّرة، وكان هناك أيضاً الفرنسي يوهان دي كالب، وهو محارب آخر جاء من ساحات الوغى الأوروبية، والذي ربما أصبح أكثر القادة ثقة وكفاءة من بين القادة التابعين لواشنطن، كما كان هناك كازمير بولاسكي أحد البولنديين الملتزمين المتّقدين، قُدّر له الموت متأثراً بجروحه في حصار سافانّه، من بولندا أيضاً جاء تاديوز كوسيوزكو الذي بنى التحصينات المتقنة في «ويست بوينت»[1]، وأصبح أبرز مصمّم ومهندس عسكري بين قوات المستعمرين، أخيراً كان هناك طبعاً مركيز لافاييت الذي كان بعمر العشرين عاماً، والذي عوّضت منزلته وشخصيته المؤثّرة افتقاره إلى الخبرة العسكرية، وكان له تأثير كبير في الروح المعنوية، كما أثبت نشاطه الدبلوماسي أهميته الحاسمة، في الحقيقة، من الممكن أنه أكثر شخص مسؤول عن إدخال فرنسا في الحرب، وهذا تباعاً مكّن من إحراز النصر النهائي في يورك تاون، باستثناء كوسيوزكو الذي لم تبق عنه أي معلومات ذات صلة، كلّ هؤلاء الرجال كانوا ماسونيين على نحو معروف أو ممكن، لافاييت وستيوبن خصوصاً عدّا نفسيهما يساهمان في تأسيس جمهورية ماسونية مثالية.

كارثة ساراتوغا[2]

نتيجة الهزائم في براندي واين وجيرمان تاون وبسبب الشتاء المثير للإحباط في فالي فورج كانت سنة 1777م كارثية لواشنطن خصوصاً، على أي حال في الشمال من ساحة عملياته حصل هناك ما أثبت مؤخراً أنه الاشتباك الوحيد الأكثر حسماً في الحرب، واشنطن لم يكن له أي دور مباشر فيه، ولا حتى هاو، لكن هاو استناداً إلى تلك الواقعة تحديداً أظهر مرة أخرى الإهمال وعدم المبالاة التي تميز بها على نحو يثير الفضول في كل مراحل النزاع، في الحقيقة تقترح الأدلة أنّه في هذه الحالة ربما كان يوضح ما هو أكثر.

كانت الحرب مكروهة جداً كما رأينا ، كانت مكروهة من القادة البريطانيين في أمريكا الشمالية، من الأخوين هاو، كورنوالِس وكلنتن، وكانت مكروهة من أعضاء كلا

1ــ ويست بوينت (West Point) موقع الأكاديمية العسكرية الأمريكية، وهو على نهر هودسون في ولاية نيويورك، والأكاديمية نفسها تحمل الاسم نفسه، المترجم.
2ــ مدينة شرقي نيويورك، حصل فيها معركتان في أثناء الثورة الأمريكية، المترجم.

الحزين في الوطن، إدموند بورك على سبيل المثال كان صريحاً على نحو بليغ في معارضته لقمع المستعمرات، وكذلك كان تشارلز فوكس، وليام بت إيرل تشاتّم الذي ترأس استعادة أمريكا الشمالية من فرنسا، قبل عشرين سنة من ذلك ألقى عدداً من الخطابات الحماسية في البرلمان، تدعو إلى المصالحة، ومات بينما كان يلقي أحدها، ابن بت الذي كان آنذاك يعمل مساعداً للسّير غاي كارلتون في كندا، كان قد أُمر من والده بأن يتخلى على مهمته فضلاً عن محاربة المستعمرين، إيرل افينغهام استقال أيضاً، الأميرال أوغسطس كيبيل الذي خلف ساندوش لورداً أول للأميرالية صرح علناً بأنّه لا يتدخل في عمليات ضدّ رجال يعدّهم أبناء بلده، على قدر ما هو معروف جورج رودني الذي كان القائد البحري الأعظم في ذلك العصر لم يُصرح ببيان عام كهذا، ولكن من الواضح أنّه أحسّ بالشعور نفسه وعمل جاهداً على تفادي أي عملية في المياه الأمريكية إلى أن جرى إقرار الحرب، وما كان منه إلا أن تحرّك إلى الكاريبي لإيقاع هزيمة كبيرة بالأسطول الفرنسي، وكما رأينا رفض اميرست بالطريقة نفسها أن يدخل الحرب، وهو الذي كان القائد العام للجيش وأحد الأسياد البارزين في حملات أمريكا الشمالية، في كندا شارك السّير غاي كارلتون صديقه السّير وليام هاو في عدم المبالاة، ضمن الصفوف العليا للمؤسسات البريطانية المدنية والبحرية والعسكرية كانت المقاومة للحرب جماعية عملياً، كما هو الحال في بُغض اللّورد جورج جيرمين الذي كان السبب الرئيس في امتدادها إلى انجلترا، كان هناك فقط استثناء وحيد بارز، رجل كان يتودد إلى جيرمين ويدعو لإخماد عديم الرحمة للمستعمرين، إنه السّير جون بورغون المحترم.

بورغون الرجل الأنيق والكاتب المسرحي البسيط في انجلترا لم يسبق له أن أدى أي خدمة في أمريكا الشمالية قبل تفشّي العداوات عام 1775م، بشأنه وحده من بين القادة البريطانيين كانت أمريكا الشمالية عالماً غريباً، في أثناء حرب السنوات السبع كان مقرّه في انجلترا، وشارك في سلسلة الهجمات الفاترة على الساحل الفرنسي، بعد ذلك أسس فوجه الخاص من سلاح الخيالة الخفيفة، وأخذ رجاله إلى البرتغال، حيث قاتلوا متطوعين في نزاع تلك البلاد ضد إسبانيا، بعد أن دحر القوات الإسبانية في معركة «فيلا فيلها» عام 1762م عاد بورغون إلى انجلترا ليحظى بسمعة القوة والدهاء.

في أثناء معركة تلّ بونكير كان يخدم بإمرة هاو في بوسطن، ثمّ جرى تعيينه في فبراير/شباط عام 1776م نائباً للسّير غاي كارلتون في كوبك، وحضر في كندا في أثناء الغزو غير الناجح الذي قام به ريتشارد مونتغومري، بورغون رفض بشدة «التردد» الواضح الذي خاض به كارلتون العمليات العسكرية، كما كان تصرف هاو في الجنوب أيضاً، أطلق

كارلتون سراح السجناء الذين أُسروا في الهجوم على كوبك كما رأينا، في حالة أخرى أطلق سراح 110 أسرى إضافيين من الاستعماريين من بينهم جنرال، كما قدم لهم الغذاء والأحذية، وسمح لهم بالعودة إلى الوطن، وفي إحدى المرات على الأقل أصدر أيضاً بتعمد أوامر سمحت للمستعمرين المنسحبين بالهروب، برأي بورغون سلوك كهذا لا يُغتفر، كان يحتقر أي شخص أو أيّ شيء «أجنبي»، ووحده من بين القادة البريطانيين طبّق تلك النزعة على المستعمرين، كان يعدّهم نوعاً من الحيوانات الطفيلية أو الأطفال المدللين الذين يحتاجون بشدة إلى ما ستسميه الأجيال القادمة «صدمة قصيرة حادّة»، كان على نحو متغطرس لا يشعر بمتطلباتهم وشكواهم، ولم يكن يساوره الندم قط على قمعهم بلا رحمة كلما سنحت له الظروف، وفقاً لمشاعره فهم لا يستحقّون المعاملة النبيلة التي يعاملهم بها كارلتون وهاو.

في نوفمبر/تشرين الثّاني عام 1776م عاد بورغون إلى انجلترا، حيث أبدى المزيد من التملق لصديقه وراعيه اللّورد جورج جيرمين، وخلال مناصب جيرمين أصبح أيضاً مستشاراً شخصياً للملك، هذا مكّنه من تجاوز رؤسائه في أمريكا الشمالية وتدبير خطته الخاصة الطموحة لإنهاء الحرب بضربة وحيدة، هو نفسه سيطبّق الخطة وسيحصد المجد المستحق.

الخطة تطلبت تنظيماً وفناً وتوقيتاً متقناً، احتاج ذلك إلى طابور بريطاني كبير بقيادة بورغون الخاصة، اتجهوا جنوباً من كندا، ثم انحدروا نحو ألباني عبر الحصون القديمة في تيكوندروغا وكراون بوينت ذات المرتفعات الشاهقة والتضاريس الكثيفة الأشجار التي عبرها وولف واميرست قبل ذلك عشرين سنة، وهي أيضاً التي لم يكن عند بورغون نفسه أي خبرة فيها، في هذه الأثناء سيكون هاو عملياً محروماً من القيادة المستقلة، كان عليه أن يقود قواته حول مانهاتن إلى الشمال لملاقاة بورغون في ألباني، وهكذا:

... جيشان، واحد من الشمال في كندا وواحد من الجنوب، يجب أن يسيرا إلى نقطة اتصال، يقطعان المستعمرات إلى قسمين منفصلين، وبعدها يمكن فتح المناطق المنفصلة كل على حدة.

في الواقع كلّ منطقة نيو إنجلاند[1] كان يمكن أن تُقتطع من المستعمرات في الجنوب، طبقاً لأحد المعلقين كان بورغون واثقاً بأنّه «سيضمن... المجد والمكانة والشرف والموقع المفضّل في التاريخ».

1ـ منطقة في الولايات المتّحدة الشمالية الشرقية، تشمل ولايات مين، نيوهامشير، فيرمونت، ماساشوستس، رود آيلاند، وكونيكتيكت، المترجم.

خطة بورغون كانت طموحة جداً، ما يُشكّ فيه أنها ربّما كانت ستنجح لو أن أشخاصاً أكثر كفاءة نفّذوها، حتى وإن نجحت، فإن قيمة النتائج ربما ستكون تافهة، لأنه في عام 1777م المسرح الرئيس للعمليات العسكرية انتقل بعيداً إلى الجنوب، ونيو إنجلاند كانت قد فقدت أهميتها الاستراتيجية، مع هذا تبنّى جيرمين والملك الفكرة، السّير غاي كارلتون سوف يُستبدل ببورغون قائداً عاماً في كندا، وجرى إشعاره بذلك في مارس/آذار عام 1777م استقال كارلتون مباشرة، لكن بقي في كوبك مدة طويلة على نحو كاف، لكي يجهّز بورغون ويراه في طريقه، فوجئ بورغون بعد نزاعاته السابقة ضد كارلتون باستعداد هذا الأخير للتعاون معه، بورغون كتب: «السّير غاي لم يُظهر حماسة من قبل أكثر من الحماسة والعجلة التي أبداها للامتثال لمطالبي ورغباتي»، في الحقيقة كان كارلتون ببساطة على عجلة من أمره للتخلص من بورغون وإعفاء نفسه من المسألة برمّتها، لكن كارلتون علم أيضاً بأنّه كلما أسرع بورغون في تقدمه أسرع بالسير نحو حتفه على نحو مؤكد كما سنرى، كارلتون بعد أن علم تماماً ما الذي سيحدث كان على عجلة ليس لإنجاح مشروع بورغون، لكن لدماره الحتمي.

تمحور نجاح خطة بورغون في النهاية حول تعاون هاو الذي كان في ذلك الوقت منخرطاً في العمليات العسكرية حول مانهاتن، لكي تتمكّن الخطة من النجاح كان لا بدّ لهاو من أن ينفّذ نصيبه من الخطة بأن ينتقل بجيشه شمالاً لملاقاة بورغون في ألباني، ظن بورغون أنّ اللّورد جيرمين صديقه وراعيه في انجلترا سيصدر الأوامر الضرورية التي ترغم هاو على التزام الخطة، مع الاعتراضات الشخصية، على نحو مؤكد تلك المسؤولية كانت ملقاة على عاتق جيرمين، ومن ثم جيرمين عادة هو من تحمّل الملامة كما حصل لاحقاً.

مما لاشكّ فيه أن جيرمين كان يستحق اللوم جزئياً، لأنه أذنب بإهماله، القصّة المعروفة عموماً هي أنّه كان متلهّفاً للسفر في إجازة، ولأنه لم يكن راغباً في ترك حافلته تنتظر في الطريق، وقّع بعجالة الأوامر الموجهة إلى بورغون، لكن الأوامر الموجهة إلى هاو لم تكن منسوخة على نحو صحيح، لذلك أهملها ببساطة، على أي حال إيرل شيلبورن يكتب عن ذلك البيان الذي أصبح أحد الاتهامات القياسية لجيرمين:

من بين الكثير من مميزاته الغريبة كان عنده كره شديد لأن يجري الوقوف في طريقه في أي مناسبة، قرر الذهاب إلى كينت أو نورثامبتن شير في وقت معيّن، وأن يمر في طريقه إلى مكتبه لتوقيع الرسائل التي كانت جميعها مقرّرة، والتي ستُرسل إلى كلا هذين الجنرالين، هاو وبورغون، ونتيجة بعض الخطأ لم تكن الرسائل الموجهة إلى

الجنرال هاو منسوخة جيداً، ونتيجة نفاد صبر جيرمين وعده المكتب الذي كان مهملاً جداً بأن يرسلها خلفه إلى الوطن ليوقّعها، إلا أنهم سيبعثون رسائل الجنرال بورغون بتوقّع منهم أنّ رسائل هاو يمكن أن تُرسل قبل أن يُبحر الطرد آخذاً الرسائل الأولى فقط، والتي أبحرت خطأً من دونها على أي حال، وحالت الرياح دون وصول السفينة التي تحمل البقية، نتيجة لذلك جاءت هزيمة الجنرال بورغون، والإعلان الفرنسي، وخسارة المستعمرات الثلاث عشرة، قد يبدو من المدهش أن سكرتيره الخاص والأشخاص الأكثر أهمية في المكتب لم يؤكدوا لي الحقيقة، ما يؤيّد هذه الحقيقة هو أنّه لا وجود لأي تفسير آخر.

اللّورد شيلبورن في هذه الرواية ليس محقاً تماماً، ما حدث يمكن أن يفسّر بطريقة أخرى، أو على أي حال بطريقة تضفي بُعداً مكمّلاً لقصة شيلبورن، لأن جيرمين في الحقيقة أهمل التوقيع شخصياً على الأوامر الضرورية، إلا أنها مع ذلك وُقّعت وأُرسلت إلى هاو، جرى توقيعها من شخص يدعى دويلي الذي كان نائب الوزير في مكتب الحرب، من المعلوم أن هاو تلقى الأوامر، وحصل ذلك في 24 مايو/أيار عام 1777[1]، وكونها لا تحمل التوقيع الشخصي لجيرمين فإن ذلك أمر ثانوي، لأنه كان واجباً على هاو نظرياً التزام التصرّف وفقاً لما هو مكتوب فيها.

الأكثر من ذلك أن هاو كان يعلم ما يجب عليه فعله:

من المسلّم به أن اللّورد جورج رجل يصعب حبه، أو احترامه، مع ذلك فإن إهماله الذي لا يُغتفر في عدم تأكده من وصول أوامره إلى السّير وليام في نيويورك هو فقط جانب واحد من الخطأ المفجع، في الجانب الآخر تكمن معرفة الجنرال هاو التامّة في أنه بينما كان بورغون يتقدّم جنوباً كان الأمريكيون يلتفون حوله.

في الواقع كانت معرفة هاو مؤكدة تماماً، حتى إنه أمدّ بورغون بمعلومات عن ذلك، هاو:

... أخبر بورغون بأنّ الجيش الشمالي الأمريكي كان على وشك أن يجري تعزيزه بـ2500 جندي جديد، هاو علم أيضاً أن الجنرال الثائر إسرائيل بوتنم ومعه 4000 جندي كانوا في بيكسكيل، بين كلنتن في نيويورك وبورغون في حصن إدوارد.

1ـ في هذا التاريخ استلم هاو نسخة من الأوامر التي تدعو بورغوين للتحرّك جنوباً والانضمام إلى هاو في ألباني، من غير المعلوم إذا كانت هذه الرسالة تحتوي أيضاً على أمر واضح لهاو لكي يتحرّك شمالاً لملاقاة بورغوين، ما لا شكّ فيه أنّ هاو كان يعرف استناداً إلى جيرمين وبورغوين أنه من المفترض أن يتحرّك شمالاً، هاو ادّعى أنّه لم يستلم أي أوامر، مكتب الحرب ادعى أنّه أرسلها، ولكن جيرمين ودويلي لم يتمكنا من الحصول على نسخة منها في المكتب، وهكذا لا يمكن مطلقاً إثبات أنّها قد أُرسلت، إما أحدهما وإما هاو وأما أي طرف مهتم آخر تمكن من إخفاء نسخة مكتب الحرب قبل إجراء أيّ تحقيق، المؤلفان.

تمحيص قصير للسلسلة الدقيقة من الأحداث يكشف الطريقة التي استطاع بها هاو وكارلتون معاً أن يضمنا إخفاق بورغون، وكيف استطاعا خلال الهدية الإضافية غير المتوقّعة المتجسدة بإهمال جيرمين إلقاء كلّ اللائمة عليه، في بداية عام 1777م قرّر هاو مغادرة نيو جيرسي إلى واشنطن كما رأينا، وتقدّما نحو عاصمة مستعمرة فيلاديلفيا، أبلغ جيرمين بنياته، وجيرمين وافق عليها في 3 مارس/آذار، على أي حال في 26 مارس/آذار حصلت المأساة المذكورة أعلاه، أصدر جيرمين أوامر رسمية لبورغون بالتقدّم نحو الجنوب ولهاو بملاقاته في ألباني، هذه الأوامر أُرسلت إلى بورغون بتوقيع جيرمين، ولكنها بُعثت إلى هاو حاملة توقيع دويلي طبقاً لمكتب الحرب، هاو حصل عليها في 24 مايو/أيار، ولكن قبل ذلك سبعة أسابيع تماماً، أي في الثاني من أبريل/نيسان كان هاو قد كتب إلى كارلتون في كندا أنّه لن يكون قادراً على تقديم المزيد من المساعدة لبورغون «لأنني ربما سأكون في بينسلفانيا»، أي كان هاو قبل سبعة أسابيع من استلام أوامره يعلم ما هو متوقع منه، من ثم قرّر أن لا ينفذه، كارلتون تلقى رسالة هاو قبل أن يبدأ بورغون تقدّمه من كيوبك نحو الجنوب في 13 يونيو/حزيران، مع ذلك كارلتون لم يتقاعس في تحذير بورغون فحسب، بل أيضاً عجّل تقدم بورغون في طريقه، و«بحماسة» وجده بورغون المسرور أنه مفاجأ، وهكذا فمن الواضح أن هاو وكارلتون مستغلّين بطء الاتصال والغموض العامّ للأوامر استطاعا تبرئة نفسيهما، بينما سمحا لبورغون بالسير نحو هزيمة متوقعة، وجيرمين من ناحيته استمر في غموضه ليساعد على نحو غير متعمّد على تبرئتهما لاحقاً.

في 18 مايو/أيار كتب جيرمين إلى هاو على نحو وكاف، ليصدق على تقدّم هاو نحو فيلاديلفيا، «ثق أنه أياً كانت مخططاتك فإنها ستُنفّذ في الوقت الملائم لك عندما تتعاون مع الجيش الذي أُمر بالتقدم من كندا... »، من المدهش أن يكون جيرمين ساذجاً جداً إلى هذه الدرجة، حتى يظن أنّ هاو من الممكن أن يتقدّم جنوباً إلى بينسلفانيا، وبعد ذلك سيتمكن من التقدّم شمالاً لملاقاة بورغون في الوقت الملائم، هاو نفسه لم يكن ساذجاً على هذه الدرجة، حتى إنه لم يُبدِ الاستعجال، بل على العكس تحرّك بطريقة متروّية تماماً، وعندما وصلته رسالة جيرمين في 16 أغسطس/آب كان على متن سفينة في خليج تشيسابيك في طريقه إلى فيلاديلفيا، في ذلك اليوم نفسه اشتبك الهسيّون في طليعة طابور بورغون مع المستعمرين في بيننغتون وجرت إبادتهم:

عندما قرّر هاو التخلي عن بورغون من الصعب تخيّل كيف توقع أن يصل بورغون إلى ألباني، ربما هناك القليل من الشكّ بأن السّير وليام هاو لا بدّ من أنه كان على يقين

من أن بورغون كان يزحف مباشرة إلى كارثة خطيرة جداً مع أوامر جيرمين أو من دونها، ومع ذلك لم يفعل أي شيء ليؤكد لبورغون أنه سيقع في مصيبة كبيرة قد تكلفه حياته.

في 30 يوليو/تموز تقدم بورغون عبر البرية المشجّرة لشمالي نيويورك، وكان قد بعث رسالة قلقة إلى جيرمين تشتكي أنّه لم يكن يمتلك فكرة عن نيات هاو، يبدو أن تلك كانت الدقة الأولى لناقوس الخطر، في 20 أغسطس/آب، أي بعد أربعة أيام من الهزيمة في بيننغتون أرسل رسالة أخرى، في ذلك الوقت كان هاو يزحف إلى بينسلفانيا، في 30 أغسطس/آب، كتب هاو صراحة إلى جيرمين أنّه «ليس لديه أقل نية في مساعدة بورغون»، في 11 سبتمبر/أيلول هَزم واشنطن في براندي واين كما رأينا، وفي 27 سبتمبر/أيلول احتلّ فيلاديلفيا، وبعد أسبوع أي في 4 أكتوبر/تشرين الأول ألحق بواشنطن هزيمة ثانية في جيرمان تاون، ولكن أشد وطأة هذه المرة، في هذه الأثناء كان بورغون يغرق أعمق فأعمق في المستنقع الذي صنعه، في 7 أكتوبر/تشرين الأول، أي بعد ثلاثة أيام من معركة جيرمان تاون، اشتبكت قواته مع القوة الرئيسة للمستعمرين التي كانت بقيادة الجنرال هوراشو غيتس، تقهقر بورغون مدحوراً ومتجشماً خسائر جسيمة إلى معسكره في ساراتوغا، ليُفاجأ بهجوم غيتس المعاكس الذي أجبره على الإجلاء، أخيراً في 17 أكتوبر/تشرين الأول كان بورغون محاصراً كلياً، وقد قُطعت عنه كل طرق التراجع وليس لديه بريق أمل في المساعدة أو الإغاثة ما جعله يستسلم ومعه تقريباً 6000 رجل، بعد خمسة أيام كتب هاو الذي كان مختبئاً في معسكره الشتوي في فيلاديلفيا إلى جيرمين مشيراً إلى رسالته في أبريل/نيسان، ورافعاً بعض الكلفة في أسلوب الكلام للإشارة إلى الماضي: «أشرت على نحو قطعي إلى أن الجيش الجنوبي لن يتمكن من تقديم أي مساعدة مباشرة».

وفقاً لهذه السلسلة من الأحداث من الواضح أنّ هاو كان قد قرر في مارس/آذار تقريباً ألا يذهب لمساعدة بورغون حتى إنه قال ذلك في رسالته إلى كارلتون، مع ذلك لم يقم أي منهما بمحاولة تفادي النتائج التي كان كلاهما يعرفها تماماً، هاو الذي عارض على نحو واضح حملة بورغون، لم يقم إطلاقاً بالاحتجاج على سادته في لندن، لم يمارس إطلاقاً سلطته كونه قائداً عاماً لمجادلة أن الخطة أُسيء فهمها، وكارلتون الذي ساعد بورغون في تقدمه كان بذلك قد ساعد أيضاً على تحصيل النتيجة النهائية، كلا الرجلين كان قادراً على تبرئة نفسه باستغلال بطء الاتصالات والعجز عن المساعدة الذي اعترف به جيرمين قبل مدة طويلة، وما ساعدهم أيضاً هو تجاوبهم مع الغموض غير المتعمّد للأوامر التي أُصدرت إليهم مع سوء فهمهما وغموضهما المتعمد.

هناك حتماً نصير آخر في المسرحية، وقد أهمله المؤرخون تماماً بعد ذلك، اميرست يجب أن نتذكّر، كان القائد العام للجيش في ذلك الوقت، لقد كان محارباً مخضرماً في التضاريس ذاتها التي عزم بورغون على الزحف إليها، كان يمكنه أن يقيّم بسهولة كل الأخطار وحماقة بورغون، لم يكن فقط قائد هاو السابق في الحرب، بل كان أيضاً صديقاً قديماً له، وأيّ شكوى من هاو كانت تحظى بتعاطف تام، كلّ الأوامر نظرياً كان يجب أن تصل إلى يدي اميرست، في الحقيقة وعلى وجه التحديد كان يجب أن تصدر خلاله بدلاً من جيرمين. على أقل تقدير لا بدّ أنه كان على يقين بما يحدث، ومع ذلك يبدو أن اميرست قد أخفى نفسه عن خشبة المسرح طوال السلسلة الكاملة للأحداث التي توّجت بمعركة ساراتوغا، ليس هناك سجل عن حصوله على أي شكوى مقدمة من هاو، أو أي عملية مراسلة تتعلق بتلك الأحداث، ليس هناك سجل عن إصداره أي ملاحظات أو أي مقترحات أو أي نصائح، ليس هناك سجل عن إصداره أي أوامر من أي نوع، اختفاؤه المطلق سلّط عليه الأنظار، إن كان هناك في الحقيقة قبول ضمني من ناحية هاو وكارلتون لرؤية إخفاق بورغون، فلا شك في أن اميرست كان راضخاً أيضاً وعلى أقل تقدير.

في كل الأحوال ومهما كان دور اميرست أو حياديته كانت النتائج حتمية، قد يكون هناك بعض الشكّ في أن هاو وكارلتون أرادا إخفاق بورغون، السؤال الحقيقي هو لماذا؟، هل الأمر ببساطة أنه كان هناك عداوة شخصية لبورغون أو رغبة حقودة في رؤيته يخسر الثقة؟ ذلك بعيد جداً عن التصور، صحيح أن هاو وكارلتون كليهما كانا يكرهان بورغون بشدة، على نحو قد يمكن تسويغه، ولكن من غير المعقول أنّهما تقبلا التضحية بجيش كامل لإرضاء أحقادهما الشخصية، وخصوصاً أنّ تلك التضحية لن تفيدهما إلا بجعل مهمتها أكثر صعوبة، مهما كانت مشاعرهما الشخصية تجاه بورغون، ما كانا ليتركاه يلاقي مصيره مالم يكن لذلك معنى أوسع، معنى يتعلق ببعض وجهات النظر السياسية العامّة للحرب، ونظراً إلى رؤية هاو وكارلتون للحرب نفهم تماماً هذا المعنى، انحاز المؤرخون إلى عدّ تخلي هاو عن بورغون ناتجاً إما من خطأ فاحش نتيجة لإشارات متشابكة، وإما من إهمال قبيح ومحير، على أي حال وهذه قضية حاسمة كان ذلك في الحقيقة متّسقاً على نحو مثالي مع الطريقة التي نفّذ فيها هاو وكارلتون، وكورنوالِس العمليات العسكرية في كل مراحل النزاع.

كارثة بورغون منحت هاو أيضاً الفرصة التي كان يبحث عنها مدة وعذراً للتخلي عن منصبه القيادي من دون أي وصمة عار شخصية، وفعلاً قام بذلك بعد شهر من معركة ساراتوغا، وبعد شهر أيضاً تبعه مباشرة شقيقه الأميرال ريتشارد هاو.

في اللغة العسكرية الصرفة لم تكن معركة ساراتوغا ذاتها المعركة الحاسمة كما لاحظنا، لم تعطّل الجهود الحربية البريطانية، لم تستنفد القوة البشرية المتوافرة في ميادين الحرب الرئيسة للعمليات العسكرية، لم تشل قدرة القادة البريطانيين الآخرين على القيام بحملة جديدة، على العكس كانت قوات هاو لا تزال سليمة، والموقف الاستراتيجي العام لم يسبق له أن كان أسوأ مما كان عليه آنذاك، لو أن هاو رغب في القيام بذلك، كان لا يزال قادراً على أن يسحق واشنطن.

لكن في اللغة غير العسكرية ساراتوغا كانت في الحقيقة حاسمة، وأشارت إلى نقطة تحوّل الحقيقة في حرب الاستقلال الأمريكية، في المقام الأول زوّدت المستعمرين بالروح المعنوية الهامة التي كانوا في حاجة إليها في ذلك الوقت تماماً، في المقام الثاني لم تدفع فرنسا فحسب للاعتراف بالمستعمرات المتمردة جمهورية مستقلة، بل لدخول الحرب إلى جانبهم أيضاً، هذا كان من شأنه أن يُحدث فارقاً استراتيجياً حاسماً جداً، لقد أدى إلى جلب القوّات الفرنسية النظامية إلى أمريكا الشمالية، لقد جعل البحرية الملكية تتبارى مع أسطول ذي قوّة موازية في المياه الأمريكية الشمالية، وبذلك تحدّ للحصار البحري البريطاني، حتى وإن كان مؤقتاً، خلال طيف العمليات العسكرية في القارة أُلزمت انجلترا بشدّة بحجم القوّات التي بُعثت إلى المستعمرات على الأقل نظرياً، أجبرت الحرب بريطانيا على التوسع بعيداً نحو جبل طارق ومينورقة[1] والهند، باختصار أدت الحرب إلى توسيع الموارد البريطانية العسكرية والبحرية والاقتصادية بطريقة جعلت الحرب تعود بنتيجة عكسية على نحو متزايد.

على أي حال استغرقت هذه النتائج وقتاً لتكون فعالة إلى أن تحقق ذلك، كان النزاع لا يزال مستمراً، في الحقيقة استمرّ أربع سنوات أخرى، في 8 يناير/كانون الثاني عام 1778م تفاوض فرانكلين وسيلاس ديان وآرثر لي في باريس من أجل معاهدة رسمية للتحالف مع فرنسا، لكن في كل أمريكا الشمالية بقيت حالة المستعمرين مستميتة، في مايو/أيار استُبدل هاو بالسّير هنري كلنتن، وكان نائبه تقنياً اللّورد كورنوالِس الذي كان يمارس قيادة مستقلة في أغلب الأحيان، جيش واشنطن أصبح في الواقع ضعيفاً، كان عليه أن يعاني فصلي شتاء إضافيين أكثر شدة من شتاء فالي فورج، كما عانى في النهاية تمرّدات مُوهنة، على أي حال لم يقم كلنتن ولا كورنوالِس بأي محاولة لاستغلال الوضع، في هذه الأثناء انتقلت بؤرة العمليات العسكرية إلى الجنوب.

1 ـ إحدى جزر الباليار، المترجم.

في ديسمبر/كانون الأول عام 1778م احتلت القوات البريطانية سافانّه، وحافظت عليها في أكتوبر/تشرين الأول من السنة التالية من هجوم شنّه المستعمرون، في معظم أوقات عام 1779م كانت العمليات تافهة، ولكن في مايو/أيار عام 1780م احتل كلنتن تشارلز تاون في كارولينا الجنوبية، وأوقع بالمستعمرين الهزيمة الأسوأ في الحرب، في الوقت نفسه قام بنديكت آرنولد بمفاوضات سرية مع كلنتن لتسليم ويست بوينت وهاندسون فالي للبريطانيين، في 16 أغسطس/آب عام 1780م اشتبك كورنوالِس في كامدِن جنوب نيوجرسي ضد هوراشو غيتس الذي انتصر في ساراتوغا، هُزم المستعمرون ثانية، ومات في المعركة بارون دي كالب نائب غيتس، غيتس نفسه هرب من ميدان المعركة، ولم يكن قط بعد ذلك قادراً على تحمل العار، أصبحت الحملة مفككة أكثر فأكثر، وتحولت في النهاية إلى مناوشات فدائية، عدا نصر آخر حصده البريطانيون في غيلفِرد كورت هاوس في 15 مارس/آذار عام 1781م، أخيراً في 7 أغسطس/آب عام1781م أسّس كورنوالِس الذي كان يهاجم في فرجينيا قاعدته في يورك تاون، وسمح لنفسه بأن يصبح مقيداً بشدّة هناك، في 30 أغسطس/آب أحرز الأسطول الفرنسي سيطرة مؤقتة على المداخل، وأنزل قوات بقيادة لافاييت وبارون فون ستيوبن، بعد نحو ثلاثة أسابيع وصل جيش واشنطن، وكورنوالِس ومعه 6000 جندي، وجد نفسه محاصراً من 7000 مستعمر و9000 جندي فرنسي تقريباً، صمد حتى 18 أكتوبر/تشرين الأول، ثمّ استسلم مع أنّ كلنتن ومعه تعزيزات تقدر بـ7000 جندي كان على بُعد مسيرة أقل من أسبوع، من الواضح أنه بهذا الوقت فقدت القيادة العليا البريطانية كلّ اهتمامها بالحرب.

مثل معركة ساراتوغا لم تكن يورك تاون ذاتها معركة حاسمة عسكرياً، جيش كلنتن كان لا يزال في حالة جيدة، وفي أبريل/نيسان عام 1782م حاصر الأميرال رودني الأسطول الفرنسي في جزر الهند الغربية وسحقه تماماً، لو كانت بريطانيا ترغب بمتابعة الحرب، لقامت بمنع وصول المزيد من المساعدات الفرنسية إلى أمريكا الشمالية، ولكن في 27 فبراير/شباط كان البرلمان قد صوت على إيقاف أي إجراءات عسكرية ضدّ المستعمرين، ومن ثم بدأت مفاوضات السلام، استمرت المفاوضات مدة عام تقريباً، وخلال تلك الفترة جرى تعليق كل العمليات العسكرية، عدا العمليات التي طاردت بقايا الأسطول الفرنسي في البحر، أخيراً في 4 فبراير/شباط عام 1783م أعلنت الحكومة البريطانية الجديدة نهاية رسمية للعداوات، في 3 سبتمبر/أيلول جرى توقيع معاهدة

باريس التي تنص على إعلان المستعمرات المتمردة جمهورية مستقلة تُعرف بالولايات المتّحدة، مع شهر نوفمبر/تشرين الثاني انسحبت آخر فرق الجيش البريطاني من أراضي الأمم الجديدة، وجرى حل الجيش القاري، في 23 ديسمبر/كانون الأول تخلى واشنطن عن مهمته قائداً عاماً.

فصل إضافي

الولاء الماسوني

تأثير الماسونية في مسيرة حرب الاستقلال الأمريكية كان مباشراً وغير مباشر، عاماً وخاصاً، في بعض الحالات عمل قناة لنشاطات سياسية، وحتى ثورية، وهكذا نجد على سبيل المثال أن محفل سانت أندرو في بوسطن أدى دوراً مهما في «حفلة شاي بوسطن»، وأيضاً زوّد الكونجرس القاري بالرئيس جون هانكوك، الماسونية أضفت مواقفها وقيمها على الجيش القاري الحديث العهد، وربّما كان لها دور يتعلق بتعيين واشنطن قائداً عاماً، شكّلت أيضاً رابطة أخوية ثابتة مع المتطوعين من الخارج مثل ستيوبن ولافاييت.

بطريقة أقل مباشرة وقياساً ساعدت الماسونية على خلق جوّ عامّ أو مناخ أو بيئة نفسية، مهّدت لصياغة تفكير الإخوة النشطاء مثل فرانكلين وهانكوك، ليس الإخوة فحسب، بل غير الماسونيين أيضاً، المبادئ التي كانت تماماً في جوهر النزاع كالحريّة والمساواة والأخوة والتسامح وحقوق الإنسان ما كانت لتحصل على التيار الذي حصلت عليه من دون ماسونية القرن الثامن عشر، في الحقيقة دانت تلك المبادئ بالكثير للوك وهيوم وآدم سميث والفلاسفة الفرنسين، ولكن معظم أولئك المفكّرين كانوا إمّا ماسونيين، وإما يتنقلون في الحلقات الماسونية وإما متأثّرين بالماسونية إن لم يكن كلّهم.

لكن الماسونية تسربت إلى القاعدة[1] أيضاً، هي لم تساعد على صياغة القيم الضمنية لحرب الاستقلال الأمريكية فقط، ولم تساعد على التأثير في فكر السياسيين ورجال الدولة والمخطّطين ذوي المستوى الرفيع وصنّاع القرار فقط، ولم تساعد على صياغة مواقف الرجال مثل هاو وكارلتون وكورنوالِس وواشنطن ولافاييت وستيوبن فقط، بل غمرت «أعضاء القاعدة» في الحرب أيضاً، أي «الجنود العاديين» الذي وجدوا فيها رابطة توحيدية ومبدأ للتضامن، هذا كان صحيحاً على نحو خاص لدى الجيش القاري الذي شكّلت الماسونية به القاعدة للهمّة الحيوية وروح القتال بغياب التقاليد الصارمة فيه، في الجيش البريطاني أيضاً لم تحدث الماسونية علاقات وثيقة بين الجنود فحسب، بل بين الجنود وضبّاطهم أيضاً، وهكذا نجد مثلاً أن محفل فوج المشاة التاسع والعشرين

1ـ القاعدة، جمهور أفراد المؤسسة أو الجمعيّة أو الدولة تمييزاً لهم من القادة والزعماء، أي الناس العاديين، المترجم.

الذي أصبح لاحقاً فوج وسترشير تضمّن مقدّمين وملازمين أولين وثمانية مجنّدين، محفل فوج المشاة التاسع والخمسين الذي أصبح لاحقاً فوج شرق لانكاشير تضمّن مقدّماً ورائداً وملازمين أولين وضابطاً في الخدمات الطبية وضابطاً في الفرقة الموسيقية، وثلاثة رقباء وعريفين وثلاثة مجنّدين.

ولم ينحصر تأثير الماسونية بين أفراد كل من الجيشين المعنيين أيضاً، بل سرى تأثيرها أيضاً بين الخصوم، حرب الاستقلال الأمريكية تعج بالحكايات التي تشهد على الطريقة التي اتسم بها كل الآخرين بالولاء للماسونية، بل وصل ذلك الولاء إلى غيرهم أحياناً.

من أقرب حلفاء الجيش البريطاني الهنود في أثناء الحرب كانت قبيلة الموهوك (Mohawks) بقيادة زعيمهم المشهور جوزيف برانت، قبل النزاع تزوجت شقيقة برانت من السّير وليام جونسن الذي كان زميل اميرست والسيد الأعظم الإقليمي لنيويورك، في زيارة إلى لندن عام 1776م أصبح برانت نفسه ماسونياً، في وقت لاحق من تلك السنة في أثناء احتلال المستعمرين غير الناجح لكندا أُسِر النّقيب ماكِنستري من بعض رجال قبيلة برانت، وجرى ربطه بشجرة وأُحيط بالأغصان التي استعدّ الهنود لإشعالها، عندما نطق ماكِنستري بـ «توسل ماسوني»، ميزه برانت، وأمر بإطلاق سراحه، جرى تسليمه إلى المحفل البريطاني في كوبك، حيث رتّب عودته إلى الوطن.

من سجناء الحرب الذي أسرهم هاو من نيويورك كان هناك ماسوني محليّ يُدعى جوزيف بورنهام، بورنهام استطاع الهروب مشياً على الأقدام، وفي إحدى الليالي آوى نفسه في الألواح الخشبية التي تسقف أحد المحافل المحليّة، الألواح الخشبية التي لم تكن مسمّرة سقطت، وأسقطت معها بورنهام وسط اجتماع سري للضبّاط البريطانيين المندهشين في الغرفة في الأسفل، تعرفوا إلى بعضهم بالإشارات السرية، ومن ثم قدم الضبّاط البريطانيون «مساهمة كبيرة للأخ بورنهام الذي نُقل بعد ذلك بسرية وعجلة إلى شاطئ جيرسي».

في مناسبة أخرى كان جوزيف كليمنت الماسوني البريطاني من فوج المشاة الثامن، فوج ليفربول لاحقاً يقوم بدورية حراسة عندما شاهد هندياً يستعدّ لسلخ فروة رأس سجين من المستعمرين بعد أن حصلت بينهما مناوشة، السجين أظهر لكليمنت إشارة ماسونية طالباً الحماية، أمر كليمنت الهندي بالانصراف، ثمّ نقل السجين إلى بيت ريفي في مكان قريب، حيث جرت رعايته إلى أن استعاد عافيته، ثمّ أرسل إلى البيت، بعد بضعة شهور في شمال نيويورك، أُسر كليمنت نفسه وأُودع في سجن محليّ، ظهر أن المكلف

بحراسته هو الرجل نفسه الذي أنقذ حياته سابقاً، وفي تلك الليلة جاء إليه صديق وأخبره بأنه عند الفجر سيكون باب السجن مفتوحاً، وأنّ حصاناً بانتظاره في الخارج، لكي يتمكن من الهرب إلى الحدود.

إن كان هذا النوع من الوئام قد حصل بين الضبّاط والجنود، فإنه كان أيضاً بين القادة، في 16 أغسطس/آب عام 1780م اشتبك كورنوالِس ضد القوات الاستعمارية بإمرة هوراشو غيتس وبارون دي كالب في معركة كامدِن كما رأينا، عندما انهار الموقع الاستعماري هرب غيتس من الميدان سابقاً جنوده، كالب الذي يُعدّ تقليدياً ماسونياً أُصيب بجروح خطيرة، وجده فرنسيس رودون الذي كان نائب كورنوالِس، كما كان إيرل مويرا، وبعد عقد أصبح السيد الأعظم بالوكالة للمحفل الكبير في انجلترا، أُخذ كالب إلى خيمة مويرا، حيث اعتنى به مويرا شخصياً مدة ثلاثة أيام، عندما توفي كالب رتب له مويرا جنازة ماسونية[1].

ضمن كلا الجيشين عملت الماسونية محكمة استئناف، تعالج وتنظر في الشّكاوى، لذكر أحد الأمثلة من الفترة التي بعد الحرب قدّم المحفل الميداني في سلاح الفرسان الرابع عشر عام 1793م عريضة تطلب من المحفل الأم، المحفل الإيرلندي الكبير أن «يتوسّط عند ممثل الملك، أو عند القائد الأعلى لمصلحة شخص ما يُدعى جي. ستودارت الذي كان ضابط الإعاشة في الفوج، العريضة أُرسلت وفقاً لذلك إلى العقيد كرادوك الذي كان قائداً للفوج وزميلاً ماسونياً، والذي بأمر من هذا المحفل الكبير سيستعمل على نحو عطوف نفوذه الودّي والأخوي لمصلحة الأخ المذكور ستودارت».

في كل فترات حرب الاستقلال الأمريكية هناك روايات عن مصادرة الكفالات والأزياء الرسمية والشعارات لمحافل عسكرية من كلا الطرفين، وأنها أُعيدت بحسب الأصول، في حالة واحدة أسرت القوّات الاستعمارية الشعارات والأزياء الرسمية لفوج المشاة السادس والأربعين الذي أصبح لاحقاً الفوج الثاني في فرقة المشاة الخفيفة لدوق كورنوال، بأوامر من جورج واشنطن أُعيدت جميعها تحت راية الهدنة مرفقة برسالة مفادها أنه ورجاله «لم يشنّوا حرباً على المؤسسات الخيرية»، في مناسبة أخرى جرى بالطريقة نفسها أسر كفالة (تفويض) فوج المشاة السابع عشر فوج ليستيرشاير لاحقاً ، أُعيدت أيضاً ومرفقة برسالة من الجنرال صموئيل بارسونز، هذه الرسالة نموذج بليغ للروح التي تبنّتها الماسونية في كلا الجيشين وفي كلّ الرتب:

1ــ كالب يُزعم أنه كان عضواً في محفل الجيش القاري ذي الرقم 29 الذي شُكّل في عام 1780م، مع ذلك ليس هناك برهان مطلق، المؤلفان.

أيها الإخوة:

عندما يتسبّب طموح الملوك، أو المصالح المتعارضة للولايات المتنافسة بالحرب، نحن الماسونيين البعيدين عن ذلك الاستياء الذي يحرّض على خراب غير مسوغ، ومهما كانت مشاعرنا السياسية التي قد تدفعنا إلى نزاع عامّ، نحن لا نزال إخوة، و(واجبنا المهني) يجب أن ينمّي السعادة، ويقدّم الرخاء لبعضنا.

لذلك اقبلوا من يدي أحد الإخوة دستور المحفل «الوحدة ذات الرقم 18» الذي كان في الفوج البريطاني السابع عشر، والذي جعلته محنتكم الأخيرة تحت سيطرتي وأنا أعيده إليكم.

أخوكم وخادمكم المطيع صموئيل اتش. بارسونز.

القسم التاسع عشر

الجمهورية

في نوفمبر/تشرين الثّاني عام 1777م بعد فترة قليلة من معركة ساراتوغا وافق الكونجرس القاري عموماً على الأقل على نموذج الحكومة الّتي ستتبنّاها الجمهورية الجديدة، هذا النموذج هو أن تصبح الولايات فدرالية، وكلّ منها سيصدق رسمياً على بنود الاتحاد الفدرالي، مشاحنات بشأن حدود الولايات أخّرت تلك العملية، وبنود الاتحاد لم يصدق عليها كلّ المستعمرات الثلاث عشرة حتى بداية مارس/آذار عام 1781م، أي قبل سبعة شهور من استسلام البريطانيين في يورك تاون، ولكن مضت ستّ سنوات أخرى قبل أن يجري إحراز أي تقدم ملحوظ.

بين عامي 1783م و1787م كان هناك ثغرة، وكأنّ المستعمرين أُصيبوا بالدوار نتيجة لما حققوه، ومن ثم كانوا في حاجة إلى مهلة، ليستعيدوا وضعهم الطبيعي، ويتخلصوا من الدوار، يُذكر أن عدد السكان كان نحو 211. 000، وهو أقل مما كان قبل الحرب، هذا الهبوط في التعداد السكاني كان سببه على الأغلب أن المستوطنين الموالين للتاج هربوا عائدين إلى انجلترا، أو بأعداد أكثر إلى كندا.

أخيراً، في 25 مايو/أيار عام 1787م عُقد المؤتمر الدستوري في فيلادلفيا، واستهل جهوده لابتكار آلية عمل حكومة الأمة الجديدة، الصوت الأول الذي لفت الأنظار إليه بطريقة مؤثرة جداً كان على نحو مميز صوتاً ماسونياً، إنه إدموند راندولف، معظم عائلة راندولف بقيت موالية للتاج، وعادت إلى انجلترا في عام 1775م، على أي حال أصبح راندولف نفسه الذي كان عضواً في محفل وليامزبرغ معاون واشنطن، بعد ذلك المدعي العام، ثمّ حاكم فرجينيا، والسيد الأعظم لمحفل فرجينيا الكبير، في أثناء رئاسة واشنطن عمل في منصب المدعي العام الأول في الولايات المتّحدة، ثمّ وزير الخارجية الأول.

في أثناء المؤتمر الدستوري لم يكن له دور في النقاش مع تعيين واشنطن رئيساً ، ومن الممكن أن راندولف نوعاً ما عمل وكيلاً عنه أو ناطقاً بلسانه على الأقل، اقترح راندولف أنّ الاتفاقية يجب ألا تكون مراجعة أو تنقيحاً أو تعديلاً لبنود الاتحاد التي وحدت جميع المستعمرات الحديثة الاستقلال حتى ذلك الحين، اقترح أنّ يجري تأسيس

قاعدة جديدة لحكومة مركزية، جرى تبنّي هذا المقترح، وبدأ العمل على صياغة الاتحادات المتفككة للأقاليم السابقة لتشكيل أمة واحدة.

التاريخ طبعاً شهد جمهوريات قبل ذلك، في الحقيقة يعود مفهوم الجمهورية إلى الأزمنة الكلاسيكية، إلى اليونان القديمة وروما في الفترة التي قبل الإمبراطورية، ولكن لأن المندوبين إلى المؤتمر الدستوري كان اطلاعهم ضعيفاً، كلّ هذه الجمهوريات السابقة كانت عرضة لمشكلات مزمنة كتلك التي أصابت الحكومات الملكية، على رأس هذه المشكلات تقبع نزعة الحكومات الجمهورية التي تسقط بأيدي الأفراد أو السلالات الدكتاتورية، والتي تتحول بعد ذلك، لتصبح استبدادية، كما هو الحال في أيّ عائلة ملكية، وأحياناً على درجة أكبر كثيراً، استناداً إلى هذه النزعة أصبح المفهوم الجمهوري ذاته على نحو سيئ غير مرغوب فيه لدى الفلاسفة الاجتماعيين في القرن الثامن عشر، حتى بين المفكّرين الأكثر اطّلاعاً في عصرهم، كان هناك تخوف عميق إن كانت الجمهورية[1] تعد نموذجاً فعّالاً من الحكومة، هيوم على سبيل المثال نبذ هذه النزعة، ووصفها بأنها «بدعة خطرة»، كما قال إنه مهما كان الحكم الملكي مقرفاً مع ذلك لا يزال أفضل، المندوبون في المؤتمر الدستوري واجهوا تلك المشكلات، عملوا ذلك بابتكار مبدأين والتشديد عليهما، وإن جرى التمسك بهما معاً فقد يشكلان التطور الأوحد للنظم السياسية في ذلك العصر.

المبدأ الأول هو أن تكون السلطة في المنصب لا في الرجل، وأن الرجل سيُستبدل في منصبه وفق فترات منتظمة بالتصويت، الفرد الذي يشغل منصباً سياسياً أو حكومياً من الممكن أن تُنزع منه الصلاحيات المرافقة لذلك المنصب، ولكن من غير الممكن أن تلازمه تلك الصلاحيات، هذا مبدأ معروف، ومن غير الممكن أنه جديد مرة أخرى وعلى نحو مرغوب فيه كأنه نظرية جرى انتهاك هذا المبدأ حتى إنه أصبح غير موثوق، في أمور الحكومة خصوصاً الفصل النظري بين الشخص والمنصب هو مبدأ يخدع نفسه في أغلب الأحيان وعلى نحو شنيع، حتى إنه لا يوحي إلا بالسخرية، رجال مثل لوك وهيوم وآدم سميث لم يتنازلوا حتى لذكره، ومع ذلك كانت الماسونية إحدى المؤسسات القليلة في القرن الثامن عشر التي جرى تطبيق هذا المبدأ فيها عملياً، وتميزت بدرجة من الاحترام، السادة والأسياد العظام انتُخبوا من نظرائهم مدّة خدمة محدودة، هم لم يمارسوا سلطة استبدادية، بل على العكس ربما حملوا، وعلى الأغلب حملوا على عاتقهم المسؤولية، وعندما يظهر أنهم غير جديرين بالمنصب الذي حصلوا عليه بالانتخاب، قد تجري

1ــ الحكم الجمهوري، المترجم.

معاقبتهم أو خلعهم، ليس بالثورة أو بالانقلاب أو بأي وسائل عنيفة أخرى، بل بالجهاز الإداري الرسمي، ولا يجري أيضاً التقليل من كرامة المنصب[1].

من أجل ضمان فصل الرجل عن المنصب ابتكر المؤتمر الدستوري مبدأه التوجيهي الثاني، ذلك المبدأ الذي جسد مساهمة فريدة في التاريخ السياسي للعهد، طبقاً لنظام يُسمّى «عمليات المراقبة والموازنة» يجب توزيع السلطة على السواء بين الهيئتين الحكوميين المتميّزين والمستقلتين ذاتياً، السلطة التنفيذية وتتمثل بالرئاسة، والمجلس التشريعي المتمثل بالكونجرس بمجلسيه[2]، استناداً إلى الاستقلال الذاتي، أي من هاتين الهيئتين يمكنها إحباط أيّ تركيز مفرط للسلطة في يدي الهيئة الأخرى، وفصل الرجل عن المنصب سيكون مضموناً في كلتا الهيئتين بانتخابات نظامية وإلزامية قانوناً، مشابهة لتلك التي تحصل في نظام المحفل، هذه الانتخابات لم تكن مجهولة في أماكن أخرى في القرن الثامن عشر، لكنّها كانت مطبقة فقط على السلطة التشريعية في الحكومة، والتي كانت في أغلب الأحيان ضعيفة، وعملها إلى حد كبير يقتصر على محاكاة السلطة التنفيذية وتقليدها، على أي حال في الجمهورية الأمريكية الجديدة جرى وضع هذا المبدأ لكي يؤثر في السلطة التنفيذية، أي رئيس الدولة أيضاً، هنا أيضاً يظهر تأثير الماسونية.

لا شك في أن الماسونية ساهمت على نحو ما في أبنية الحكومة الأمريكية الجديدة وأجهزتها، في الحقيقة تلك الأبنية تخطيطية على درجة كبيرة، وهندسية في تصميمها على نحو كبير، وتشبه النماذج الحرفية المبدعة التي أنتجتها «الكليّة الخفية» والجمعية الملكية قبل قرن من ذلك تعمل على تطبيق سياسة «الطريقة التجريبية» المحببة جداً لـ «الكليّة الخفية» والجمعية الملكية تعمل أيضاً وعلى نحو محدّد على تطبيق سياسة مبادئ الهندسة المعمارية، ولكن إن كانت الماسونية قد أثرت على نحو كبير كهذا في أبنية الحكومة الأمريكية، فإنها بلا شك أثرت على نحو أكبر في النموذج العامّ لتلك الحكومة، طبقاً لأحد المعلّقين:

مع أننا أحرار، ولم نكن موحَّدين، المقالات المتفككة للاتحاد الفدرالي لم تقدم حكومة وطنية قوية، أو عملة مشتركة أو نظاماً قضائياً راسخاً، الرجال البعيدو النظر

1ـ بينما أندرسن منذ عام 1738م يرى أنه ليس هناك داع لوجود قاعدة معيّنة في هذه الحالة، من الواضح أنه في وقت لاحق من ذلك القرن كان أعضاء المحفل قادرين على معاقبة سيدهم وإزاحته، في هذه الحالة يستلم القيّم (المراقب) الأقدم مكانه إلى أن يجري الانتخاب القادم في عيد القدّيس يوحنا التالي، المؤلفان.

2ـ يضم الكونجرس مجلسين، مجلس النواب ومجلس الشيوخ، المترجم.

أدركوا أنّه من الضروري اتخاذ خطوة إضافية، لكي يصبح الاتحاد الضعيف للولايات الأمريكية أمة موحّدة قوية، مرة ثانية وضعت الماسونية نمط النظام الاجتماعي وشكله، ولأن النظام الذي ينظم الوحدة الماسونية كان النمط الوحيد الفعّال في كلّ من المستعمرات الأصلية الثلاث عشرة، كان طبيعياً أن يقوم الإخوة الوطنيون العازمون على تقوية الأمة الجديدة بعدّ قاعدتهم التنظيمية نموذجاً، بغض النظر عن القوات الأخرى التي أثّرت في تشكيل الدستور في أثناء المؤتمر الدستوري في عام 1787، تبقى الحقيقة أن الفدرالية التي أسّست الدستور المُحدث في الحكومة المدنية مماثلة للفدرالية في نظام المحفل الكبير للحكومة الماسونية التي أسست دساتير أندرسن عام 1723م.

هذا البيان صادر من كاتب أمريكي ماسوني، وهو يبالغ في وصف حالته وفي تبسيطها، الحقيقة كانت أقل وضوحاً وأكثر تعقيداً، ولا تظهر إلا تدريجياً بنقاش أكثر فعالية، ومع ذلك يبقى الجوهر العام لهذا الزعم صحيحاً، الماسونية زوّدت نموذجاً سلساً من النظام الاتحادي الفعّال، وربما النموذج الوحيد من نوعه في ذلك الوقت، تلك الحقيقة كانت واضحة للمندوبين في المؤتمر الدستوري أكبر من وضوحه لنا اليوم، إذ إنه في الوقت الراهن هناك الأنظمة الاتحادية في عدد كبير من المؤسسات، وتُعدّ تقريباً أمراً طبيعياً، في القرن الثامن عشر قدمت الماسونية شهادة مثيرة على التأثير الذي يمكن أن يُحدثه النظام الاتحادي، لقد زوّدت بسابقة مطلوبة كثيراً، إن كان هذا النظام عملياً على نحو واضح في الماسونية، فلا بد أنه على الأقل جرى تطبيق نموذج منه على الحكومة.

التأثير الماسوني في الدستور

كانت الأحداث القديمة لحرب الاستقلال الأمريكية، الأحداث منذ «حفلة شاي بوسطن» وحتى وثيقة الاستقلال تمتلك زخماً خاصاً كما رأينا، الشعب كان يواجه أموراً واقعة يومياً تقريباً، أموراً يجب عليهم بعد ذلك الاستفادة منها بأفضل حال، وأن يبنوا عليها ما هو أفضل، هذا استوجب ارتجالاً متواصلاً تضمن الكثير من المنظمات، ليس فقط الماسونية، بل جمعيات مثل «أبناء الحريّة» الراديكاليين أيضاً، ومن بين الأفراد الذين أدّوا أدواراً بارزة في تلك الفترة كان هناك جزء فقط من الماسونيين، الماسونية مارست تأثيراً معتدلاً، لكنّها لم تكن التأثير الوحيد، فهي لم تكن تمتلك السلطة ولا حرية الاختيار لتغيير الأشياء كلياً وفقاً لنماذجها، وثيقة الاستقلال مثلاً لا يمكن عدّها وثيقة ماسونية، ناهيك ببعض مفرداتها وأسلوبها الخطابي.

من الناحية الأخرى دستور الولايات المتّحدة وضع حداً لبعض الأمور وبمفهوم حقيقي جداً، في الوقت الذي عُقد فيه المؤتمر لتأليف الدستور كانت التأثيرات الماسونية

سائدة ومهيمنة على نحو صريح، بينما حُلّت المنظمات الأخرى مثل «أبناء الحريّة» بعد أن أدت أهدافها، وحتى الجيش القاري حُلّ أيضاً، في أثناء المؤتمر الدستوري لم تكن الماسونية فقط المنظمة الوحيدة «الباقية»، بل كانت الجهاز التنظيمي الحقيقي الوحيد أيضاً لأيّ نوع يعمل خلال الحدود الرسمية، وفي كل أنحاء المستعمرات الحديثة الاستقلال.

الدستور في نموذجه النهائي كان نتاج الكثير من العقول والأيدي التي لم تكن كلّها ماسونية طبعاً، الوثيقة ذاتها كانت من صنع توماس جيفيرسن، ومع أنه يدّعي في بعض الأحيان أنه ماسوني، إلا أنه لم يكن كذلك، ولكن في النهاية كان هناك خمس شخصيات مهيمنة وموجِّهة للدستور، واشنطن، فرانكلين، راندولف، جيفيرسن وجون أدامز، الثلاثة الأوائل لم يكونوا من النشطاء الماسونيين فقط، بل كانوا أيضاً رجالاً أخذوا على نحو كبير ماسونيتهم على محمل الجد، الرجال الذين تبنّوا قيمها بحماسة والذين تكيّفت كامل توجهاتهم وتشكّلت وفقاً لها، وموقف أدامز كان مشابهاً لهم عملياً، مع أنه تحديداً لم يُعرف إن كان ماسونياً أم لا، علاوة على ذلك عندما أصبح رئيساً قام بتعيين أحد الماسونيين البارزين، جون مارشال رئيس المحكمة الأول في المحكمة العليا[1]، مارشال هو من جعل المحكمة في منزلة مساوية للكونجرس والرئاسة بعد ذلك.

في المحاورات والمناقشات التي توّجت في النهاية في إعلان الدستور كان أدامز متفقاً مع واشنطن وفرانكلين وراندولف مع أنه في الحقيقة لم يكن كذلك آنذاك، جيفيرسن كان «الرجل الشاذّ» بينهم فقط، وجيفيرسن هو من استسلم في النهاية لينسجم مع مواقف الماسونية، الجمهورية الجديدة توافقت مع تصوراتهم المثالية كما تجلت في الدستور كما يبدو، وتلك التصورات تعكس القيم الماسونية.

قيادة جورج واشنطن الماسونية

في 17 سبتمبر/أيلول عام 1787م قُبلت مسوّدة الدستور، وجرى تصديقها وتوقيعها من تسعة وثلاثين مندوباً من أصل اثنين وأربعين من الحضور، بين 7 ديسمبر/كانون الأول و25 يونيو/حزيران من السنة التالية كلّ الولايات صدقت عليه على حدة، ولاية ميريلند تركت عشرة أميال مربّعة من أرضها للكونجرس، كما هو موصوف بالدستور، وهذه الأرض، مقاطعة كولومبيا أصبحت موقع العاصمة الاتحادية الجديدة.

1ـ مارشال كان عضواً في المحفل ذي الرقم 13 في ريتشموند في فيرجينيا، منذ 28 أكتوبر/تشرين الأول عام 1793م كان نائب السيد الأعظم لفرجينيا، وخدم فترة قصيرة سيداً أعظم، المؤلفان.

في 4 فبراير/شباط عام 1789م جرى انتخاب واشنطن أول رئيس للولايات المتحدة الأمريكية وجون أدامز نائباً للرئيس، التنصيب الرئاسي جرى في 30 أبريل/نيسان، ومراسم أداء القسم أدارها روبرت ليفنغستن الذي كان السيد الأعظم لمحفل نيويورك الكبير، وحما الجنرال المتوفى ريتشارد مونتغومري، ومدير المراسم في ذلك اليوم كان الجنرال يعقوب مورتُن الذي كان ماسونياً أيضاً، وكذلك هناك ماسوني آخر هو الجنرال مورغان لويس الذي كان مرافق جورج واشنطن[1]، الكتاب المقدس الذي استُعمل للقَسم من نيويورك من «محفل القدّيس يوحنا ذي الرقم واحد»، واشنطن نفسه كان في ذلك الوقت زعيم محفل الاسكندرية ذي الرقم 22 الذي كان في فرجينيا.

قبل ثلاثة عشر يوماً من التنصيب توفي فرانكلين، وخرج أكثر من نصف سكان فيلادلفيا في جنازته، بعد خمسة أيام من التنصيب اجتمع مجلس الطبقات الفرنسي[2] في فيرساي، وفي 17 يونيو/حزيران شكّل الجمعية الوطنية، ليعلنوا أنهم الممثلون الحقيقيون للشعب الفرنسي وليس الملك، في 14 يوليو/تموز اقتحم الثوار في باريس سجن الباستيل، في 14 ديسمبر/كانون الأول قدّم ألكساندر هاملتن مقترحات لتأسيس المصرف الوطني، جيفيرسن عارضها، لكن واشنطن وقّعها، على ورقة الدولار الأمريكية طُبع «الختم العظيم» للولايات المتّحدة، الختم ماسوني على نحو واضح، عين ناظرة من مثلث، يعلو هرماً رباعي الأضلاع من ثلاث عشرة طبقة، وتحته كتابة ملتفة، تُعلن عن وصول «نظام علماني جديد»، وهو أحد الأحلام الماسونية القديمة.

في 18 سبتمبر/أيلول عام 1793م جرى رسمياً وضع حجر الأساس لمبنى الكابيتول، المحفل الكبير في ميريلند ترأس المراسم، وطُلب من جورج واشنطن أن يصبح الزعيم، المحافل الخاضعة لسلطة ميريلند القضائية كانت موجودة، وكذلك محفل الاسكندرية في فرجينيا الذي كان المحفل الخاص لجورج واشنطن، كان هناك موكب عظيم، تضمّن مشاركة سلاح المدفعية، بعد ذلك جاءت الفرقة الموسيقية، كان واشنطن نفسه يسير خلفها، ومعه كلّ ضبّاط المحافل وأعضاؤهم في أزيائهم الرسمية الكاملة.

1ـ مورغان لويس نسيب كل من روبرت ليفنغستن والجنرال ريتشارد مونتغومري، وكان السيد الأعظم للمحفل الكبير في نيويورك منذ عام 1830م إلى عام 1843م، كان ماسونياً في عام 1777م، يعقوب مورتن كان زعيم محفل «القدّيس يوحنا ذي الرقم واحد» في نيويورك، في عام 1788م حلّ محل ليفنغستن سيداً أعظم للمحفل الكبير في نيويورك في عام 1801م، احتفظ بهذا المنصب حتى عام 1805م، المؤلفان.

2ـ مجلس الطبقات: مجلس طبقات الأمة الثلاث، طبقة النبلاء وطبقة الإكليروس وطبقة الشعب، في فرنسا قبل الثورة، المترجم.

عندما وصل واشنطن إلى النفق الذي وُضع فيه حجر الأساس الجنوبي الشرقي كان معه طبق فضّي لإحياء الحدث منقوش عليه أسماء المحافل التي كانت حاضرة، سلاح المدفعية أطلق وابلاً من قذائفه، بعد ذلك نزل واشنطن إلى النفق، ووضع الصحن على الحجر، ووضع حوله أوعية تحتوي على الذرة والنبيذ والزيت، وهي التجهيزات الرمزية القياسية للشعائر الماسونية، كلّ الحاضرين شاركوا في الصلاة والهتافات الماسونية، وأطلقت المدفعية وابلاً آخر.

بعد ذلك ذهب واشنطن وحاشيته إلى الجهة الشرقية من حجر الأساس، حيث كان الرئيس واقفاً على منصة ذات ثلاث درجات، كما في التقاليد الماسونية، وألقى خطاباً تلاه المزيد من الهتافات الماسونية، وأُطلق الوابل الأخير من المدفعية، المطرقة والمالج الفضي والكوس والشاقول التي استخدمها واشنطن في المراسم كانت اليوم في محفل «بوتوماك ذي الرقم 5» في مقاطعة كولومبيا، المئزر والحزام اللذان لبسهما كانا في محفله الخاص، محفل «الاسكندرية ذي الرقم 22».

بعد ذلك أصبح كل من الكابيتول والبيت الأبيض نقاطاً مركزية للهندسة المتقنة التي تسيطر على تخطيط عاصمة الأمة[1]، هذه الهندسة ابتكرها أصلاً مصمّم يدعى بيير لِنفنت، بعد ذلك قام واشنطن وجيفيرسن بتعديلها للتوصل على نحو خاص إلى أنماط ثُمانية الأضلاع، تندمج ببعضها بتقاطع وطريقة معيّنة، كانت تستُعمل شعاراً لفرسان الهيكل الماسونيين.

بعد ست سنوات وثلاثة أشهر، أي في ديسمبر/كانون الأول 1799م توفي واشنطن، دُفن بمنزله في ماونت فيرنون قام بمراسم الدفن محفل «الاسكندرية ذو الرقم 22» بإجلال ماسوني خالص، وأعضاء هذا المحفل كانوا حاملي بساط الرحمة في الجنازة.

1ـ لو راجعنا الصورة ذات الرقم 36 لعلمنا ما يُقصد بهذه العبارة، لاحظوا التشابه بين التصميم الهندسي لمدينة واشنطن والبيت الأبيض والكابيتول، المترجم.

خاتمة

في حرب الاستقلال الأمريكية لم تكن الماسونية في الأساس سياسية، أو بالأحرى سياسية على نحو ثانوي فقط، كان هناك ماسونيون في كلا الجانبين، وبين الفئات المتطرفة والمحافظة من كليهما مثّلت الماسونية صوت الاعتدال والتوسّط في الجزء الأكبر، ولكن بعض الأفراد الماسونيين كانوا ثوريين بروح فدائية، وآخرين كانوا رجعيين بإخلاص، هذا النوع من التنوع استمرّ من القرن الثامن عشر وحتى التاسع عشر، ولكن في فكر الكثير من الناس كانت الماسونية مرتبطة مباشرة تماماً بالثورة الأمريكية والاستقلال، حتى إنها بدأت على نحو متزايد تكتسب صورة التطرّف، لا حاجة إلى القول إن تلك الصورة أصبحت مدعومة بالثورة الفرنسية.

على نحو مؤكد الماسونية أدت دوراً مهماً في أحداث فرنسا، لافاييت في ذلك الوقت كان ماسونياً كبيراً وقديماً، وكان متلهّفاً لاستيراد القيم التي رآها تتحقق في أمريكا إلى بلاده، الكثير من اليعقوبيين[1] البارزين، دانتون[2] على سبيل المثال، سِيْيَيْس[3] وكميل ديمولان[4] كانوا من الماسونيين النشطاء، إبّان الثورة وفي كل أنحاء فرنسا زوّدت الماسونية المتآمرين الفدائيين بشبكة قيمة من الاستخبارات والتجنيد والاتصالات والتنظيم، حتى إنها أصبحت في الحقيقة مستودعاً مثالياً للذعر وجنون الارتياب.

نشر الأب أوغسطين دي بارول وهو أسقف فرنسي محافظ جداً في عام 1797م كتاب «مذكرات تاريخ اليعقوبية» الذي أصبح خطاً بارزاً في التاريخ الاجتماعي الغربي وفكره السياسي، في الواقع كتاب بارول نسب كلّ الثورة الفرنسية إلى مؤامرة ماسونية موجّهة نحو كلتا السلطتين الرسميتين العلمانية والكنسية، هذا العمل أدى إلى موجة من الهستيريا وإلى توالد أعمال متنامية من الأدب المماثل، حتى إنه أصبح توراة حقيقية لأتباع نظريات المؤامرة، من كتاب بارول المتطرف والمصاب بجنون الارتياب اشتُقّت صورة القرن التاسع عشر المبتذلة عن الماسونية، والتي لا تزال حتى الوقت الحاضر، والتي تقول إن الماسونية هي مؤامرة دولية واسعة، ومعادية على نحو ثوري وفدائي للكنيسة، ومكرّسة

1ـ اليعقوبي واحد اليعاقبة، وهم مجموعة المتطرّفين اليساريين التي تأسّست في أثناء الثورة الفرنسية، وعُرفت بنشاطها الإرهابي، في 1793م أسقطوا الجمهوريين الأكثر اعتدالاً ما سمح لزعيم المجموعة روبسبيير مكسيميليان بالبدء بعهد الإرهاب، وبوضع معايير ثورية، المترجم.

2ـ دانتون، جورج جاك (1759م-1794م) أحد زعماء الثورة الفرنسية، أُعدم بالمقصلة، المترجم.

3ـ سِيْيَيْس، عمانوئيل جوزيف (1748م-1836م) كاهن وثوريّ فرنسي، المترجم.

4ـ ديمولان، كميل (1760م-1794م) أحد زعماء الثورة الفرنسية، عُرف باعتداله ومقاومته للتطرف، أُعدم، المترجم.

لإسقاط منشآت ومؤسسات «النظام العالمي الجديد»، نتيجة لعمل بارول لم تُسلّط المخاوف الغامضة والعُصابية على الماسونية فقط، بل على الجمعيات السرية كلها، في معظم أوقات القرن التاسع عشر وتماماً حتى القرن العشرين، استناداً إلى بارول أصبحت الجمعية السرية خيالاً يطارد الفكر العامّ، ويهدّد بالتقويض التام لمؤسسات المجتمع المتحضّر، وحش له مكانة تعادل الإرهاب الدولي في عصرنا الراهن، بمسوّغات أكثر بعض الشيء[1].

ربما لا عجب من أن عمل بارول أصبح أحياناً نوعاً من النبوءة الحقيقية، بعد أن أغراهم سحر بارول المبهرج وخياله، على سبيل المثال تشارلز نوديير في فرنسا، والمتآمر الكبير فيليبو بواناروتي قاما بابتكار معلومات خيالية وكتابتها وطرحها ونشرها تماماً عن الجمعيات السرية، بتأجّج أشبه بمحكمة التفتيش ردّت السلطات وفقاً لذلك ومن ثم جرى استباحة أشخاص أبرياء واضطهادهم تماماً لانتسابهم المزعوم إلى منظمات سرية غير موجودة أصلاً إجراء دفاعياً، هؤلاء الضحايا المنحوسون سيوحدون صفوفهم ضمن جمعية سرية حقيقية، تتطابق مع مخطّط تلك الجمعيات الخيالية التي اتهموا بانضمامهم إليها، وهكذا نشأت عدة تنظيمات ثورية سرية، بعضها كان ماسونياً أو شبه ماسوني، وهكذا أحدثت الأسطورة «تاريخاً»[2] مرة أخرى.

مما لاشكّ فيه ساهمت الماسونية أو فروعها في حركات ثورية مختلفة في القرن التاسع عشر في أوروبا، كل من ماتزيني وغاريبالدي على سبيل المثال كانا ماسونيين نشيطين، والماسونية وعلى نحو كبير خلال مجموعة كاباناري[3] أدت أيضاً دوراً هاماً في توحيد إيطاليا[4]، وعلى نحو أكبر كثيراً من دورها في تأسيس الولايات المتّحدة، في روسيا أيضاً، الماسونية عدّت هدّامة، وأحياناً كانت كذلك فعلاً، على سبيل المثال يكتب بوشكين[5] عن عضويته في محفل في كيشينف، ذلك المحفل الذي أدت نشاطاته في

1- إن من نتائج التحالف الماسوني البروتستانتي مع اليهودية الصهيونية موقف الولايات المتحدة الامريكية من قضية فلسطين، فأمريكا الماسونية البروتستانتية مستعدة لتقديم كل ماتملك لأمن إسرائيل، حتى لو أدى ذلك إلى دخول حرب نووية، (المدقق).

2ـ كما يمكن التاريخ أن يصنع الأساطير، يمكن الأساطير أن تصنع التاريخ، أسطورة امتلاك العراق لأسلحة نووية أدت إلى صنع تاريخ جديد للمنطقة، المترجم.

3ـ «الكابانارين» (Carbonari) أعضاء جمعية سرية في أوائل القرن التاسع عشر في إيطاليا هدفها تأسيس حكومة جمهورية تحرّرية موحّدة، المترجم.

4- توحيد إيطاليا بمقابل تحجيم الكنيسة الكاثوليكية وجعلها سلفة دينية شكلية محصورة في الفاتيكان، وهدف الماسونية البروتستانتية أولاً تحطيم الكاثوليكية تحطيماً كاملاً، وهذا ماجرى فعلاً، (المدقق).

5ـ بوشكين، ألكسَندر (1799م-1837م) شاعر وروائي وكاتب مسرحي روسي، يُعدّ أبا الأدب الروسي الحديث، المترجم.

مؤامرة الديسمبريين[1] عام 1825م إلى حظر كل المحافل في البلاد، لا حاجة إلى القول إن ذلك الحظر لم يُثبت أنه كان إلزامياً، لكنّه دفع الكثير من الراديكاليين الروس إلى المنفى، حيث أصبحوا مرتبطين بشدة بالماسونية الأجنبية، يدوّن دوستيفسكي[2] هذه العملية في كتاب «The Possessed»، المكافئ «الواقعي» للثوريين الذين يتحدث عنهم دوستيفسكي هو باكونين[3] طبعاً.

على أي حال نجد في النهاية أن حقيقة الوضع هي أكثر تعقيداً وأقل وضوحاً من أن يجري تحديدها، إن كان الماسونيون نشيطين في الحركات الثورية في القرن التاسع عشر في أوروبا، فهم كانوا على السواء نشيطين في أنظمة أخرى كنظام مَترنيخ[4] في النمسا مثلاً، أو فريدريك ويليم الثالث والرّابع في بروسيا، هنا كانت الماسونية متشابكة مع المؤسسة الرسمية، كما كانت في بريطانيا، حيث المحفل الكبير واصل تمثيل المزايا الفيكتورية في الرزانة والاعتدال، حتى في فرنسا كان هناك الكثير من الماسونيين المحافظين مثلما كان منهم من الراديكاليين والثوريين.

قائمة ماسونيي القرن التاسع عشر الأوروبيين ببساطة تتسم بافتقارها إلى الاتساق[5]، فهي من ناحية تضم شخصيات مثل ماتزيني وغاريبالدي وباكونين وألكساندر كيرينسكي[6] الشاب في روسيا ودانيال اوكونيل وهنري غراتان في إيرلندا، من الناحية الأخرى تضم أيضاً ملكين من بروسيا في القرن التاسع عشر وثلاثة رؤساء فرنسيين، داومر وفور وغامبيتا، والخصم الرهيب للاضطرابات السياسية تاليران[7]، في بريطانيا تضمّنت قائمة الماسونيين في القرن التاسع عشر كلاً من جورج الرّابع، وليام الرّابع،

1ـ الديسمبري (Decembrist) أحد المشتركين في المؤامرة التي حاكها الضباط الروس في محاولة غير ناجحة للإطاحة بالقيصر نيقولاس الأول ملك روسيا في ديسمبر/كانون الأول عام 1825م، المترجم.

2ـ روائي روسي من مؤلفاته كتاب «الجريمة والعقاب» عام 1866م، المترجم.

3ـ (Bakunin) ثوري روسي المولد من عائلة أرستوقراطية، أرسل إلى المنفى في سايبيريا عام 1857م، لكنه هرب إلى انجلترا عام 1861م، حيث أصبح الثوري الأبرز في أوروبا، اسم الكامل باكونين ميخائيل الكساندرو فيتش، المترجم.

4ـ مَترنيخ، الأمير كليمنس فون (1773م-1859م) سياسي نمساوي، مستشار النمسا (1809م-1848م)، قاوم الحركات التحررية، المترجم.

5ـ أي سنلاحظ في الفقرة التالية عدم الاتساق بين الأعضاء الماسونيين في قائمة القرن التاسع عشر، أي سنلاحظ هناك مؤيدين ماسونيين لقضية ما وفي الوقت نفسه معارضين ماسونيين للقضية نفسها، المترجم.

6ـ كيرينسكي، ألكسَنْدر (1881م ـ 1970م) سياسي روسي، رئيس الحكومة الروسية المؤقتة من/آب يوليو إلى أكتوبر تشرين الثاني عام 1917م، أطاحت به ثورة أكتوبر الاشتراكية، المترجم.

7ـ تاليران بيريغور، شارل موريس دو (1754م-1838م) سياسي وأسقف فرنسي، تولى وزارة الخارجية فترة طويلة، المترجم.

إدوارد أمير ويلز الذي أصبح يُعرف بعد ذلك بإدوارد السّابع، كـانـنغ[1]، اللّـورد رانـدولف تـشرشل، مركيـز سالزبيري وسيسيل رودز، أغلب مارشالات نابليون كانوا من الماسونيين، وكذلك كان خصومهم الأبرز أيضاً، ولينغتون، نيلسن، والسّير جون مور في بريطانيا، وكيوتـوزوف في روسـيا، وبلوتـشر في بروسـيا، إضـافة إلى سكارنهورست ونيزينـو مؤسـسي الأركـان العامـة البروسـية، في مجـال الفنـون تـضمّنت قائمـة الماسـونيين البريطانيين كلاً من السّير والتر سكوت، رايدر هاغارد، بولـور ليتـون، كونـان دوْيـل، ترولّـوب[2]، كِبْلنـغ[3]، وأخيراً وايلد في أوروبا ماسونية بوشكين المتطرفة في روسيا كانت معادلة لتلك التي كانـت في ألمانيـا لـدى المحافظ الرئيس جوهان فلفغانغ جون غوته.

هذه القائمة انتقائية على نحو ضروري، وهي ليـست نهائيـة إطلاقـاً، عـلى أي حـال هـي تخـدم في تصوير استحالة نَسْب أيّ توجّه سياسي أو حتى اتساق سياسي للماسونية، وما ينطبق في أوروبا ينطبق في الأمـاكن الأخـرى أيـضاً، في أمريكـا اللاتينيـة عـلى سـبيل المثـال، وكـذلك في إسـبانيا وإيطاليـا والبلـدان الكاثوليكيـة الأخـرى، أظهـرت الماسـونية بـؤرة المعارضـة للـشدة الخانقـة للكنيـسة، في النتيجـة أغلـب الشخصيات التي ارتبطت بالاستقلال الأمريكي اللاتيني مثل بوليفار وسان مارتن[4] ولاحقا خواريز[5] كـانوا من النشطاء الماسونيين، ولكنهم انتزعوا جمهورياتهم الجديدة التي كانت على نمط الولايات المتحـدة مـن أشخاص كانوا ماسونيين أيضاً مثل نـواب الملـك والأرسـتقراطيين والإقطـاعيين الإسـبان، في البرازيـل كانـت امبراطورية بيدرو الثّاني تسيطر عليها الماسونية، ولكنها كانت تسيطر على النظام الجمهـوري الـذي اقتلـع تلك الامبراطورية أيضاً.

شمالاً على الأقل مجموعة من الرؤساء الأمريكيين عدا واشنطن معروف أنهم كـانوا ماسونيين، مونرو، أندرو جاكسن، جيمس نوكس بوك، بيوكانان، أندرو جونسن، غارفيلـد، ثيودور روزفيلت، تافت، هاردينغ، فرانكلين روزفيلـت، ترومـان، وفـورد، حـرب اسـتقلال تكساس عن المكسيك وجّهها عملياً ماسونيون مثل سام هيوسـتن، ديفيـد كروكـت، جـيم باوي، وغيرهم من المدافعين الآخرين عن ألامو[6]، كانوا جميعاً أعضاء من المحفل نفـسه،

1ـ كانغ، جورج (1770م ـ 1827م) سياسي بريطاني، رئيس الـوزراء (عـام 1827م)، نـاصر قـضية الاسـتقلال في اليونـان وأميركـا اللاتينية، المترجم.

2ـ ترولوب، أنطوني (1815م-1882م) روائي إنكليزي، صوَّر الحياة الإكليركية والمجتمع الريفي، المترجم.

3ـ كِبْلنغ، رُدْيارد (1865م-1936م) شاعر وروائي انكليزي، عُرف بتمجيده للاستعمار البريطاني، المترجم.

4ـ خوسيه دي سان مارتين، (1778م-1850م) جنرال وسياسي أرجنتيني، ناضل من أجل استقلال بلاده، المترجم.

5ـ خواريز، بنيتو بابلو (1806م-1872م) سياسي مكسيكي، يُعد بطـل المكـسيك القـومي، تـولى رئاسـة الجمهوريـة غـير مـرة، المترجم.

6ـ ألامو (the Alamo) مصلى بُني في كنيسة سان انطونيو في تكـساس عـام 1744م، حاصرتـه القـوات المكـسيكية عـام 1836م، وجرى قتل كلّ المدافعين عن من تكساس والبالغ عددهم 182، المترجم.

محفل «الالتزام الصارم»، في أثناء الحرب الأهلية الأمريكية كانت الماسونية سائدة في كلا الطرفين، لكنها أدت دوراً هاماً جداً في مؤسسات الاتحاد[1] وخصوصاً الجيش، على أي حال ذلك كله يُعدّ قصّة أخرى، وكذلك جمعيّة الكوكلوكس[2] ذات الأصول الماسونية أيضاً التي لم تكن في البداية منظمة مخربة، كما أصبحت لاحقاً، بل كانت مؤسسة خيرية صُمّمت لحماية الأرامل والأيتام من نهب ذي الخُرْج[3].

في أمريكا تعود قصّتنا إلى بدايتها، حيث حظي فرسان الهيكل بالبيعة العامّة الكبيرة على درجة لم تحدث في أي مكان آخر من العالم، تلك البيعة كانت على نموذج منظمة شبابية تبنّتها الماسونية، حملت اسم «نظام دي مولاي»، نظام دي مولاي أُسّس في مدينة كانساس في ميسسوري عام 1919م، وأسسه شخص يدعى فرانك إس. لاند:

... واشتق اسمه من جاك دي مولاي السيد الأعظم الأخير لفرسان الهيكل في القرون الوسطى الذي أُحرق على الخازوق في الجزيرة على نهر السين قرب كاتدرائية نوتردام في 18 مارس/آذار عام 1314م بسبب نزاهته ووفائه لأعضاء نظامه[4].

نظام دي مولاي يمتلك نحو خمسة وثمانين فرعاً في كل الولايات المتّحدة الخمسين، في مقاطعة كولومبيا وفي اثنتي عشر أمة في الخارج، من مقره في مدينة كانساس، يحكمه المجلس الدولي الأعلى الذي يعمل برعاية محفل فلوريدا الكبير، ويتكوّن من 250 عضواً من الماسونيين البارزين من كل أنحاء العالم، كلّ فرع محليّ يجب أن تتبنّاه هيئة ماسونية، والهيئة الحاكمة أو المجلس الاستشاري لكلّ فرع يجب أن يضم زعماء ماسونيين، العضوية ذاتها في النظام يجب أن تكون لأطفال تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والحادية والعشرين.

نظام دي مولاي يعلّم سبع مزايا في أثناء العضوية، وهي الحبّ البَنَوِيّ (حبّ الوالدين)، الوقار (توقير الأشياء المقدّسة)، اللطف، الصداقة، الإخلاص، النظافة (نظافة الفكر والكلمة والعمل)، والوطنية.

1ـ الاتحاد هنا يُقصد به اتحاد الولايات الجنوبية الـ11 التي انفصلت عن الولايات المتّحدة عام 1861م، ما أدى إلى اندلاع الحرب الأهلية، الولايات التي انفصلت هي ألاباما، آركانساس، فلوريدا، جورجيا، لويزيانا، ميسيسيبي، كارولاينا الشّمالية، كارولينا الجنوبية، تينيسي، تكساس، وفرجينيا، المترجم.

2ـ جمعيّة الكوكلوكس (Ku Klux Klan) جمعيّة سرية أميركيّة نشأت بعد الحرب الأهلية لترسيخ سيطرة البيض على الزنوج،وهي متطرفة جداً تعاونت مع الصرب عملياً في القتال ضد المسلمين في البوسنة، ولها ارتباطات عنصرية مع اليهودية المتطرفة، ولديها معسكرات تدريب في الولايات المتحدة الامريكية وعناصرها مسلحون،(المدقق).

3ـ ذو الخُرْج أحد أبناء الشمال الأميركي الذين ذهبوا إلى الولايات الجنوبية، وليس معهم غير ما حملوه في أخراجهم التماساً للربح الشخصيّ عقب الحرب الأهلية الأميركية، المترجم.

4ـ ورد هذا النص في كتاب «المجموعات والشعائر الموالية للماسونية»، المؤلفان.

لا يسع المرء إلا أن يتساءل عمّا يتعلمه الصبية عن جاك دي مولاي ذاته، وعن فرسان الهيكل وعن التجاوزات المعيّنة التي اتّهموا بها، وفق علمنا ليس هناك أي ذكر لذلك في الأعمال الأدبية لهذا التنظيم، على أي حال ذلك الأدب يجتهد لتوسيع أهداف النظام، ولو بعبارات نحوية ناقصة:

نظام دي مولاي يحاول تحسين تعاليم المنزل والكنيسة والمدرسة، وبذلك يجعل الشاب ينسجم على نحو أفضل مع واجباته الوطنية التي هي تراثه الشرعي، نظام دي مولاي يعارض على نحو راسخ وجود الكنيسة والمدرسة والحكومة المدنية تحت سقف واحد، هذا النظام يشعر بأنّ هذه الحريات الثلاث هي سبب عظمة بلادنا، ويجب أن تكون في مؤسساتها الخاصة بها، وتحت أسقف منفصلة.

وفق علمنا ليس هناك أي شيء يجعلنا نشعر بأن نظام دي مولاي هو نظام ضار، على العكس هو يؤدي عملاً كافياً جديراً بالاحترام، ومن الممكن أنه يقدم علاجاً حكيماً نوعاً ما لبعض الأمراض التي تُعدّ أمريكا نزّاعة إليها، كالأصوليّة النضالية، لكنّه بعيد كل البعد عن المحاربين الصوفيين ذوي الأردية البيضاء الذين أرادوا اقتحام السماء بسيوفهم قبل سبعمئة سنة، وربما هناك بعض من جودة غارسيا ماركيس[1] في الوجود ذاته لهذه المنظمة، صادر من أعماق «أمريكا الوسطى»، مكرّس لتعزيز المزايا الشخصية والمدنية للأجيال الأمريكية الشابة، مع أنه مُسمّى على اسم فارس فرنسي من القرون الوسطى، أُعدم لكفره وبدعته وشذوذه الجنسي واستحضاره للأرواح ومزيج من الأنماط الأخرى من الأفعال التي تستحيي منها الشخصيات التي وردت في روايات مثل «ايوينغز أوف دالاس» و«كارينغتونز أوف دانفر»، وكلّ المقيمين المفسدين في «Peyton Place»[2]، قد يتشجع المرء ليتخيل أن السيد الأعظم لفرسان الهيكل ذاك الرجل المسن الملتحي يحدّق بنفسه إلى الأسفل، أو الأعلى ليرى منظمة تحمل اسمه اليوم، هل سيتأثر؟، أم سيشبع غروره، أم سيسلّي، أم إنه ببساطة سيصاب بالحيرة والارتباك؟.

1ـ كاتب كولومبي، في روايات مثل «مئة عام من العزلة» (1967م) و«الحبّ في زمن الكوليرا» (1985م)، طوّر أسلوباً متميّزاً من الخيال الممتزج بالواقعية، حصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1982م، المترجم.

2 ـ لإدراك معنى العبارة الأخيرة سأذكر تعليقاً عن حالة واحدة فقط، وهي فيلم «Peyton Place» هو فيلم عن رواية شعبية تتحدث عن الحياة خلف الأبواب المغلقة في بلدة محترمة في نيو انجلاند، المدرس الجديد ميشيل روسي جاء إلى هذا المكان مليئاً بالأفكار المجدّدة الرائعة، أحب فتاة تدّعى ماكينزي ويفاجأ عندما ترفض تحرشه الغرامي بها، نتيجة للإهانة أراد الانتقام بانتقاد معاملة ماكينزي لابنتها أليسون، من بين المشكلات الأخرى في هذه البلدة المليئة بالفضائح هناك الاغتصاب والقتل وشهوانية المراهقين، هذا الفيلم رُشّح لتسع جوائز أكاديمية، ومع ذلك لم يحظ بأي منها، إذاً يقصد المؤلفان أن التهم التي كانت موجهة إلى جاك دي مولاي والفرسان قد يخجل منها أبطال هذه الرواية مع ممارستهم لأسوأ ما يمكن تصوره من أعمال دنيئة، المترجم.

الملحق 1

المحافـــل الماســـونية الميدانيـــة في الكتائـــب الخـــطّ بـــإمرة اللـــواء اميرســـت: أمريكـــا عام 1758م

الفوج	رقم المحفل وتبعيته
المشاة الأول	**المحفل الإيرلندي الكبير** 11
المشاة الخامس عشر	**المحفل الإيرلندي الكبير** 245
المشاة السابع عشر	**المحفل الإيرلندي الكبير** 136
المشاة الاثنان والعشرون	**ليس هناك محفل (لاحقاً، أي في عام** 1767**م، أُسس المحفل** 132 **المحفل الاسكتلندي الكبير)**
المشاة السابع والعشرون	**المحفل الإيرلندي الكبير** 24
المشاة الثامن والعشرون	**المحفل الإيرلندي الكبير** 35 **(الكابتن شْبان أصبح في تشرين الثّاني عام** 1760**م السيد الأعظم لكيوبك)**
المشاة الخامس والثلاثون	205**، المحفل الإيرلندي الكبير**
المشاة الأربعون	42**، المحفل الكبير القديم**
المشاة الاثنان والأربعون	195**، المحفل الإيرلندي الكبير**
المشاة الثالث والأربعون	**لـيس هنـاك محفـل (لاحقـاً، في عـام** 1769**م أُسـس المحفل** 156**، المحفل الاسكتلندي الكبير)**
المشاة الرابع والأربعون	**لـيس هنـاك محفـل (لاحقـاً، في عـام** 1784**م أُسـس المحفل** 467**، المحفل الانكليزي الكبير)**
المشاة الخامس والأربعون	**لـيس هنـاك محفـل (لاحقـاً، في عـام** 1766**م أُسـس المحفل** 445**، المحفل الإيرلندي الكبير)**

المشاة السادس والأربعون	المحفل الإيرلندي الكبير 227
المشاة السابع والأربعون	المحفـل الإيرلنـدي الكبـير 192 (عـام 1759م أصـبح الملازم الأول غينِت السيد الأعظم لكوبك)
المشاة الثامن والأربعون	المحفل الإيرلندي الكبير 218
المشاة الخامس والخمسون	المحفل العسكري الاسـكتلندي الأول، لم يُـسجّل أي رقم
المشاة الثامن والخمسون	لـيس هنـاك محفـل (لاحقـاً، في عـام 1769م أُسـس المحفل 466، المحفل الإيرلندي الكبير)
المشاة الستون	لـيس هنـاك محفـل (لاحقـاً، في عـام 1764م أُسـس المحفل 448، المحفل الانكليزي الكبير)
فريـزر هايلانـدرز (لاحقـاً أصـبح المـشاة الثـامن والسبعين)	رقم المحفل يعدّ مجهولاً، ولكـن الكولونيـل فريـزر في يوليو/تموز عام 1760م عُيّن سيداً أعظم لكوبك.

الملحق 2

المحافل الماسونية الميدانية في الأفواج الأمريكية بين عامي 1775م ـ 1777م (عدا كندا)

في القيادة كان السّير وليام هاو الذي ضم أحد موظّفيه الأميرال أوغسطين بريفوست الذي كان نحو عام 1761م رئيس «المذهب الاسكتلندي القديم المقبول» في الجيش البريطاني.

الفوج	القائد	المحفل
سلاح الفرسان السادس عشر	الكولونيل جون بورغون	لا شيء
سلاح الفرسان السابع عشر	الكولونيل جون بريستُن	المحفل الإيرلندي الكبير 478
المشاة الرابع	الكولونيل إس. هودجسُن	المحفل الاسكتلندي الكبير 147
المشاة الخامس	الكولونيل إيرل بيرسي	المحفل الإيرلندي الكبير 86
المشاة السابع	الكولونيل آر. بريسكوت	المحفل الإيرلندي الكبير 231
المشاة العاشر	الكولونيل إي. ساند فورد	المحفل الإيرلندي الكبير 299 المحفل الإيرلندي الكبير 378
المشاة الخامس عشر	الكولونيل إيرل كافان	المحفل الإيرلندي الكبير 245
المشاة السادس عشر	الكولونيل جي. جِسبورن	المحفل الإيرلندي الكبير 293
المشاة السابع عشر	الكولونيل آر. مونكتون	المحفل الإيرلندي الكبير 136
المشاة الثاني والعشرون	الكولونيل تي. غيج	المحفل الإيرلندي 251 الكبير
المشاة الثالث والعشرون	الكولونيل السّير وليام هاو	المحفل الاسكتلندي الكبير 137
المشاة السادس والعشرون	الكولونيل اللّورد جوردن	309، المحفل الإيرلندي الكبير

المشاة السابع والعشرون	الكولونيل إي. ماسي	المحفل الإيرلندي الكبير 205
المشاة الثامن والعشرون	الكولونيل سي. غريه	المحفل الإيرلندي الكبير 35
المشاة الثالث والثلاثون	الكولونيل إيرل كورنوالِس	المحفل الكبير القديم 90
المشاة الخامس والثلاثون	الكولونيل ف. كامبيل	لا شيء
المشاة السابع والثلاثون	الكولونيل السّير إي. كوت	المحفل الكبير القديم 52
المشاة الثامن والثلاثون	الكولونيل آر. بيغت	المحفل الإيرلندي الكبير 441
المشاة الأربعون	الكولونيل آر. هاملتن	المحفل الكبير القديم 42
المشاة الثاني والأربعون	الكولونيل اللّورد جي. موراي	المحفل الإيرلندي الكبير 195
المشاة الثالث والأربعون	الكولونيل جي. كاري	المحفل الاسكتلندي الكبير 156
المشاة الرابع والأربعون	الكولونيل جي. أبيركرومبي	إقليم. جي. محفل كيوبك[1] 14
المشاة الخامس والأربعون	الكولونيل دبليو. هافيلَند	المحفل الأيرلندي الكبير 445
المشاة السادس والأربعون	الكولونيل جي. فون	المحفل الإيرلندي الكبير 227
المشاة التاسع والأربعون	الكولونيل أي. ميتلَند	المحفل الإيرلندي الكبير 354
المشاة الثاني والخمسون	الكولونيل جي. كلافيرينغ	المحفل الإيرلندي الكبير 370 المحفل الإنكليزي الكبير 226
المشاة الرابع والخمسون	الكولونيل إم. فريدريك	لا شيء
المشاة الخامس والخمسون	الكولونيل جي. غرانت	المحفل الكبير في نيويورك 7

1ـ فوج المشاة الرابع والأربعون: أُسّس المحفل عام 1760م في كوبك، وأُعيد تأسيسه باسم «المحفل 18» في عام 1784م، وضعه في الفترة 1775م ـ 1777م مجهولة، المؤلفان.

المشاة السابع والخمسون	الكولونيل السّير جي. إروين	المحفل الكبير القديم 41
المشاة الستون (الكتيبة الثالثة)	الكولونيل دالينغ	لا يوجد
المشاة الستون (الكتيبة الرابعة)	الكولونيل أي. بريفوست	لا شيء معروف، ولكن ربما تابع لمحفل «المذهب الاسكتلندي القديم المقبول»[1]
المشاة الثالث والستون	الكولونيل اف. غرانت	المحفل الإيرلندي الكبير 512
المشاة الرابع والستون	الكولونيل جي. بوميروي	المحفل الاسكتلندي الكبير 106
المشاة الحادي والسبعون	الكولونيل إس. فريزر	المحفل الاسكتلندي الكبير 92

1ـ فوج المشاة الستّون في الكتيبة الأولى، أسس المحفل ذا الرقم 448، تابع للمحفل الانكليزي الكبير، المؤلفان.